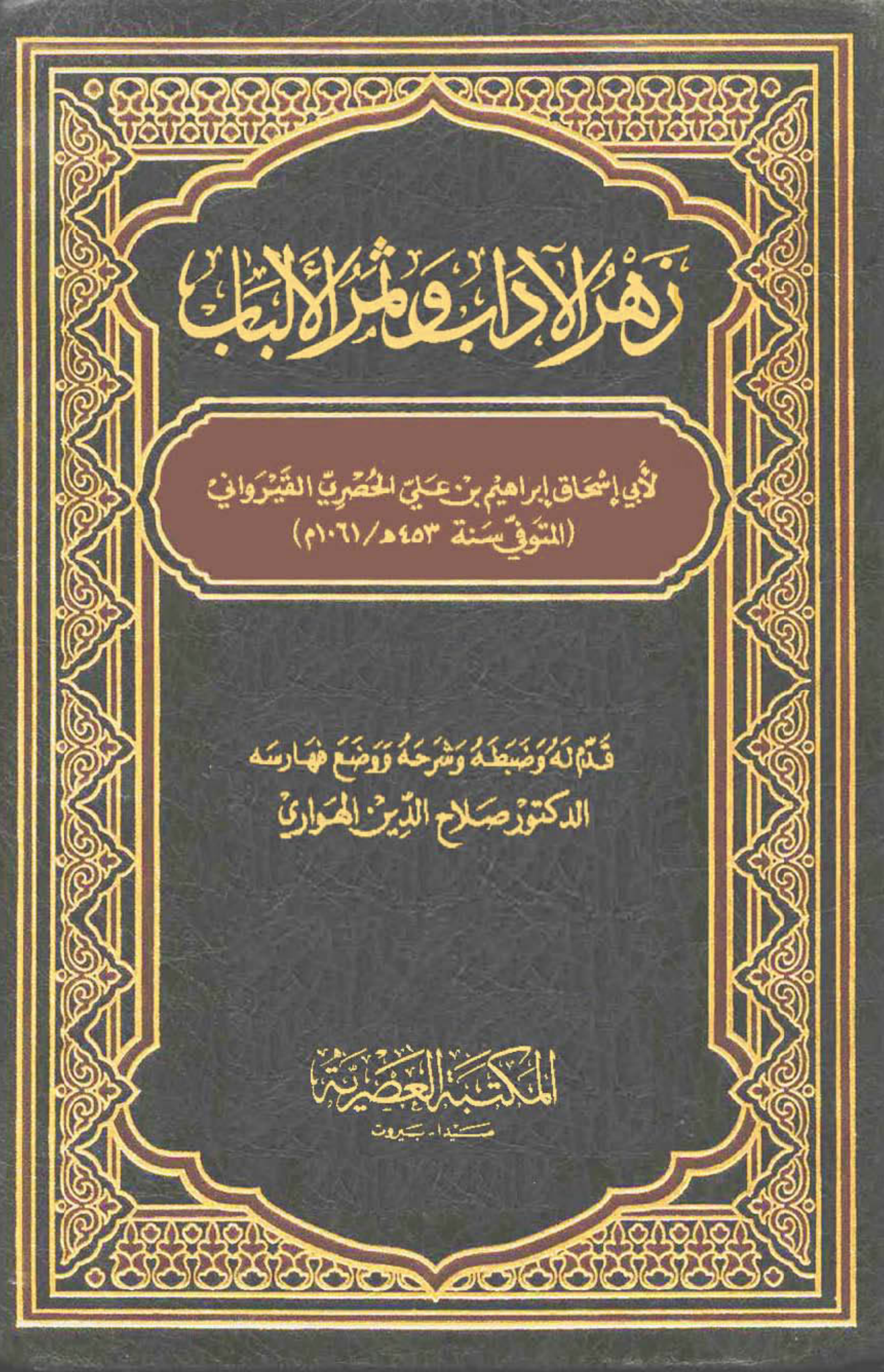


زهر الآداب وثمر الألباب
لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
(المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م)
قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه
الدكتور صلاح الدين الهواري
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

زهر الآداب وثمر الألباب

لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
(المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م)

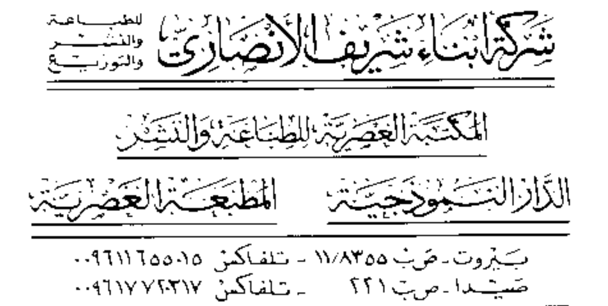
قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه
الدكتور صلاح الدين الهواري

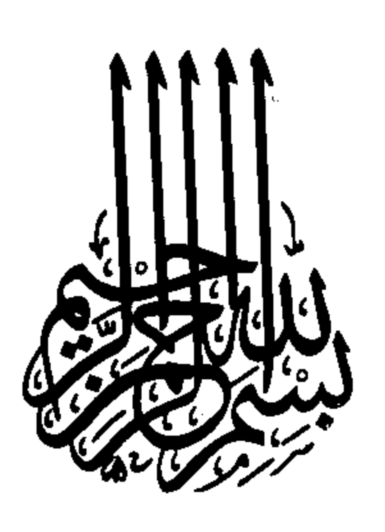
المجلد الأول



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - 2001 م







بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

حديقة أريجة، وسفر أدبي بديع، ذلك هو «**زهر الآداب وثمر الألباب**» الكتاب الذي قلّ نظيره في أدبنا العربي، بما اشتمل عليه من عجائب وفرائد، وغرائب ونوادر، وأزهار وأطايب، ملأ عطرها فضاء القيروان، وفاح لِيَعُمَّ الأقطار والبلدان.

صنَّفه أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م، وأهداه ـ على عادة أهل زمانه[١] ـ لأبي الفضل العباس بن سليمان، ليستغني به، ويكفّ عن طلب سواه.

ولم يخرج الحصري في تأليف كتابه عن الخطة التي كان يتبعها سابقوه من الكُتَّاب، أو معاصروه، كالجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٧٠ م) في «البيان والتبيين» و«الحيوان»، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/ ٨٩٠ م) في «عيون الأخبار»، وابن عبد ربّه (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م) في «العقد الفريد»، وابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م) في «العمدة». فهو مثال للكاتب باللغة العربية الذي كان يجمع الكثير من العلوم والفنون والآداب في مصنف واحد.

ولعل أبرز ما وُصِفَ به «زهر الآداب» أنه كتاب جمع كُلَّ غريبة[٢]. ولا شك أنَّ قارئه سيجده زاخراً بموضوعات شتّى، ففيه الوصف، والمديح، والهجاء، والرثاء، والنسيب،

---

(١) كان ابن رشيق القيرواني قد أهدى كتاب «العمدة» لأبي الحسن علي بن أبي الرجال رئيس ديوان الإنشاء في قصر المعز بن باديس بالقيروان، وأهدى ابن حزم الأندلسي كتاب «طوق الحمامة» لأحد أصدقائه المتأدبين. وكان الجاحظ من قبل قد أهدى كتاب «الحيوان» للوزير ابن الزيات، وكتاب «البيان والتبيين» للقاضي أحمد بن أبي دؤاد، وغيرهم كثير.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٥٤.

وفيه الحكم، والتراجم، والرسائل، والنكت، والنوادر، والأخبار. وفيه اهتمام خاص بأخبار الصحابة والتابعين وآثارهم، وتركيز على أنباء المصيبة بأبناء النبوّة[١]، يدفعه إلى ذلك تديّنه، وتشيّعه لآل البيت.

ومن موضوعات الكتاب الأساسية أيضاً الحديث عن البلاغة والبلغاء، والآداب الاجتماعية في السلوك الفردي والجماعي، ومخاطبة الملوك، وما يتصل بالحقوق والواجبات المرعية في أيامه.

أما مصادر الكتاب، فقد أشار إليها الحصري في مقدمته فقال: وألفت له (أي أبو الفضل العباس بن سليمان) هذا الكتاب ليستغني به عن جميع كتب الآداب، إذ كان موشحاً ـ منتقًى ـ من:

ـ بدائع البديع (بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٨ م).

ـ لآلي الميكالي (الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي النيسابوري المتوفى سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٥ م).

ـ شهيّ الخُوارزمي (أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م).

ـ غرائب الصاحب (الصاحب بن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م).

ـ نفيس قابوس (شمس المعالي قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٣ م).

ـ شذور أبي منصور (أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م).

بكلامٍ يمتزج بأجزاء النفس لطافةً، وبالهواء رقةً، وبالماء عذوبةً[٢].

وقد تحدّث الحصري عن منهجه في «زهر الآداب» فقال: «ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطولات الأخبار، كأحاديث صعصعة بن صوحان، وخالد بن صفوان، ونظائرهما؛ إذ كانت هذه (يريد الفقر القصيرة) أجمل لفظاً، وأسهل حفظاً. وهو كتاب

(١) من ذلك قوله في أحدهم: «قد نعي سليل من سلالة النبوة، وفرع من شجرة الرسالة، وعضو من أعضاء الرسول، وجزء من أجزاء الوَصيّ البتول. (الحصري، زهر الآداب: ١/ ٩٩).

(٢) الحصري، زهر الآداب: ١/ ٣٥.

يتصرّف فيه الناظر من نثره إلى شعره، ومطبوعه إلى مصنوعه، ومحاورته إلى مفاخرته، ومناقلته إلى مساجلته، وخطابه المُبْهِت إلى جوابه المُسْكِت، وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة، وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجدّه المُعْجِب إلى هَزْلِهِ المُطْرِب، وَجَزْلِهِ الرائع إلى رقيقه البارع»[١].

ويدافع أبو إسحاق عن منهجه هذا كما فعل الجاحظ من قبل[٢]، فيقول: «وقد يَعِزُّ المعنى، فأُلحق الشكل بنظائره، وأعلق الأول بآخره، وتبقى منه بقية أفرقها في سائره، ليسلم من التطويل المُمِلّ، والتقصير المُخِلّ، وتظهر في التجميع إفادة الاجتماع، وفي التفريق لذاذة الإمتاع؛ فيكمل منه ما يُونِقُ القلوب والأسماع، إذ كان الخروج من جدٍّ إلى هزل، ومن حَزْنٍ إلى سَهْل أنفى لِلْكَلَل، وأبعد من الملل»[٣].

ويمكننا أن نحصر ما تميَّز به أسلوب الكاتب ومنهجه في «زهر الآداب» بالنقاط التالية:

ـ براعته في تحبير مطلع الكتاب وخاتمته، فقد بدأ كتابه بقوله: «الحمد لله الذي اختص الإنسان بفضيلة البيان، وصلّى الله على محمَّد خاتم النبيين، المرسل بالنور المبين، والكتاب المستبين، الذي تحدّى الخلق أن يأتوا بمثله، فعجزوا عنه، وأقرّوا بفضله، وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً»[٤].

وختمه بقوله: «وقال ابن الأعرابي: أمدح بيت قاله المحدثون قول أبي نواس:

أَخَـذْتُ بِحَبْـلٍ مِـنْ حِبَـالِ مُحمَّـدٍ ... أَمِنْـتُ بِـهِ مِـنْ طَـارِقِ الحِـدْثـانِ[٥]»

وهذا من أجمل وأجلّ ما سطَّره المصنفون في مطالع كتبهم وخواتيمها في ذلك العصر.

ـ اعتماده الذوق الشخصي في اختيار النصوص، وقد أشار الحصري إلى ذلك في مقدمة كتابه فقال[٦]: «وبعد فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كاملةً من البلاغات، في الشعر

---

(١) الحصري، زهر الآداب: ١/ ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) انظر كتاب الحيوان للجاحظ: ١/ ٣ ـ ١٦، ففيه ردٌّ مفصَّلٌ على من انتقد كتابه، ودفاع عن منهجه في تأليفه.
(٣) الحصري، زهر الآداب: ١/ ٣٤ ـ ٣٥.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٣٣.
(٥) المصدر نفسه: ٤/ ١١٦٠.
(٦) المصدر نفسه: ١/ ٣٣.

والخبر، والفصول والفقر، مما حَسُنَ لفظه ومعناه، واستدل بفحواه على مغزاه، ولم يكن شارداً حوشياً، ولا ساقطاً سوقياً».

وقد حرص الكاتب على تطبيق هذا المنهج في الاختيار في معظم كتابه، ولم يخرج عن إطار ذوقه الشخصي إلاَّ في حالاتٍ نادرة.

- وَلَعُهُ بالاستطراد في الموضوع الواحد بما يناسبه من تراجم ونوادر وأشعار وأقوال.

- ميله في الغالب إلى انتقاء القصير من النصوص الأدبية شعراً كانت أو نثراً «إذ كانت هذه أجمل لفظاً، وأسهل حفظاً»[1].

- حرصه على التنويع في النصوص، مما يزود القارىء بصورٍ متعددة لمواقف أو عواطف متشابهة.

- إذا اضطر إلى اختيار نصوص طويلة، فإنه كان يعمد إلى اختصارها بطريقة لا يضيع معها من المعنى الأصلي شيء، لأنه كان يأخذ منها فقرات كاملة متصلة المعنى، ويترك ما زاد عن حاجته منها.

- اتخاذه جانب الحيطة والحذر في إصدار الأحكام، وإبداء الآراء، وإذا ما أصدر حكماً، أو أبدى رأيًا، فإنه كان يستخدم أقصر العبارات، وأكثرها إيجازاً، فيكتفي فيها بالكلمة الواحدة، أو بالكلمتين، مثل «ويستحسن»، «ومن جيد»، «ومن أفضل»، وغيرها. ولا ضير في ذلك ما دام قد قبل ما اختاره عقلاً وذوقاً وحسًّا قبل اختياره.

- لَعَلَّهُ كان يدرك أن الخصومة الأدبية التي كانت شائعةً بين الأدباء في عصره[2]، قد تجرُّ عليه بعض النقد والتجريح[3] لميله في كتابه إلى الجمع والنقل والاختيار أكثر من ميله إلى التجديد والابتكار، لذلك رأيناه يعطي لنفسه العذر، فَيُضمِّن مقدمته اعترافاً صريحاً بما

---

(١) الحصري، زهر الآداب: ١/ ٣٤.

(٢) من أهم الخصومات التي وقعت بين كتاب ذلك العصر خصومة الهمذاني (ت ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٨ م) والخوارزمي (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م)، وخصومة التوحيدي (ت نحو ٤٠٠ هـ/ نحو ١٠١٠ م) والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م)، وخصومة ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م) وابن شرف (ت ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م).

(٣) من أمثلة النقد والتجريح ما تعرض له ابن رشيق القيرواني في كتابه «العمدة في محاسن الشعر»، مما اضطره للردّ على منتقديه ردًّا عنيفاً مفحماً (انظر العمدة: ٢/ ٢٣٩).

صنعه في كتابه ـ وإن كان جليلاً ـ فيقول[1]: «وليس لي في تأليفه من الافتخار، أكثر من حسن الاختيار؛ واختيار المرء قطعة من عقله، تدلُّ على تخلُّفه أو فضله... إذ كان معلوماً أنه ما انجذبت نفس، ولا اجتمع حسٌّ، ولا مال سرٌّ، ولا جال فكر، في أفضل من معنى لطيف، ظهر في لفظٍ شريف».

ـ اعتداله في فهم البلاغة، وعنايته بعرض الكثير من آراء علماء البلاغة، أو البلغاء، مثل الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م)، وابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ/ ٩٠٩ م)، وعمرو بن عبيد (ت ١٤٤ هـ/ ٧٦٢ م)، وابن المقفع (ت ١٤٢ هـ/ ٧٥٧ م)، والروماني (ت ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م)، وغيرهم.

ـ حرصه على نسبة النصوص والأقوال التي اختارها إلى أصحابها، وأحياناً إلى المصادر التي استقاها منها بدقة وأمانة قلَّ نظيرهما في كتب غيره.

ـ موازنته بين شاعرين أو أكثر في معنى من المعاني، كموازنته بين البحتري (ت ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) وأبي تمام (ت ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م)، وقد نقلها عن الحاتمي[2]، وموازنته بين العتابي (ت ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م) والعباس بن الأحنف (ت ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م)، وقد نقلها عن الصولي[3].

ـ ذكره لكثير من الآداب الاجتماعية التي كان الناس يحمدونها في عصره، وحفظه لحياة عصره الأدبية بما نقله من استعمالات معاصريه في شتى المواضيع الأدبية والاجتماعية، وغالباً ما كان يذكرها تحت عنوان «ألفاظ لأهل العصر».

ـ تحرُّجهُ من ذكر أخبار المُجّان والخلعاء وأشعارهم، صوناً للكتاب، والتزاماً بمنهج ديني وأخلاقي يكفُّه عن ذلك[4].

---

(١) الحصري، زهر الآداب: ١/ ٣٦: ويلاحظ أن الحصري اعتذر لكتابه «زهر الآداب» بمثل ما اعتذر به ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م) لكتابه «العقد الفريد»، فللأخير في المعنى نفسه ما نصُّه: «وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش في صدر كلّ كتاب، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعب من تأليفه، وقد قالوا: اختيار الرجل وافد عقله» (ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١/ ٢).

(٢) الحصري، زهر الآداب: ٣/ ٦٥٥ ـ ٦٦٢.

(٣) الحصري، زهر الآداب: ٤/ ١٠١٥.

(٤) علّق الدكتور زكي مبارك في تقديمه للكتاب على هذا التزمّت الأخلاقي عند الحصري فقال: «إن =

وظلَّ «زهر الآداب» تتداوله الأيدي، وتختزنه المكتبات، حتى قُدِّرَ له أن يظهر منشوراً على هامش «العقد الفريد» في بولاق سنة ١٣٠٢ هـ/ ١٨٩٥ م.

ثم طُبع نصفه مستقلاً في المطبعة الوهبية في القاهرة بدون تأريخ.

وقام الدكتور زكي مبارك بتفصيله وضبطه وشرحه ونشره بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م.

ثم نُشِر في القاهرة سنة ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٣ م، بتحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي.

وحققه، وزاد في تفصيله، وضبطه، وشرحه، الأستاذ محمد محيي الدّين عبد الحميد، وصدر عن دار الجيل ـ بيروت ـ للمرة الرابعة سنة ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب من الناحيتين الأدبية والتاريخية، ورغبةً منّا في خدمة تراثنا الأدبي ولغتنا المجيدة، نُخْرِجُ اليوم هذا الكتاب، ونقدمه للقرَّاء بحلَّةٍ جديدة، وإضافات مهمّة في الشرح والضبط والتوثيق والفهرسة.

ويقوم عملنا فيه وفقاً للخطة التالية:

ـ اعتماد نسخة الكتاب التي فصَّلها وشرحها الدكتور زكي مبارك، وحققها وزاد عليها محمّد محيي الدّين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت سنة ١٩٧٢ م.

ـ تصدير الكتاب بمقدمة تشتمل على حياة المؤلف أبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، وآثاره، وعصره، ومنهجه في تأليف الكتاب.

ـ شكل الألفاظ والعبارات الواردة بالحركات المناسبة، خاصة إذا لم تشكل في الأصل.

ـ ضبط أسماء الأعلام والأماكن، وإبعاد التصحيف والتحريف عنها.

ـ ضبط الآيات القرآنية وتوثيقها وفقاً لورودها في القرآن الكريم.

ـ التعريف بالأعلام الواردة في الكتاب ما أمكن، والإحالة إلى أهم المصادر التي ترجمت لهم.

= حرص الحصري على الأخلاق ضيّع علينا ما أعرض عنه من الآثار الأدبية، وكنّا في حاجةٍ إلى أن نعرف كلَّ ما ترك الأولون». (الحصري، زهر الآداب، مقدمة المحقق: ١/ ١٧).

ـ التعريف بالشعراء أصحاب الشواهد الشعرية ما أمكن، وردّ شواهدهم إلى مظانها ومصادرها، من دواوين وكتب أدبية.

ـ الحرص على تحري أصحّ الأقوال في نسبة المقطوعات الشعرية والنثرية والأخبار إلى أصحابها.

ـ التأكد من سلامة الشواهد الشعرية من الناحيتين الإملائية والعروضية.

ـ ضبط الأبيات الشعرية، وشرحها، وبيان أوزانها وبحورها.

ـ تخريج الأمثال العربية، وردّها إلى مصادرها في كتب الأمثال والأدب.

ـ شرح وتفسير ما غمض من مشكلات الكتاب وألفاظه وعباراته.

ـ تزويد الكتاب بمجموعة من الفهارس الفنية التي تُساعد القارىء، وتمكنه من الرجوع إلى موادّ الكتاب بسهولةٍ ويُسر.

وبعد، فهذا ما حاولناه في هذا الكتاب، وإن كنَّا قد قصَّرنا في بعض جوانبه، فالكمال لله وحده، وحسبنا أننا توخينا السداد، والله وليّ الهدى والتيسير.

٢٠ جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ/ ٣٠ آب ١٩٩٩ م

صلاح الدين الهواري

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

حياته:

هو أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن تميم الحُصْريّ[١]، الأنصاريّ[٢]، القيرواني[٣]: أديب، شاعر، ناقد. ولد في القيروان[٤]، ونشأ فيها في أواخر عهد الفاطميين بالمغرب. ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته الأولى، غير أنه تتلمذ على أعلام عصره في علوم الدين واللغة والأدب.

ولما انتقل الفاطميون إلى مصر، وأخذوا معهم كبار الأدباء والشعراء، خلت القيروان للحصري، فبرز كأديب كبير تتمحور الحياة الأدبية حوله، ويأخذ عنه الكثيرون، وفي ذلك يقول ابن رشيق القيرواني[٥] في كتابه «أنموذج الزمان في شعراء القيروان»[٦]: «كان شبّان القيروان يجتمعون عنده، ويأخذون عنه، ورأس عندهم، وشرف لديهم، وسارت تأليفاته، وانثالت عليه الصلات من الجهات».

---

(١) الحُصْريُّ (بضم الحاء وسكون الصاد): نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها، وقيل: نسبة إلى «الحصر»، وهي قرية قرب القيروان كان يصنع بها الحصر.

(٢) الزركلي، الأعلام: ١/ ٥٠.

(٣) القيرواني: نسبة إلى القيروان (بفتح القاف وسكون الياء وفتح الراء)، وهي مدينة كبيرة في المغرب العربي، بناها عقبة بن نافع الفهري. والقيروان لغةً: القافلة (فارسي معرب).

(٤) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٥/ ١٠٥.

(٥) هو أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني: شاعر، أديب، ناقد. ولد بالمسيلة بالمغرب، وأقام في القيروان فنسب إليها. توفي سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م. ومن آثاره: «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» و«أنموذج الزمان في شعراء القيروان» و«قراضة الذهب» وغيرها. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٨٥؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٨/ ١١٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٣/ ٢٩٧؛ الهواري، الشعر والشعراء في كتاب العمدة: ص ٢٧).

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٥٤.

وقد أثنى الذين ترجموا للحصري على شاعريته، وأوردوا له نتفاً من شعره، منها قوله[(١)]:

إنِّــي أُحبّــك حُبّــا لَيْــسَ يَبْلُغُــه فَهْــمٌ ولا ينتهــي وَصْفــي إلــى صِفَتِــهْ
أَقْصَــى نِهـايـةِ عِلْمــي فيــه مَعْـرِفتـي بِــالعَجْــزِ مِنّــي عَــنْ إدْرَاكِ مَعْــرِفَتِــهْ

وقوله[(٢)]:

أَوْرَدَ قَلْبــي الــرَّدَى لامُ عِــذَارٍ بَــدَا
أَسْــوَدُ كَــالكُفْــرِ فــي أَبْيَــضَ مِثْــلِ الهُــدَى

وقوله[(٣)]:

كَتَمْــتُ هَــواكَ حتَّــى عِيــلَ صَبْــرِي وَأَذْنَتْنــي مُكَــاتَمَتــي لِــرَمْسِــي
وَلَــمْ أَقْــدِرْ علــى إخْفَــاءِ حَــالٍ يَحُــولُ بِهــا الأَسَــى دُونَ التَّــأَسِّــي
وَحُبُّــكَ مَــالِــكٌ لَحْظِــي وَلَفْظِــي وَإظْهَــاري وَإضْمَــاري وَحِسِّــي
فَــإنْ أَنْطِــقْ فَفِيــكَ جَمِيــعُ نُطْقِــي وَإنْ أَسْكُــتْ فَفِيــكَ حَــدِيــثُ نَفْسِــي

وأبو إسحاق الحُصْري هو ابن خالة الشاعر أبي الحسن الحُصْري المتوفى سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م، وكثيراً ما كان الرواة يخلطون بينهما في السيرة والأشعار.

وكانت وفاة أبي إسحاق في المنصورة[(٤)] سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م[(٥)].

آثــاره:

لأبي إسحاق الحصري تصانيف عِدَّة في الأدب والشعر، نذكر منها:

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٥٤.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٥٥، نقلاً عن «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام.
(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٢/ ٩٤.
(٤) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٥/ ١٠٥؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١/ ٦٤.
(٥) كذا في «الذخيرة» لابن بسام، و«الأعلام» للزركلي، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة. وفي «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«معجم المؤلفين» لعمر كحالة أنه توفي سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م. وإذا صحَّ ما قيل إنه ألف كتاب «زهر الآداب» سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٧ م، فيكون التاريخ الذي أثبتناه هو الأكثر دقة، والأقرب إلى الحقيقة التاريخية.

ـ كتاب «زهر الآداب وثمر الألباب»، ويقع في ثلاثة أجزاء[١]. وهو أكبر كتب الحصري على الإطلاق، وبه ذاع صيته، وعليه قامت شهرته.

ـ «المصون في سرّ الهوى المكنون»[٢]، وهو كتاب في الأخبار والنوادر والنصوص المختارة من الشعر، ويقع في مجلد واحد.

ـ «ذيل زهر الآداب» أو «جمع الجواهر في الملح والنوادر»[٣].

ـ «نور الطرف ونور الظرف»[٤]، ويسمى أيضاً «رسالة النورين»[٥]. وهو كتاب في مجلد واحد، ويشتمل على مختارات شعرية قصيرة.

ـ كتاب «العجائب والطرف»[٦].

ـ «طيبات الأغاني، ومطربات القيان»، وهو كتاب لم يصل إلينا، ولا نعلم إذا كان هذا هو اسمه بالضبط أم لا، غير أن الحصري نفسه قد أشار إلى كتاب له في هذا المعنى، ونقل منه قطعاً في كتابه «جمع الجواهر»، وقال عند نقله: «وأنا أعيد منها هنا قطعة ترتاح إليها الأرواح».

ـ ديوان شعر[٧]، ويعرف بديوان الحصري، وهو كتاب مفقود. وقد قام حسن حسني

---

(١) هذا ما ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان: ١/ ٥٤. وجعله الدكتور زكي مبارك أربعة أجزاء، ولم يجد ضيراً في ذلك، لأن الكتاب ـ برأيه ـ مبني في الأصل على التنقل والاستطراد. (الحصري، زهر الآداب، مقدمة المحقق: ص ٢١).

(٢) وقيل: «المصون في الدرّ المكنون». ويقال: إن نسخة خطية منه توجد في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة، ونسخة أخرى في مكتبة «لايدن» بهولندا.

(٣) وقيل: «جواهر النوادر ولمح الملح». وقد ذكره بروكلمان والزركلي وعمر كحالة، وأغفله كلٌّ من حاجي خليفة وابن خلكان. ونشره عبد العزيز البشري بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م، وطبع في القاهرة بالمطبعة الرحمانية بلا تاريخ، ونشره علي البجاوي بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٣ م. (بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٥/ ١٦٠).

(٤) ذكره حاجي خليفة، وبروكلمان، والزركلي، وقيل: إن هذا الكتاب هو مختصر وضعه الحصري لكتاب زهر الآداب. (الزركلي، الأعلام). وهو موجود في مكتبة الاسكوريال بإسبانيا.

(٥) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٥/١٠٦.

(٦) انفرد بذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي: ٥/١٠٦.

(٧) انفرد ابن خلكان بذكره في وفيات الأعيان: ١/ ٥٤.

عبد الوهاب بجمع ما تفرق من شعر الحصري في أمهات الكتب، ونشر قسماً منه في كتابه «المنتخب المدرسي من الأدب التونسي».

ويروى أن الحصري كان قد شرع بتأليف كتاب عن «الشعراء الإفريقيين، وجعلهم طبقات وفقاً لأعمارهم، لكنَّ ابن رشيق القيرواني ـ وكان أصغر شعراء القيروان سنًّا في ذلك العصر ـ عاجله ببيتين يقول فيهما[1]:

رِفْقاً أَبا إسْحَاقَ بِالعالَمِ حَصَلْتَ في أَضْيَقِ مِنْ خَاتَمِ
لَوْ كانَ فَضْلُ السَّبْقِ مَنْدُوحةً فُضِّلَ إبليسُ على آدمِ

فأمسك الحصري عن تأليف كتابه، واعتذر عنه، ومات وقد سدَّ عليه باب الفكرة فيه، ولم يصنع شيئاً.

ويقال: إن ابن رشيق لجأ إلى هذه الحيلة ليفوز دون غيره بالترجمة لشعراء عصره، فكان كتابه «أنموذج الزمان في شعراء القيروان» الفريد في بابه.

عصره:

عاش الحصري ما بين أواخر القرن الرابع الهجري ومنتصف القرن الخامس/ القرن الحادي عشر الميلادي، وهي الفترة التي اصْطُلِح على تسميتها بالعصر الذهبي لمدينة القيروان التي شهدت ولادة الحصري ونشأته ووفاته.

ونراه مفيداً أن نضمن هذه المقدمة الموجزة شيئاً عن عصر الكاتب وبيئته التي نما فيها، لما لهما من تأثير كبير على تكوينه الثقافي والفكري والأدبي.

البيئة السياسية:

كان المغرب تابعاً بعد الفتح الإسلامي لولاة مصر، ثم انفصل عنهم في منتصف حكم الدولة الأموية. وفي عهد الدولة العباسية وليّ عليه إبراهيم الأغلب سنة (١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م). ثم توارث حكمه أبناؤه من بعده، حتى ظهر الفاطميون، فانتزعوها منهم سنة (٢٩٦ هـ/ ٩٠٩ م) وأصبح المغرب منذ ذلك التاريخ جزءاً من الدولة الفاطمية.

(١) ابن رشيق القيرواني، الديوان: ص ١٥٠.

وعيّن المعز لدين اللّه الفاطمي (ت ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م) على حكمها بلكين بن زيري سنة (٣٦١ هـ/ ٩٧٢ م)[١]. ثم خلفه ابنه المنصور (ت ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م)، ثم ابن المنصور باديس (ت ٤٠٦ هـ/ ١٠١٦ م) الذي اتخذ من سردانية سكناً له[٢].

وقد تمكن باديس لقوة شخصيته، ولبعده عن سلطة الخلافة المركزية ورقابتها، من إطلاق يده في طول البلاد وعرضها، فعيَّن عمّه حماد بن بلكين (ت ٤١٩ هـ/ ١٠٢٩ م) على إحدى مدن المغرب، فعمل على الانفصال عنه، وأسس الدولة الحمادية التي أخذت تناوىء الباديسيين في بلاد المغرب.

وبعد وفاة باديس، خلفه ابنه المعز (ت ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م) الذي أعلن انفصاله عن الفاطميين في القاهرة، وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر اللّه (ت ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م) وذلك سنة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٨ م[٣].

ثم قامت بين المعز وأبناء عمومته الحماديين فتنة داخلية غذاها الفاطميون في القاهرة عبر إرسالهم قبائل من الأعراب كانت تقيم في الصعيد المصري إلى المغرب لتنتقم لهم من أهل البلاد وزعيمها المعز بن باديس.

وقد قامت تلك القبائل بحملة رعب مهولة في مدينة «برقة» تردد صداها في أنحاء المغرب، وفي القيروان بخاصة، وأحدثت تصدُّعاً وضعفاً في صفوف جيش المعزّ، فلم يستطع الثبات أمامها أكثر من أربع سنوات، دخلت بعدها القبائل المهاجمة القيروان، وفتكت بأهلها، وخربت عمرانها، فلجأ المعزّ إلى المهدية، واتخذها عاصمة له. وفرَّ العديد من العلماء والأدباء والشعراء إلى الأندلس وغيرها من البلدان طلباً للنجاة. وكان لهذه الفاجعة صدًى عميقاً في الأدب العربي بالمغرب، لا يقل عن الصدى الذي أحدثه تخريب الزنج لمدينة البصرة في ثورتهم سنة (٢٤٣ هـ/ ٨٧٠ م).

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٢٨٦ و٥/ ٢٢٦.

(٢) الزركلي، الأعلام: ٢/ ٤١. وسردانية: جزيرة في بحر المغرب، ليس هناك بعد الأندلس وصقلية واقريطش أكبر منها. احتلها المسلمون سنة ٩٢ هـ/ ٢٩١ م. (ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٣/ ١٠٩).

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٢٣٤.

وكانت القيروان قد شهدت منذ نشأتها وحتى خرابها حالة سياسية مستقرة، لم تستطع الثورات أو الاضطرابات المحلية أن تعكر صفوها، أو أن تعطل مسيرة الحضارة فيها.

ولعل أفضل حالات استقرارها السياسي كانت في الفترة الممتدة ما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلى نهاية النصف الأول من القرن الخامس، الأمر الذي مكَّن الحياة الثقافية والأدبية فيها من التقدم والازدهار، بفضل عدد من الأمراء الكبار (باديس، المعز، تميم) الذين غمروا العلماء والأدباء والشعراء بالحفاوة والتكريم والجوائز السنية وشجّعوهم على التصنيف والابتكار.

البيئة الاجتماعية:

كانت القيروان في عصر الحصري من أزهى عواصم العالم العربي ازدهاراً إلى جانب دمشق وبغداد والكوفة وقرطبة. وكانت حياتها الاجتماعية على مستوى عالٍ من النشاط واتساع العمران. واجتذبت سكانها حياة الدعة والرخاء فأسرفوا في البذخ، وصاروا يرفلون بأثواب الترف والنعيم.

ويقال: إن البساتين كانت تتخلل أبنية القيروان، وإن ما يقرب من ثلاثين ضاحية كانت تمتد حولها[١].

وشكلت دور العلم فيها، وأنواع الملاهي، وأسباب الارتزاق التجاري مغريات ومصايد للرواد والوافدين من أنحاء المشرق والمغرب طلباً للعلم، أو رغبة في التجارة، أو سعياً وراء متع النفس والحسّ.

وكان أكثر ولوع الطبقات الشعبية في القيروان بسباق الخيل، والحراب، أو بالشطرنج، والتحلق حول القصاصين في مجالسهم الشعبية. وكان الشبّان منهم يترددون على حانات الغناء والرقص والشرب، ويمضون الأيام والليالي المتتالية في جوٍّ من المرح واللهو.

أما الموسرون، فقد بالغوا في التأنق بالمأكل والمشرب، حتى قيل: إن أحد القضاة ترك كسوة بعد وفاته قُدِّرت بألف دينار. وإن المائدة الواحدة عندهم كانت تشتمل على عشرات الأنواع من المأكولات والحلويات والفاكهة.

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب، بساط العقيق: ص ١٤.

وأسرفت المرأة القيروانية في لباسها وزينتها، وكانت تتعمد المشي في شوارع القيروان مزهوةً برنَّة خلاخيلها، فتجذب الأسماع والأنظار.

البيئة الثقافية:

كانت القيروان ـ مسقط رأس الحصري، وملعب طفولته، ومسرح نبوغه ـ أولى المدن التي تأسست في الإسلام، وظلّت طيلة قرون عديدة مركزاً للإشعاع الثقافي في المغرب العربي.

وفي الحقبة التي عاش فيها الحصري، كانت معظم الأنشطة العلمية والأدبية المغربية قد تركزت في هذه المدينة الفتية، حيث كثرت الدواوين والمساجد وحلقات العلم والأدب. وحيث أدى التنافس بين الأدباء والشعراء فيها إلى نشوء حركة فكرية أدبية لم تر إفريقية مثلها في عصر من عصور الدولة الإسلامية، أصبحت القيروان معها كعبة للعلم يحج إليها العلماء من جميع أصقاع المغرب، ومن الأندلس.

ومن أعلام القيروان الذين لمعت أسماؤهم في ذلك العصر:

ـ أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م)، صاحب كتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، وهو أول محاولة في العربية وضعت أسس النقد الأدبي الصحيح.

ـ أبو عبد اللّه، محمد بن أبي سعيد المعروف بابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م)، صاحب كتاب «رسائل الانتقاد» في الشعر والشعراء.

ـ أبو عبد اللّه، محمّد بن جعفر القزاز القيرواني (ت ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ م) وكان إماماً باللغة، بارعاً بعلومها، ومن آثاره: «ضرائر الشعر» و«العشرات في اللغة».

ـ أبو الحسن، علي بن أبي الرجال (ت ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م) رئيس ديوان الإنشاء في قصر المعز بن باديس. ومن آثاره: «البارع في النجوم» و«أرجوزة في الأحكام».

ـ أبو الحسن، علي بن عبد الغني، الفهري، المقرىء، الضرير، القيرواني، الشاعر (ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م) صاحب القصيدة الدالية التي افتنَّ الشعراء في معارضتها، ومطلعها:

يـا لَيْـلُ الصَّـبِّ مَتـى غَـدُهُ   أَقِيـامُ السَّـاعَـةِ مَـوْعِـدُهُ

ـ خلف بن أحمد القيرواني، الشاعر المطبوع (ت٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م).

ـ وأبو إسحاق، إبراهيم بن علي الحصري (ت ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م) صاحب كتاب «زهر الآداب وثمر الألباب» الذي نترجم له في هذه المقدمة.

وقد أدّى وجود هذا العدد من الأعلام الكبار في القيروان وما جاورها من المدن المغربية إلى ظهور كمٍّ هائل من الكتب والمصنفات في شتى مجالات العلم والمعرفة.

وكان من عادة الكتّاب في القيروان أن يهدوا أهم مصنفاتهم إلى الحكام والرؤساء طمعاً بالمال، أو سعياً وراء الشهرة والمجد، أو غير ذلك. ومن تلك الكتب المهداة:

ـ كتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» الذي أهداه ابن رشيق لأبي الحسن علي بن أبي الرجال، صاحب ديوان الإنشاء في قصر المعز بن باديس.

ـ وكتاب «زهر الآداب وثمر الألباب» الذي أهداه الحصري لأبي الفضل العباس بن سليمان، ليستغني به عن سواه من الكتب.

وبعد، ففي هذه البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية نشأ الحصري، وفي أجوائها الحافلة بالدعة والعلم والأدب حصَّل علومه، وصنَّف كتبه، فهو ابن هذه البيئة، وربيب هذا المجتمع. أثّر فيه بقدر ما تأثر به، فخلّف للمكتبة العربية من عصارة فكره ما تزهو به على مرِّ الأجيال.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اختصَّ الإنسانَ بفضيلةِ البيانِ، وصلى الله على محمدٍ خاتِمِ النبيين، المرسلِ بالنور المبين، والكتابِ المستبين، الذي تحدَّى الخَلْقَ أَن يأْتُوا بمثله فعجزوا عنه، وأقرّوا بفَضْلِهِ، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد؛ فهذا كتابٌ اخترتُ فيه قطعةً كاملةً من البلاغات؛ في الشعر والخبر، والفصول والفِقَر[١]، مما حَسُنَ لَفظُهُ ومعناه، واسْتُدِلَّ بِفَحْوَاهُ على مَغْزَاه[٢]، ولم يكن شارداً حُوشِيًّا[٣]، ولا ساقطاً سُوقِيًّا[٤]، بل كان جميع ما فيه، من ألفاظه ومعانيه، كما قال البُحْتُرِيّ[٥]:

فـي نِظَـامٍ مِـنَ البَـلاغـةِ مـا شَـ ... كَّ ٱمْـرُؤٌ أَنَّـهُ نِظَـامُ فَـرِيـدِ[٦]
حُـزْنَ مُسْتَعْمَـلَ الكـلامِ اختيـاراً ... وَتَجَنَّبْـنَ ظُلْمَـةَ التَّعقيـدِ

---

(١) الفِقَرُ: جمع فقرة ـ بكسر الفاء وفتحها ـ وهي فصل أو بيت شعر، يقال: ما أحسن فقر كلامه، أي نكته، وهي في الأصل حلى تُصاغ على شكل فقر الظهر.

(٢) مغزى الكلام: ما يُراد منه، هدفه. وفحواه: ما يفهم منه ذلك المراد أو الهدف.

(٣) الشَّارِدُ: من شرد البعير، يَشْرُدُ شَرْداً وَشُروداً: نفر، ومنه قافية شرود: عائرة سائرة في البلاد، تشرد كما يشرد البعير.
الحوشي من الكلام: وحشيه وغريبه، يقال: فلان يتتبع حوشي الكلام، ووحشي الكلام، وَعُقْمي الكلام، بمعنى واحد. وفي حديث عمر: ولم يتتبع حوشي الكلام، أي وحشيه وَعَقِدَهُ والغريبَ المشكل منه.

(٤) السُّوقي: نسبة إلى السوقة، وهم عامة الناس.

(٥) هو أبو عبادة، الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملال بن جابر بن مسلمة بن مسهر بن الحارث بن جشم الطائي البحتري: شاعر، أديب، فصيح، بليغ. ولد ونشأ بمنبج من أعمال حلب، ورحل إلى العراق، فاتصل بالخلفاء، ومدح عدداً منهم، أولهم المتوكل العباسي. توفي ببغداد سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٨ م، وكان يقال لشعره: سلاسل الذهب. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٩٣؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢١/٣٩؛ البغدادي، تاريخ بغداد: ١٣/٤٤٦).

(٦) الفريد: هو الدر الذي يفصل بين الذهب في القلادة المفصلة، فَالدُّرُّ فيها فريد.

وَرَكِبْنَ اللفظَ القريبَ فأَدركْـ ـنَ بهِ غايةَ المُرادِ البَعِيدِ

ولم أذهب في هذا الاختيار، إلى مطولات الأخبار، كأحاديث صَعْصَعَةَ بن صُوحَان[١]، وخالد بن صَفْوَان[٢]، ونظائرهما؛ إذ كانت هذه أجملَ لفظاً، وأسهلَ حفظاً.

منهج المؤلف في الكتاب

وهو كتابٌ يتصرَّف الناظرُ فيه من نثره إلى شعرِه، ومطبوعِه إلى مصنوعِه، ومحاورتِه إلى مفاخرته، ومُنَاقَلَتِهِ[٣] إلى مُسَاجَلَتِهِ[٤]، وخطابه المُبْهت[٥] إلى جوابه المُسْكت، وتشبيهاته المُصيبة إلى اختراعاته الغريبة، وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجِدِّه المُعْجب[٦] إلى هَزْلِهِ المُطْرِب، وجَزْلِهِ الرائع إلى رقيقه البارع.

وقد نَزَعْتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت[٧]، وعن إبعاد الشكل عن شكله، وإفراد الشيء من مِثْلِهِ؛ فجعلتُ بَعْضَهُ مُسَلْسَلاً[٨]، وتركتُ بضعَه مُرْسَلاً[٩]؛ ليحصلَ مُحَرَّرَ النَّقْدِ[١٠]، مُقَدَّرَ السَّرْد[١١]؛ وقد أخذ بطَرَفَي التأليف، واشتمل على حاشِيَتَي التصنيف؛ وقد يَعِزُّ المعنى، فأُلحق الشَّكْلَ بنظائره، وأعلّق الأول بآخره، وتبقى منه بقية أُفَرِّقُها في سائره[١٢] ليسلمَ من التطويل المملّ، والتقصير المخلّ، وتظهر في التجميع إفادةُ الاجتماع؛ وفي

---

(١) هو صعصعة بن صوحان: خطيب بليغ، من سادات عبد القيس. شهد صفين مع علي، ونفاه المغيرة بن شعبة إلى الجزيرة بأمر من معاوية بن أبي سفيان، فمات فيها نحو سنة ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م، وكان مسلماً في عهد النبي ﷺ ولم يره (الجاحظ، الحيوان: ٥/ ٥٨٨).

(٢) هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري: كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك. نشأ بالبصرة، وكان أكثر أهلها مالاً، ولم يتزوج، وتوفي نحو سنة ١١٥ هـ/ ٧٣٤ م. (الجاحظ، الحيوان: ١/ ٩١، الزركلي، الأعلام: ٢/ ٢٨٧).

(٣) المناقلة: المناقضة، وناقله: ناقضه.

(٤) المساجلة: المفاخرة.

(٥) المُبْهِتُ: المُحَيِّر.

(٦) المُعجب: الذي يعجبك جماله.

(٧) البيوت: هي الأبيات: جمع بيت.

(٨) المُسلسل: من السَّلْسَلة، وهي اتصال الشيء بالشيء.

(٩) المرسل: غير المسلسل. يقال: أرسل الكلام: أطلقه من غير تقييد.

(١٠) النقد: الوزن.

(١١) السَّرْدُ: النسج والتحرير.

(١٢) سائره: باقيه.

التفريق لَذَاذَة الإمتاع، فيكمل منه ما يُونِقُ[(١)] القلوبَ والأسماع؛ إذ كانَ الخروجُ من جِدٍّ إلى هَزْل، ومن حَزْن إلى سَهْل[(٢)] أنْفَى لِلْكَلَل[(٣)]، وأبْعَدَ من المَلَلِ؛ وقد قال إسماعيل بن القاسم [هو أبو العتاهية][(٤)]:

لا يُصْلِحُ النفسَ إذ كانت مُدَابرةً ... إلا التنقُّلُ من حَالٍ إلى حَالِ[(٥)]

الداعي لتأليف الكتاب

وكان السببُ الذي دعاني إلى تأليفه، ونَدَبني إلى تصنيفه، ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان ـ أطال الله مُدَّته، وأدام نعمته! ـ في الأدب، وإنفاقِ عمره في الطلب، وماله في الكتب؛ وأن اجتهادَه في ذلك حمله على أن ارتحل إلى المشرق بسببها، وأغمضَ في طلبها[(٦)]، باذلاً في ذلك ماله، مستعذباً فيه تعبَهُ، إلى أن أورد من كلامِ بلغاء عصره، وفصحاء دهره، طرائف طريفة، وغرائب غريبة، وسألني أن أجْمعَ له من مُخْتارها كتاباً يَكْتَفي به عن جملتها، وأُضيفَ إلى ذلك من كلام المتقدّمين ما قارَبه وقارَنه، وشابَهه وماثَله؛ فسارعتُ إلى مراده، وأعَنْتُه على اجتهاده، وألَّفتُ له هذا الكتاب، ليستغني به عن جميع كتبِ الآداب؛ إذ كان مُوشَّحاً[(٧)] من بدائع البديع، ولآلىء الميكالي، وشهيّ الخَوارزمي، وغرائب الصّاحب، ونفيس قابُوس، وَشُذور أبي منصور[(٨)] بكلامٍ يمتزجُ بأجزاء النفس لطافة، وبالهواء رقة، وبالماء عذوبة.

---

(١) يُؤنق: يُعجب.

(٢) الحَزن: ما غلظ من الأرض، ويقابله السهل.

(٣) الكلل والكلال: التعب والإعياء.

(٤) هو أبو إسحاق، إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي بالولاء، الشهير بأبي العتاهية: شاعر مكثر مطبوع، سريع الخاطر. ولد في عين التمر، ونشأ في الكوفة، وسكن بغداد. اتصل بالخلفاء وعلت مكانته، وكان أكثر شعره في الزهد والأمثال وذكر الموت. توفي سنة ٢١١ هـ/ ٨٢٦ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٦٧٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢١٩).

(٥) المدابرة (في الأصل): الهزيمة، ومدابرة هنا: ذات سأم وملال.

(٦) أغمض وغمض: ذهب، ومنه: غمض السيف في اللحم: غاب.

(٧) المُوشّح: المُرصّع.

(٨) البديع (بديع الزمان الهمذاني)، والميكالي، والخوارزمي، والصاحب (ابن عباد)، وقابوس (ابن وشكمير)، وأبو منصور: كل هؤلاء أعلام سوف ترد في هذا الكتاب طُرف من شعرهم ونثرهم، وسنذكر تراجمهم في موضع الاستشهاد بآثارهم الأدبية.

وليس لي في تأليفه من الافتخار، أكثرُ من حُسْن الاختيار؛ واختيارُ المرء قِطْعَةٌ من عقله، تدلُّ على تَخلُّفه أو فَضْلِه؛ ولا شكَّ ـ إن شاء الله ـ في استجادة ما استجدت، واستحسانِ ما أَوْرَدت؛ إذ كان معلوماً أنه ما انجذبت نفسٌ، ولا اجتمع حسّ، ولا مال سِرٌّ، ولا جال فِكْر، في أفضلَ مِن معنًى لطيفٍ، ظهر في لفظٍ شريف؛ فَكَسَاهُ من حسن الموقع، قبولاً لا يُدفع، وأبرزه يَخْتَالُ من صفاء السبك [ونقاء السّلك] وصحة الدّيباجة، وكثرة المائية، في أجمل حُلة، وأجلى حلية:

يَسْتَنْبِطُ الرُّوحَ اللطيفَ نَسِيمُهُ أَرَجاً، وَيُؤكَل بِالضَّمير وَيُشْرَبُ[١]

وقد رغبتُ في التجافي عن المشهور، في جميع المذكور، من الأسلوبِ الذي ذهبتُ إليه، والنحو الذي عوّلتُ عليه؛ لأن أوّل ما يقرع الآذان، أَدْعى إلى الاستحسان، مما مجّتْهُ[٢] النفوسُ لطول تكراره، ولفَظَتْهُ[٣] العقولُ لكثرة استمراره؛ فوجدت ذلك يتعذّر ولا يتيسر، ويمتنع ولا يتّسع[٤]؛ ويُوجب ترك ما نَدر إذا اشتهر؛ وهذا يوجب في التصنيف دَخَلاً[٥]، ويكسب التأليف خَلَلاً؛ فلم أُعْرِض إلاّ عما أهانه الاستعمال، وأَذَاله الابتذال[٦]؛ والمعنى إذا استدعى القلوبَ إلى حِفْظِه، ما ظهر من مُسْتَحْسَن لفظه؛ من بَارع عبارة، وناصع استعارة، وعُذُوبَةِ مورد، وسهوله مَقْصِد، وحسن تفصِيل، وإصابة تمثيل؛ وتَطَابُق أَنْحاء، وتَجَانُس أَجزاء، وتمكُّن ترتيب، ولطافة تهذيب، مع صحَّة طبع وجودة إيضاح، يثقفه[٧] تثقيفَ القِداح، ويصوره أفضلَ تصوير، ويقدّره أَكْمَل تقدير؛ فهو مشرق في جوانب السمع، لا يُخْلِقه[٨] عَوْدُه عَلَى المستعيد:

وَهُوَ المُشَيَّعُ بالمسامع إنْ مَضَى وَهُو المُضاعَفُ حُسْنُه إن كُرِّرَا

(١) يستنبط: يستخرج.
(٢) مجَّته النفوس: مقتته، كرهته.
(٣) لفظته: ألقت به، رمته.
(٤) يتَّسع: يسهل.
(٥) الدَّخَلُ: العيب، الفساد.
(٦) أذاله الابتذال: أهانه.
(٧) يثقفه: يقوّمه، يُسَوِّيه.
(٨) لا يخلقه: لا يبليه، أو لا يذهب بجدته ورونقه.

وإن كنتُ قد استدركتُ على كثير ممن سبقني إلى مثل ما جرَيْتُ إليه، واقتصرت في هذا الكتاب عليه، لِمُلَحٍ[١] أوردتُها كنَوَافثِ السِّحْرِ[٢]؛ وفِقَرٍ نظمتها كالغِنَى بعد الفَقْر، من ألفاظ أهلِ العصر، في محلول النثر، ومعقود الشعر؛ وفيهم من أدركتهُ بعُمْري، أو لحقه أَهْلُ دهري؛ ولهم من لطائف الابتداع، وتوليدات الاختراع، أبكارٌ لم تَفْتَرِعْها الأسماع[٣]، يَصْبُو إليها القلبُ والطَّرْف، ويَقْطُر منها ماءُ المَلاَحة والظَّرف، وتمتزجُ بأجزاءِ النفس، وتسترجع نافِرَ الأُنس، تخلَّلَت تضاعيفَه، ووشّحَتْ تأليفه، وطرّزتْ ديباجه، ورصَّعتْ تاجه، ونظَمتْ عقوده، ورقمتْ بُرودَه؛ فنَوْرُها يَرِفّ، وَنُورُها يشِفّ، في روضٍ من الكلم مُونِق، ورَوْنَق من الحكم مُشْرِق:

صَفَا ونَفَى عَنْهُ القَذَى فَكَأَنَّهُ ... إذا ما اسْتَشَفَّتْهُ العُيونُ مُصعَّدُ[٤]

فهو كما قلت:

بَديعُ نَثْرٍ رَقّ حتَّى غَدا ... يَجْرِي مع الرُّوح كما تَجْري
فمِنْ مُذْهَبِ الوَشْيِ على وَجْهِهِ ... دِيباجةٌ لَيْسَتْ مِنَ الشعرِ[٥]
كَزهْرةِ الدنيا وقد أقبلتْ ... تَرُودُ في رَوْنَقِها النَّضْرِ[٦]
أَو كَالنَّسيمِ الغَضّ غِبَّ الْحَيَا ... يَخْتَالُ في أرديةِ الفَجْرِ[٧]

ولعل في كثير مما تركتُ، ما هو أَجودُ من قليل مما أَدركت؛ إذ كان اقتصاراً من كلٍّ على بَعْض، ومن فَيْضٍ على بَرْض[٨]؛ ولكني اجتهدتُ في اختيار ما وجدتُ؛ وقد تدخلُ اللفظةُ في شفاعة اللفظات، ويمرُّ البيت في خِلاَل الأبيات، وتعرض الحكايةُ في عرض الحكايات؛ يتمُّ بها المعنى المراد، وليست مما يُسْتَجاد، ويبعث عليها فَرْط الضرورة إليها

---

(١) المُلَحُ: جمع المُلْحَة، وهي الكلمة المُسْتملحة المستعذبة.

(٢) النوافث: جمع النافثة، وهي الساحرة. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ﴾ (سورة الفلق، آية ٤).

(٣) افترع الآنسة البكر: افتضها (فض بكارتها).

(٤) مُصَعَّدٌ: من تَصعَّد إذا ارتفع.

(٥) وشي مذهب: مطرّز بالذهب.

(٦) ترود: تذهب وتجيء مختالة (تختال).

(٧) الحيا: المطر. وغِبّ الحيا: عقبه.

(٨) الفيض: الكثير، والبرض: القليل.

[في إصلاح خَلَل]؛ فمهما تَـرَهُ من ذلك في هذا الاختيار، فلا تُعْرِضْ عنه بطَرْفِ الإنكار؛ وما أقلُّ ذلك في جميع المسالك الجارية في هذا الكتاب، الموسوم بـ «زَهْرِ الآداب، وثمر الألباب» لكنني أردت أَنْ أُشاركَ من يخرج من ضيق الاغترار، إلى فسحة الاعتذار:

وَيُسِيءُ بِالإحسانِ ظَنًّا، لا كَمَنْ يَأْتيكَ وَهوَ بِشِعْرِه مَفْتُونُ[1]

والله المُؤَيِّدُ والمُسَدِّدُ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) البيت لأبي تمام، ويروى:

وَيُسِيء بِالإحْسَانِ ظَناً لا كَمَنْ هُوَ بِابْنِهِ وَبِشِعْرِه مَفْتُونُ

(أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٧١)، والبيت من قصيدة يمدح بها الواثق بالله العباسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

[إنَّ من البيان لَسِحْراً]

الزِّبْرقان بن بَدْر وعمرو بن الأَهْتَم بين يدي رسول الله ﷺ

روي عن عبد الله بن عبّاس ـ رضوان الله عليهما! ـ قال:

وَفَدَ إلى رسول الله ﷺ الزِّبْرِقَانُ بن بَدْر وعَمْرُو بن الأَهْتم؛ فقال الزبرقان: يا رسولَ الله! أنا يدُ تميم، والمطاعُ فيهم، والمجابُ منهم، آخُذُ لهم بحقّهم، وأمنعهم من الظلم، وهذا يعلم ذلك ـ يعني عَمْرا.

فقال عَمْرو: أجَلْ يا رسولَ الله؛ إنه مانعٌ لِحَوْزَتِه[١]، مُطَاعٌ في عشيرته، شديد العَارِضة فيهم[٢].

فقال الزبرقان: أَمَا إنه والله قد علم أكثرَ مما قال، ولكنه حسدني شَرفي!

فقال عمرو: أما لئن قال ما قال؛ فوالله ما علمته إلا ضَيّق العَطَن[٣]، زَمِرَ المروءة[٤]، أحْمَقَ الأبِ، لئيمَ الخالِ، حديثَ الغِنَى.

فرأى الكراهَةَ في وَجْهِ رسول الله ﷺ لمّا اختلفَ قولُه؛ فقال: يا رسول الله؛ رضيتُ فقلتُ أحسنَ ما علمتُ، وغضبتُ فقلتُ أقْبَحَ ما علمتُ، وما كذبتُ في الأُولى، وقد صَدَقْتُ في الثانية!

---

(١) حوزة الرجل: ما يحوزه ويملكه.

(٢) العارضة: البديهة وقوة الكلام.

(٣) العطن: المناخ حول الوِرْد، وَضَيِّقُ العطن: بخيل.

(٤) زمر المروءة: قليلها.

فقال رسول الله ﷺ: إنّ من البيان لسحرا، وإنّ من الشعر لَحِكْمَة. ويروى لَحُكْما، والأول أصح.

والذي روى أهل الثَّبَت، من هذا الحديث أنَّهُ قَدِم رجلان من أهْل المشرق فخطبا؛ فعجب الناسُ لبيانهما؛ فقال رسول الله ﷺ: إنّ من البيان لَسِحْرا، أو إن من بعض البيان لَسِحْرا[١].

ترجمة عَمْرُو بن الأهتم

وعَمْرو بن الأَهتم هو: عَمْرو بن سِنَان بن سُمَيّ [ابن سِنَان بن خالد] بن مِنْقَر بن عُبيد بن الحارث، والحارث هو: مُقَاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. وسُمّي سِنان الأهتم لأنَّ قيس بن عاصم الْمِنْقَرِي سيدَ أهلِ الوَبَرِ ضربه بقوسه فهتَم فاه. هذا قولُ أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة[٢]. وقال غيره: بل هُتِمَ فُوه يوم الكُلاب الثاني، وهو يومٌ كان لبني تميم على أهل اليمن. وكان عمرو يلقب المُكَحَّلَ لجماله، وبنو الأهتم أهلُ بيتِ بلاغةٍ في الجاهلية والإسلام. وعبد الله بن عمرو بن الأهتم هو جدّ خالد بن صَفْوَان وشَبيب بن شَيْبَةَ. وكان يقال: الخطابة في آلِ عَمْرو، وكان شعره حُلَلاً مُنشَّرَة عند الملوك تأخذُ منه ما شاءت. وهو القائل:

ذَرِيني فَإِنَّ البُخْلَ يا أمّ مَالِكٍ ... لِصَالِحِ أَخلاقِ الرجالِ سَرُوقُ
لَعَمْرُكِ ما ضَاقتْ بلادٌ بِأَهْلِها ... وَلكنَّ أَخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ[٣]

---

(١) القصة بتمامها في مجمع الأمثال للميداني: ١/٧. ويضرب قول النبي ﷺ في استحسان المنطق، وإيراد الحجة البالغة.

(٢) هو أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: عالم في اللغة والنحو، وغريب القرآن ومعانيه، وغريب الحديث، والشعر، والفقه، وأيام الناس. سكن بغداد وحدَّث فيها، وولي قضاء دينور. توفي سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م. من آثاره: «أدب الكاتب»، و«عيون الأخبار»، و«الشعر والشعراء»، وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٦/ ١٥٠).

(٣) ومثله قول بشار بن برد:
وَلا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ ... وَلكِنَّ أَخْلاَقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ
(بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٢١).

ترجمة الزِّبْرِقَان بن بَدْر

والزِّبْرِقَان: اسمه حُصَين بن بَدْر بن امرىء القيس [ابن الحارث] بن بَهْدَلَةَ بن عوف بن كَعْب بن سعيد. وسمي الزّبرقان لجماله؛ والزبرقان: القمر [قبل تمامه] وقيل: لأنّه كان يُـزَبْرِقُ عمامتَه، أي يصفِّرها في الحرب.

وكانوا يسمّون الكلام الغريب «السِّحر الحلال»، ويقولون: اللفظ الجميل من إحدى النَّفَثَاتِ في العُقَد[١].

عُمَرُ بن عبد العزيز وغلام يتقدم وفد قومه

وذكر بعضُ الرُّواة أنه لما اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بنُ عبد العزيز رضي الله عنه[٢] قدِم عليه وفودُ أهلِ كل بلد؛ فتقدم إليه وَفْدُ أهلِ الحجاز، فاشْرَأَبَّ[٣] منهم غلامٌ للكلام، فقال عمر: يا غلام؛ ليتكلّم مَنْ هو أَسَنّ منك! فقال الغلام: يا أمير المؤمنين! إنما المرءُ بأَصْغَرَيْهِ قلبِه ولسانِه، فإذا مَنَح اللّهُ عبدَه لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد أجاد له الاختيار؛ ولو أن الأمور بالسنّ لكان ها هنا مَنْ هو أحقّ بمجلسك منك.

فقال عمر: صدقت، تكلم؛ فهذا السِّحْرُ الحلال! فقال: يا أمير المؤمنين، نحن وفد التهنئة لاَ وَفْدُ الْمَرْزِئة[٤]، ولم تُقْدِمْنا إليك رغبةٌ ولا رهبة؛ لأنّا قد أمِنّا في أيامك ما خِفنا، وأدركنا ما طلبنا!

فسأل عمر عَنْ سِنّ الغلام، فقيل: عشر سنين.

وقد روي أن محمد بن كَعْب القرظي كان حاضراً، فنظر وَجْه عمر قد تهلّل عند ثناء

---

(١) النفثات: جمع نفثة، وهي أن تتفل الساحرة بريقها على ما تعقده. ويروى: «النفّاثات» جمع نفّاثة، وهي الساحرة نفسها.

(٢) هو أبو حفص، عمر بن عبد العزيز بن مروان، أمير المؤمنين، وخامس الخلفاء الراشدين: بويع له بالخلافة بعد سليمان بن عبد الملك، وكان يُدعى: أشج بني أمية، لأن فرساً كان قد شجَّه بحافره وهو صغير. اشتهر بالعدل، والزهد، وشدة الورع، والعلم بالدين حتى بلغ مرتبة الاجتهاد. توفي سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م بدير سمعان من أرض المعرة. ودامت خلافته سنتين وستة أشهر وأياماً. (ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ١/ ١١٩).

(٣) اشرأب: تطلع.

(٤) رَزأَ فلان فلاناً: إذا بَرَّهُ، وَرَزَأَهُ، يَرْزَؤُه رُزْءاً وَمَرْزِئَةً: أصاب منه خيراً.

الغلام عليه؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ لا يَغلبَنَّ جهلُ القوم بك معرفتَك بنفسك؛ فإنّ قوماً خَدَعهم الثناء، وغرّهم الشكر، فزلّت أقدامُهم فهَوَوْا في النار. أعاذك الله أن تكون منهم، وألحقك بسالِف هذه الأمة؛ فبكى عمر حتى خِيفَ عليه، وقال: اللهم لا تُخْلِنا من واعظ!

وقد رُوي أن عمرَ قال للغلام: عِظْني، فقال هذا الكلام، وفيه زيادة يسيرة ونقص.
وأخذ قولَ عمر: «هذا السحر الحلال» أبو تمام[١] فقال يعاتب أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي[٢]:

إذا ما الحَاجةُ انْبَعَثَتْ يَداها ... جَعَلْتَ المَنْعَ منكَ لها عِقَالاَ[٣]
فَأَيْنَ قَصائدٌ لي فِيكَ تَأبَىٰ ... وَتَأْنَفُ أَنْ أُهَانَ وَأَنْ أُذَالا[٤]
هِيَ السِّحْرُ الحلالُ لِمُجْتَلِيهِ ... وَلَم أَرَ قَبْلَها سِحْراً حَلاَلا[٥]

من ابن العميد لبعض إخوانه

وكتب أبو الفَضْل بن العَميد[٦] إلى بعض إخوانِه جواباً عن كتاب وردَ إليه [فأحمده]:

وَصَلَ ما وَصَلْتَنِي به، جعلني الله فداك، من كتابك، بل نعمتك التامة، ومُنّتك العامة؛

---

(١) هو أبو تمام، حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي: شاعر، أديب، من أمراء البيان في عصره. ولد في جاسم (إحدى قرى حوران بسورية)، ورحل إلى مصر، ثم قدم بغداد، فنال حظوة الخليفة المعتصم وأكابر دولته. توفي بالموصل سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م. من آثاره: «ديوان شعر ـ ط»، و«ديوان الحماسة ـ ط»، و«مختار أشعار القبائل»، و«فحول الشعراء»، وغيرها. (الأصفهاني، الأغاني: ١٦/٣٠٣).

(٢) أبو تمام، الديوان: ٢/٧٣.

(٣) العِقالُ: الرباط الذي يُعقل به، وجمعه عُقُلٌ. وقد عقله عن حاجته: حبسه، وأصل ذلك من: عَقلَ البعير: إذا ثنى وظيفه مع ذراعه، وشدّهما جميعاً في وسط الذراع.

(٤) أُذالُ: أُهان، وأذلته أنا: أهنته ولم أُحسن القيام عليه، والإذالة: الإهانة.

(٥) اجتلى الشيء وتجلّاه: نظر إليه، والتَّجلي: النظر. وفي الديوان: «من السحر الحلال لِمُجتنيه».

(٦) هو أبو الفضل، محمد بن الحسين بن محمد، المعروف بابن العميد: أديب، شاعر، من أئمة الكُتّاب. له معرفة بالفلك والنجوم، وخبرة واسعة بأمور السياسة والملك. ومما قيل فيه: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد». وُلي الوزارة لركن الدولة البويهي، ومدحه المتنبي، فوهبه ثلاثة آلاف دينار. توفي بهمذان بعلتي القولنج والنقرس، سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م. (أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/١٨٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/١٠٣).

فقرَّتْ عيني بوروده، وشُفِيَتْ نفسي بوفوده، ونَشَرْتُه فحَكَى نسيمَ الرياض غِبَّ المطر، وتنفُّسَ الأنوارِ[١] في السَّحَر، وتَـأَمَّلْتُ مُفْتَتَحه، وما اشتمل عليه من لطائف كَلِمك، وبدائع حِكَمك؛ فوجدته قد تحمَّل من فنون البرّ عنك، وضروب الفَضْلِ منك، جِدًّا وهَزْلاً، ملأَ عيني، وعَمَرَ قلبي، وغلب فِكْرِي، وبَهَر لُبِّي؛ فبقيتُ لا أدري: أَسُمُوطُ دُرٍّ خَصَصْتَنِي بها، أم عقود جوهر منَحْتِنيها؟ كما لا أدري أَبِكراً زَفَفْتَهَا فيه، أم روضةً جهزتها منه؛ ولا أدري أخدوداً ضُـرِّجت حياءً ضُمّنته؛ أم نجوماً طلعت عِشاءَ أُودعته؛ ولا أدري أجِدُّك أبلغ وألطف، أم هَزْلك أرفع وأظرف؛ وأنا أُوَكِّلُ بِتَتَبُّع ما انْطَوَى عليه نَفْساً لا ترى الحظَّ إلا ما اقْتَنَتْهُ منه، ولا تَعُدُّ الفضل إلا فيما أخذَتْه عنه، وأُمَتِّع بتأمّله عيناً لا تَقَرُّ إلَّا بمثله، مما يَصْدُر عن يَدِك، ويَرِدُ من عندك، وأُعْطِيه نظراً لا يَملّه، وطَرْفاً لا يَطْرِف دونه، وأجعله مِثالاً أَرْتَسِمه وأَحْتذيه، وأمتِّع خَلقي بِرَوْنَقِه، وأُغذِّي نفسي بِبَهْجَتِهِ، وأمزج قريحتي برقّته، وأَشْرَحُ صَدْرِي بِقراءته، ولئن كنتُ عن تحصيل ما قُلتَه عاجزاً، وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً؛ لقد عرفت أنه ما سمعتُ به من السِّحْرِ الحلال.

من وصف الكلام بالسحر

وقال بعض المحدثين يمدح كاتباً:

وَإِذا جَرَى قَلَمٌ لَهُ في مُهْرَقٍ ... عَجْلَانَ في رَفَلَانِهِ وَوَجِيفِهِ[٢]

نَظَمَتْ مَراشِفُه قَلائدَ نُظّمَتْ ... بِنَفِيسِ جَوْهَرِ لَفْظِهِ وَشَرِيفِهِ

بِدْعاً مِن السِّحْرِ الحَلالِ تَولَّدَتْ ... عَنْ ذهنٍ مَصْقول الذكاءِ مَشُوفِه[٣]

مَثَلاً لِضَارِبِهِ وَزادَ مُسَافِرٍ ... جُعِلَتْ وَتُحْفَةَ قادمٍ لأَلِيفِهِ

(١) الأنوار: جمع نَوْر، وهو نوار الزهر.

(٢) المُهْرَقُ: الصحيفة، والجمع: مهارق. العجلان: المسرع. الرَّفَلان: السير في تبختر. الوجيف: السير السريع.

(٣) المشوف: المجلو، قال عنترة بن شدّاد:

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ المُدامَةِ بَعْدَمَا ... رَكَدَ الهَواجِرُ بِالمَشُوفِ المُعْلَمِ

والمشوف المعلم: هو الدينار المجلو، الذي نُقِش عليه. (صلاح الدين الهواري، شرح المعلقات العشر: ص ٢٦٣).

وصف رجل محبوب

وعلى ذكر قوله: «وتُحْفَة قادم» قال إسحاق بن إبراهيم المُوصِلّي[١]: وصف رجلٌ رجلاً فقال: كان والله سَمْحاً سَهْلاً، كأنما بينه وبين القلوب نَسَبٌ، أو بينه وبين الحياةِ سبَبٌ، إنما هو عيادة مريض، وتُحْفَة قادم، وواسِطَةُ عِقْد.

عود إلى وصف الكلام بالسحر

وأخذ بعضُ بني العباس رجلاً طالبيًّا، فهمَّ بعقوبته، فقال الطالبي: واللهِ لولا أَنْ أُفْد ديني بفساد دنياك لَملكْتَ من لساني أَكْثَرَ مما ملكتَ من سَوْطك، والله إنَّ كلامي لَفَوْقَ الشعر، ودون السِّحْر، وإن أيسره لَيَثْقُبُ الْخَرْدَل، وَيحطّ الْجَنْدل.

وقال علي بن العباس[٢] يَصِفُ حديثَ امرأةٍ[٣]:

وَحديثُها السِّحْرُ الحلالُ لَوَ أنه ... لم يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِم المُتحرِّزِ[٤]
إن طال لم يُملَلْ، وإنْ هي أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المحدَّثُ أنَّها لَم تُوجِزِ
شَرَكُ العقولِ، وَنُزهةٌ ما مِثْلُهَا ... لِلمُطمئنِ، وَعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ[٥]

أَلَمَّ في بيته الآخر بقول الطائي[٦]:

---

(١) هو أبو محمد، إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نسك التميمي بالولاء، الأرجاني الأصل، المعروف بابن النديم الموصلي: عالم باللغة والشعر، وأخبار الشعراء، وأيام الناس. وكان من ندماء الخلفاء، وله الظرف المشهور، والخلاعة والغناء اللذان تفرَّد بهما. توفي سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢٠٢).

(٢) هو أبو الحسن، علي بن العباس بن جريج الرومي: شاعر كبير مطبوع. ولد ونشأ ببغداد، وكان هجاءً سليط اللسان، هجا كبار أهل زمانه، ولم يُبق على الخليفة المعتز نفسه. وكان يُعنى بالنظم العجيب، والتوليد الغريب، والغوص على المعاني النادرة وإبرازها. توفي ببغداد مسموماً، سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م. (البغدادي، تاريخ بغداد: ١٢/ ٢٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٧٩).

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ٢٤٧.

(٤) المتحرز: المتحفظ، المُتَوَقِّي. وفي الديوان: «لو أنها لم تجنِ».

(٥) الشَّرَكُ: الفخ. العقلة: العقال: الرباط الذي يُعقل به. والمستوفز: المستعجل، أو الذي قعد غير مطمئن وكأنه يتهيأ للوثوب. ـ يقول: حديث هذه المرأة نزهة للمطمئن، ورباط للمستعجل الذي يَوَدُّ الانصراف. وفي الديوان: «شرك النفوس».

(٦) هو أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، والبيتان في ديوانه: ١/ ١٤٠.

كَــوَاعِــبُ أَتْــرابٌ لِغَيْــداءَ أَصْبَحَــتْ ... وَلَيْسَ لها في الحسنِ شِكْلٌ ولا تِرْبُ[١]
لهــا مَنْظَــرٌ قَيْــدُ النــواظِــر لــم يَــزَلْ ... يَــرُوح ويَغْــدُو فــي خَفَــارَتِــهِ الْحُــبُّ[٢]

وأول من استثار هذا المعنى امرؤ القيس بن حُجر الكندي[٣] في قوله[٤]:

وَقَــدْ أَغْتَــدِي وَالطَّيْــرُ فــي وُكُنَــاتِهَــا ... بِمُنْجَــرِدٍ قَيْــدِ الأَوَابِــدِ هَيْكَــلِ[٥]

وقالت عُلَيَّةُ بنت المَهْدِي:

إِشْــرَبْ علــى ذِكْــرِ الغَــزَالِ ... الأَغْيَــدِ الحُلْــوِ الــدَّلالِ[٦]
إِشْــرَبْ عَلَيْــهِ وَقُــلْ لَــهُ: ... يــا غُــلَّ أَلْبَــابِ الــرجَــالِ[٧]

علية بنت المهدي أخت الرشيد

وكانت عُلَيَّةُ لطيفةَ المعنى، رقيقَةَ الشعرِ، حسنةَ مجاري الكلام، ولها أَلْحَانٌ حِسَانٌ، وعَلِقَتْ بغلام اسمه «رشأ» وفيه تقول:

---

(١) الكواعب: جمع الكاعب، وهي الفتاة التي نهد ثديها. قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ (سورة النبأ، آية ٣٣). والأتراب: الخدينات، وتاربت الفتاة: خادنتها. قال كثير عزّة:
تُــارِبُ بيضــاً إذا اسْتَلْعَبَــتْ ... كــأُمِّ الظِّبــاء تَــرِفُّ الكِبَــاثَــا
والأتراب أيضاً: المثيلات في السِّنّ والحُسْن.

(٢) قيد النواظر: هو للنواظر كالقيد. والخفارة: الحماية.

(٣) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي: أشهر شعراء العرب على الإطلاق. ولد بنجد، واشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل: حندج، وقيل: مليكة، وقيل: عدي. وهو من فحول الشعراء في الجاهلية، من الطبقة الأولى. سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها، فاستحسنها من جاء بعده من الشعراء، وقلّدوه فيها. توفي نحو ٨٠ ق. هـ/ نحو ٥٤٥ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٢؛ الأصفهاني، الأغاني: ٩/ ٧٦؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٩٧).

(٤) امرؤ القيس، الديوان: ص ٥١.

(٥) أغتدي: أغدو. الوكنات: مواقع الطير، واحدتها: وُكْنَة، والوكن: عش الطائر. المنجرد: الماضي في السير، وقيل: قصير الشعر. الأوابد والأُبّد: الوحوش، الذكر: آبِدٌ، والأنثى: آبدة. والهيكل: الفرس الضخم.

(٦) الأغيد: الناعم، والأنثى: غيداء.

(٧) الغلّ: الطوق يُوضع في عنق الأسير.

أَضْحَى الفُؤادُ بِزَيْنَبا صَبًّا كَئِيباً مُتْعَبَا[١]
فَجَعَلْتُ زَيْنَبَ سُتْرَةً وَكَتَمْتُ أَمْراً مُعْجِبَا

[قولها: بزينب تريد برشأ]:

فَنُمِيَ الأمر إلى أخيها الرشيد، فأبعده، وقيل: قَتَله. وعَلِقَتْ بعده بغلام اسمه «طَلٌّ»، فقال لها الرشيد: والله لئن ذَكَرْتِه لأقتلنّك! فدخل عليها يوماً على حين غَفْلة وهي تقرأ: فإن لم يُصِبها وابلٌ فما نهى عنه أمير المؤمنين، فضحك، وقال: ولا كلّ هذا، وهي القائلة:

يا عَاذِلي قَدْ كُنْتُ قَبْلَكَ عَاذِلا حَتَّى ابتُلِيتُ فَصِرْتُ صَبًّا ذاهِلا[٢]
الحبُّ أَوّلُ ما يَكُونُ مَجَانَةً فإذا تَحكَّم صَار شُغْلا شَاغِلا[٣]
[أَرْضَى فَيَغْضَبُ قَاتِلي فَتَعَجَّبوا يَرْضَى القَتِيلُ وَلا يُرَضَّى القَاتِلا]

وهي القائلة:

وُضِعَ الحُبُّ على الْجَوْرِ، فَلَوْ أَنْصَفَ المَعْشُوقُ فيه لَسَمُجْ[٤]
[وَقليلُ الحبِّ صِرْفاً خَالصاً لَكَ خَيْرٌ من كَثِيرٍ قَدْ مُزِجْ]
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ في نَعْتِ الهوى عَاشِقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الْحُجَجْ

أشباه لشعر علية بنت المهدي

وكأنها ذهبت في الأول إلى قول العبّاس بن الأَحْنَف[٥]:

وَأحْسَنُ أيامِ الهوى يَومُكَ الذي تُرَوَّعُ بالهِجرانِ فيه وَبالعَتْبِ
إذا لم يَكُنْ في الحبِّ سُخْطٌ ولا رِضاً فَأَيْنَ حَلاَوَاتُ الرسائلِ والكُتْبِ

(١) الصَّبُّ: المُحِبُّ المشتاق.
(٢) ذَهَلَ الشيءَ وعنه ذَهْلاً: غفل عنه، أو نسيه لِشُغْلٍ، فهو ذَاهِلٌ، وهي ذاهلة.
(٣) المجانة: العبث.
(٤) سَمُجَ الشيء: قَبُحَ.
(٥) هو أبو الفضل، العباس بن الأحنف بن الأسود بن قدامة، من بني حنيفة: شاعر، مجيد، مطبوع، لطيف الديباجة. نشأ ببغداد، واتصل بالرشيد، ونال عنده حظوة. وأكثر شعره الغزل. توفي سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٥٤؛ الزركلي، الأعلام: ٣/ ٢٥٩).

وقد زاد النُّمَيْرِي[1] في هذا فقال:

رَاحَتـي فـي مَقَـالـةِ العُـذّالِ ... وَشِفـائـي فـي قِيلهـمْ بَعْـدَ قَـالِ
لا يَطِيـبُ الهَـوى وَلا يَحْسُـنُ الحُـ ... ـبُّ لِصـبٌّ إلاّ بِخَمْـسِ خِصَـالِ
بِسَمـاعِ الأَذَى، وَعـذْلِ نَصيـحٍ، ... وَعِتـابٍ، وَهِجْـرَةٍ، وَتَقَـالِ[2]

وقال بعض المحدثين:

لَـولاَ اطّـرادُ الصَّيْـدِ لـم تَـكُ لَـذةٌ ... فَتطـارَدِي لـي فـي الـوِصَـالِ قَلِيـلا[3]
هـذا الشَّـرابُ أَخُـو الحيـاةِ وَمـا لَـهُ ... مِـنْ لَـذّةٍ حَتَّـى يُصِيـبَ غَلِيـلا[4]

وقال آخر:

دَعِ الصـبَّ يَصْلـىٰ بـالأذى مِـنْ حَبيبِـهِ ... فَـإِنَّ الأَذى مِمَّـنْ تُحـبُّ سُـرورُ[5]
غُبَـارُ قطِيـعِ الشـاءِ فـي عَيْـنِ ذِئْبِهَـا ... إذا مـا تَـلا آثـارهُـنَّ ذَرُورُ[6]

وأنشد الأَصْمَعِي[7] [لجميل بن مَعْمَر العُذْري[8]]:

---

(١) هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل، من بني نمير بن عامر بن صعصعة، ولقب بـ «الراعي» لكثرة وصفه للإبل، أو لرعيها. وهو شاعر فحل مقدم. وقيل: إنه لم يطلب لدى السلطان حاجةً لنفسه. توفي سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٩ م. (الآمدي، المؤتلف والمختلف: ١٧٧؛ البغدادي، خزانة الأدب: ١/ ٥٠٤).

(٢) التقالي: التباغض.

(٣) اطراد الصيد: جريه.

(٤) الغليل: الظمأ الشديد.

(٥) يصلى: يحترق.

(٦) الذرور: الملح يُذَرّ على اللحم والفلفل، وهو كذلك الدواء في العين، والمراد أن غبار الشاء في عين الذئب هو كالتوابل تُوضع في الطعام.

(٧) هو أبو سعيد، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي، المعروف بالأصمعي: أديب، لغوي، نحوي، إخباري، محدث، فقيه، من أهل البصرة. قدم بغداد في أيام هارون الرشيد، وتوفي بالبصرة سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٦/ ١٨٧).

(٨) هو أبو عمرو، جميل بن عبد الله بن معمر العذري، ويعرف بجميل بثينة: شاعر، مقدم، فصيح، من عشاق العرب المشهورين. توفي بمصر سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م وأكثر شعره في الغزل. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٤٦؛ الأصفهاني، الأغاني: ٨/ ٩٠).

لا خَيْرَ في الحُبِّ وَقْفاً لا تُحرِّكهُ عَوارِضُ اليَأسِ أَو يَرْتاحه الطَّمَعُ
لَوْ كانَ لي صَبْرُها أو عِنْدَها جَزَعِي لَكُنْتُ أَمْلِكُ ما آتِي وَما أَدَعُ
إذا دَعا بِاسْمِها دَاعٍ لِيَحْزُنُني كادَتْ لَهُ شُعْبَةٌ مِنْ مُهْجَتي تَقَعُ[١]

وهذا البيت كقول علي بن العبّاس الرُّومي[٢]:

لا تُكْثِرَنَّ مَلامَةَ العُشَّاقِ فَكَفاهُمُ بالوَجْدِ وَالأَشْواقِ
إنّ البلاءَ يُطاقُ غَيْرَ مُضاعَفٍ فَإِذا تَضاعَفَ كانَ غَيْرَ مُطاقِ
لا تُطْفِئَنَّ جَوًى بِلَوْمٍ؛ إنهُ كالريحِ تُغْرِي النَّارَ بِالإحراقِ

ويشبه بَيْتَ عليّة الآخر بيتٌ أُنْشِدَ في شعرٍ رُوِيَ لأبي نوّاس[٣]، ورواه قوم لِعَنَان جَارية النَّاطِفي[٤] وهو:

حُلْوُ العتابِ يَهيجُهُ الإدلالُ لم يَحْلُ إلا بالعتابِ وِصَالُ
لَمْ يَهْوَ قَطُّ وَلم يُسَمَّ بِعاشِقٍ مَنْ كان يَصْرِفُ وَجْهَهُ التَّعْذَالُ[٥]
وَجميعُ أسبابِ الغرام يَسيرةٌ ما لم يَكُنْ غَدْرٌ ولا اسْتِبْدالُ
تَصِفُ القَضيبَ على الكثيبِ قَنَاتُها وَلَها مِن البدرِ المُنيرِ مِثَالُ
وَلَرُبَّ لابسةٍ قِناعَ مَلاحةٍ حَسناء سَارَ بِحُسْنِها الأمثالُ
كَسَتِ الْحَدَاثةُ ظَرْفَها وَجمالها نُوراً فماءُ شَبابِها يَخْتَالُ[٦]

---

(١) الشعبة: القطعة.

(٢) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٩٨.

(٣) هو أبو نواس، الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء: شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد، واتصل فيها بالخلفاء من بني العباس ومدح بعضهم. قال الجاحظ: ما رأيت رجلاً أعلم باللغة، ولا أفصح لهجةً من أبي نواس. وقال أبو عبيدة: كان أبو نواس للمحدثين كامرىء القيس للمتقدمين. توفي سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٤ م. (البغدادي، تاريخ بغداد: ٧/ ٤٣٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٣٤٥).

(٤) عنان: جارية مولدة، نشأت وتأدبت في اليمامة، فاشتراها الناطفي ورباها. وكانت صفراء جميلة الوجه شَكِلةً، مليحة الأدب والشعر، سريعة البديهة، وكان فحول الشعراء يساجلونها، ويعارضونها فتنتصف منهم. (الأصفهاني، الأغاني: ٢٢/ ٥٢١).

(٥) التَّعْذَالُ والعَذْلُ: اللَّوْمُ.

(٦) يختال: يترقرق.

وَكـأَنَّهـا وَالكَـأْسُ فَـوْقَ بَنـانِهـا ... شَمْـسٌ يَمُـدُّ بِهـا إليـكَ هِـلاَلُ
حَتَّـى إذا مـا اسْتَـأْنَسَـتْ بِحَـديثِها ... وَتكلّمـتْ بِلسـانهـا الْجِـرْيـالُ[1]
قُلنـا لهـا: إن صَـدَّقَـتْ أَقـوالَهَـا ... أفعـالُهـا وَجَـرَى بِهِـنَّ الْفَـالُ[2]
قُـولـي فَلَيْـسَ تَـرَاكِ عَيـنُ نميمـةٍ ... حَضَـرَ النصيـحُ وَغـابَـتِ العُـذَّالُ
وَضميـرُ مـا اشْتَمَلَـتْ عليـه ضُلـوعُنـا ... سِـرٌّ لـدى أَبـوابـهِ أَقْفَـالُ

ما قيل في معنى «قيد الأوابد»

وقد أخذ أبو الطيّب المُتنبي معنى «قيد الأوابد»، فقال يصف كلباً[3]:

نَيْـلُ المُنـى وَحُكْـمُ نَفْـسِ المُـرسِـلِ ... وَعُقْلـةُ الظبـي وَحَتْـفُ التَّـتْفُـلِ[4]
كَـأَنّـهُ مِـنْ عِلْمـهِ بـالمَقْتَـلِ ... عَلَّـمَ بُقْـرَاط فِصَـادَ الأَكْحَـلِ[5]

وقال في بني حَمْدَان:

مُتَصَعلِكيـنَ عَلَـى كَثـافـة مُلْكِهِـمْ ... مُتَـواضعيـنَ علـى عَظيـم الشَّـانِ[6]
يَتَقَيَّلُـونَ ظِـلاَلَ كُـلِّ مُطَهَّـمٍ ... أَجَـلِ الظليـم وَرِبْقَـةِ السَّـرْحَـانِ[7]

وقال أعرابي يصف فرساً: إنه لَدَرَك الطالب، ومَنْجَى الهارب، وَقَيْد الرّهان، وزين الفِناء.

وقال بعضُ أهل العصر في وصفِ غلام: وَجْهُه قَيْدُ الأبصار، وأَمَدُ الأفكار، ونهاية الاعتبار.

---

(١) الجريال: الخمر.
(٢) الفال: الفَأْلُ: ضد الطِيَرة.
(٣) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٦٨.
(٤) التَّتْفُل: الثعلب.
(٥) بقراط (٤٦٠ - ٣٧٧ ق.م) طبيب يوناني، عمل على تحرير الطب من الخرافات، وحاول إقامته على أساس علمي، مؤكداً على أهمية الملاحظة السريرية. ويقال: إنه وضع اليمين التي لا يزال الأطباء يقسمونها حتى اليوم في حفلة التخرج (منير بعلبكي، موسوعة المورد: ٥/ ١٠٨).
والأكحل: عرق في اليد.
(٦) المتصعلك: المتظاهر بالفقر. والكثافة: الضخامة.
(٧) المُطَهَّمُ: المضمر الدقيق الجسم. والظليم: ذكر النعام. والربقة: الرباط، والسرحان: الذئب.
والبيتان في (ديوانه: ٢/ ٢٠٧).

وقال أبو القاسم إسماعيل بن عبَّادٍ[١]:

وَقــد أَغتــدِي لِلصَّيْــدِ غُــدْوَةَ أَصْيَــدٍ أُعاجِلُ فِيها الوَحْشَ وَالوَحْشُ هُجَّدُ[٢]

فَعنَّــتْ ظِبَــاءٌ خِفْــنَ تَحْتِــيَ مُطلَــقَ الْـ ـيَـديـن بـهِ أَيْـدِي الـوُحُـوشِ تُقَيَّـدُ[٣]

فَــأَدركتُهــا وَالسَّيــفُ لَمْعَــةُ بَــارِقٍ وَلـم يُغْنِهَـا إحْضَـارُهَـا حِيـن تَجْهَـدُ[٤]

وَقــدْ رُعْتُهَــا إذ كــانَ شِعــرِيَ رائعــاً وَطَـرْفُ مُشيبـي عـن عِـذَارِيَ أَرْمَـدُ[٥]

وَمــا بَلَغَــتْ حَــدَّ الثــلاثيــن مُــدَّتــي وَهــذا طِــرازُ الشيــبِ فيــه يُمــدَّدُ[٦]

ما يستملح مما قيل في حسن الحديث

وأبياتُ ابن الرومي من أجود ما قيل في حسن الحديث، وقد توسَّع الشعراء في هذا الباب، وكَثُر إحسانهم، كما كَثُر افتنانهم، وسأَجري شأْواً في مختار ما قيل في ذلك، وأعود إلى ما بدأْتُ به.

قال القُطَامي ـ واسمه عُمَيْر بن شُيَيْم التَّغْلبيّ[٧]، وسمي القُطَامي لقوله:

يَحُطّهــنّ جــانبــاً فَجــانبــا حَــطّ القُطــامِــيِّ القَطَــا القَــواربــا

وقال أبو عبيدة: ويقال للصقر قُطَامي وقَطَامي:

---

(١) هو أبو القاسم، إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني، المعروف بالصاحب: كاتب، أديب، مشارك في أنواع العلوم. ولد بأصطخر، وقيل: بالطالقان، وتولى الوزارة للملك مؤيد الدولة بن بويه، ومدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين. توفي بالري سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م. من آثاره: «المحيط» في اللغة، و«ديوان شعر»، و«كتاب الوزراء»، وغيرها. (الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ١٩٢؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٦/ ١٦٨).

(٢) الأصيد: من يرفع رأسه، أو يميل به كِبْراً.

(٣) عَنَّتْ: عرضت. ومطلق اليدين: سريع.

(٤) الإحضار: نوع من السير سريع. وتجهد: تتعب.

(٥) أرمد: كليل البصر.

(٦) الطراز: ما ينسج من الثياب للسلطان (فارسي مُعرّب)، وقيل: هو علم الثوب، وقيل: هو الجيد من كل شيء.

(٧) هو أبو سعيد، عمير بن شُييم التغلبي، من بني بكر بن حبيب، وهم بطن من تغلب، والقطامي لقب غلب عليه. قدم دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيز، ويقال: إنه كان أحسن الشعراء ابتداء قصيد. توفي نحو ١٣٠ هـ/ نحو ٧٤٧ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٣٥).

وفـي الخُـدُورِ غَمـامـاتٌ بَـرَقْـنَ لنـا ... حَتَّـى تَصَيَّـدْنَنَـا مـن كُـلِّ مُصْطـادِ
يَقْتُلْنَنَـا بِحَـديـثٍ لَيْـسَ يَعْلَمُـهُ ... مَـنْ يَتقيـنَ وَلا مَكْنـونُـهُ بـادِي[١]
فَهُـنَّ يَنْبِـذنَ مِـنْ قَـولٍ يُصِبْـنَ بِـهِ ... مَواقعَ الماءِ من ذي الغُلَّةِ الصَّادي[٢]

وقال أبو حيَّة النُّمَيْري، واسمه الهَيْثَم بن الرَّبيع[٣]:

وَخبَّـرَكِ الـواشُـونَ أَنْ لَـن أُحبَّكُـم ... بَلَـى وَسُتـورِ اللهِ ذاتِ المحـارمِ
وَإِنَّ دمـاً، لَـوْ تَعلميـنَ، جَنَيْتِـهِ ... على الحيّ جَانـي مِثْلِـهِ غَيْـرُ سـالـم
أَصَـدُّ وَمـا الصـدُّ الـذي تَعلمينـهُ ... عَـزاءٌ بِكُـم إلا ابتـلاعُ العَـلاقـم[٤]
حَيَـاءً وَتُقْيـا أَنْ تَشيـعَ نَميمـةٌ ... بِنـا وَبِكُـمْ، أُفٌّ لأَهـلِ النَّمـائـم[٥]
أَمـا إنّـهُ لـو كـانَ غَيـرُكِ أَرْقَلَـتْ ... إليـه القَنـا بـالـرَّاعفـاتِ اللهـاذِمِ[٦]
وَلكنّـهُ واللهِ مـا طَـلَّ مُسْلمـاً ... كَغُـرِّ الثنـايـا وَاضحـاتِ المـلاغـم[٧]
إذا هُـنَّ سَـاقَطْـنَ الأَحـاديـثَ لِلفتـى ... سُقُوطَ حَصَى المُرْجَانِ من كَفِّ نَاظم
رَمَيْـنَ فَـأَنْفَـذْنَ القُلـوبَ، وَلا تَـرَى ... دَمـاً مـائِـراً إلا جَـوًى فـي الحيـازِمِ[٨]

---

(١) يتقين: يخشين، يخفن. البادي: الظاهر.

(٢) الصادي: الظمآن. مواقع الماء من الظمآن: أحشاؤه. يريد: أن حديثهن يشفي العاشق المولّه، كما يطفىء الماء لوعة الغليل.

(٣) هو أَبو حيَّة، الهيثم بن الربيع بن زرارة، من بني نمير بن عامر: شاعر فصيح، ومقصد وراجز، من أهل البصرة، ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. أخذ عن الفرزدق وتعصب له، ومدح خلفاء عصره جميعاً. توفي نحو ١٨٣ هـ/ نحو ٨٠٠ م. وفي تاريخ وفاته خلاف. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٤٣؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ١٤٥).

(٤) العلاقم: جمع علقم، وهو الحنظل، وكل شيء مُرّ. ويروى البيت:
أَصـدُّ ومـا الصَّـدُّ الـذي تَعْلَمِينَـهُ ... شِفَـاءٌ لَنَـا إِلاَّ اجْتِـرَاعُ العَـلاقـمِ

(٥) التقيا: الخوف. وأُفٌّ لأهل النمائم: تبًّا لهم.

(٦) أرقلت: أسرعت. والراعفات والرواعف: الرماح تسيل بالرعاف، وهو الدم. واللهاذم: القواطع، الواحد: لهذم.

(٧) الثنايا: أسنان الفم الأمامية، الواحدة: ثنية. والملاغم: طرف الأنف وما حوله إلى الشفتين، وطلَّ: من قولهم: دم مطلول: مهدور. والوضوح: البياض.

(٨) أنفذن القلوب: رمينها فأنفذن فيها سهامهن، وفي رواية: «أقصدن القلوب»، من قولهم: أَقصد الرجل إذا طعنه فلم يخطىء مقاتله، والدم المائر: السائل. والحيازم: جمع حيزوم، وهو ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر.

وقال أيضاً:

حَديثٌ ـ إذَا لم تَخْشَ عيناً ـ كَأنَّهُ إذا ساقَطَتْهُ الشَّهْدُ أَو هُوَ أَطْيَبُ
لَوَ أنكَ تَسْتَشْفي بهِ بَعْدَ سَكْرَةٍ مِنَ الموتِ كَادتْ سَكْرَةُ الموتِ تَذْهَبُ

إلى هذا ينظر قولُ الآخَرِ وإن لم يكن منه:

أَقولُ لأَصْحَابي وَهُمْ يَعْذِلُونَني وَدَمْعُ جُفُوني دَائمُ العَبَرَاتِ
بِذِكْرِ مُنَى نَفْسي فَبلُّوا، إذا دَنَا خُروجي مِنَ الدنيا، جُفُوفَ لَهاتي[١]

وقال سُدَيْفُ مولى بني هاشم[٢] يصفُ نساءً:

وَإذا نَطقْنَ تَخَالُهُنَّ نَوَاظِماً دُرًّا يُفَصَّلُ لُؤلُؤاً مَكْنُونَا
وَإذا ابْتَسَمْنَ فَإنهنَّ غَمامَةٌ أَو أُقحوانُ الرَّمْلِ باتَ مَعِينا[٣]
وَإذا طَرَفْنَ طَرفْنَ عَنْ حَدَقِ المَهَا وَفَضَلْنَهُنَّ مَحَاجِراً وَجُفُونا[٤]
وَكأَنَّ أَجْيادَ الظباءِ تَمُدّها وَخُصُورهنَّ لَطافةً وَلُدُونا[٥]
وَأَصحُّ ما رأَتِ العُيونُ مَحَاجِراً وَلَهُنَّ أَمْرَضُ ما رَأَيْتُ عُيُونا[٦]
وَكأنّهنَّ إذا نَهَضْنَ لِحاجةٍ يَنْهَضْنَ بِالعَقَداتِ مِنْ يَبْرِينا[٧]

---

(١) اللَّهاةُ: اللَّحْمَةُ المُشرفة على الحلق.

(٢) هو سديف بن إسماعيل بن ميمون، مولى بني هاشم: شاعر حجازي مفلق، وخطيب مصقع، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان شديد التعصب لبني هاشم، شديد التحريض على بني أمية. توفي سنة ١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٦٤٧).

(٣) الأقحوان: زهر أبيض، تُشَبَّهُ ثغور الحسان الناصعة البياض به. المعين: الممطور: الذي سقط عليه المطر، وهو أكثر نُضْرةً.

(٤) طَرَفْنَ: حَرَّكْنَ عيونهن. المها: بقر الوحش، الواحدة مهاة، سُمِّيت بذلك على التشبيه بالبِلَّورة والدُّرة، فإذا شبهت المرأة بالمهاة في البياض، فإنما يُعْنَى بها البلورة أو الدرة، وإذا شُبّهت بها في العينين، فإنما يُعنى بها البقرة.

(٥) الأجياد: الأعناق، الواحد: جيد. واللدون واللدونة: الرقّة.

(٦) ومثله قول جرير:

يَصْرَعْنَ ذَا اللبِّ حَتَّى لا حِراكَ بهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانا

«ديوانه: ص ٤٩٢».

(٧) العقدات: جمع عقدة، وهي السفح والكثيب. ويبرين: اسم مكان في بلاد البحرين، وفيه لغتان: يبرون (بالرفع)، ويبرين (بالنصب والجر). (ابن منظور، لسان العرب: يبر).

وقال الطائي[1]:

تُعطيكَ مَنْطِقَهَا فتَعْلَمُ أنّهُ ... لِجَنَى عُذُوبَتِهِ يَمُرُّ بثَغْرِها
وَأَظُنُّ حَبْلَ وِصالِها لِمُحِبِّها ... أَوْهَى وَأَضْعَفَ قُوَّةً من خَصْرِها

أخذه أبو القاسم بنُ هانىء[2]، فقال يمدح جعفر بن علي[3]، إلاَّ أنه قَلَبَه فقال:

قَدْ طَيَّبَ الأفواهَ طِيبُ ثَنائِه ... مِنْ أَجْلِ ذا نَجِدُ الثُّغورَ عِذَابا
وَكَأَنَّما ضَرَبَ السماءَ سُرَادِقاً ... بِالزَّابِ، أو رَفَعَ النُّجومَ قِبابا[4]
أَرضاً وَطِئْتُ الدُّرَّ رَضْرَاضاً بِها ... وَالمِسْكَ تُرْباً وَالرياضَ جَنَابا[5]

وقال الطّائي[6]:

بَسَطَتْ إليك بَنَانةً أُسْرُوعا ... تَصِفُ الفِرَاقَ وَمُقْلَةً يَنْبُوعا[7]
كَادَتْ لِعِرْفَانِ النَّوى أَلفاظُها ... مِنْ رِقَّة الشَّكْوَى تَكُونُ دُمُوعا

ومن جيِّد هذا المعنى وقديمه قولُ النابغة الذّبْياني[8]:

---

(١) الطائي: هو أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، وقد وردت ترجمته في مكان سابق من هذا الكتاب. والبيتان في ديوانه: ٢/ ٤٢٦.

(٢) هو أبو القاسم، وأبو الحسن، محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي: أشعر المغاربة على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين. ولد ونشأ بإشبيلية، واتصل بصاحبها وحظي عنده، وكان متهماً بمذاهب الفلاسفة. قُتِل غيلةً سنة ٣٦٢ هـ/ ٨٧٣ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٤٢١).

(٣) هو أبو علي، جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي: صاحب المَسِيلة، وأمير الزاب من أعمال إفريقية. كان سمحاً كثير العطاء، مؤثراً لأهل العلم. قُتِل سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٥ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٣٦٠).

(٤) الزاب: بلدة من أعمال إفريقية.

(٥) الرَّضْرَاضُ: صغار الحصى.

(٦) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٢٤١. والبيتان من قصيدة يُعَرِّض فيها بإسحاق بن إبراهيم المصعبي لأنه حجبه.

(٧) الأُسروع: دود أحمر الرأس، تُشَبَّه به الأنامل المخضبة الطريّة.

(٨) هو أبو أمامة، وأبو ثمامة، زياد بن معاوية بن ضباب بن سعد بن ذبيان، وينتهي نسبه إلى مضر. لقب بالنابغة لقوله: «فقد نبغت لهم منا شؤون». وهو شاعر جاهلي فحل، من الطبقة الأولى، =

لَـوْ أنّهـا عـرَضَـتْ لأَشْمَـطَ رَاهـبٍ عَبَـدَ الإلٰـهَ صَـرُورَةٍ مُتَعَبِّـدِ[١]
لَـرنَـا لِلَهْجَتِهـا وَطِيـبِ حَـديثِهـا وَلخـالَـهُ رُشْـداً وَإِنْ لـم يَـرْشُـدِ
نَظَـرَتْ إليـكَ بِحَـاجـةٍ لـم تَقْضِهـا نَظَـرَ السليـمِ إلـى وُجـوهِ العُـوَّدِ[٢]

ومن مشهور الكلام قولُ الآخر:

وَكُنْتُ إذا مـا زُرْتُ سُعْـدَى بـأَرْضِهـا أَرى الأَرضَ تُطْوَى لِي وَيَدْنُو بَعيدُها
مِـنَ الْخَفـرات البِيـضِ وَدَّ جَليسُهـا إذا مـا انْقَضتْ أُحدوثَةٌ لـو تُعيدُها[٣]
تَحَلَّـلُ أَحْقَـادِي إذا مـا لَقِيتُهـا وَتُـرْمَـى بـلا جُـرْمٍ عَلَـيَّ حُقُـودُهَـا[٤]

وقال بَشّار[٥]:

وَكَـأَنَّ رَجْـعَ حَـدِيثِهـا قِطَـعُ الـرِّيـاضِ كُسِيـنَ زَهْـرَا[٦]
حَـوْراءُ إنْ نظَـرتْ إليـ ـكَ سَقَتْـكَ بـالعينيـن خَمْـرَا[٧]
تُنْسِـي الغَـوِيَّ مَعَـادَهُ وَتكـونُ لِلحُكمـاءِ ذِكْـرا[٨]
وَكَـأَنَّهـا بَـرْدُ الشـرا بِ صَفَـا وَوافَـقَ مِنْـكَ فِطْـرَا[٩]

= وأحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً. توفي نحو ١٨ ق.هـ/ نحو ٦٠٤ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٦؛ البطليوسي، شرح الأشعار الستة: ٣٢٧ ـ ٥٣٠). والأبيات في ديوانه: ص ٤١.

(١) الأشمط: الذي يخالط سواد شعره بياض. الراهب: العابد المتنسك. الصرورة: الذي لم يتزوج.

(٢) العُوَّدُ: جمع عائد، وهو الزائر في المرض. ويروى: «نظر السقيم».

(٣) الخَفَراتُ: من الخفر، وهو الحياء.

(٤) تحلل: تتحلل وتذوب. والحقود والأحقاد: جمع حقد، وهو الضغن (إمساك العداوة في القلب، والتَّربُّصُ لِفُرْصَتها).

(٥) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٦٢ ـ ٦٣.

(٦) رجع: مصدر يراد به اسم المفعول، أي المرجوع، ورجع الحديث: للجواب، يقال: رجع الحديث: أجاب.

(٧) الحوراء: البيضاء، والحور في العين: هو شدة بياض بياضها مع شدة سواد سوادها.

(٨) لم يرد هذا البيت في رواية الديوان.

(٩) يشبهها ببرد الشراب الصافي الذي يغريه بالإفطار.

وَكَــأَنَّ تَحْــتَ لِسَــانِها هَــارُوتُ يَنْفُــثُ فيــه سِحْــرَا[١]
وَتخَــالُ مَــا جَمَعَــتْ عليــهِ ثِيَــابَهَــا ذَهبــاً وَعِطْــرا[٢]

وسمع بشارٌ قولَ كُثَيِّر بن عبد الرحمن[٣]:

أَلا إِنمــا لَيْلَــى عَصَــا خَيْــزُرَانَــةٍ إذا غَمــزُوهــا بــالأكُــفّ تَلِيــنُ

فقال: قاتل الله أبا صَخْر! يزعم أنَّها عَصاً ويعتذر بأنها خَيْزُرَانَةٌ، ولو قال: عَصا مُخّ، أو عصا زِبْدٍ؛ لَكان قد هَجَّنَهَا مع ذكر العصا، هلاّ قال كما قلت[٤]:

وَدَعْجَــاء المَحَــاجِــرِ مِــنْ مَعَــدٍّ كَــأَنَّ حَــدِيثَهَــا ثَمَــرُ الْجِنَــانِ[٥]
إِذَا قَــامَــتْ لِحَــاجتِهــا تَثَنَّــتْ كَــأَنَّ عِظَــامَهَــا مِــنْ خَيْــزُرَانِ

وبعد قول كُثيِّر: «ألا إنما ليلى عصا خيزرانة»:

تَمَتَّــعْ بِهــا مــا سَــاعَفَتْــكَ، وَلا يَكُــنْ عَلَيْكَ شجًى فــي الصَّــدْرِ حيــنَ تَبيــنُ
وَإِنْ هــي أَعْطَتْــكَ اللّيــانَ فَــإِنَّهــا لآخــرَ مِــنْ خُــلاّنِهــا سَتَلِيــنُ
وَإِن حَلَفَــتْ لا يَنْقُــضُ النَّأْيُ عَهْــدَهــا فَلَيْــسَ لِمخضُــوبِ البَنَــانِ يَميــنُ

وقال البُحْتُرِيّ[٦]:

---

(١) يشبه تأثير كلامها في نفس سامعها بتأثير السحر، وهو مأخوذ من قول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرا». وجعل هاروت ـ وهو المشهور بتمام القدرة على السحر ـ نافثاً، لأنهم كانوا يعالجون السحر بالنفث في العقد، وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَد﴾ (سورة الفلق، آية ٤).

(٢) «ما جمعت عليه ثيابها»: جسدها.

(٣) هو أبو صخر، كُثيّر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي: من فحول الشعراء، من أهل المدينة. كان مغاليا في التشيع، يذهب مذهب الكيسانية، ويقول بالرجعة والتناسخ. تُيِّم بحب عزّة بنت جميل، فنسب إليها، وله معها أخبار كثيرة. توفي سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م. (البغدادي، خزانة الأدب: ٥/ ٢٢١؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٦١٧).

(٤) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٩٥، وبعدهما:

يُمَنِّيــكَ المُنَــى نَظَــرٌ إِلَيْهَــا وَيَصْــرِفُ وَجْهُهَــا وَجْــهَ الــزَّمَــانِ

(٥) الدعج في العين: هو شدّة سواد سوادها مع سعتها. والمحاجر: العيون.

(٦) البحتري، الديوان: ١/ ٢٠٥. وفيه: «والنقا موعد لنا»، و«فمن لُؤْلُؤٍ تجلوه عند ابتسامها».

وَلَمَّـا التقَيْنَـا وَاللّـوَى مَـوْعِـدٌ لَنَـا تَعجَّـبَ رَائـي الـدُّرِّ حُسْنـاً ولاَقِطُـهْ
فَمِـنْ لُـؤلُـؤٍ تَجْنيـه عِنْـدَ ابْتِسَـامهـا وَمِـنْ لـؤلـؤٍ عنـد الحـديـثِ تُسَاقِطُـهْ

وقال المتنبي(١):

أَمُنْعِمَـــةٌ بسـالعَـــوْدَةِ الظَّبْيَـــةُ التـــي بِغَيْـرِ وَلِـيٍّ كـانَ نَـائِلُهـا الـوَسْمـي(٢)
تَـرَشَّفْـتُ فَـاهَـا سُحْـرَةً فَكـأننـي تَرَشّفتُ حَرَّ الوَجْدِ مِنْ باردِ الظَّلْم(٣)
فَتَـاةٌ تَسَـاوَى عِقْـدُهـا وَكـلامُهـا وَمَبْسِمُهـا الـدُّرِّيُّ فـي النَّثْـرِ وَالنَّظْـمِ(٤)

تفسير حديث وضبط لفظه

عاد الحديثُ الأول ـ قال أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ إسحاقَ الزجَّاجي(٥): حدثنا يوسف بن يعقوب قال: أخبرني جدِّي قراءة عليه، عن أبي داود، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر لَحُكْماً، وإن من البيان لَسِحْراً» قال أبو القاسم: هكذا روينا الخبر، وراجعت فيه الشيخ، فقال: نعم، هو: «إن من الشعر لَحُكْماً» بضم الحاء وتسكين الكاف، قال: ووجهُه عندي إذا روي هكذا: إن من الشعر ما يلزم المقولَ فيه كلزوم الْحُكم للمحكُوم عليه؛ إصَابة للمعنى، وقصداً للصواب وفي هذا يقول أبو تمام(٦):

وَلَـوْلا سبيـلٌ سَنَّهـا الشِّعْـرُ مـا دَرَى بُغـاةُ العُلْـى مِنْ أَيـنَ تُـؤْتَـىٰ المكَـارِمُ(٧)

---

(١) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٠٢.

(٢) الوسمي: المطر الذي يسقط في الربيع. والولي: المطر الذي يليه. والنائل: العطاء، ويريد به الوصال.

(٣) التَّرشُّف: الامتصاص. والسُّحْرَةُ: بمعنى السَّحَر. والظَّلْمُ: ماء الأسنان وبريقها. أي أن ذلك هيج نار وجده، فكأنه ترشف من برودة فمها حراً.

(٤) في الديوان: «في الحسن والنظم».

(٥) هو أبو القاسم، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي، النهاوندي، الزجاجي: لغوي، نحوي، أصله من نهاوند، وولد بها، ونشأ ببغداد، وتتلمذ على إبراهيم السري الزجاج فنسب إليه. توفي بدمشق سنة ٣٣٧ هـ/ ٩٤٩ م. من تصانيفه: «الجمل الكبرى» في النحو، و«اللامات في اللغة»، و«الإيضاح في علل النحو» وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٥/ ١٢٤).

(٦) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٩٠ ـ ٩٢. وفيه: «ولولا خِلالٌ»، و«بغاة الندى».

(٧) بُغاة العُلى: طلابها.

يُرَى حِكْمةً ما فيهِ وَهْوَ فُكَاهةٌ ... وَيُرْضَى بما يَقْضِي بهِ وَهو ظَالمُ

انتهى كلام أبي القاسم.

الحُطَيْئَة وبنو أَنْفِ النَّاقَة

وقد وجدنا في الشعر أبياتاً يُجْرَى على رسمها، ويُمْضَى على حكمها؛ فقد كان بنو أَنْف الناقة إذا ذَكَر أحدٌ عند أحد منهم أنف الناقة ـ فضلاً عن أن ينسبهم إليه ـ اشتدَّ غضبُهم عليه؛ فما هو إلا أن قال الحُطَيْئَة[1] يمدحهم:

سِيرِي أُمَامَ فَإِنَّ الأَكْثَرِينَ حَصًى ... وَالأَطْيبِينَ إذا ما يُنْسَبُون أَبَا[2]

قَوْمٌ إذا عَقَدوا عَقْداً لِجَارِهِمُ ... شَدّوا العِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَه الكَرَبا[3]

قَوْمٌ الأَنفُ والأَذْنَابُ غَيْرهُمُ ... وَمنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَاقةِ الذَّنَبَا

فصار أحدُهم إذا سئل عن انتسابه لم يَبْدأ إلا به.

وأنفُ الناقة: هو جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم.

بنو العجلان والنجاشي الحارثي

وكان بنو العَجْلان يَفْخَرون بهذا الاسم، ويتشرّفُون بهذا الوَسْم؛ إذ كان عَبْدُ الله بن كَعْب جَدُّهم إنما سُمّي العَجْلان لتعجيله القِرَى للضِيّفَان؛ وذلك أن حيًّا من طيىء نزلوا به، فبعث إليهم بِقِرَاهم عَبْداً له، وقال له: اعْجَل عليهم، ففعل العبدُ، فأعتقه لعجلته، فقال القوم: ما ينبغي أن يسمى إلاّ العجلان؛ فَسُمِّيَ بذلك؛ فكان شرفاً لهم، حتى قال

---

(١) هو أبو مليكة، جرول بن أوس بن ملك العبسي، المعروف بالحطيئة: شاعر، مقدم، فصيح، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان هجاءً عنيفاً، هجا أمه وأباه ونفسه. عدّه ابن سلام في الطبقة الثانية من فحول الجاهلية. توفي نحو ٤٥ هـ/ نحو ٦٦٥ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ١٠٤؛ البغدادي، خزانة الأدب: ١/ ٤٠٩).

(٢) أُمام (بضم الهمزة): مرخم أُمامة، وهو اسم امرأة. والأكثرون حصى: أي أكثر الناس عديداً، ومنه قول الأعشى:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهم حَصًى ... وَإِنّما العِزَّةُ لِلكَاثِرِ

(الأعشى، الديوان: ٩٤).

(٣) العناج: زمام الناقة، وحبل الدلو. والكرب أيضاً: من حبال الدلو. والمراد بهذا: أنهم يوثقون عهودهم، ويحافظون عليها.

النَّجاشي[١]، واسمه قَيْسُ بن عمرو بن حَزن بن الحارث بن كَعْب يهجوهم:

أُولئِـكَ أَخْـوالُ اللَّعِيـنِ وَأُسْـرةُ الهَـ ـجِيـنِ وَرَهْـطُ الـواهِـنِ المُتَـذلّـلِ[٢]
وَمـا سُمِّـي العَجْـلاَن إِلاّ لِقَـوْلِـهِ خُذِ القَعْبَ واْحلب أَيُّها العَبْدُ وٱعْجلِ[٣]

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال: كعبي، ويكني عن العجلان.

وزعمت الرواة أنّ بني العجلان استعدَوْا[٤] على النجاشي ـ لما قال هذا الشعر ـ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقالوا: هَجَانَا، قال: وما قال فيكم؟ فأنشدوه قوله:

إذا اللهُ عـادَى أَهـلَ لُـؤم وَرِقَّـةٍ فَعـادَى بنـي العَجْـلاَن رَهْـطَ ابـن مُقْبِـلِ

فقال: إنَّ الله لا يُعَادي مسلماً، قالوا: فقد قال:

قُبَيِّلَـةٌ لا يَغْـدِرون بِـذِمَّـةٍ وَلا يَظْلِمُـونَ النـاسَ حَبَّـة خَـرْدَلِ[٥]

فقال: وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك! قالوا: فقد قال:

تَعَـافُ الكِـلاَبُ الضـارِيَـاتُ لُحـومَهُـمْ وَتَـأْكلُ من عَوْفِ بن كَعْبِ بن نَهْشَلِ[٦]

فقال: كفى ضَياعاً مَن تأكل الكلابُ لحمه! قالوا: فقد قال:

وَلا يَـرِدُون المـاءَ إلاَّ عشيـةً إذا صَـدَر الـوُرَّادُ عَـن كـلِّ مَنْهَـلِ[٧]

فقال: ذلك أصفى للماء، وأقل للزّحام! قالوا: فقد قال:

---

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك، من بني الحارث بن كعب، من كهلان، ولقب بالنجاشي نسبة إلى أمه وكانت حبشية: شاعر هجّاء، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. ولد ونشأ في نجران باليمن، ثم انتقل إلى الحجاز، فالكوفة، واستقر فيها، وهجا أهلها. توفي في «الحج» باليمن سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٢٤٦).

(٢) الأسرة والرهط: بمعنى القوم، أو الأهل والعشيرة. والهجين: الذي خُولط في نسبه أو من كانت أُمُّه أَمَةً مملوكة. والواهن: الضعيف.

(٣) القَعْبُ: القدح الضخم الغليظ.

(٤) استعدوا: استعانوا واستنصروا.

(٥) قُبَيِّلَةٌ: تصغير قبيلة. والمراد: أنهم لا يقدرون لضعفهم على ظلم أحد.

(٦) الكلب الضاري: الذي اعتاد الصيد، وضَرِيَ الكلب وأضراه صاحبه: عَوَّدهُ وأَغراه به.

(٧) أي: هم لضعفهم وعجزهم لا يستطيعون ورود الماء إلاّ إذا انصرف الناس عنه.

وَمـا سُمِّـيَ العَجْـلانَ إلاَّ لقـولِـهِ   خُذِ القَعْبَ واحْلِبْ أَيها العبدُ واعْجَلِ

فقال: سيّد القوم خَادِمهُم![1].

وكان عمر رضي الله عنه أَعلَم بما في هذا الشعر، ولكنه دَرَأَ الحدودَ بالشبهات.

بنو نمير وجرير

وهؤلاء بنو نمير بن عامر بن صَعْصَعة من القوم أحدُ جَمرات العرب وأشرف بيوت قيس بن عيلان بن مضر. وجمرات العرب ثلاثة؛ وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم مُتَوافرون في أنفسهم، لم يُدْخِلوا معهم غيرهم؛ والتجمير في كلام العرب: التجميع.

وقف على جمرات العرب

وهم: بنو نمير بن عامر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد. فطفئت جمرتان، وهما بنو ضبَّة لأنها حالفت الرباب، وبنو الحارث لأنها حالفت مَذْحِج، وبقيت نمير لم تحالف؛ فهي على كَثْرَتها ومَنَعَتِها. وكان الرجل منهم إذا قيل له: ممَّنْ أَنْتَ؟ قال: نميري كما ترى! إدلالاً بِنَسَبِه، وافتخاراً بمنصبه، حتى قال جرير بن [عطية بن] الْخَطَفَى لِعُبَيْد بن حُصَيْن الراعي أحد بني نمير بن عامر[2]:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إنَّـكَ مِـن نُمَيْـرٍ   فـلا كَعْبـاً بَلَغْـتَ ولا كِـلابَـا

كعب وكلاب: ابنا ربيعة بن عامر بن صعصعة؛ فصار الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟ يقول: عامري، ويكني عن نمير.

ومرَّت امرأة بقوم من بني نمير، فأحَدُّوا النظر إليها، فقال منهم قائل: والله إنها لَرَشْحَاء[3]، فقالت: يا بني نمير، والله ما امتثلتم فيَّ واحدةً من اثنتين، لا قول الله عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[4] ولا قول الشاعر:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إنَّـكَ مِـن نُميـرِ

---

(١) في العمدة في محاسن الشعر: ١/ ٥٢: «فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم».

(٢) جرير، الديوان: ص ٦٣.

(٣) الرَّشْحَاءُ: الكثيرة العرق، وذلك من عيوب النساء.

(٤) سورة النور، آية (٣٠).

شَرِيك بن عبد الله النُّميري وابن هُبَيْرَة الفَزَاري

وسايَرَ شَرِيك بن عبد الله النميري يزيدَ بن عُمر بن هُبَيرة الفَزاري، فَبَرَّزَتْ بغلة شَرِيك[١]، فقال له يزيد: غُضَّ من لجامها، فقال: إنها مكتوبة أصلح الله الأمير! فضحك، وقال: ما ذهبت حيث أردت.

وإنما عرَّض بقوله: «غُضَّ من لجامها» بقول جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك من نُمَيْرِ

فَعَرَّضَ له شَرِيكٌ بقول ابن دَارَة:

لا تَأمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ ... على قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأَسْيَارِ[٢]

الفَرَزْدَقُ يهجو ابن هُبَيْرة

وبنو فزارة يُرْمَوْنَ بإتْيَانِ الإبل، ولذلك قال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك لما ولى عمر بن هُبَيْرة[٣] العراق:

أَميرَ المؤمنين لأَنْتَ مَرْءٌ ... أَمِينٌ لَسْتَ بالطَّبِعِ الحَرِيصِ
أَوَلَّيْتَ العِراقَ وَرَافِدَيْهِ ... فَزَارِيًّا أَحَذَّ يَدِ القَمِيصِ[٤]
وَلَم يَكُ قَبْلَهَا رَاعِي مَخَاضٍ ... لِيأمَنَهُ على وَرِكَيْ قَلُوصِ[٥]
تَفَيْهَقَ بالعراقِ أَبو المُثَنَّى ... وَعَلَّمَ قَوْمَهُ أَكْلَ الخَبِيصِ[٦]

الرافدان: دجلة والفرات.

---

(١) برزت: سبقت.
(٢) القلوص: الناقة. اكتبها: مأخوذ من الكُتْبَة، وهو سير يُكْتَب به حياء الناقة لئلا يُنْزَى عليها. وكتب الناقة: ختم حياءها.
(٣) عمر بن هبيرة الفزاري: أمير من الدهاة الشجعان. ولاه عمر بن عبد العزيز الجزيرة، ثم ولّاه يزيد بن عبد الملك العراق وخراسان.
(٤) أحذّ: مقطوع، وقوله: «أحذ يد القميص»: كناية عن السارق.
(٥) الخوف على وركي الناقة: كناية عن الخوف من أن يأتيها الفزاري.
(٦) تفيهق: عاش عيشة مترفة منعمة. والخبيص: طعام يُصنع من التمر والسمن.

نُمَيْرِيٌّ يُجيب جَرِيراً

وقال بعض النميريين يجيبُ جَريراً عن شِعْرِه:

نُميــرٌ جَمْــرَةُ العــربِ التــي لَــمْ   تَــزلْ فــي الحــربِ تَلْتَهِــبُ التهــابــا
وَإنِـــي إذ أَسُـــبُّ بهـــا كُليبـــاً   فَتحْـــتُ عَليهـــمُ لِلْخَسْـــفِ بَـــابــا
وَلَـــولا أَنْ يُقَـــال هَجَـــا نُميـــراً   وَلَــمْ يَسْمَــعْ لِشَــاعــرِهــم جَــوَابــا
رَغِبْنَــا عَــنْ هِجــاءِ بنــي كُليْــبٍ   وَكيــف يُشَــاتِــمُ النــاسُ الكِــلابــا

فما نفع نميراً، ولا ضرَّ جريراً، بل كان كما قال الفرزدق[١]:

مــا ضَــرَّ تَغلِــبَ وَائــلٍ أَهَجَــوْتَهَــا   أَمْ بُلْــتَ حَيْــثُ تَنَــاطَــحَ البَحْــرَانِ

وقال أبو جعفر محمد بن منذر مولى بني صَبير بن يربوع في هجائه لثقيف:

وَسَــوْفَ يَــزيــدكــم ضَعَــةً هِجَــائــي   كمــا وَضَــعَ الهِجــاءُ بنــي نَميــرِ

وسمع الراعي منشداً ينشد:

وَعَــاوٍ عَــوَى مِــنْ غَيْــرِ شَــيءٍ رَمَيْتُــهُ   بِقَــافيــةٍ أَنْفَــاذُهَــا تَقْطُــر الــدَّمــا[٢]
خَــرُوجٍ بِــأَفْــوَاهِ الــرُّوَاةِ كــأَنَّهَــا   قَــرَى هُنْــدُوَانــيٍّ إذا هــزَّ صَمَّمــا[٣]

فارتاع له، وقال: لمن هذا؟ قيل: لجرير، قال: لعن الله من يلومني أن يغلبني مثل هذا!

فضل الشعر

وقد بنى الشعرُ لقوم بيوتاً شريفة، وهدم لآخرين أَبْنِية منيفة:

---

(١) هو أبو فراس، همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي، الشهير بالفرزدق: شاعر من الطبقة الأولى، من أهل البصرة. نشأ على حب آل البيت، ثم انضم إلى شعراء الأمويين تكسباً لا اعتقاداً. كان عظيم الأثر في اللغة حتى قيل: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة. توفي في بادية البصرة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٢١/ ٢٩٩؛ البغدادي، خزانة الأدب: ١/ ٢١٧). والبيت في ديوانه: ٢/ ٣٤٤.

(٢) أنفاذ: جمع نَفَذ (بفتحتين)، وهو الشق الذي تحدثه الطعنة. ويروى: «بقارعة».

(٣) الهندواني: السيف المصنوع في الهند، ويقال: هِندي، وهندواني، وَمُهنَّد. والقرى: الشق والصدع. وصَمَّمَ: أصاب المفصل وقطعه. والبيتان في ديوان جرير: ص ٤٤٦.

وَمـا هـو إلا القَـوْلُ يَسْـرِي فَتغتـدي   لـه غُـرَرٌ فـي أَوْجُـهٍ وَمَـوَاسِـمُ[١]

قال أبو عُبَيْدَة مُعمّر بن المُثَنَّى التميمي[٢]: سمعت أبا عَمْرو بن العلاء ورجل يقول: إنما الشعر كالمِيسَم[٣]. فقال: وكيف يكون ذلك كذلك؟ والميسم يذهب بذهاب الجلد ويَدْرُس مع طولِ العهد، والشعر يَبْقَى على الأبناء بعد الآباء، ما بقيت الأرض والسماء!

وإلى هذا نحا الطائي في قوله[٤]:

وَأَنِّـي رَأَيـتُ الـوَسْـمَ فـي خُلُـقِ الفتـى   هُو الوَسْمُ لا ما كانَ في الشَّعْرِ وَالجِلْدِ[٥]

وقال عمر رحمة الله عليه: تعلّموا الشعر؛ فإن فيه محاسِنَ تُبْتَغَى، ومساوىء تُتَّقَى.

وقال أبو تمام[٦]:

إنَّ القـوافـيَ والمسـاعـيَ لـم تَـزَلْ   مِثْـلَ النِّظـام إذا أَصـابَ فَـرِيـدا
هِـيَ جَـوْهـرٌ نَثْـرٌ فـإن أَلَّفْتَـهُ   فـي الشعـرِ كـان قَـلائـداً وَعُقُـودا
مِـن أَجـلِ ذلـكَ كـانـتِ العَـرَبُ الأُلـى   يَـدْعـونَ هـذا سُـؤدَداً مَحْـدُودا[٧]
وَتنِـدُّ عِنْـدَهُـم العُـلاَ إلاَّ إذا   جُعِلَـتْ لهـا مِـرَرُ القصيـدِ قُيُـودا[٨]

وقال علي بن الرومي[٩]:

---

(١) مواسم: جمع ميسم، وأصله من الوسم، وهو الكيّ.
(٢) هو أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري: أديب، لغوي، نحوي، عالم بالشعر، والغريب، والأخبار، والأنساب. ولد بالبصرة. من تصانيفه: «معاني القرآن»، و «نقائض جرير والفرزدق» و «مقاتل الفرسان»، وغيرها. توفي بالبصرة سنة ٢٠٩ هـ/ ٨٢٤ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١٢/ ٣٠٩).
(٣) الميسم: المكواة.
(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٩٢.
(٥) الوسم: العلامة وأثر الكيّ في الجلد. يقول: إني أرى الغدر وسماً يلوح على الإنسان، فوق الوسم الذي يكون في جلده.
(٦) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٣٢.
(٧) أراد أن الذي لا تكثر مدائحه، يكون مجده محدوداً مقصوراً على نفسه.
(٨) تندُّ: تنفر وتشرد. والمرر: جمع مِرة (بكسر الميم)، وهي إحكام الفتل.
(٩) هو أبو الحسن، علي بن العباس بن جريج، المعروف بابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م)، والبيتان في ديوانه: ١/ ٤٥٧، من قصيدة مدح بها أبا العباس بن الفرات.

أَرى الشعرَ يُحيي الناسَ والمجدَ بالذي ... تُبَقِّيه أَرواحٌ لـه عَطِـراتُ[١]
وَما المجدُ لَولا الشِّعْرُ إلا مَعاهِدٌ ... وَما الناسُ إلا أَعْظُمٌ نَخِرَاتُ[٢]

[شُذُور من كلام الرسول]

رجعت إلى ما قطعت، مما هو أَحقُّ وأَوْلَى وأَجَلُّ وأَعْلى، وهو كلامُ رسول الله ﷺ الكريمُ النَّجْرِ[٣]، العظيم القَدْر، الذي هو النهايةُ في البيان، والغايةُ في البرهان، المشتمل على جَوَامع الكلم، وبدائع الحِكم، وقد قال رسول الله ﷺ: أَنَا أَفْصَح العرب بَيْدَ أَنّي من قريش، واسْتُرضعت في سعد بن بكر! وليس بعضُ كلامه بأَوْلى من بعض بالاختيار، ولا أَحقَّ بالتقديم والإيثار؛ ولكني أُورد ما تيسَّر منه في أول هذا الكتاب استفتاحاً، وتَيَمُّناً بذلك واستنجاحاً.

وهذه شُذُورٌ[٤] من قوله ﷺ الصريح الفصيح، العزيز الوَجيز، المتضمّن بقليلٍ من المباني كثيرَ المعاني:

قوله للأنصار: إنكم لَتقلُّون عند الطَّمَع، وتَكْثُرون عند الفَزَع.

وقوله عليه الصلاة والسلام: المسلمون تَتَكافأُ دماؤُهم، ويَسْعَى بذمتهم أَدْناهم، وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم. الناسُ كإبل مائةٌ لا تجدُ فيها راحلة. إياكم وخَضْرَاء الدِّمَنِ[٥]. كلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفرا[٦] ـ قاله لأبي سُفْيان صخر بن حرب ـ. الناسُ معادن، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا. المؤمن للمُؤْمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُه بعضاً. أصحابي

---

(١) في الديوان:
أَرَى الشِّعْرَ يُحْيِي المَجْدَ وَالبَأْسَ وَالنَّدَى ... تُبَقِّيه أَرْوَاحٌ لَهَا عَطِـراتُ
والندى: الجود والكرم، والأرواح: الرياح.

(٢) المعاهد: الأطلال الدارسة، والمراد: أن المجد يفنى ويبلى كما الأطلال ما لم يدعمه الشعر.

(٣) النَّجْرُ: الأَصْلُ.

(٤) الشُّذور: جمع الشَّذْر: قطع من الذهب يُلقط من المعدن من غير إذابة الحجارة، ومما يصاغ من الذهب قرائد يُفَصَّلُ بها اللؤلؤ والجوهر، والشَّذْرُ أيضاً: صغار اللؤلؤ، شَبَّهها بالشذر لبياضها.

(٥) الدمن: جمع الدمنة، وهي مربط الإبل والخيل، ينبت فيها العشب فيكون شديد الخضرة لكثرة الماء والسماد. وخضراء الدمن: كناية عن المرأة الجميلة من بيت السوء.

(٦) الفرا: حمار الوحش. «كل الصيد في جوف الفرا»: مثل يضرب لمن يُفَضَّلُ على أقرانه (الميداني، مجمع الأمثال: ٢/ ١٣٦).

كالنجوم بأيِّهم اقتديتُم اهتديتُم. المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَيْ زورٍ. المرأة كالضلع إن رُمت قِوامها كسَرْتَها[١]، وإن داريتَها استمتعتَ بها. اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى. مَطْلُ الغنيِّ ظُلم. يدُ الله مع الجماعة. الحياءُ شُعْبةٌ من الإيمان. مثلُ أبي بكر كالقَطْر[٢]، أينما وقعَ نَفَع. لا تجعلوني في أَعْجَاز كتبكم كَقَدح الراكب[٣]. أربعةٌ من كنوز الجنة: كتمان الصَّدَقة والمرض والمصيبة والفاقة. جنة الرجل دارُه. الناس نيام فإذا ماتوا انْتَبَهُوا. كفى بالسلامة داءً. إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم، فَسَعُوهم بأخلاقكم. ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى. كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له. اليمين حِنْثٌ أو مَنْدَمة[٤]. دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك. اُنْصُرْ أَخاكَ ظالماً كان أو مظلوماً. احترسوا من الناس بِسُوءِ الظَّنّ. النَّدَمُ تَوْبة. انْتِظارُ الفرج عبادة. نعم صَوْمَعةُ الرجل بَيْتُهُ. المُسْتَشيرُ مُعانٌ والمُسْتَشارُ مُؤْتَمن. المرءُ كثيرٌ بأخيه. إنَّ للقلوب صَدَأً كصدإِ الحديد وجِلاؤُها الاستغفار. اليوم الرِّهان وغَداً السِّباق، والْجَنَّةُ الغايةُ. كلُّ مَنْ في الدنيا ضيفٌ، وما في يديه عاريَّةٌ[٥]، والضيف مُرْتحِل، والعاريَّة مُؤدَّاة.

ومن جوامع كَلِمِهِ عليه الصلاة والسلام ما رواه أهلُ الصحيح عن عَلْقمة بن وقّاص الليثي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ اللهﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيّاتِ، وإنما لكل امرىءٍ ما نَوَى، فمن كانت هِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله فَهِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله، ومن كانَتْ هِجرتُه إلى دُنْيا يُصِيبها، أو امرأة يتزوّجها، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجر إليه».

قال أبو القاسم حمزة بن محمد الكناني: سمعتُ أهلَ العلم يقولون: هذا الحديث ثُلُثُ الإسلام، والثلث الثاني ما رواه النعمان بن بشير أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الحلاَلُ بيِّن، والحرام بَيِّن، وبينهما أمورٌ مشتبهات، فمن تركها كان أَوْفَى لدينه وعِرْضِه، ومن واقعها كان كالراتع حول الْحِمَى؛ ألا وإنَّ لكل ملك حِمًى، ألا وإنّ حِمَى الله مَحَارِمُه»[٦].

---

(١) القِوامُ: التقويم.

(٢) القطر: المطر.

(٣) الأعجاز: الأواخر.

(٤) الحِنْثُ: الذنب، والمعنى: أن القسم يوقع صاحبه بين الذنب والندم.

(٥) العارية والعارة: ما يتداوله الناس بينهم، ويقال: العارية: منسوبة إلى العارة، وهو اسم من الإعارة، تقول: أعرته الشيء إعارةً وعارةً، واستعرت منه عاريةً فأعارنيها.

(٦) الحمى: الشيء المحمي الممنوع. والمحارم: جمع محرم بمعنى الحرام، يعني أن المحرمات التي نهى الله ورسوله عنها تشبه الحمى، فكما أنه لا يجرؤ أحد على الاقتراب من حمى الملوك، ينبغي ألاَّ يقرب أَحد ما حرَّمه الله ورسوله.

قال: و [الثلث] الثالث ما رواه مالك [عن] ابن شهاب عن علي بن حسين أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مِنْ حُسْنِ إسْلاَمِ المرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ».

وقد سمع رسول الله ﷺ الشِّعْرَ وأثابَ عليه. ونَدَب حسَّان بن ثابت إليه[١]، وقال: إن الله ليؤيّده بروحِ القُدُس ما نافَحَ عن نبيه[٢].

ولما انتهى شعرُ أبي سفيانَ بنِ الحارثِ بن عبد المطلب[٣] إلى النبي ﷺ شَقَّ عليه[٤] فدعا عبدَ الله بن رَوَاحة[٥] فاستنشدهُ فأَنْشَدَه فقال: أنتَ شاعرٌ كريم، ثم دعا كعبَ بن مالك[٦] فاستنشده فأنشده، فقال: أنت تُحْسِنُ صِفَةَ الحرب، ثم دعا بحسّان بن ثابت فقال: أَجِبْ عني، فأَخْرَجَ لسانه فضرب به أرْنَبَته[٧]؛ ثم قال: والذي بعثك بالحق ما أُحِبُّ أَنَّ لي

(١) هو أبو الوليد، حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأَنصاري: شاعر الرسول ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر الرسول ﷺ في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام، توفي في المدينة سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٢٢٣؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٣٢٥).

(٢) نافح: دافع، ذبَّ. والمنافحة: المكافحة والمدافعة والمضاربة، وأراد بالمنافحة هنا: هجاء المشركين ومجاوبتهم على أشعارهم.

(٣) أبو سفيان بن الحارث: من شعراء مكة الذين ظلوا على الشرك إبان الدعوة الإسلامية، وكان من الذين هجوا الرسول ﷺ والمسلمين، وله شعر كثير في الجاهلية، لكنه سقط، ولم يبق منه إلاَّ نزراً يسيراً. وهو هاشمي يتصل نسبه بعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٤١).

(٤) شق عليه: اشتد وَصَعُبَ وَعَظُمَ.

(٥) هو أبو محمد، عبد الله بن رواحة بن امرىء القيس، من بني مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج: شاعر أنصاري، وصحابي مشهود له بالثقة والتقوى. استشهد في غزوة مؤتة بين المسلمين والروم. توفي سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م. (الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٨٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين ـ عبد الله بن زيد): ٣٠٣ ـ ٣٥٨).

(٦) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين، الأنصاري الخزرجي، من أهل المدينة: صحابي، من شعراء الرسول ﷺ. شهد بيعة العقبة، وشارك في الوقائع الإسلامية. عمّر طويلاً، وعمي في أواخر عمره، وتوفي سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م. (المرزباني، معجم الشعراء: ٢٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٢٥٣).

(٧) الأرنبة: طرف الأنف.

به مِقْوَلاً في معدّ؛ ولو أن لساناً فَرى الشَّعْر لَفَرَاه[1]. ثم سأل رسول الله ﷺ أن يَمَسَّ من أبي سفيان، فقال: وكيف، وبيني وبينه الرَّحِم التي قد علمت؟ فقال: أسلُّك منه كما تُسَلّ الشَّعْرةُ من العجين! فقال: اذهب إلى أبي بكر، وكان أعلمَ الناس بأنساب قريش، وسائر العرب، وعنه أخذ جُبَير بن مُطْعِم علم النسب، فمضى حسانُ إليه فذكر له معايبَهُ، فقال حسّان بن ثابت:

وَإنّ سَنَامَ المَجْدِ مِنْ آل هَاشِمٍ ... بنو بنتِ مَخْزُوم وَوَالِدُكَ العَبْدُ

وَمَن ولَدَتْ أَبناء زُهْرَةَ مِنْهُمُ ... كِرامٌ، ولم يَقْربْ عَجَائِزَك المَجْدُ[2]

وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ وَلا كَابْنِ أُمِّهِ ... وَلَكِن لَئِيمٌ لا يَقُومُ لَهُ زَنْدُ[3]

وَإنَّ امْرأً كَانَتْ سُمَيَّةُ أمَّهُ ... وَسَمْرَاءُ مَغموزٌ إذا بلغَ الجَهْدُ[4]

وَأَنتَ زَنيمٌ نِيطَ في آل هَاشِمٍ ... كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القَدَحُ الفَرْدُ[5]

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال: هذا كلامٌ لم يَغِبْ عنه ابنُ أبي قُحافة[6].

يعني ببني بنت مخزوم عبدَ الله وأبا طالبٍ والزبيرَ بني عبد المطلب بن هاشم [بن عبد مناف]، أمُّهُمْ فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وأخواتهم بَرَّة وأميمة والبيضاء، وهي أم حكيم، والبيضاء جدَّة عثمان بن عفان أم أمه.

وقوله: «ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام» يعني أُمَيْمة وَصَفِيّة أم الزبير بن العَوام أمُّهَا هَالَةُ بنت أهيب بن عبد مُناف بن زُهْرَة.

---

(١) يفري الشعر: يمحوه، ومحو الشعر كناية عن غاية الإيذاء.
(٢) العجائز: جمع عجوز.
(٣) الزند: موصل طرف الذراع في الكف.
(٤) المغموز: الخامل. الجهد: التعب الشديد.
(٥) الزنيم: الدَّعيُّ. وَنِيط (بكسر النون): علق.
(٦) هو أبو بكر، عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي: أول من آمن بالرسول ﷺ من الرجال. ولد بمكة، وشهد الحروب، وتحمل الشدائد، وبذل الأموال، وهاجر مع النبي ﷺ إلى المدينة، ولقب بالصديق لأنه صدّق النبي ﷺ بكل ما جاء به من خبر السماء والوحي والإسراء والمعراج. بويع بالخلافة يوم وفاة النبي ﷺ، وحارب المرتدين، وتوفي في المدينة سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م. (ابن كثير، البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٢٤).

وقوله: «ولستَ كعباس ولا كابنِ أمه» أمُّ العباس: نتيلة امرأة من النَّمِر بن قَاسِط، وأخوه لأمه ضِرَار بن عبد المطلب.

وقوله: «وإن امرأ كانت سُميّة أمه» سُميَّة أم أبي سفيان، وسمراء: أم أبيه، وليس هذا موضع إطناب في رفع الأنساب.

وكان عَبْدُ الأعلى بن عبد الرحمن الأموي عَتَبَ على بعض ولد الحارث، فقال له مُعَرِّضًا بما قال حسان:

إخالُ بِالعمِّ وَبِالجدِّ ... مُفتخِراً بِالقَدَح الفَرْدِ[1]

الْهَجْ بِحسَّانٍ وَأشعارِه ... فَإنها أَدْعَى إلى الْمَجْدِ

لَولا سُيوفُ الأَزْدِ لم تُؤمنوا ... وَلم تُقِيموا سُورَةَ الحَمْدِ

فتوعَّدُوه، فخافهم، فقال:

بَني هَاشمٍ عَفْواً عَفَا الله عَنكُمُ ... وَإن كان ثَوْبي حَشْوُ ثِنْيِهِ مُجْرِمُ[2]

لَكُمْ حَرَمُ الرحمنِ والبَيْتُ والصَّفا ... وَجَمْعٌ وَما ضمَّ الْحَطِيمُ وَزمزَمُ

فَإنْ قُلْتُمُ بَادَهْتَنَا بِعَظيمةٍ ... فَأَحلامُكُمْ مِنها أَجلُّ وَأَعْظَمُ

ترجمة أبي سُفْيَان بن الحَارِث

وأسلم أبو سفيان ـ رحمه الله! ـ وشهد مع النبي ﷺ يومَ حُنَيْنٍ، وكان ممسكاً بَغْلَته حين فرَّ الناس، وهو أحد الذين ثبتوا، وهم ـ على ما ذكره أبو محمدٍ عبدُ الملك بنُ هشام[3] ـ أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، و أبو سفيان بن الحارث، وابنه الفضل، وربيعة بن الحارث، وأُسامة بن زيد، وأيمنُ ابنُ أم أيمن بن عبيد قتل يومئذ، وبعضُ الناس يعدُّ فيهم قُثَمَ بن العباس، ولا يَعُدُّ أبا سفيان، وكان أبو سفيان من أشعر قريش، وهو القائل:

---

(١) إخال: أظن.

(٢) حَشْوُ ثِنْيِهِ: أراد لابس ثوبه، كناية عن نفسه.

(٣) هو أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري: عالم بالنحو والأنساب، والغريب، والرواية. جمع سيرة رسول الله ﷺ من «المغازي والسير» لابن إسحاق، وهذَّبها ولخَّصها. توفي بمصر سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٩. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ١٧٧؛ القفطي، إنباه الرواة: ٢/ ٢١١).

لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ غَيْرَ فَخْرٍ ... بِأَنّا نَحْنُ أَجْوَدُهُمْ حِصَانَا
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعاً سَابِغَاتٍ ... وَأَمْضَاهم إذا طَعَنُوا سِنَانَا[١]
وَأَدفعهم عن الضَّرَاء عَنْهُمْ ... وَأَبْيَنُهم إذا نَطقُوا لِسَانَا

ويروى أنَّ ابن سِيرين قال: بينما رسول الله ﷺ في سَفرِه قد شنق ناقته بزمامها حتى وضعت رَأسها عند مقدمة الرَّحْل إذ قال: يا كعبُ بن مالكٍ: احْدُ بنا! فقال كَعْبُ:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ حَقٍّ ... وَخَيْبَرَ ثم أَجْمَمْنَا السُّيوفَا[٢]
نُخَيِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ: دَوْساً أَوْ ثَقِيفَا

فقال عليه السلام: والذي نفسي بيده لهي أشدُّ عليهم من رَشْقِ النَّبْلِ! ويقال: إنَّ دَوْساً أسلمت فرَقاً[٣] من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم!

النضر بن الحارث

وقَتَلَ النبي ﷺ النضر بن الحارث، وكان ممن أُسِرَ يوم بدر، وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقَتله عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه صَبْراً[٤] فعرضت للنبي ﷺ أختُه قُتَيْلة بنت الحارث ـ وفي بعض الروايات أن قُتَيلة أَتَتْهُ فأَنْشَدَتْهُ:

يا راكِباً إنَّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... مِنْ صُبْحِ غادِيَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ[٥]
أَبْلِغْ بِهَا مَيْتاً بِأَنَّ تَحِيَّةً ... ما إنْ تزالُ بها النَّجَائبُ تُعْنِقُ[٦]
مِنِّي إليه وعَبْرَةً مسفوحةً ... جادت بواكِفِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ[٧]
هَلْ يَسْمَعَنِّي النَّضْرُ إنْ نَاديتهُ ... إنْ كانَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لاَ يَنْطِقُ

(١) السابغات: الطويلة الضافية.
(٢) أجممنا السيوف: أرحناها.
(٣) الفَرَقُ: الخوف.
(٤) صبراً: حبساً.
(٥) الأثيل: اسم الموضع الذي قُتل فيه النضر.
(٦) النجائب: النوق الخفيفة السريعة، الواحدة: نجيبة. وتعنق: من العَنَق، وهو السير الحثيث.
(٧) الواكف: الدائم الجريان.

ظَلَّتْ سيُوفُ بنـي أبيـه تنُوشُـه ... للهِ أرحَـامٌ هنـاك تَشَقَّـقُ[١]

قَسْـراً يُقَـادُ إلـى المنيَّـة مُتْعَبـاً ... رَسْفَ المقيّدِ وَهْوَ عَانٍ مُوثَـقُ[٢]

أَمحمـدٌ هـا أَنْـتَ صِنْـوُ كَـريمـةٍ ... فـي قَـوْمِنـا والفَحْـلُ فَحْـلٌ مُعْـرِقُ[٣]

مـا كـانَ ضَـرَّكَ لـو مَنَنْـتَ وَرُبَّمـا ... مَـنَّ الفَتـى وَهْـوَ المَغِيـظُ المُحْنَـقُ[٤]

فَـالنضـرُ أَقـربُ مَـنْ قَتَلْـتَ قَـرَابَـةً ... وَأَحقُّهُـم إنْ كـانَ عِتْـقٌ يُعْتَـقُ

أَو كُنْـتَ قَـابِـلَ فِـدْيَـةٍ فَلْيُفْـدَيَـن ... بِـأَعـزِّ مـا يُغْلـى بـه مَـنْ يُنْفِـقُ

فَذُكر أنَّ رسول الله ﷺ رَقَّ لها ودمعت عيناه، وقال لأبي بكر: لو كنتُ سمعتُ شِعْرَها ما قتلته.

والنَّضْرُ هذا هو النضر بن الحارث بن عَلقمة بن كلَدَة بن عبد مُناف بن عبد الدار[٥]. قال الزبير بن بَكّار[٦]: وسمعت بعضَ أهلِ العلم يغمز في أَبيات قُتَيْلَة بنت الحارث[٧] ويقول: إنَّهَا مصنوعة.

[من كلام أبي بكر رضي الله تعالى عنه]

رثاؤه لرسول الله ﷺ

ودخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، على النبي عليه الصلاة والسلام وهو مُسَجًّى

---

(١) تنوشه: تناله بالطعن.

(٢) القَسْرُ: القَهْرُ. والرسف: مَشْي المُقَيَّد. العاني: الأسير. والمُوثق: المُقيَّدُ.

(٣) الصنو: الإبن. والمُعْرِقُ: الأصيل.

(٤) مَنَنْتَ صَفَحْتَ. والمُحْنَقُ: المملوء غيظاً.

(٥) كان النضر بن الحارث حامل لواء المشركين ببدر، فأسره المسلمون، وقتلوه بعد انتهاء المعركة.

(٦) هو أبو عبد الله، الزبير بن بكر بن بكار بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبيري: من أعيان العلماء، ولي قضاء مكة، وصنَّف عدداً من الكتب، منها: «أنساب قريش»، وعليه اعتماد الناس في معرفة أنساب القرشيين. توفي بمكة سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٣١١).

(٧) هي قتيلة بنت النضر بن الحارث بن علقمة، من بني عبد الدار، من قريش: شاعرة مجيدة، أدركت الجاهلية والإسلام، وأسلمت بعد مقتل أبيها في وقعة بدر، وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م. (صلاح الدين الهواري، الشعر والشعراء: ص ٢١٦).

بِثَوْبٍ[١]، فكشَفَ عنه الثوبَ وقال: بأبي أَنْتَ وأمي! طِبْتَ حَيًّا وميّتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموتِ أحدٍ من الأنبياء من النبوّة، فَعظُمْتَ عن الصفة، وجَلَلْتَ عن البُكاء، وخَصَصْت حتى صرت مَسْلاَة، وَعَمَمْتَ حتى صِرْنا فيك سَواء. ولولا أنَّ موتك كان اختياراً منك لَجُدْنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البُكاء لأنْفَدْنَا عليك ماءَ الشؤون[٢]. فأمَّا ما لا نستطيع نفيَه عنَّا فكمَدٌ و إِدْنَافٌ[٣] يتحالفَانِ ولا يَبْرَحان. اللهم فأَبلغه عنا السلام، اذكُرْنَا يا محمد عند ربّك، ولنكن من بالك؛ فلولا ما خَلَّفْتَ من السكينة لم نُقِمْ لما خَلَّفْتَ من الوحشة؛ اللهم أبلغ نبيَّك عنا واحفظه فينا، ثم خرج.

قوله رضي الله عنه: «لولا أن موتك كان اختياراً منك» إنَّمَا يريد قولَ النبي ﷺ: لم يُقْبَضْ نبيٌّ حتى يَرَى مقعده من الجنة ثم يُخَيَّر. قالت عائشةُ رضي الله عنها: فَسَمِعْتُهُ وقد شخص بَصَرُهُ وهو يقول: في الرفيق الأعلى! فعلمت أَنه خُيِّر، فقلت: لا يختارنا إذَن، وقلت: هو الذي كان يحدثنا. وهو صحيح.

وكان أبو بكر لما تُوفي رسول الله ﷺ في أرضه بالسُّنْح[٤] فتواترت إليه الرسلُ، فأَتى وقد ذُهِل الناس، فكانوا كالخرس، و تفرقت أحوالُهم، واضطربت أمورُهم، فكذَّب بعضُهم بموته، وصَمَت آخرون، فما تكلّموا إلا بعد [التغير]، وخَلَطَ آخرون فلاثُوا[٥] الكلامَ بغير بَيَان، وحق لهم ذلك للرزيّة العظمى، والمصيبة الكبرى، التي هي بيضة العُقْر[٦]، ويتيمةُ الدهر، ومدى المصائب، ومنتهى النوائب، فكل مصيبةٍ بعدها جَلَلٌ عندها[٧]، ولذلك قال ﷺ: لِتُعَزِّ المسلمين في مصائبهم المصيبةُ بي.

حال الصحابة عندما بلغهم موت الرسول

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن كذَّب بموته، وقال: ما مات، وليرجعنّه

---

(١) مُسَجًّى: مُغَطىً.

(٢) الشؤون: عروق الدمع.

(٣) الإدناف: المرض الشديد.

(٤) السُّنْحُ: موضع قرب المدينة، كان ينزل فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٥) لاثوا: خلطوا.

(٦) بيضة العقر: مثل للحادث الذي يندر أن يتكرر، وهي في الأصل: بيضة الدجاجة التي لا تبيض بعدها.

(٧) الجلل: الأمر العظيم، والأمر الحقير، وهو من الأضداد، والمراد هنا: الأمر الحقير، والمعنى: أن كل مصيبة تهون وتصغر بعد المصيبة الكبرى بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

الله، فليقطعنَّ أَيْدِيَ المنافقين وأجلَهم، يتمنون لرسول الله ﷺ الموتَ؛ وإنما واعده ربه كما واعَدَ موسى، وهو يأتيكم.

وأما عثمان رضي الله عنه فكان ممن أُخْرِس؛ فجعل لا يُكلِّمُ أحداً، فَيُؤْخَذ بيده وَيُجَاءُ به فينقاد.

وأما علي رضي الله عنه فَلُبِطَ بالأَرْضِ[1] فقعد ولم يَبْرَحِ البيت حتى دخل أبو بكر، وهو في ذلك جَلْد العقل والمقالة[2]، فأكبَّ عليه، وكشف عن وَجْهِهِ وَمسَحه، وقبَّل جبينه، وبكى بكاء شديداً، وقال الكلامَ الذي قدّمته.

خطبة أبي بكر يوم موت الرسول

ولما خرج إلى الناس وهم في شديد غَمَراتهم، وعظيم سَكَراتهم، قام فخطب خطبة جُلّها الصلاةُ على النبي ﷺ، قال فيها: أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاّ الله وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدينَ كما شرع، وأنَّ الحديث كما حدَّث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحقُّ المبين. في كلام طويل، ثم قال: أيها الناسُ؛ مَنْ كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت، وإن الله قد تقدَّم إليكم في أمره، فلا تَدَعُوه جَزَعا، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضَه إلى ثوابه، وخلَّف فيكم كتابه، وسنةَ نبيِّه، فمن أخذ بهما عَرَفَ، ومن فرَّق بينهما أنكر؛ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، وَلاَ يَشْغَلَنَّكُمْ الشيطانُ بمَوْتِ نَبيكُمْ، وَيَفْتِنَنَّكُمْ عن دينكم؛ فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم.

فلما فرغ من خطبته قال: يا عمر! بلغني أنك تقول ما مات نبيُّ الله، أَما علمت أنه قال في يوم كذا وكذا، وفي يوم كذا وكذا: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[3]؟ فقال عمر: والله لكأني لم أسمعْ بها في كتابِ الله قَبْلُ؛ لِمَا نزل بنا، أشهد أن الكتابَ كما نزل، وأن الحديثَ كما حدّث، وأن الله حيٌّ لا يموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون! ثم جلس إلى جنب أبي بكر رحمه الله.

قالت عائشة رضوان الله عليها: لما قُبِض رسول الله ﷺ نَجَم النِّفاق[4]، وارتدَّت

---

(١) لُبِطَ بالأرض: سقط من قيام كأنه صُرِع.

(٢) الجَلْدُ: الثابت، المُتماسك.

(٣) سورة الزمر، آية (٣٠).

(٤) نجم النفاق: نشأ.

العرب، وكان المسلمون كالغنم الشارِدَة، في الليلة الماطرة، فحمل أبي ما لو حملته الجبال لهَاضها[١] فوالله إن اختلفوا في معظم إلا ذهب بحظّه ورشده وَغَنَائه، وكنتُ إذا نظرتُ إلى عمر علمتُ أنه إنما خُلِقَ للإسلام، فكان والله أَحْوَذِيًّا نسيجَ وَحْدِهِ[٢]، قد أَعَدَّ للأمور أقرانها.

رثاء فاطمة الزهراء لأبيها رسول الله ﷺ

وحدث أبو بكر بن دُرَيْد عن عَبْدِ الأوّل بن يَزيد قال: حدثني رجل في مجلس يزيد بن هَرون[٣] بالبصرة قال: لما تُوفي رسول الله ﷺ دُفِن ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم، ورجعت فاطمة إلى بيتها؛ فاجتمع إليها نساؤها، فقالت:

أغبـرّ آفـاقُ السمـاءِ، وَكُـوِّرَتْ ... شَمْـسُ النهـارِ، وَأَظْلَـم العَصْـرانِ[٤]
فـالأرضُ مـن بَعْـدِ النبـي كَئِيبـةٌ ... أَسفـاً عليـه كَثيـرةُ الـرجَفَـانِ[٥]
فَلْيَبكِـهِ شَـرْقُ البـلاد وغَـرْبُهـا ... وَلْيَبْكِـه مُضَـرٌ وَكـلُّ يَمَـانِ
وَلْيَبْكِـهِ الطُّـورُ المعظَّـمُ جَـوُّهُ ... وَالبيـتُ ذو الأسْتَـار والأركـانِ
يـا خـاتـمَ الـرُّسـلِ المُبـاركِ ضَـوْءهُ ... صَلَّـى عَلَيْـكَ مُنَـزِّلُ الفُـرْقـانِ[٦]

عود إلى المختار من كلام أبي بكر

وكان أبو بكر ـ رَضِيَ الله عنه! ـ إذا أُثْنِي عليه يقول: اللهم أنت أَعلَمُ بي من نفسي،

---

(١) هاضها: دكّها وحطمها.
(٢) الأحوذي: الحاذق، القاهر للأمور. ونسيج وحده: لا شبيه له ولا نظير.
(٣) هو أبو خالد، يزيد بن هارون الواسطي: إمام، حافظ، كان يقول: أحفظ أربعة وعشرين ألف حديث ولا فخر، وكان يقال: إن في مجلسه سبعين ألفاً من طلبة العلم. توفي سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢٢ م بواسط في العراق. (ابن العماد، شذرات الذهب: ٢/ ١٦).
(٤) كُوِّرَت: سقطت، قال تعالى: ﴿إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (سورة التكوير، آية ١).
(٥) الرجفان: الاضطراب.
(٦) ويروى: «المبارك ضنؤه» أي: المبارك نسله. والفرقان: القرآن، سمّي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتينا مُوسَى وَهارونَ الفُرْقَان﴾ (سورة الأنبياء، آية ٤٨). والفرقان هنا: التوراة. وقيل: الفرقان: الحُجَّة، والفرقان: النصر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزلنا على عَبْدِنا يَوْمَ الفُرْقَان﴾ (سورة الأنفال، آية ٤١)، وهو يوم بدر، لأن الله أظهر من نَصْرِهِ ما كان بين الحق والباطل.

وأنا أعلم بنفسي منهم، فاجعلني خيراً مما يَحْسَبُون، واغفر لي برحمتك ما لا يعلمون، ولا تؤاخِذْنِي بما يقولون.

وقال رحمه الله في بعض خطبه: إنكم في مَهَل، من ورائه أجل، فبادروا في مهَل آجالكم، قبل أن تنقطع آمالكم، فتردكم إلى سوء أعمالكم.

وذكر أبو بكر الملوكَ فقال: إن الملك إذا مَلك زَهَّدهُ الله في ماله، ورغَّبه في مالِ غيره، وأَشرب قلبه الإشفاق؛ فهو يسخط على الكثير، وَيَحْسُدُ على القليل، جَذِلُ الظاهر، حَزِين الباطن، حتى إذا وَجَبَتْ نَفْسُهُ، وَنَضَب عمره، وضَحا ظِلُّه[١] حاسَبَهُ فأشدَّ حسابه وأقل عفوه.

وذكر أنه وصل إلى أبي بكر مالٌ من البحرين، فساوى فيه بين الناس. فغضبت الأنصار، وقالوا له: فَضِّلْنَا! فقال أبو بكر: صَدقْتُمْ، إن أردتُمْ أن أفضلكم صار ما عَمِلتُمُوه للدنيا، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل! فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى، وانصرفوا؛ فَرَقِيَ أَبو بكر المنبر، فَحمِدَ الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ؛ ثم قال: يا معشر الأنصار؛ إن شئتم أن تقولوا: إنَّا آوَيْنَاكم في ظِلاَلِنَا، وشاطرناكم في أَموالنا[٢]، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم، وإنَّ لكم من الفضل ما لا يُحْصِيه العدد، وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طُفَيْلُ الغَنَوي[٣]:

جَزى الله عَنا جَعْفراً حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنا نَعْلُنا في الواطِئِين فَزَلَّتِ[٤]
أَبَوْا أَنْ يَملُّونا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنا ... تُلاَقي الذي يَلْقَوْنَ منَّا لَمَلَّتِ
هُمُ أَسكنونَا في ظِلاَلِ بُيُوتهِمْ ... ظِلالُ بيُوتٍ أَدفأتْ وَأَظلَّتِ

فِقَرٌ من كلامه رضي الله عنه: صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوء. الموت أهونُ مما

(١) وجبت نفسه: فاضت روحه. ونضب عمره: نفد. وضحا ظله: مات.
(٢) آويناكم في ظلالنا: جعلناها لكم مأوى. وشاطرناكم أموالنا: أعطيناكم شطرها، أي: نصفها.
(٣) هو أبو قران، طفيل بن عوف بن ضبيس بن دليف بن كعب بن عوف بن كعب بن عجلان بن غنم بن غني بن أعصر: شاعر جاهلي، فحل، شجاع. عاصر النابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى. كان معاوية بن أبي سفيان يقول: «دعوا لي طفيلاً وسائر الشعراء لكم». وكان طفيل يجيد وصف الخيل، حتى سمِّي «طفيل الخيل» و«المحبر» لحسن وصفه إياها. توفي سنة ١٣ ق.هـ/ ٦١٠ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٦٤؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢١٧).
(٤) زَلَّت: سقطت.

بعده، وأشد مما قبله. ليست مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة. ثلاث مَنْ كنَّ فِيهِ كنَّ عليه: البَغْي، والنكث، والمكر. إن الله قَرَنَ وَعْده بوعيده؛ ليكون العبد راغباً وراهباً.

رثاء عائشة أم المؤمنين لأبيها الصديق

ولما توفي رضي الله عنه وقفت عائشة على قبره؛ فقالت: نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَكَ يا أبَت، وشكر لك صالحَ سَعْيك، فلقد كنت للدنيا مُذِلاًّ بإدبارك عنها، وللآخرة مُعزًّا بإقبالك عليها، ولئن كان أجَلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤُك. وأعظمَ المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله لَيَعِدُ بحسن الصبر عنك حسنَ العوض منك، وأنا أستنجز موعودَ الله تعالى بالصبر فيك، وأستقضيه بالاستغفار لك، أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمتَ بأمر الدين لما وَهى شَعْبُهُ[١] وتفاقم صَدْعهُ[٢]، ورَجَفَتْ جوانبه[٣]؛ فعليك سلام الله توديعَ غيرِ قاليةٍ لحياتك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك[٤].

وقال أبو بكر لبلال لما قُتِل أُميَّة بن خَلَف وقد كان يَسُومُه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمْضاء[٥]، فيلقي عليه الصخرة العظيمة لِيُفَارقَ دينَ الإسلام فيعصمه الله من ذلك:

هَنِيئاً زادكَ الرَّحمٰنُ خَيْراً … فَقَدْ أَدْركْتَ ثَأْرَكَ يا بِلالُ
فَلا نِكْسًا وُجِدْتَ وَلاَ جَبَاناً … غَداةَ تَنُوشُكَ الأَسَلُ الطِّوالُ[٦]
إذا هَابَ الرِّجال ثَبَتَّ حَتَّى … تُخالِط أَنْتَ ما هَابَ الرِّجالُ
علَى مَضَضِ الكُلُومِ بِمَشْرفيٍّ … جَلاَ أَطْرافَ مِتْنَيهِ الصِّقَالُ[٧]

---

(١) وَهَى شعبه: تفرَّق شمله.
(٢) تفاقم صدعه: اتسع كسره.
(٣) رجفت جوانبه: اضطربت.
(٤) زارية: عائبة.
(٥) الرَّمْضَاءُ والرَّمَضُ: شدّة الحرّ، وقيل: حرّ الحجارة من شدّة حرّ الشمس، وقيل: شدّة وقع الشمس على الرمل وغيره.
(٦) النِّكْسُ: الضعيف العاجز، والجمع أنكاس، قال كعب بن زهير:
زَالُوا فَما زَالَ أَنكاسٌ وَلا كُشُفٌ … عِنْدَ اللِّقاءِ وَلا مِيلٌ مَعازِيلُ
«ديوانه: ص ٩١». والأسل: الرماح.
(٧) الكلوم: الجروح، الواحد: كَلْمٌ. والمشرفي: السيف، قال أبو الطيب المتنبي:
نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ وَالعَوالي … وَتَقْتُلُنا المَنُونُ بِلا قِتالِ
(ديوانه: ٢/ ١٤).

[من كلام عمر]

من عمر إلى ابنه عبد اللَّه

وكتب عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه! ـ إلى ابنه عبدِ الله:

أما بعد؛ فإنه مَنِ اتَّـقَى اللَّهَ وَقَاهُ، ومن توكل عليه كَفَاهُ، ومن شكر له زادهُ، ومنْ أقرَضهُ جَزَاهُ؛ فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نيةَ له، ولا أَجْرَ لمن لا خشيةَ له، ولا جديد لمن لا خَلَقَ له[١].

بين عمر وعدي بن حاتم الطائي

ودخل عَدِيّ بن حاتم على عُمَر، فسلّم وَعُمَرُ مشغول، فقال: يا أميرَ المؤمنين! أنا عَدِيّ بن حَاتم؛ فقال: ما أعْرَفَني بك! آمنتَ إذ كفروا، ووفيتَ إذ غَدَرُوا، وعرفتَ إذ أنكروا، وأقبلْتَ إذ أدْبَرُوا!

عمر يصف السيد

وقال رجل لعمر: مَن السيّد؟ قال: الجواد حين يُسْأَل، الحليم حين يُسْتَجْهَل، الكريم المجالسةِ لمن جالَسه، الحسَن الْخُلُقِ لِمَنْ جاوره.

وقال رضي الله عنه: ما كانتِ الدنيا همَّ رجلٍ قطُّ إلا لزم قلبَه أربعُ خِصَالٍ: فقرٌ لا يُدْرَك غناه، وَهمٌّ لا ينقضي مَدَاه، وشُغْلٌ لا يَنْفَدُ أُولاه، وأمل لا يُبْلَغُ مُنْتَهَاهُ.

فصول قصار من كلامه رضي الله عنه

مَنْ كتم سِرَّه كان الْخِيارُ في يده. أشقى الوُلاَة من شقيَتْ به رعيَّتُهُ. أعقلُ الناس أعذرُهم للناس. ما الخمر صِرْفاً[٢] بأَذْهَب لعقولِ الرجالِ من الطمع. لا يكن حُبُّك كَلَفا، ولا بُغْضُكَ تَلَفا. مُرْ ذَوِي القرابات أن يتزَاوَرُوا، ولا يَتجَاوَرُوا. قلَّما أدْبر شيء فأقبل. أشكو إلى الله ضَعْفَ الأمين، وخيانةَ القويّ. تكثَّرُوا من العيال فإنكم لا تدرون بمن تُرْزَقون. لو أن الشكر والصبر بَعِيرَانِ ما باليت أيّهما أركب. من لا يعرفُ الشرّ كان أجدر أن يقع فيه.

---

(١) الخَلَقُ: البالي.

(٢) الخمر الصِّرْفُ: الخالصة.

وَصْفُ صَعْصَعَة بن صُوحَان لِعُمَر بن الخَطَّاب

وقال معاوية بن أبي سفيان لِصَعْصَعَة بن صُوحَانَ: صِفْ لي عُمَرَ بن الخطاب؛ فقال: كان عالماً برعيَّته، عادلاً في قضيَّته، عارياً من الكِبْر، قبولاً للعُذر، سَهْلَ الحِجَاب، مَصُونَ الباب، متحرّياً للصواب، رفيقاً بالضعيف، غير مُحَابٍ للقريب، ولا جافٍ للغريب.

عمر يذكر ماضيه وحاضره

وروي أن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه حجّ فلما كان بِضَجْنان[١] قال: لا إله إلا الله العليّ العظيم، المعطي مَنْ شاء ما شاء، كنتُ في هذا الوادي في مِدْرَعَةٍ صوف أرْعَى إبل الخطّاب، وكان فظًّا يُتْعِبني إذا عملت، ويَضربني إذا قصرت، وقد أمسيت الليلة ليس بيني وبين الله أحد، ثم تمثل:

لا شيءَ مما تَرى تَبْقَى بَشاشَتُهُ ... يَبقى الإلٰه وَيُودِي المالُ والولَدُ[٢]

لم تُغنِ عن هُرْمُز يَوْماً خَزائنهُ ... وَالخُلْدَ قَد حَاولَتْ عادٌ فما خلَدُوا

وَلا سُليمان إِذْ تجري الرياحُ لهُ ... وَالجِنُّ والإِنسُ فيما بَيْنَها تَرِدُ

أَينَ الملوكُ التي كانتْ نَوافلها ... مِن كُلّ صَوْبٍ إليها وافِدٌ يَفِدُ[٣]

حَوْضٌ هُنالِك مَوْرُودٌ بلا كَدرٍ ... لا بدَّ من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

من شعر عمر يوم فتح مكة

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم فتح مكة:

ألم تَر أَنّ اللهَ أَظهرَ دِينَهُ ... على كلّ دينٍ قَبْلَ ذلك حَائدِ[٤]

وَأَمْكَنهُ من أَهلِ مَكّةَ بَعْدَما ... تَداعَوْا إلى أمرٍ منَ الغيّ فاسدِ

غَداةَ أجَالَ الخيلَ في عَرَصَاتِها ... مُسوَّمةً بين الزبيرِ وَخالدِ[٥]

---

(١) ضجنان: جبل قرب مكة.

(٢) يودي: يذهب.

(٣) النواقل: العطايا.

(٤) الحائد: المائل عن الحق.

(٥) العَرَصاتُ: جمع العَرَصة، وهي من الدار وسطها. وقيل: العرصة: الأرض لا بناء فيها، سميت بذلك لاعتراص الصبيان فيها. والمُسوَّمَةُ: المُعْلَمة.

فَـأَمْسـى رَسُـولُ الله قَـدْ عَـزَّ نَصْـرُهُ وَأَمْسـى عِـدَاه مِـنْ قَتيـلٍ وشَـارِدِ

يريد الزُّبَيْرَ بن العَوام[١] حَوَارِيّ رسولِ الله ﷺ، وخالِدَ بن الوليد سيفَ اللهَ تعالى في الأرض[٢].

زوج عمر ترثيه

ولما قتله أبو لُؤْلُؤَة غلامُ المغيرةِ بن شُعْبة، قالت عَاتِكَة بنت زَيْد بن عَمْرو بن نَفيل زوجته ترثيه:

عَيْـنُ جُـودي بِعَبْـرَةٍ ونَحِيـبِ لا تَمَلِّـي علـى الأمِيـنِ النّجِيـبِ
فَجَعَتْنِـي المنـونُ بـالفـارسِ الْمُعـ ـلَـمِ يـومَ الهيـاجِ والتثـويـبِ[٣]
عِصْمَـةُ النـاسِ وَالمُعيـنُ علـى الـدَّهـ ـرِ وَغيـثُ المَحْـرُومِ والمَحْـرُوبِ[٤]
قُـلْ لأَهْـلِ الضـراءِ والبُـؤْسِ مُـوتـوا قَـدْ سَقتْـهُ الْمنُـونُ كَـأسَ شَعـوبِ[٥]

وقالت أيضاً ترثيه:

وَفَجَّعَنِـي فَيْـرُوزُ لا دَرّ دَرُّهُ بِـأَبْيَـضَ تَـالٍ لِلْكِتَـابِ مُنِيـبِ
رَؤوفٌ على الأدنى غَليظٌ على العِدَا أَخُـو ثِقَـةٍ فـي النـائبـاتِ نَجيـبُ[٦]
مَتى مـا يَقُـلْ لا يَكْـذِبُ القَـوْلَ فِعلُـهُ سَـريـعٌ إلـى الخيـراتِ غَيْـرُ قَطُـوبِ[٧]

---

(١) الزبير بن العوام: صحابي جليل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سلَّ سيفاً في الإسلام. وروي أنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فكان لا يُدخل بيته منه شيئاً، يتصدق به كله. قتله ابن جرموز بوادي السباع يوم الجمل سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٧ م. (الجاحظ، الحيوان: ٥/ ٢٩٢).

(٢) خالد بن الوليد المخزومي: القائد، الفاتح، الذي ناضل أعداء الله، وارتكب عظيم الأخطار طلباً للشهادة، وأدركه الموت على فراشه سنة ٢١ هـ/ ٦٤٣ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٣٢).

(٣) الفارس المعلم: الذي علق عليه صوف مُلوّن في الحرب. والتثويب: الدعاء.

(٤) المحروب: المسلوب.

(٥) شعوب: المنية، سميت بذلك لأنها تشعب الشمل وتبدده.

(٦) النجيب من الرجال: الكريم الحسيب.

(٧) القَطُوب: العَبُوس، من قَطَّب وَجْهَهُ تقطيباً إذا عبس وغضب، وقَطَب قَطْباً وَقُطُوباً: زوى ما بين عينيه.

ترجمة عاتكة بنت زيد بن عمرو زوج عمر

وَعَاتِكَة هذه: هي أخت سعيد بن زَيْد أحدِ العشرة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وكانت تحت عبد الله بن أبي بكر، فأصابه سَهْمٌ في غَزْوَة الطائف فمات منه، فتزوّجها عمر رضي الله عنه فَقُتِل عنها، فتزوجها الزبير بن العَوام فَقُتِلَ عنها؛ فكان عليٌّ رضي الله عنه يقول: من أحبَّ الشهادة الحاضرة فليتزوّج بعاتِكة!

ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه

ما يَزَعُ اللهُ بالسُّلْطانِ، أكثرُ مما يزعُ بالقرآن[1]. سيجعلُ الله بعد عُسْرٍ يسراً، وبعد عِيٍّ بياناً؛ وأنتم إلى إمام فعَّال، أحوجُ منكم إلى إمامٍ قَوَّال، قاله في أول خلافته وقد صعد المنبر وأرْتج عليه[2].

وكتب إلى علي رضي الله عنه وهو مَحْصُور: أما بعد، فقد بَلَغ السَّيْلُ الزُّبَى، وجاوز الحزام الطُّبْيَيْنِ[3]، وطمع فيَّ مَنْ كان لا يَدْفع عنه نفسه، ولم يعجزك كلئيم، ولم يَغْلِبْك كَمُغَلَّب[4]؛ فأقْبِلْ إليّ، معي كنت أو عليّ، على أيّ أَمْرَيْكَ أحببت.

فَإن كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ أَنت آكِلي وَإلاّ فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقِ

وهذا البيت للمُمزِّقُ العَبْدي[5]، وبه سمي الممزّق، واسمه شَأس، وإنما تمثل به عثمان رضي الله عنه؛ وَحُذّاقُ أهل النظر يدفعون هذا، ويستشهدون على فساده بأحاديث تُنَاقِضُه ليس هذا موضعها.

---

(١) يزع: يزجر ويردع.

(٢) أُرتج عليه باب النطق: أغلق.

(٣) الزُّبَى: الرُّبَى التي لا يعلوها الماء، الواحدة: زُبْيَة، وقد بلغ السيل الزُّبَى: مثل يُضْرَب لما جاوز الحدَّ. والطُّبْيُ (بالضم والكسر): حلمات الضرع، وجاوز الحزام الطبيين: مثل يضرب عند بلوغ الشدّة منتهاها. (الميداني، مجمع الأمثال: ١/ ٩٠، ١٦٦).

(٤) المُغَلَّب: الذي غلب كثيراً.

(٥) هو شأس بن نهار بن أسود العبدي، من قبيلة نكرة: شاعر جاهلي قديم، من أهل البحرين. (بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/١١٩؛ ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٤٠٧).

قالوا: وكان عثمان رضي الله عنه أتْقَى لله أن يَسْعى في أمره عليّ، وعليّ أتقى لله أن يسعى في أمرِ عثمان، وهذا من قوله عليه السلام: أشْقَى الناس مَنْ قتله نبي أو قَتَلَ نبيًّا.

ومن كلام عثمان رضي الله عنه وأكرم نزله، وقد تنكر له الناس: أمرُ هؤلاء القوم رعاع عير، تطأطأت لهم تطأطأ الدلاء وَتَلدّدْتُ لهم تَلَدُّدَ المضطر، رأيتهم ألحفَ إخواناً، وأوهمني الباطل لهم شيطاناً. أجررت المرسون رَسَنَه، وأبلغت الراتع مسعاته، فتفرقوا عليّ فرقاً ثلاثاً، فصامتٌ صمتُه أنفذ من صَوْلِ غيره، وشاهد أعطاني شاهده ومنعني غائبه، وَمُتهافِتٌ في فتنة زُيّنَتْ في قلبه، وأنا منهم بين ألْسُنٍ لِدَاد، وقلوب شداد، عذيري الله منهم، ألا ينهى عالم جاهلاً، ولا ينذر حليمٌ سفيهاً؟ والله حسبي وَحَسْبُهم يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

سئل الحكم بن هشام فقال: كان والله خيار الخيرة، أمير البررة، قتيل الفجرة، منصور النصرة، مخذول الخذلة، مقتول القتلة.

ونظيرُ البيت الذي أنشدهُ قولُ صَخْرِ الجَعْد:

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكولاً فَكُنْ أَنْتَ آكلي ... فَإِنَّ مَنَايا القَوْمِ أَكْرمُ مِنْ بَعْضِ

قال المتوكل: أُتِيتُ بِأُسَارَى، فَسَمِعْتُ امرأة منهم تقول:

أَميرَ المؤمنينَ سَمَا إِلَيْنَا ... سُمُوَّ الليثِ أَخْرَجَهُ العَرِيفُ

فَإِنْ نَسْلَمْ فَعَفْوَ الله نَرْجُو ... وَإِنْ نُقْتَلْ فَقَاتِلُنَا شَرِيفُ

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا يُعرف لعثمان شعر، وأنشد له بعضهم(١):

غِنَى النفسِ يُغْني النَّفْسَ حتى يَكُفَّها ... وَإِنْ عضَّهَا حَتَّى يَضُرَّ بها الفَقْرُ

وَما عُسْرَةٌ ـ فاصْبِرْ لها إن تَتَابعَتْ ـ ... بِبَاقِيَةٍ إلاَّ سَيَتْبَعُها يُسْرُ

وقولُ عُثْمان رضي الله عنه فيما روي: «ولم يغلبك كمغلَّب» من قول امْرِئِ القَيْس(٢):

فَإِنَّكَ لم يَفْخَرْ عليكَ كَفَاخِرٍ ... ضَعيفٍ وَلم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

---

(١) البيتان في العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق القيرواني: ١/ ٣٤.

(٢) امرؤ القيس، الديوان: ص ٦٦.

وقال أبو تمام وذكر الخمر(١):

وَضَعِيفَةٌ فإذا أَصابَتْ فُرْصَةً   قَتَلَتْ، كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعَفاءِ

ومن كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

لا تَكُنْ ممن يَرْجُو الآخرةَ بغير عمل، ويؤخّرُ التوبةَ لطولِ الأمَل. ويقولُ في الدنيا بقول الزاهدين، ويعملُ فيها بعمل الراغبين، إنْ أُعْطِيَ منها لم يشبع، وإن مُنِع لم يَقْنَعْ، يعجز عن شُكْرِ ما أُوتي، ويبتغي الزيادة بما بَقي، يَنْهى ولا يَنْتَهي، ويأمر بما لا يَأْتي، يحبُّ الصالحين ولا يعملُ أعمالهم، ويُبْغِض المسيئين وهو منهم؛ يكره الموتَ لكثرة ذنوبِه، ويقيمُ على ما يكرهُ الموت له، إن سقم ظَلَّ نادماً، وإن صحَّ أَمِنَ لاَهيا، يُعْجَب بنفسه إذا عُوفي، ويَقْنَطُ إذا ابتلي، تغلِبُه نفسهُ على ما يظنُّ، ولا يَغْلِبُها على ما يستيقن، ولا يَثِقُ من الرزق بما ضُمِنَ له، ولا يَعْمَل من العمل بما فُرِض عليه، إن استغنى بَطِرَ وَفُتِنَ، وإن افتقر قَنِطَ وحَزِن، فهو من الذّنب والنعمة مُوقَر(٢)، يبتغي الزيادة ولا يَشْكر، ويتكلّف من الناس ما لم يُؤْمر، ويُضيع من نفسه ما هو أكثر، ويُبَالغ إذا سأل، ويقصّر إذا عمل، يخشى الموتَ، ولا يبادِر الفَوْتَ، يستكثر من معصية غيره ما يستقلُّ أكثره من نفسه؛ ويستكثرُ من طاعته ما يستقله من غيره، فهو على الناس طَاعِن، ولنفسه مداهن، اللَّغْوُ مع الأغنياء أَحَبُّ إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيرِه لنفسه، ولا يحكمُ عليها لغيره، وهو يُطَاع ويَعْصِي، ويستوفِي ولا يُوفي.

وسُئِل رضي الله عنه عن مسألة فدخَلَ مبادراً، ثم خرج في حذاء ورداء، وهو يتبسّم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سُئِلْت عن مسألة كنت فيها كالسِّكة المُحْماة(٣)! فقال: إني كنتُ حاقناً ولا رَأْيَ لحاقن(٤)، ثم أنشأ يقول:

إذا المُشكِلاتُ تَصَدَّيْنَ لي   كَشَفْتُ حَقائِقَها بالنَّظَرْ

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/٨٨. يقول: إن الخمرة ضعيفة، ولكنها فتّاكةٌ إذا أتيحت لها فرصة الفتك، كذلك قدرة الضعفاء.

(٢) مُوقر: مُثقل.

(٣) السكة: الحديدة.

(٤) الحاقن: الذي احتبس بوله.

وَإِن بَـرقَـتْ فـي مَخيـلِ الصـوا ... بِ عَمْيَـاءُ لا تَجتليهـا الـذكـرْ[١]
مُـقنعـةٌ بِـأُمـورِ الغيـوبِ ... وَضعْـتُ عليهـا صَحيـحَ الفِكَـرْ
لِسـانـاً كَشِقْشِقَـةِ الأَرحب ... ـيّ أَو كـالحسـامِ اليَمـانِـي الـذَّكَـرْ[٢]
وَقلبـاً إذا اسْتَنطقتْـهُ العيـونُ ... أَمـرُّ عليهـا بِـواهـي الـدُّررْ
وَلسْـتُ بـإِمَّعـةٍ فـي الـرِّجـالِ ... أُسـائـلُ عَـنْ ذَا وذَا مـا الخبـرْ[٣]
وَلكننـي ذَرِبُ الأصغـرَيْـنِ ... أُبَيِّـنُ مَـعْ مـا مَضَـى مـا غَبْـر[٤]

وصف ضِرَار الصُّدَائي لمعاوية عليًا

وقال معاوية رضي الله عنه لِضرار الصُّدَائي: يا ضرار، صِفْ لي عليّا، فقال: أَعْفِني يا أمير المؤمنينَ، قال: لتصفنّهُ، فقال: أما إذ أذنت فلا بدَّ من صفته: كان والله بعيدَ المدَى، شديدَ القُوَى، يقولُ فَصْلاً[٥]، ويحكمُ عَدْلاً، يتفجَّرُ العلمُ من جوانبه، وتنطقُ الحكمةُ من نَواحيه، يَستَوْحِشُ من الدنيا وزَهْرَتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزيرَ الدَّمْعَة، طويلَ الفكرة، يقلبُ كفَّهُ، ويخاطب نفسه، يُعْجِبُهُ من اللِّباس ما قَصُرَ، ومن الطعام ما خَشُنَ، وكان فينا كأحدِنَا، يُجيبُنَا إذا سألناهُ، ويُنَبِّئُنَا إذا ٱسْتَنْبَأْنَاهُ، ونحن ـ مع تقريبِهِ إيَّانا، وَقُرْبِهِ منا ـ لا نكادُ نُكَلمهُ لهيبته، ولا نَبْتَدِئُهُ لعظمته، يُعَظِّمُ أهل الدين، ويحبُّ المساكينَ، لا يطمعُ القويُّ في باطله، ولا يَيْأَسُ الضعيفُ من عدلِهِ، وأشهدُ لقد رأَيتهُ في بعض مواقفهِ، وقد أَرْخَى الليلُ سُدُولَه، وغارت نُجومُهُ، وقد مَثَلَ في محرابه، قابضاً على لحيته يَتَملْمَلُ تَمَلْمُلَ السليم[٦]، ويبكي بُكاء الحزين، ويقول: يا دُنيا إليكِ عَنِّي! غُرِّي غَيْرِي، أَلِي تَعَرَّضْتِ، أَمْ إلَيَّ تشوَّفْتِ؟ هيهات! قد بَاينْتُكِ ثلاثاً، لا رَجْعةَ لي عليك؛ فَعُمْرُكِ قصيرٌ، وخَطَرُكِ حَقير، وخطبُكِ يسير؛ آهِ من قلة الزاد، وبُعْدِ السفرِ، وَوَحْشَةِ الطريق!

---

(١) مخيل: مظنون، وهو السحاب تخاله ماطراً لرعده وبرقه.
(٢) الأَرْحَبِيُّ: جَملٌ منسوب إلى أرحب، وهو موضع تنسب إليه النجائب الأرحبية، وقيل: نسبة إلى فحل يسمى أرحب. وشقشقة الجمل: هديره.
(٣) الإِمَّعةُ: الرجل لا رأي له، ولا خطر يخشى منه، فهو تابع لغيره، ولا يكون مستقلاً.
(٤) الأصغران: القلب واللسان، وذرب الأصغرين: حديد القلب واللسان.
(٥) القول الفصل: الحقّ.
(٦) السليم: الملدوغ، وسمّي بذلك تفاؤلاً.

فبكى معاوية حتى أخْضَلَتْ دُموعُهُ لِحيتَهُ؛ وقال: رَحِمَ اللَّهُ أبا الحسن! فلقد كان كذلك، فكيفَ حُزْنُكَ عليه يا ضِرَار؟ قال: حُزْنُ مَنْ ذُبِحَ وَاحِدُهَا في حِجْرِها!

وقال عليّ رضوان الله عليه: رَحِمَ اللَّهُ عبداً سَمِعَ فوَعَى، ودُعِيَ إلى الرشاد فَدَنَا، وأخذ بِحُجْزَة هَادٍ فنجا[1]، وراقبَ رَبَّه، وخافَ ذَنْبَهُ، وقدَّم خالصاً، وعَمِلَ صالحاً، واكتسبَ مَذْخُوراً، واجتنب مَحذوراً، ورمى غرَضاً، وكابرَ هَوَاهُ، وكذَّبَ مُنَاهُ، وحذِرَ أجلاً، ودَأب عملاً، وجعلَ الصبرَ رغبةَ حياته، والتُّقَى عُدَّةَ وفاتِه، يُظْهِرُ دون ما يَكْتُمُ، ويكتفي بأقلَّ مما يعلم، لَزِمَ الطريقة الغرَّاءَ، والمحجَّة البيضاء، واغتنمَ المهلَ، وبادَرَ الأجَلَ، وتزَوَّدَ من العَمل.

علي يرثي خبَّاب بن الأرتّ

ولما رَجع رضي الله عنه من صِفِّين، فدخلَ أوائلَ الكوفة إذا قَبْرٌ، فقال: قَبْرُ مَنْ هٰذَا؟ فقيل: خَبَّاب بن الأَرَتِّ[2]، فوقفَ عليه، وقالَ: رحم الله خَبَّاباً! أسلمَ رَاغِباً، وهاجرَ طائعاً، وعاشَ مُجَاهِداً، وابْتُلِيَ في جسمه أحوالاً، ولن يضيع اللهُ أجرَ مَنْ أحسَنَ عملاً.

علي أمام القبور

ومضى فإذا هو بقبور، فوقف عليها، وقال: السلامُ عليكم أهلَ الديار المُوحِشة، والمحال المُقْفِرَةِ، أنتم لنا سلَف، ونحنُ لكم تَبَع، وبكم ـ عما قليل ـ لاحِقُون؛ اللهمَّ اغْفِرْ لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم بِعَفْوِكَ! طُوبَى لمن ذكرَ المَعَاد، وعَمِلَ للحساب، وقَنِعَ بالكَفَاف. ثم التفت رضي الله عنه إلى أَصحابِهِ، فقالَ: أما إنهم لو تكلَّمُوا لقالوا: وَجدْنا خَيرَ الزاد التَّقْوَى.

علي يصف الدنيا

وذَمَّ رَجُلٌ الدنيا بِحَضْرَةِ عليّ رضي الله عنه، فقال: دارُ صِدْقٍ لمن صدقها، ودَارُ نَجاةٍ لمن فهم عنها، ودارُ غِنًى لمن تزَوَّدَ منها، مَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ، ومُصَلَّى ملائكته، ومَسْجِدُ أنبيائه، ومَتْجَرُ أوليائه، رَبِحُوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا يذمّها، وقد آذَنَتْ

---

(١) الحجزة: الحضن، وأخذ بحجزته: استظهر به واستعانه.

(٢) خباب بن الأرت التميمي: صحابي جليل، وأحد السابقين البدريين. استضعفه المشركون، فعذبوه ليرتد عن دينه فصبر، حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة. توفي بالكوفة سنة ٣٧ هـ/ ٦٥٨ م، وصلى عليه الإمام علي رضي الله عنه. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٤٧).

بيْنِهَا، ونادت بِفِرَاقها، وذكَرَتْ بسرورها السرور، وببلائها البلاءَ، ترغيباً وترهيباً، فيا أيُّهَا الذامّ لها، المعلِّل نفسه بغرورها، متى خدَعتْكَ الدُّنيا؟ أم بماذا اسْتَذَمَّتْ إليك[١]، أبِمَصْرَعِ آبائكَ في البِلى؟ أم بِمَضْجَعِ أُمهاتك في الثَرَى، كم مرّضت بكفَّيكَ، وكم عللت بيديك، تطلبُ له الشفاء، وتستوصفُ الأطباء، غَداةَ لا ينفعُه بكاؤك، ولا يغني دواؤك.

من قصار كلام علي

فقر من كلامه رضي الله عنه: [البشاشة فخ المودة. والصبر قبر المغبون. والغالبُ بالظلم مغلوب. والحجَر المغصوبُ بالدار رهنٌ بخرابها. وما ظفِر مَنْ ظفرت به الأيام. فسالِمْ تَسْلَم]. رَأْيُ الشيخ خيرٌ من مَشْهَدِ الغلام[٢]. الناس أعداءُ ما جهلوا. بقية عُمر المؤمن لا ثمَن لها، يدرك بها ما أفات [ويحيي ما أمات].

نقل هذا الكلام بعضُ أهلِ العصر، وهو أبو الفَتْح عليّ بن محمد البُسْتي[٣]:

بَقيةُ العُمرِ عِنْدي ما لَها ثَمنٌ ... وَإن غَداً وَهو مَحْبوبٌ من الثمنِ
يَستدركُ المرءُ فيها ما أفات وَيُحْـ ... ـيِي ما أَمات ويَمْحُو السوءَ بالحسَنِ

الدنيا بالأموال، والآخرةُ بالأعمال. لا تخافَنَّ إلا ذنبك، ولا ترجُوَنَّ إلا ربك. وجِّهُوا آمالكم إلى مَنْ تحبه قُلُوبُكم. الناسُ من خَوْف الذل في الذل. مَنْ أَيْقَنَ بالْخُلْفِ جاد بالعطية. بقيَّةُ السيفِ أنْمَى عَدَداً، وأنْجَبُ ولداً ـ وقد تبينت صِحَّة ما قال في بنيه وبني المهلب ـ إنَّ من السكوت ما هو أبْلَغُ من الجواب. الصبرُ مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو[٤]، وسَيْفٌ لا يَنْبُو[٥]. خَيْرُ المالِ ما أغْنَاك، وخيرٌ منه ما كَفاك، وخير إخوانك مَنْ واساك، وخيرٌ منه من كفاك شره.

---

(١) استذمت إليك: فعلت ما تذمّها عليه.

(٢) مشهد الغلام: ما يشهده، ويراه رأي العين.

(٣) هو أبو الفتح، علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي: الشاعر المشهور، صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس. ولد في «بست» وإليها نسبته. مات غريباً في بلدة «أوزجند» ببخارى سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١١ م. (الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٢/ ١٦٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٢٩٦).

(٤) كبا يكبو كبوةً: عَثَر، والكبوة: مثل الوقفة تكون عند الشيء يكرهه الإنسان يُدْعَى إليه أو يُراد منه كوقفة العاثر. والكبوة: السقوط للوجه، ومنه: كبا الزند: لم يخرج ناره.

(٥) نبا السيف: لم يقطع، أو تجافى عن الضريبة، وفي المثل: «لكل صارم نبوة، ولكلّ جواد كبوة، ولكل عالم هفوة» (الميداني، مجمع الأمثال: ٢/ ١٨٧).

وقال بعضُ أهل العصر ما يشاكِل هذا وهو أبو الحسن محمد بن لَنْكَكٍ البَصْرِيُّ:

عَـــدِّيـــا فـــي زَمـــانِنـــا عَـــنْ حَـــدِيـــثِ المكـــارمِ
مَـــنْ كفـــى النـــاسَ شـــرَّهُ فَهْـــوَ فـــي جُـــودِ حـــاتِـــمِ

أبو الطيّب[1]:

إنَّـــا لَفِـــي زَمَـــنٍ تَـــرْكُ القَبِيـــحِ بِـــهِ مِـــنْ أَكْثَـــرِ النـــاسِ إحْـــانٌ وإجْمَـــالُ

إذا قدرت على عدوّك فاجْعَلِ العفوَ عنه شكراً للقُدْرَة عليه. قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يُحْسِن.

تعقيب للجاحظ على فقرة من كلام علي

ذكر أبو عُثْمان عَمْرُو بن بَحْر الجاحِظُ[2] هذه الكلمةَ في كتاب البيان فقال: فلو لم نَقِفْ من هذا الكتاب إلاَّ على هذه الكلمة لوجدناها شافية، كافية، ومُجْزِيَـة مُغْنِيَـةً؛ بل لوجدناها فاضلة عن الكِفاية، غير مقصِّرة عن الغاية؛ وأفضلُ الكلامِ ما كان قليلُه يُغْنِيك عن كثيره، ومعناه ظاهراً في لَفْظِه، وكأَنَّ الله قد أَلْبَسه من ثيابِ الجلالة، وغشّاه من نُورِ الحكمة، على حَسَب نِيَّة صاحبه، وتَقْوَى قائله. فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظُ بليغاً، وكان صحيحَ الطبع، بعيداً من الاستكراه، مُنَزَّهاً عن الاختلال، مَصُوناً عن التكلف؛ صَنَع في القلوب صَنِيعَ الغَيْثِ في التُّرْبَـةِ الكريمة، ومُتى فُصِّلَت الكلمةُ على هذه الشريطة، ونَفَذَت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله عز وجل من التوفيق، ومنَحَها من التَّأْييد، ما لا يمتنعُ من تعظيمها به صدورُ الجبابرة، ولايذهل عن فَهْمِها معه عقولُ الجهلة.

دعاء لعلي في الحروب

ومن دُعَائِه رضي الله عنه في حروبه: اللهم أَنْتَ أَرْضى للرضا، وأسْخَط لِلسُّخْطِ، وأقدر على أن تغيّر ما كرهت، وأعلم بما تقدر، لا تُغْلَب على باطل، ولا تعجز عن حق، وما أنت بغافل عما يعمل الظالمون.

---

(١) المتنبي، الديوان: ٢/٣٠٧.
يقول: لكثرة من يعامل بالقبيح، صار ترك القبيح يُعَدُّ إحساناً، لأن الإحسان لا مطمع فيه.

(٢) هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، البصري، المعتزلي، المعروف بالجاحظ: عالم، أديب، مشارك في أنواع العلوم. ولد بالبصرة، وتنسب إليه الفرقة الجاحظية. من آثاره: «البيان والتبيين»، و «الحيوان»، و «البخلاء»، وغيرها. توفي سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٨/ ٧).

من شعر علي رضي الله عنه

وقال علي رضي الله عنه:

لِمَنْ رَايَةٌ سَوْدَاءُ يَخْفق ظِلُّها ... إذا قِيلَ قَدِّمْها حُضَيْنُ تَقَدَّما[1]

فَيُورِدُها في الصَّف حَتَّى تَرُدَّها ... حِياضُ المنايا تقطُرُ الموتَ والدَّما

جَزى الله قوما قاتلوا في لِقائِهِمْ ... لَدى الروعِ قَوْماً ما أَعز وأَكْرَما

وَأَطيبَ أَخْباراً وأَفْضَلَ شِيمةً ... إذا كانَ أصواتُ الرجال تَغَمْغُما[2]

حُضَيْن الذي ذَكَره هو: أبو سَاسَان الحُضَيْنُ بنُ المُنْذِر بن الحارثِ بن وَعْلَة الرَّقاشي وكان صاحبَ رايَتِه يومِ صفّين.

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها:

أَرى عِلَلَ الدنيا عليّ كثيرةً ... وَصاحِبُهَا حتَّى المماتِ عَليلُ

لِكلِّ اجتماعٍ من خليلين فُرْقةٌ ... وَإنّ الذي دُون المماتِ قَليلُ

وَإنَّ افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ ... دَليلٌ على ألا يدومَ خَليلُ

ولما قَتَلَ عمرو بن عبد ودّ سقط فانكشفَتْ عَوْرَته[3]، فتنحَّى عنه وقال:

آلى ابنُ عَبْدٍ ـ حين شَدّ ـ أَلِيّةً ... وَحلَفتُ فَاسْتَمعوا من الكذّابِ[4]

أَلَّا يَفِرّ ولا يملل فَالتَقَى ... أَسَدَان يَضْطَرِبان كُلَّ ضِرَابِ[5]

اليومَ يَمْنَعُني الفِرارَ حَفيظتي ... وَمُصَمِّمٌ في الرَّأْسِ لَيْسَ بِنَابِ[6]

---

(١) حُضَيْنُ: هو حُضَيْنُ بن المنذر بن الحارث بن وعلة، كانت له رياسة بكر كلها يوم صفين، وكانت له راية سوداء، وقيل: حمراء، يخفق ظِلُّها إذا أقبل. (ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٤/ ٣٣٩).

(٢) التغمغم والغمغمة: الكلام الذي لا يُبيِّن، وأصوات الأبطال في الوغى عند القتال. والبيتان: الأول والثاني من هذه الأبيات في «العمدة» لابن رشيق القيرواني: ١/ ٥٤.

(٣) عمرو بن عبد ودّ: فارس من قريش، ظلَّ على الشرك، وقاتل المسلمين، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه في السنة الخامسة للهجرة.

(٤) آلى: أقسم، والألية: اليمين.

(٥) يملل: يتقلب. والضِّرابُ: المطاردة.

(٦) الحفيظة: الغضب والحمية، عند الدفاع عن الحرمة وحفظها، والمُصَمِّمُ: السيف لا ينبو.

أَعْـرَضْـتُ حيـنَ رَأَيْتُـه مُتقطِّـراً ... كَـالْجِـذْعِ بيـن دَكَـادكٍ وَرَوَابـي[1]
وَعففـتُ عَـنْ أَثْـوابـهِ ولَـوَأنَّنـي ... كُنْـتُ المُقطّـر بَـزَّنـي أَثْـوابـي[2]
نَصـرَ الحِجَـارةَ مـن سفـاهـةِ رَأْيـه ... ونَصَـرْتُ ديـنَ محمـدٍ بِصـوابِ[3]
لا تَحْسبَـنَّ اللَّـهَ خَـاذِلَ دينـهِ ... وَنبيّـهِ يـا مَعْشَـرَ الأحـزابِ

في أبيات غير هذه، وبعضُ الرواة يَنْفيها عن علي رضي الله عنه.

عَمْرُو بن وُدّ

وعمرو هذا هو: ابن عَبْد وُدٍّ بن نَصْر بن مالك بن حَسل بن عامر بن لُؤَيّ، وكان قد جَزَع المذاد، وهو موضع حُفِر فيه الخندقُ يومَ الأحزابِ، وفي ذلك يقول الشاعر:

عَمـرو بـنُ وُدّ كـانَ أَوَّلَ فـارسٍ ... جَـزَعِ المـذادَ وكـانَ فـارسَ يَلْيَـلِ[4]

ولما صار مع المسلمين في الْخَندَق دعا [إلى] البراز، وقال:

وَلقـدْ بَحِحْـتُ مـن النـدا ... ءِ بجمعهـم هَـلْ مِـنْ مُبَـارزْ[5]
وَوقفـتُ إذ نَكَـلَ الشجـا ... عُ بِمَـوْقـفِ البَطَـلِ المُنَـاجِـزْ[6]
إنـي كَـذلـك لَـمْ أَزَلْ ... مُتَسـرِّعـاً نَحْـوَ الهَـزَاهـزْ[7]
إنَّ السمـاحـةَ والشجـا ... عـةَ فـي الفتـى خَيْـرُ الغَـرائـزْ[8]

فبرز علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: يا عمرو! إنك عاهدت الله لقريش ألاَّ يدعوك أحدٌ إلى خلّتين إلا أخذت إحداهما، فقال: أجل! قال: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجَةَ لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى المبارزة،

(١) مُتقطِّرٌ: صريع. والدكادك: جمع الدكدك، وهو الرمل المتلبد بالأرض.
(٢) بَزَّ: سَلَب وانتزع، وابتزه ثيابه: سلبه إياها، وفي المثل: «من عزَّ بزَّ»، أي من غلب سلب.
(٣) نصر الحجارة: كناية عن عبادة الأوثان.
(٤) جزع المذاد: اجتازه، والمذاد: الموضع الذي يُذاد فيه عن النفس، أي: موضع الحرب. ويَلْيَلُ: اسم وادٍ في بدر.
(٥) بح صوته: ضعف من كثرة النداء.
(٦) نكل: نكص. والمناجز: المبادر إلى القتال.
(٧) الهزاهز: الشدائد والحروب، لأنها تهزهز الرجال.
(٨) الغرائز: الطباع.

فقال: يا ابن أخي ما أُحِبُّ أن أَقْتُلَك! قال علي: لكني واللهِ أُحِبُّ أن أقتلك، فَحمِيَ عمرو، فاقتحم عن فرسه وعرَقَبه[١] ثم أقبل إلى علي:

فَتَجَاوَلاَ كَغَمَامَتَيْنِ تَكَنَّفَتْ ... مَتْنَيهما رِيحَا صَباً وشَمَالِ[٢]

فـي مَوقفٍ كَادتْ نُفوسُ كُماتِه ... تُبْتَزُّ قَبْلَ تَوَرُّدِ الآجالِ[٣]

وعلت بينهما غبرة سَتَرَتْهُما فلم يرع المسلمين إلا التكبير؛ فعلموا أن عليًّا قتله.

ولما قُتِلَ عمرو جاءت أخته فقالت: مَنْ قتلَه؟ فقيل: علي بن أبي طالب، فقالت: كفءٌ كريم! ثم انصرفت وهي تقول[٤]:

لَوْ كانَ قَاتِلُ عَمرو غَيْرَ قاتلِهِ ... لَكُنْتُ أَبكي عليه آخرَ الأبدِ

لٰكنَّ قَاتِلَه مَنْ لا يُعابُ بهِ ... وَكان يُدْعَى قديماً بَيْضَةَ الْبَلَدِ

مِنْ هَاشمٍ في ذُراها وَهْيَ صَاعِدَةٌ ... إلى السماءِ تُميتُ الناسَ بالحسَدِ

قَوْمٌ أَبَى الله إلا أَن يَكُونَ لَهُمْ ... مَكارمُ الدِّينِ والدُّنيا بلا أَمَدِ

يا أُم كُلْثُومَ بَكّيهِ وَلا تَدَعِي ... بُكاءَ مُعْولَةٍ حَرَّى على وَلَدِ

أم كلثوم: بنت عمرو بن عبد وُدّ. و«بيضة البلد» تَمْدَحُ به العربُ وتَذُمّ؛ فمن مَدَح به جعله أصلاً، كما أن البيضة أصلُ الطائرِ. ومن ذم به أراد أنْ لا أصل له. قال الراعي يهجو عديّ بن الرقاع العاملي[٥]:

يا مَنْ تَوَعَّدني جَهْلاً بِكَثْرَتِهِ ... مَتى تُهَدّدني بالعزِّ والعدَدِ

أَنتَ امْرُؤٌ نالَ من عِرْضِي وَعِزَّتُهُ ... كَعِزَّةِ العَيْرِ يَرْعَى تَلْعَةَ الأسَدِ[٦]

---

(١) عرقبه: قطع عرقوبه.

(٢) تجاولا: تصاولا.

(٣) الكماة: الأبطال الشجعان، الواحد: كَميّ. وَتُبْتَز: تُسْلَبُ. وتورّد الآجال: ورود حياض الموت، والمراد أنهم كانوا يموتون قبل انقضاء آجالهم من الخوف.

(٤) البيتان: الأول والثاني في «العمدة في محاسن الشعر» لابن رشيق القيرواني: ٢/ ٢٩٨.

(٥) هو أبو داود، عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع بن عاملة، ونسبه الناس إلى «الرقاع» جدّ جدّه لشهرته. وهو شاعر مقدم عند بني أمية، واختص بالوليد بن عبد الملك. وكان ينزل دمشق. توفي نحو ٩٥ هـ/ ٧١٤ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥١٥؛ الأصفهاني، الأغاني: ٩/ ٣٠٠).

(٦) العير: الحمار. وتلعة الأسد: الرابية التي يحميها، وليس للحمار عزّة في تلعة الأسد، وإنما هو مثال للهوان.

لَـو كُنْتَ مـن أَحـدٍ يُهْجَى هَجَوْتكُـم ... يـابْنَ الـرِّقـاع ولكـنْ لَسْتَ مـن أَحـدِ
تَـأْبـىٰ قُضَـاعـةُ أَن تَـرْضَـى لَكُـمْ نَسبـاً ... وَابنـا نـزارٍ؛ فَـأَنْتُـمْ بَيْضَـةُ البلـدِ

عاملة قوم عدي بن الرقاع

وقال أبو عبيدة: عَامِلة بن عَدِيّ بن الحارث بن مُرَّة بن أَدّ [بن زياد] بن يَشْجُب، يُطْعَنُ في نسبه من قَحْطَان، ويقال: هو عاملة بن معاوية بن قاسط بن أَهْيَب؛ فلذلك قال الراعي هذا. ويقال: إن جَنْدَل بن الراعي قالها، وقد قال يَحْيَى بن أبي حَفْصَة الأموي(١) في عَامِلة:

وَلَسْنـا نُبـالـي نَـأْيَ عَـاملـة التـي ... أَجَـدَّ بهـا مِـنْ نَحْـو بُصْـرَى انْحِـدارُهـا
تَـدافَعَهـا الأَحيـاءُ حَتَّـى كَـأَنَّهـا ... ثِيـابٌ بَـدَا لِلمُشْتـريـنَ عَـوَارُهـا
قَـذَفْنَـا بهـا لَمَّـا نَـأَتْ قَـذْفَ حـاذفٍ ... بِسُـودِ حَصًـى خَفَّـتْ عليـهِ صِغَـارُهَـا

ويشبه قولُ علي رضي الله عنه «وعففت عن أثوابه» قولَ عَنْتَرة بن شَدَّاد العَبْسِيّ(٢):

هَـلاَّ سَـأَلـتِ الخيـلَ يـابْنَـةَ مَـالِـكٍ ... إنْ كُنْـتِ جـاهلـةً بمـا لـم تَعْلَمِـي
يُخْبِـرْكِ مَـنْ شَهِـدَ الـوقيعـةَ أَنَّنـي ... أَغْشَـى الـوغَـى وَأَعِـفُّ عِنـد المَغْنَـمِ

وقال حَبيبُ بنُ أَوْسٍ الطائي(٣):

إنَّ الأُسـودَ أُسـودَ الغـابِ هِمَّتُهـا ... يَـوْمَ الكَريهةِ في المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ(٤)

عزم المؤلف على ضروب من الاختيار

قد علقت بذيل ما أوردته، وألحقت بطرف ما جردته، من كلام سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين، قطعةً من كلام الخلفاء الراشدين، قدمتها أمام كلّ كلام، لتقدمهم على الْخَلْقِ، وأخذهم

(١) هو جدّ مروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور، وله أشعار كثيرة. (الجاحظ، الحيوان: ٤/ ٢٨١).
(٢) عنترة بن شدّاد، الديوان: ص ٢٥.
(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٠٢.
(٤) هِمَّتُها: مقصدها. الكريهة: الحرب. يقول: إن الفارس الشجاع يقصد في الحرب إلى خطف الأرواح لا إلى سلب المال.

بقصَبِ السَّبْقِ[١]، وهم كما قال بعضُ المتكلّمين يصف قوماً من الزهاد الواعظين. جَلَوْا بكلامهم الأبصارَ العليلة، وشحذوا بمواعظهم الأذهانَ الكليلة، ونَبَّهوا القلوبَ من رَقْدَتِها، ونَقَلُوها عن سوء عادَتِها، فشَفَوْا من داء القسوة، وغَبَاوة الغَفْلَةِ، وداوَوْا من العيِّ الفاضح، ونهجُوا لنا الطريقَ الواضح. وآثَرْت أن ألحق بعد ذلك جملةً من سليم كلام سائر الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين، وأدرج في دَرج كلامهم وأثناء نَثْرِهم ونظمهم، ما التفَّ عليه والتفت إليه، وتعلَّق بأغصانه، وتشبَّثَ بأفْنَانِه، كما تقدّم، وأخرج إلى صفات البلاغات، وآخُذ بعد ذلك في نظم عقود الآداب، ورَقْمِ برود الألباب.

مِنْ كُلِّ مَعْنًى يَكادُ المَيْتُ يَفْهَمُهُ حُسناً ويَعْبُدُهُ القِرْطَاسُ والقلمُ

[من كلام الصحابة والتابعين]

من كلام معاوية

قال مُعاوية بن أبي سُفْيان رحمه الله: أَفْضَلُ ما أُعْطِيَ الرجلُ العَقْلُ والحلمُ؛ فإذا ذُكّر ذَكَر، وإذا أساء استغفر، وإذا وَعَد أنجز.

وصف معاويةُ الوليدَ بن عُتْبَة فقال: إنه لبعيد الغَوْر، ساكن الفور[٢]، وإن العُودَ من لِحَائه[٣]، والولد من آبائه، والله إنه لنبات أصل لا يخلف، ونجل فَحْلٍ لا يقرف[٤].

بين معاوية ومصقلة بن هبيرة

ومرض معاويةُ مرضاً شديداً فأَرْجَفَ[٥] به مَصْقَلَة بن هُبَيْرةَ وسَاعَده قَوْمٌ على ذلك، ثم تماثل وهم في إرجافهم، فحمل زياد مَصقلة إلى معاوية وكتب إليه: «إنه يَجْمَعُ مُرَّاقاً من مُرَّاق العِراق[٦] فَيُرْجِفُون بأمير المؤمنين، وقد حملتُه إليه لِيَرَى رأيه فيه».

---

(١) السَّبْقُ: هو السباق، وأخذ قصب السبق: كناية عن الفوز.

(٢) الغور: القعر من كل شيء، وبعد الغور: كناية عن أصالة الرأي، وعمق التفكير. والفَوْرُ: الغضب. وسكون الفور: كناية عن الحلم.

(٣) اللحاء: القشر.

(٤) لا يقرف: من القِراف (بالكسر) وهو داء يقتل البعير، والمراد: أنه قوي البنية، لا يُؤثر فيه المرض.

(٥) الإرجاف: الخوض في أخبار الفتن، قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنَافِقُونَ والذين في قُلُوبِهم مَرَضٌ، والمُرْجِفُونَ في المدينة لَنُغْرِيَنَّك بِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب، آية ٦٠).

(٦) المُرَّاقُ: جمع مارق، وهو الخارج على الجماعة.

فقدم مَصْقَلة، وجلس معاويةُ للناس؛ فلما دخل عليه قال: ادْنُ مني! فدنا منه، فأخذَهُ بيده فَجذَبه فسقط مَصْقَلة؛ فقال معاوية:

أبقـى الحـوادثُ مـن خَليـ ـلِـكَ مِثْـلَ جَنْـدَلـةِ المـرَاجِـمْ[1]

صُلبـاً إذا خَـارَ الـرِّجـا لُ أبَـلَّ مُمْتَنِـعَ الشكـائِـمْ[2]

قَـدْ رَامنـي الأعـداء قَبْـ ـلـكَ فـامتَنَعْـتُ عـن المظـالِـمْ

قال مصقلة: يا أمير المؤمنين؛ قد أبقى الله منكَ ما هو أعْظَمُ من ذلك [بطشاً] وحِلماً [راجحاً] وَكَلأً ومرعًى لأوليائك، وسمّا ناقعاً لأعدائك، كانت الجاهلية فكان أبوك سَيّدَ المشركين، وأصبح الناس مسلمين؛ وأنت أميرُ المؤمنين، وقام.

فوصله معاويةُ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة. فقيل له: كيف تَركْتَ معاوية؟ فقال: زعمتم أنه لما به، والله لقد غمزني غمزة كاد يَحْطِمُني، وجَذَبَني جَذْبَة كاد يكسر عُضْواً مني!

بين معاوية والأحنف بن قيس

ودخل الأَحْنَفُ بنُ قيسٍ على مُعاوية وافداً لأهلِ البصرة، ودخل معه النَّمر بن قُطْبة، وعلى النمر عباءة قَطَوَانِيَّة[3]، وعلى الأحنف مِدْرَعَةُ صوف وشَملة، فلما مثلا بين يدي معاوية اقتحمَتْهُمَا عينُه[4]؛ فقال النمر: يا أميرَ المؤمنين! إنَّ العباءة لا تُكلِّمك، وإنما يكلمك مَنْ فيها! فأومأ إليه فجلس، ثم أقبل على الأحنف فقال: ثم مَه؟ فقال: يا أمير المؤمنين؛ أهلُ البصرة عدد يسير، وعَظْمٌ كسير، مع تتابع من المُحُول[5]، واتصالٍ من الذُّحول[6] فالمُكْثِرُ فيها قد أطرق، والمُقِلُّ قد أمْلَق[7]، وبلغ منه المُخَنَّق؛ فإنْ رَأى أميرُ المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقيرَ، ويَجْبُرَ الكسير، ويسهّل العسير، ويَصْفَح عَن الذُّحول، ويُدَاوي

---

(١) الجندلة: الصخرة.

(٢) الشكائم: جمع شكيمة، وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس، ومنه: فلان شديد الشكيمة: أَنِفٌ يأبى الانقياد.

(٣) عباءة قطوانية: نسبة إلى قطوان، وهو موضع بالكوفة.

(٤) اقتحم: ازدرى، احتقر.

(٥) المُحول: جمع مَحْل، وهو الشدّة، والقَحْطُ، والجَدْبُ، والجوع الشديد.

(٦) الذُّحول: جمع ذَحْل، وهو الثأر.

(٧) أملق: من الإملاق، وهو الفقر.

المُحُول، ويأمر بالعَطَاء؛ ليكشف البَلاء، ويُزيل اللأْواء[١]. وإنَّ السيدَ من يعمّ ولا يخُصُّ ومَنْ يدعو الْجَفلَى، ولا يَدْعُو النَّقَرَى[٢] إنْ أُحْسِنَ إليه شكر، وإنْ أُسِيءَ إليه غَفَرَ، ثم يكون وراء ذلك لرعيته عِمَادًا يَدْفَعُ عنها المُلِمَّات، ويكشفُ عنهم المُعْضِلات.

فقال له معاوية: ها هنا يا أبا بَحْر! ثم تلا: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[٣].

محاورة بين معاوية وأهل العراق

ومن جميل المحاورات ما رواه المَدَائني، قال: وَفَدَ أهل العِراق على معاوية رحمه الله، ومعهم زِيادٌ، وفيهم الأحنف، فقال زياد: يا أميرَ المؤمنين؛ أَشْخَصَتْ إليك أقْوَاماً الرغبةُ، وأقعدَ عنكَ آخرين العُذْرُ، فقد جعلَ الله تعالى في سَعَة فضلك ما يُجْبَرُ به المتخلف، ويكافأُ به الشاخص. فقال معاوية: مرحباً بكم يا معشر العرب، أما والله لئن فَرَّقَتْ بينكم الدعوة، لقد جمعتكم الرَّحِم؛ إن الله اختاركم من الناس ليختارَنا منكم، ثم حفظ عليكم نَسَبَكُمْ بأن تخير لكم بلاداً تجتاز عليها المنازل، حتى صفَّاكم من الأُمم كما تُصَفَّى الفضةُ البيضاء من خَبَثِهَا؛ فصونوا أخلاقكم، ولا تُدَنِّسُوا أنسابكم وأعراضكم، فإن الحسَنَ منكم أحسَنُ لِقُرْبكم منه، والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه.

فقال الأحنف: والله يا أمير المؤمنين، ما نَعْدَم منكم قائلاً جزيلاً[٤] ورأياً أصيلاً، ووعداً جميلاً؛ وإن أخاك زياداً لَمُتَّبعٌ آثارَك فينا، فنستمتع الله بالأمير والمأمور، فإنكم كما قال زُهَيْر، فإنه ألقى على المدَّاحين فصول القول:

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إلاَّ فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ[٥]

---

(١) اللأواء: الشدّة.

(٢) يدعو الجفلى: أي يعمّ بدعوته إلى الطعام، ولا يخصّ أحداً، وضدّه: النقرى، وهي أن يخصّ الآدب بدعوته أفراداً دون غيرهم، قال طرفة بن العبد:
نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلى ... لا تَرَى الآدِبَ فِينا يَنْتَقِرْ
(ديوانه: ص ٥٥). والمشتاة: الشتاء.

(٣) سورة محمد، آية (٣٠).

(٤) القائل الجزيل: الذي يقول جزل الكلام، وهو العاقل الأصيل الرأي.

(٥) الخطي: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو مرفأ للسفن بالبحرين، تجلب إليه الرماح من منبتها. والوشيج: القنا الملتف في منبته، الواحدة: وشيجة. يريد: أنه كما أن القناة لا تنبت إلاّ القناة، =

وهذان البيتان لِزُهَيْر بن أبي سُلْمى المُزْني[١] في قصيدة يقول فيها[٢]:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القَوْلُ وَالفِعْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ والبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلوا وَلم يُلِيمُوا وَلم يَأْلُوا[٣]

قال بعضُ أهل العلم بالمعاني: أعْجِبْ بقوله: «ولم يألوا»؛ لأنه لما ذكر السعي بعدهم، والتخلف عن بلوغ مساعيهم، جاز أن يتوهم السامع أن ذلك لتقصير الطالبين في طلبهم؛ فأخبر أنهم لم يألوا، وأنهم كانوا غيرَ مقصرين وأنهم ـ مع الاجتهاد ـ في المتأخرين؛ ثم لم يَرْضَ بأن يجعل مجدَهُم طارفاً فيهم، ولا جديداً لديهم، حتى جعله إرْثاً عن الآباء، يتوارَثُهُ سائرُ الأبناء، ثم لم يَرْضَ أن يكونَ في الآباء حتى جعله موروثاً عن آبائهم، وهذا لو تكلفه متكلف في المنثور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار.

منزلة شعر زهير بن أبي سلمى

وكانت قريشٌ معجبةً بشعر زُهَيْر، وقال النبي ﷺ: إنَّا قد سمعنا كلامَ الخطباء والبلغاء، وكلامَ ابن أبي سلمى، فما سمعنا مثلَ كلامه من أحد؛ فجعلوا ابنَ أبي سُلْمىٰ نهايةً في التجويد، كما ترى.

وذُكِرَ أن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن من أشعر شعرائكم زُهَيراً، كان لا يُعَاظِل بين الكلام[٤]، ولا يتبع حُوشيَّهُ[٥]، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون في الرجال[٦].

= ولا يغرس النخل إلاَّ بحيث ينبت ويصلح، فكذلك الكرام لا يولدون إلاّ في وضع كريم.

(١) هو زهير بن أبي سلمى (ربيعة) بن رياح المزني، من مضر: أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء. ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة. اشتهر بحكمته ورويته ونفاذ بصيرته، وعني بشعره، فعرفت قصائده بالحوليات. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥١، ٦٣؛ ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال: ٢٣٥ ـ ٢٩٠).

(٢) القصيدة بكاملها في ديوانه: ص ٥٨ ـ ٦٣، وقد قالها في مدح سنان بن أبي حارثة المري.

(٣) لم يَأْلوا: لم يُقَصِّروا.

(٤) يعاظل: يُكرّر وَيُرَدّد.

(٥) الحوشي: الوحشي، الغريب.

(٦) وفي «العمدة» لابن رشيق القيرواني (١/ ١٧٢): «لا يمدح الرجل إلاَّ بما فيه».

وأخذ معنى قولِ زُهَير:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُم

طُرَيْحُ بن إسماعيل الثَّقَفيّ[١]، فقال لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي السفَّاح:

قَدْ طلبَ الناسُ ما بَلغْتَ ولَمْ ... يَأْلُوا فما قَارَبوا وَقَدْ جَهِدُوا[٢]

فَهُمْ مُلوكٌ ما لم يَرَوْكَ، فإنْ ... لاحَ لهم مِنْكَ بارقٌ خَمدُوا

تَعْرُوهُمُ رِعْدَةٌ لَدَيْكَ كما ... قُرْقِفَ تحتَ الدُّجُنَّةِ الصَّرِدُ[٣]

لا خَوْفَ ظُلْمٍ وَلا قِلَى خُلُقٍ ... لَكِنْ جلالاً كَسَاكَهُ الصَّمدُ[٤]

ما يُبْقِكَ اللهُ لِلأنام فَما ... يُفْقَدُ مِنَ العالمينَ مُفْتَقِدُ

معاوية يبين النبل والمروءة

وقال معاوية رحمه الله: المروءةُ: احتمال الجريرة[٥]، وإصلاحُ أمر العشيرة؛ والنبلُ: الحلم عند الغضب، والعفوُ عند المقدرة.

فِقَر من كلامه رضي الله عنه: ما رأيتُ تبذيراً قَطُّ إلاَّ وإلى جَنْبه حقٌّ مُضَيَّع. أنْقَصُ الناسِ عَقْلاً مَنْ ظَلَم مَنْ هُو دُونَهُ. أولى الناس بالعَفْوِ أقدرُهم على العقوبة. التسلُّط على المماليك مِنْ لُؤْمِ المقدرة وسوء المملكة.

وقال يحيى بن خالد: ما حَسُنَ أَدَبُ رجلٍ إلاّ ساء أدبُ غِلْمَانه[٦].

وقال معاوية: إصلاحُ ما في يدك أَسْلَمُ من طلب ما في أيدي الناس. غَضَبِي على مَنْ أَمْلِك، وما غضبي على مَنْ لاَ أَمْلِك؟.

---

(١) هو أبو الصلت، طريح بن إسماعيل بن عبيد بن أسيد الثقفي: شاعر مخضرم، نشأ في دولة بني أمية، وأدرك دولة بني العباس، وتوفي في أيام المهدي، سنة ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م. (الجاحظ، البيان والتبيين: ٢/٣٦٣؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/٥٦٨).

(٢) جهدوا: تعبوا.

(٣) قُرْقِف: أُرْعِد. الدجنة: الظلمة. الصَّرِدُ: المقرور، الذي يشكو شدة البرد.

(٤) القلى: البغض.

(٥) الجريرة: الجناية. واحتمال الجريرة: كناية عن دفع الدية عن الجاني.

(٦) يبدو أن المؤلف قد أدخل هذا القول سهواً، أو استطراداً، إذ كان الغرض ذكر فقر من كلام معاوية دون غيره في هذا الموضع.

عبد الله بن همام السلولي عند يزيد بن معاوية يهنئه ويعزيه

ولما تُوُفِّيَ معاويةُ رحمه الله واستُخْلف يزيدُ ابنه اجتمع الناسُ على بابه، ولم يقدروا على الجمع بين تهنئة وتعزية، حتى أتى عبدُ الله بن همَّام السّلُولي[١]، فدخل عليه فقال: يا أميرَ المؤمنين، آجَرَكَ الله على الرَّزية، وبارك لك في العطيَّة، وأعانك على الرعيَّة، فقد رُزِئْتَ عظيماً، وأُعْطِيتَ جسيماً، فاشْكُرِ اللَّهَ على ما أُعطيت، واصبر له على ما رُزيت؛ فقد فقدتَ خليفة الله، ومُنِحْتَ خِلافة الله؛ ففارقتَ جليلاً، وَوُهِبْتَ جزيلاً؛ إذْ قضى مُعَاوِيةُ نَحْبه، فغفر الله ذَنْبَه؛ وَوُلِّيتَ الرياسة، فأُعطيت السياسة؛ فأوردك الله مواردَ السرور، ووفّقك لصالح الأمور[٢]، وأنشده:

اصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارقْتَ ذا ثِقَةٍ ... وَاشكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بالمُلْكِ أَصْفاكا[٣]

لارُزْءَ أَصْبَحَ في الأقْوامِ نَعْلَمُهُ ... كما رُزِئْتَ وَلا عُقْبَى كَعُقْبَاكا

أَصْبَحْتَ والِيَ أَمْرِ الناسِ كُلِّهِم ... فَأَنْتَ تَرْعَاهُمُ واللَّهُ يَرْعَاكا

وَفي مُعَاوِيَةَ الباقِي لَنَا خَلَفٌ ... إذا نُعِيتَ وَلا نَسْمَعْ بِمَنْعَاكا[٤]

يريد أبا ليلى معاوية بن يزيد، وَوُلِّيَ بعد أبيه شهوراً، ثم انخلع عن الأمر، فقال القائل:

وَالمُلْكُ بَعْدَ أَبِي لَيْلَى لِمَنْ غَلَبَا

الجمع بين التهنئة والتعزية

وأول مَنْ فَتَحَ الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية عبدُ الله بن همّام، فَوَلجه الناس، ومن جيِّد ما قيل في ذلك قصيدةُ أبي تمام الطائي يمدح الواثقَ ويرثي المعتصم يقول فيها[٥]:

---

(١) هو عبد الله بن همام بن رياح السلولي، من بني مرة بن صعصعة: شاعر إسلامي، أدرك دولة الأمويين، وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك، وكان يقال له: «العطار» لحسن شعره. توفي نحو ١٠٠ هـ/ ٧١٨ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥٤٥).

(٢) أنظر الرواية، وما اشتملت عليه من أبيات شعرية في «العمدة» في محاسن الشعر لابن رشيق القيرواني: ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) الحباء: العطاء بلا منٍّ ولا جزاء.

(٤) «لا نسمع بمنعاكا»: دعاء له بطول العمر.

(٥) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٠٦.

إن أَصْبَحَتْ هَضَباتُ قُدْسَ أَزالَها قَدَرٌ فما زَالَتْ هِضابُ شَمامِ[١]
أو يُفْتَقَدْ ذو النونِ في الهَيْجَا فَقَدْ دَفَعَ الإلٰهُ لنا عنِ الصَّمْصَامِ[٢]
أَو كُنْتَ مِنّا غَارِبا غَدواً فقَدْ رُحْنَا بأَسْمَى غَاربٍ وَسَنَامِ[٣]
تِلْكَ الرَّزِيّةُ لا رَزيَّةَ مِثْلُها وَالقِسْمُ لَيْسَ كَسائرِ الأَقسامِ[٤]

وهذا المعنى كثير.

وكان معاوية رحمه الله قد تركَ قولَ الشعرِ في آخر عمره، فنظر يوماً إلى جاريةٍ في داره ذات خَلْقٍ رائع، فدعاها فوجدها بِكراً فافترعها، وأنشأ يقول[٥]:

سَئِمْتُ غَوايتي فَأَرَحْتُ حِلْمي وَفيَّ عَلَى تَحلُّمِيَ اعْتِراضُ
عَلى أَنّي أُجيبُ إذا دَعتْني ذَواتُ الدَّلِ والْحَدَقُ المِراضُ

فِقر لجماعة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم

ابنُ عبّاس: الرخصة[٦] من الله صدقة، فلا تَرُّدوا صدقته. لكل داخلٍ هيبة فابدءُوه بالتحية، ولكل طاعم حشمة فابدءُوه باليمين.

ابن مَسْعُود[٧] رحمه الله: الدنيا كلها همومٌ، فما كان منها في سرور فهو ربح.

(١) قدس: جبل عظيم بنجد، كني به عن المعتصم، وشمام: جبل لباهلة، كنى به عن الواثق.
(٢) الصمصام والصمصامة: السيف القاطع الصارم، ورجل صَمْصَام: شديد صُلْب. وذو النون: سيف مشهور عند العرب، كان على مثال سمكة، قيل: كان لعمرو بن معدي كرب، وكنّى به عن المعتصم.
(٣) الغارب: الكاهل.
(٤) القَسْمُ: النصيب.
(٥) وفي «العمدة» في محاسن الشعر: ١/ ٥٥:
فَقَدْتُ سَفَاهتي وأَرَحْتُ غَيِّي وَفيَّ عَلَى تَحَلُّمِيَ اعْتِراضُ
عَلَى أَنّي أُجِيبُ إذا دَعَتْني إلى حَاجاتِها الحَدَقُ المِراضُ
(٦) الرخصة: ما شُرّع للعبد من تخفيف في أداء بعض الفروض الدينية، كقصر الصلاة، وإباحة الفطر للمسافر، وغير ذلك.
(٧) عبد الله بن مسعود: صاحب النبي ﷺ. توفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٠٢ م بالمدينة، وله «المسند» في الحديث. (بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٣/ ١٥٤).

عَمْرُو بن العَاص[١]: مَنْ كثر إخوانه كَثُرَ غُرَماؤه. وقال: أَكْرِمُوا سفهاءكم، فإنهم يكفونكم العارَ والنار.

المُغِيرَةُ بن شُعْبَـة[٢]: العيشُ في بقاءِ الْحِشْمَة. في كل شيء سَرَف إلا في المعروف.

هذا كقول الحَسَن بن سَهْل[٣] ـ وقد أَنْفَقَ في دخول ابنته بُورَانَ على المأمون أموالاً عظيمة ـ فقيل له: لا خيرَ في السَّرِف. قال: لا سَرَف في الخير. فرد اللَّفْظَ واستوفى المعنى.

مَعَاذُ بن جَبَل[٤]: الدَّين هَدْم الدِّين.

زياد[٥]: إرْضَ من أخيك إذا وُلِّيَ ولايةً بِعُشْر وُدِّه قبلها.

مُصْعَبُ بن الزُّبَـيْر[٦]: التَّوَاضع من مصايد الشرف.

---

(١) هو أبو عبد الله، عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن غالب القرشي السهمي: أحد رؤساء قريش في الجاهلية. أسلم قبل الفتح بستة أشهر، فكان أحد أمراء الإسلام، وهو أمير «ذات السلاسل»، ومن دهاة العرب وشجعانهم. توفي سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٤ م. (ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/ ٢٦).

(٢) المغيرة بن شعبة الثقفي: من دهاة العرب المعدودين. شهد الحديبية، واليمامة، واليرموك، والقادسية، وولّاه عمر بن الخطاب الكوفة، ثم عزله عثمان، ثم ولّاه معاوية عليها، فظل أميرها حتى وفاته سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م (ابن كثير، البداية والنهاية: ٨/ ٥٠).

(٣) هو أبو محمد، الحسن بن سهل بن عبد الله السَّرْخَسي: وزير المأمون بعد أخيه الفضل (ذي الرياستين)، عُرِف بعلوّ الهمة، وكثرة العطاء. ثارت عليه المِرَّةُ السوداء في أواخر عمره فتغير عقله، وَحُبِس في داره حتى وفاته سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٢٠).

(٤) معاذ بن جبل: سلطان العلماء، وأعلم الأمة بالحلال والحرام، وقد ورد أن العلماء تأتي تحت رايته يوم القيامة. وهو الذي قال له النبي ﷺ: «إني أحبك يا معاذ». توفي سنة ١٨ هـ/ ٦٤٠ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٢٩).

(٥) هو أبو المغيرة، زياد: أحد ولاة بني أمية الأشداء؛ اختلف في نسبه، لذلك قالوا: ابن أبيه. ولّاه الإمام علي أمر فارس، فضبطها ضبطاً حسناً. اعترف به معاوية بن أبي سفيان أخاً، وولّاه أمر البصرة والكوفة. كان خطيباً فصيحاً، وَضُرِب بدهائه المثل. توفي سنة ٥٣ هـ/ ٦٧٣ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٥٩).

(٦) مصعب بن الزبير بن العوام القرشي: أحد القادة الشجعان. بايعه على الخلافة أهل البصرة والكوفة سنة ٦٥ هـ. نازل المختار الثقفي، فقضى على ثورته، ونازله عبد الملك بن مروان =

الأَحْنَفُ بن قَيْس[(١)]: من لم يَصْبِرْ على كلمة سَمِعَ كلماتٍ! وقيل له: مَن السيد؟ قال: الذي إذا أَقْبَل هابوه، وإذا أَدْبَرَ عَابُوه. وله: سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ. وله: مَنْ تَسَرَّع إلى الناس بما يَكْرَهون قالوا فيه ما لا يَعْلَمون. وله: الكامل مَنْ عُدَّت هفواته.

وقال يَزيدُ بن محمد المُهلَّبي[(٢)]:

وَمنْ ذا الذي تُرضَى سَجَاياه كلُّها ... كَفَى المَرْءُ نُبْلاً أن تُعدَّ مَعَايبُهْ

الحَسَنُ البَصْري[(٣)]: ألاَ تَسْتَحْيُونَ من طول ما لا تستحيون! ابنُ آدَمَ راحِلٌ إلى الآخرة كل يوم مرحلة. ما أَنْصَفَك مَنْ كلَّفك إجلالَه، ومنعك مَالَه. بدن لا يشتكي مثل مَالٍ لا يُزَكَّى. إن امرءًا ليس بينه وبين آدَمَ أبٌ حي لَمُعْرِق في الموتى.

قال الطائي[(٤)]:

تَأَمَّل رُوَيْداً هَلْ تَعُدّنَّ سَالماً ... إلى آدمٍ أَوْ هَلْ تُعَدُّ ابنَ سَالِمِ

وقال أبو نوّاس[(٥)]:

وَما الناسُ إلا هَالِكٌ وابنُ هَالكٍ ... وَذُو نَسَبٍ في الهالكين عَريقِ[(٦)]

= بأرض «مسكن» فقتله سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٣ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٧٩).

(١) هو أبو بحر، الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي: سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الفاتحين. يُضرب به المثل في الحلم. ولد في البصرة، وشهد الفتوح في خراسان، واعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صفين مع علي، وولي خراسان. توفي في الكوفة سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م. (الزركلي، الأعلام: ١/ ٢٧٦).

(٢) هو أبو خالد، يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة، من بني المهلب بن أبي صفرة: شاعر، راجز، نديم، راوية، من أهل البصرة. قدم بغداد، ونادم المتوكل العباسي، ومدحه، ورثاه بعد موته. توفي ببغداد سنة ٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م. (البغدادي، تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٤٨).

(٣) هو أبو سعيد، الحسن بن أبي الحسن يسار البصري: من سادات التابعين وكبرائهم. جمع كلّ فنٍ من علم وزهد وورع وعبادة. نشأ بوادي القرى، وكان من أجمل أهل البصرة، حتى سقط عن دابته، فكسر أنفه. توفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٩ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٦٩).

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٣٤. والبيت من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق، ويعزيه عن أخيه القاسم بن طوق.

(٥) أبو نواس، الديوان: ص ٦٢١.

(٦) رواية الديوان:

أَرى كُلَّ حَيٍّ هَالِكاً وَابْنَ هَالكٍ ... وَذَا نَسبٍ في الهَالكينَ عَرِيقِ

إذا امْتَحَنَ الدنيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدوٍّ في ثيابِ صَديقِ

وكان المأمون يقول: لو قيل للدنيا: صِفِي نفسك ما عَدَت هذا البيت؛ وهو مأخوذ من قول مُزَاحم العُقَيْلي[١]:

قَضَيْنَ الهَوى ثم ارْتَمَيْنَ قُلوبَنَا بِأَسْهُمِ أَعداءٍ وَهُنَّ صَديقُ

عُمَر بن عبد العَزيز رحمه الله: ما الجزَعُ مما لا بُدَّ منه؟ وما الطمعُ فيما لا يُرْجَى؟ لا تَكُنْ مِمَّنْ يلعن إبليس في العلانية ويُوَالِيه في السرّ.

الشَّعْبي[٢]: إني لأسْتَحْيِي من الحقّ إذا عرفتُهُ أَلَّا أرجعَ إليه.

وصف أهل البيت

قطعة من كلامٍ لبني علي بن أبي طالب أهْلِ البيتِ رضي الله عنهم: [أهلِ الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونبعة الإيمان، وصُوَّام شهر رمضان] ولهم كلامٌ يعرض في حَلْي البَيَانِ، ويُنْقَش في فصّ الزمان، ويُحْفَظُ على وَجْهِ الدهر، ويَفْضَحُ قلائدَ الدُّر، ويُخْجِلُ نورَ الشمس والبدر، ولِمَ لا يطئون ذُيولَ البلاغة، ويَجرُّون فضولَ البراعة، وأبوهم الرسولُ، وأُمُّهم البتول[٣]، وكلهم قد غُذِي بدَرّ الحكم[٤]، ورُبِّيَ في حِجْر العلم:

ما مِنْهُمُ إلاَّ مُرَبَّى بالحِجَى أَو مُبْشَرٌ بِالأَحْوَذِيَّة مُؤدَمْ[٥]

آخر:

---

(١) هو مزاحم بن عمرو بن مرّة بن عُقَيْل، من هوازن: شاعر أموي بدوي فصيح. عاصر الفرزدق وجريراً وذا الرمّة، وكان جرير يصفه ويقرظه ويقدمه. ونعت ذو الرمة شعره «بالوحشي الغريب الذي لا يقدر على مثله». توفي سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م. (ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٣٢٨).

(٢) هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري: راوية، من التابعين، يُضرب المثل بحفظه. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره، ورسوله إلى الروم. وهو من رجال الحديث الثقات. توفي سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م. (الزركلي، الأعلام: ٣/ ٢٥١).

(٣) البتول: لقب مريم عليها السلام، لأنها انقطعت عن الزواج، وظلت عذراء، ثم أُطلق على فاطمة بنت النبي ﷺ، تشبيهاً بها في المنزلة عند الله جلَّ وعلا.

(٤) الحُكم: الحكمة، ومنه في التنزيل العزيز: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (سورة مريم، آية ١٢).

(٥) الأحوذية: الحذق والخفة. مؤدم: حُشِي جلده مهارة ونشاطاً وخفةً.

نَمَتْــهُ العــرَانيــنُ مِــنْ هَــاشِــمٍ إلــى النسـبِ الأَصْـرَحِ الأَوْضَـحِ[١]
إلــى نَبْعَــةٍ فَــرْعُهــا فــي السمــاءِ وَمَغْــرِسُهــا فــي ذُرَى الأَبْطَــحِ[٢]

وهم كما قال مُسْلم بن بِلاَل العَبْدِي ـ وقد قيل له: خطب جعفرُ بن سليمان خطبةً لم يُرَ أحسن منها، فلا يُدرى أَوَجْهُهُ أحسن أم خطبته؛ فقال: أولئك قوم بنور الخلافة يُشْرِقون، وبلسان النبوّة ينطقون، وفيهم يقول القائل:

لَـو كـانَ يُـوجَـدُ عَـرْفُ مَجْـدٍ قَبْلَهُـمْ لَـوَجَـدْتَـهُ مِنْهُـم علـى أَميـالِ[٣]
إنْ جِئْتَهُـمْ أَبْصَـرْتَ بيـنَ بُيُـوتهـمْ كَـرَمـاً يَقيـكَ مَـوَاقِـفَ التَّسْـآلِ
نُـورُ النبـوَّة والمكـارمِ فيهـمُ مُتـوقِّـدٌ فـي الشِّيـبِ وَالأَطفـالِ[٤]

وسُئِلَ سَعيد بن المُسَيَّب[٥]: مَنْ أَبلغُ الناس؟ فقال: رسولُ الله ﷺ. فقال السائل: إنما أعني مَنْ دونه. فقال: معاوية وابنُه، وسعيد وابنه، وإنَّ ابنَ الزبير لَحَسَنُ الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح. فقال له رجل: فأين أنتَ من عليّ وابنه، وعباس وابنه؟ فقال: إنما عَنَيتُ من تقارَبَتْ أشكالُهم، وَتدانَتْ أحوالُهم، وكانوا كَسِهَامِ الْجَعْبَةِ[٦]، وبنو هاشم أعلامُ الأنامِ، وحُكَّامُ الإسلام.

فصل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
في ذكر قريش، وبني هاشم

قد علم الناسُ كيفَ كَرَمُ قريش وسخاؤها، وكيف عقولُها ودهَاؤُها، وكيف رَأْيُهَا وذكاؤها، وكيفَ سياستها وتدبيرُها، وكيف إيجازُها وتحبيرُها[٧] وكيف رَجَاحَةُ أحلامها إذا

(١) العرانين: جمع عرنين، وهو من كل شيء أَوَّلُه.
(٢) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى، ولعل المراد: أبطح مكة، وهو مسيل واديها.
(٣) العَرْفُ: الريح.
(٤) الشِّيبُ: جمع أشيب، وهو الرجل الذي غزا شعر رأسه الشيب.
(٥) هو أبو محمد، سعيد بن المُسيّب بن حَزْن بن مخزوم القرشي المدني: أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، ومن سادات التابعين. جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع. توفي بالمدينة سنة ٩١ هـ/ ٧١٠ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٣٧٥).
(٦) الجعبة: الكنانة توضع فيها السهام.
(٧) تحبير الخط والكلام والشعر: تحسينه. وفي رواية «وتحسيرها» والمراد ما يقابل الإيجاز، وهو الإطناب.

خفَّ الحليم، وحدَّةُ أذهانها إذا كَلَّ الحديد[١]، وكيفَ صَبْرُهَا عند اللقاء، وثباتُها في اللأْواء[٢]، وكيف وفاؤُها إذا استُحْسِن الغَدْرُ، وكيفَ جُودُها إذا حُبَّ المال، وكيفَ ذِكرُها لأحاديثِ غدٍ، وقلةُ صدودِها عن جهة القَصْدِ[٣]، وكيف إقرارُها بالحق، وَصبْرُها عليه، وكيف وصفُها له، ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها، وَصَوْنُهَا لأعراقها، وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم، وطريفَهم بتليدِهم، وكيف أشبه علانيتَهم سِرُّهم وقولَهم فِعْلُهم. وهل سلامةُ صدرِ أحدهم إلا على قدر بُعْدِ غَورِه[٤]؟ وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه، وهل ظنه إلا كيقين غيره؟

وقال عمر: إنك لا تنتفع بعقله حتى تنتفع بظنه.

قال أَوْسُ بن حَجَر[٥]:

الأَلْمَعِيّ الَّذي يَظُنُّ لَكَ الـ ـظَّنَّ كأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا[٦]

وقال آخر:

مَليحٌ نَجيحٌ أَخُو مَازِنٍ فَصيحٌ يُحَدّثُ بالغائبِ

وقال بَلْعَاءُ بن قَيْس:

وَأَبْغِي صَوَابَ الرَّأْيِ أَعْلَمُ أَنَّهُ إذَا طاشَ ظَنُّ الْمَرْءِ طَاشَتْ مَقَادِرُه[٧]

بل قد علم الناس كيف جمالُها وقَوامُها، وكيف نماؤُها وبهاؤها، وكيف سَرْوُها

(١) الحديد: القوي الذهن.
(٢) اللأواء: الشدّة.
(٣) القصد: الغرض.
(٤) الغور: القعر من كل شيء. ومنه: فلان بعيد الغور: عميق النظر أو الفكر، وهو بحر لا يُدرك غوره.
(٥) هو أبو شريح، أوس بن حجر بن مالك التميمي: من كبار شعراء تميم في الجاهلية. وفي نسبه خلاف بعد أبيه حجر. وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى. عمّر طويلاً ولم يدرك الإسلام. وكان غزلاً مغرماً بالنساء. توفي سنة ٦٢٠ م. (زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية: ١/ ١٥٥؛ لويس شيخو، شعراء النصرانية: ١/ ٤٩٢).
(٦) الألْمعيُّ واليَلْمعيُّ: الذكيّ المتوقدُ الحديد اللسان والقلب. والبيت في ديوانه: ص ٥٣؛ وفي لسان العرب: ٥/ ٤٠٧٦ (لمع).
(٧) الطَّيْشُ: النزق والخفة. ومنه: طاش السهم عن الهدف: عدل عنه ولم يقصد الرَّمِيَّة.

ونَجابتُها[١]، وكيف بيانُها وجَهارتُها، وكيف تفكيرُها وبَدَاهتُها، فالعَرَب كالبَدَن وقريشٌ روحُها، وقريش روحٌ وبنو هاشم سرها ولُبُّها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وبنو هاشمٌ مِلح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسّنام الأضخم، والكاهل الأعْظم، ولُبَابُ كلّ جوهر كريم، وسِرٌّ كل عُنْصُرِ شريف، والطّينة البيضاء، والمغْرسُ المبارك، والنّصاب الوثيق[٢]، ومَعْدن الفهمُ، وينبوع العلْم، وثَهْلان ذو الهضاب في الْحِلم[٣]، والسيفُ الْحُسام في العَزْم[٤] مع الأناة والْحَزْم، والصفح عن الجرم، والقصد عند المعرفة، والعفو بعد المقدرة، وهم الأنْفُ المقدّم، والسّنام الأكْرم، وكالماء الذي لا ينجّسه شيء، وكالشمس التي لا تَخْفَى بكل مكان، وكالذّهب لا يُعْرَفُ بالنقصان، وكالنجم للحَيْرَان، والبارد للظمآن، ومنهم الثّقَلان، والشهيدان، والأطيبان، والسِّبْطَان، وأسد الله[٥]، وذو الْجَنَاحَيْن[٦]، وذو قَرْنَيْها، وسَيِّدُ الوادي، وساقِي الْحَجيج، وحَلِيم البَطْحَاء، والبَحْر، والحبر[٧]، والأنصار أنصارهم، والمهاجرون مَنْ هاجر إليهم أو معهم، والصِّدّيق مَنْ صدقهم، والفاروق من فَرّق بين الحق والباطل فيهم، والحواريُّ حواريّهم، وذو الشهادتين لأنه شهِدَ لهم، ولا خيرَ إلا لهم أو فيهم أو معهم، أو يُضَاف إليهم، وكيف لا يكونُون كذلك ومنهم رسولُ رب العالمين، وإمامُ الأولين والآخرين، ونجيبُ المرسلين، وخاتَمُ النبيين، الذي لم يتم لنبي نُبُوّةٌ إلا بعد التصديق به، والبشارة بمجيئه، الذي عمّ برسالته ما بين الخافِقين، وأظهره الله على الدين كلّه ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ؟.

بين الحسن بن علي السبط وحبيب بن مسلمة الفهري

قال الحَسَنُ بن علي عليهما السلام لِحَبيب بن مَسْلَمة الْفِهْري: رُبَّ مَسِيرٍ لك في غيرِ طاعة الله! قال: أمَّا مَسِيري إلى أبيك فليسَ من ذلك! قال: بلى! أطعت فلاناً على دنيا يسيرة، ولعمري لئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في دينك، فلو أنك إذْ فعلتَ شراً قلتَ خيراً كنت كمن قال الله عزَّ وجل: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ

---

(١) السرو: الشرف. والنجابة: كرم الحسب.

(٢) النصاب: الأصل.

(٣) ثهلان: اسم جبل.

(٤) الحسام: القاطع.

(٥) أسد الله: حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول ﷺ.

(٦) ذو الجناحين: جعفر بن أبي طالب، شهيد يوم مؤتة.

(٧) الحبر: هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مفسر القرآن الكريم.

عَلَيْهِمْ﴾(١) ولكنك كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

صفة الحسن بن علي السبط

وكان الحسن عليه السلام جواداً، كريماً، لا يردُّ سائلاً؛ ولا يَقْطَعُ نائلاً، وأعْطى شاعراً مالاً كثيراً فقيل له: أتُعْطِي شاعراً يَعْصِي الرَّحْمٰن، [ويطيع الشيطان]، ويقول البُهْتَانَ؟ فقال: إنَّ خَيْرَ ما بَذَلْتَ من مالك ما وَقَيْتَ به عِرْضَك، وإنّ من ابتغاءِ الخيرِ اتقاءَ الشر.

وقد روي مثلُ ذلك عن الحسين رضي الله عنه، وقيل: إنّ شاعراً مدحه فأجْزَلَ ثوابَه، فَلِيمَ على ذلك، فقال: أتراني خِفْتُ أن يقولَ: لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ولا ابن علي بن أبي طالب! ولكني خِفْتُ أن يقول: لست كرسول الله ﷺ، ولا كعليّ رضي الله عنه؛ فيُصَدَّقَ، ويُحْمَلَ عنه، ويبقى مُخَلّداً في الكتب، محفوظاً على ألسنة الرُّواة. فقال الشاعر: أنت والله يابْنَ رسول الله ﷺ أعرفُ بالمدح والذمِّ مني.

محمد بن الحَنَفِيَّة يرثي أخاه الحسن بن علي

ولما تُوفِّي الحسن أدخله قَبْرَه الحسينُ ومحمدُ بن الحنفيَّة وعبدُ الله بن عباس رضي الله عنهم، ثم وقف محمدٌ على قبره وقد اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاه بالدموع، وقال: رَحِمَكَ اللَّهُ أبا محمد! فلئن عَزَّتْ حياتك، لقد هَدَّتْ وفاتُكَ، ولَنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ تَضمَّنَهُ بَدَنُكَ؛ ولنعم الجسَدُ جسَدٌ تضمَّنَهُ كَفَنُك، ولنِعْمَ الكَفَنُ كَفَنٌ تضمّنَهُ لَحْدُك، وكيف لا تكونُ كذلك وأنت سليلُ الهدى، وخامسُ أصحابِ الكِسَاء، وخَلَفُ أَهْلِ التقى؟ جَدُّك النبيُّ المُصْطَفى، وأبوك عليّ المرتضَى، وأُمُّك فاطمةُ الزّهراء، وعمّكَ جعفر الطيّار في جنَّة المَأْوَى، وغَذَتْكَ أَكُفُّ الحقّ، وَرُبِّيتَ في حِجْرِ الإسلام، ورضعت ثَدْيَ الإيمان، فَطِبْتَ حيًّا وميتاً؛ فلئن كانت الأنْفسُ غير طَيبةٍ لفراقك؛ إنها غيرُ شاكّةٍ أنْ قد خِيرَ لَك، وإنك وأخاك لسيِّدَا شَبَابِ أهل الجنة، فعليكَ يا أبا محمد منا السلام.

رجل من ولد أبي سفيان بن الحارث يرثي الحسن بن علي

وقام رجلٌ من ولد أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قَبْرِه، فقال: إنَّ أقدامَكم قد نَقَلَتْ، وإنَّ أعناقَكم قد حَمَلَتْ إلى هذا القبر وَلياً من أولياء الله يُبَشِّرُ نبيّ الله

---

(١) سورة التوبة، آية (١٠٢).

(٢) سورة المطففين، آية (١٤).

بمقدمه، وتُفَتَّحُ أبوابُ السماء لروحه، وتبتهجُ الحورُ العِينُ بلقائه[١]، ويأنَسُ به سادةُ أهل الجنة من أُمَّته، ويوحِشُ أَهْلَ الحِجَا والدين فَقْدُه، رحمة الله عليه، وعنده تُحْتَسَبُ المصيبةُ به.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر المصيبة بأبناء النبوة

قد نُعِيَ سليلٌ من سُلاَلَة النبوة، وفَرْعٌ من شجرة الرسالة، وعُضْوٌ من أعضاء الرسول، وجزءٌ من أجزاء الوصِيِّ والبَتُول[٢]. كتبت وليتني ما كتبت وأنا ناعِي الفضل من أقطاره، وداعي المجدِ إلى شَقِّ ثوبِهِ وصِدَاره، ومخبر أَنَّ شمس الكرم وَاجبة[٣] والمآثر مودَّعة، وبقايا النبوّة مرتفعة، وآمالَ الإمامة منقطعة، والدينَ منخذِلٌ واجم[٤]، وللتقوى دَمْعَان هام وساجم[٥]. كتابي وقد شُلَّتْ يمينُ الدَّهْر، وفُقِئت عينُ المجد، وقَصُرَ باعُ الفضْل، وكُسِفَتْ شمسُ المساعي، وخُسِفَ قمر المعالي، وتجدَّدَ في بيت الرسالة رُزْءٌ جدّد المصائب، واستعاد النّوَائب؛ كل هذا لفقْدِ من حَطَّ الكرمُ برَبْعِه، ثم أدرج في بُرْدِه، وامتزج المجدُ به، فَدُفِنَ بدَفْنه. إنها لمصيبةٌ عمّتْ بَيْتَ الرسالة، وغضّت طَرْف الإمامة، وتحيَّفتْ جانبَ[٦] الوَحْي المُنزَّل، وذكَّرت بموت النبي المُرْسَل. كتبت والدهرُ ينعي مُهْجَتَه والمجدُ يَنْدُب بَهْجَتَه، ومهابط الوَحْي والرسالة تني ظهورَها أسفاً، ومآقي الإمامة والوصية والرسالة تُذْرِي دموعَهَا لهفاً؛ وذلك أن حادثَ قضاءِ الله استأثر بفَرْعِ النبوة، وعنصر الدين والمروءة.

[رجع إلى كلام أهل البيت]

بين الحسن بن علي وأخيه محمد بن الحنفية

ووقع بينَ الحَسَنِ ومحمد بن الحَنَفيَّة[٧] لِحاء، ومَشَى الناسُ بَيْنَهما بالنَّمائِم، فكتب

---

(١) الحور العين: لقب نساء أهل الجنة. والحور: جمع حوراء، وهي البيضاء، أو هو من الحَوَر، وهو شدّة بياض بياض العين مع شدّة سواد سوادها. والعين: جمع عيناء، وهي الواسعة العينين.

(٢) الوصي: هو الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، والبتول: لقب فاطمة الزهراء عليها السلام.

(٣) وجبت الشمس: غابت.

(٤) واجم: مطرق عبوس.

(٥) هام: سائل، من همى الدمع أو المطر إذا سال، والساجم مثله.

(٦) تحيفت: انتقصت.

(٧) هو أبو القاسم، محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي، المعروف بابن الحنفية: كان نهاية في العلم، وغاية في العبادة. أمه خولة بنت جعفر الحنفية، وقد نُسب إليها تميزاً له عن أخويه الحسن والحسين عليهما السلام. توفي سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٨٨).

إليه محمدُ بنُ الحنفية: أمَّا بعد فإن أَبي وأَباك عليُّ بنُ أبي طالب؛ لا تفضُلني فيه ولا أَفضُلك، وأُمي امرأةٌ من بني حَنيفة، وأُمُّك فاطمةُ الزَّهراء بنتُ رسولِ الله ﷺ، فلو مُلِئَتْ الأرضُ بمثل أُمي لكانت أمُّك خيراً منها؛ فإذا قرأتَ كتابي هذا فأَقْدِمْ حتى تترضَّاني، فإنك أحقُّ بالفضل مني.

خطبة للحسين بن علي

وخطب الحُسَيْنُ بنُ عليٍّ رضوان الله عليهما غداةَ اليوم الذي استُشهِدَ فيه، فحمدَ الله تعالى وأثْنى عليه؛ ثم قال: يا عبادَ اللَّهِ، اتَّقُوا اللَّهَ، وكونوا من الدنيا على حَذَر؛ فإنَّ الدنيا لو بَقِيَتْ على أحد [أو بقي عليها أحد] لكانت الأنبياءُ أحقَّ بالبقاء، وأوْلى بالرِّضاء، [وأرْضَى] بالقضاء؛ غيرَ أنَّ الله تعالى خَلَقَ الدنيا للفناء، فجديدُهَا بالٍ، ونعيمُها مُضْمَحِلٌّ، وسرورُها مُكْفَهِرٌّ[1]، مَنْزِلُ تَلْعة، ودارُ قُلْعة[2]؛ فتزوّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى، واتَّقُوا اللَّهَ لعلكم تُفْلِحُون.

بين معاوية والحسين بن علي

وكان لمعاوية بنِ أبي سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أُمور الناس وقريش، فكتب إليه: إنَّ الحسين بنَ عليٍّ أعْتَقَ جاريةً له وتزوَّجها؛ فكتبَ معاويةُ إلى الحسين: مِنْ أَمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن عليٍّ. أمَّا بعد، فإنه بلغني أنك تزوَّجْتَ جاريتَكَ، وتركْتَ أكْفاءَكَ من قريش، مِمَّنْ تَسْتَنْجِبُهُ للولد، وتمجد به في الصِّهْر، فلا لِنَفْسِكَ نَظَرْتَ، ولا لِوَلَدِكَ انْتقَيتَ.

فكتب إليه الْحُسَيْن بن علي: أمَّا بعد، فقد بلغني كتابُك، وتَعْيِيرُك إيَّايَ بأَني تزوَّجْتُ مولاتي، وتركتُ أَكْفائي مِنْ قُرَيش، فليسَ فَوْقَ رسولِ الله مُنْتَهًى في شرَف، ولا غايةٌ في نسب؛ وإنما كانت مِلْك يميني، خرجَتْ عن يدي بأمرٍ التمستُ فيه ثوابَ اللهِ تعالى؛ ثم ارتجعتُها على سنّةِ نبيه ﷺ، وقد رفع اللَّهُ بالإسلام الخسيسة، ووضع عنَّا به النقيصةَ؛ فلا لَوْمَ على امرىء مسلم إلاَّ في أَمْرِ مأثم، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية.

فلما قرأ معاويةُ كتابَهُ نَبَذَهُ إلى يزيد فقرأَه، وقال: لَشَدَّ ما فَخَرَ عليك الحسين! قال: لا، ولكنها ألسنةُ بني هاشم الحِداد التي تَفْلِقُ الصَّخْرَ، وتَغْرِفُ من البحر!

---

(١) مُكفهِرّ: مُغبرّ.

(٢) التلعة: ما ارتفع من الأرض، وما انهبط منها، وهي من الأضداد. ودار قلعة: أي انقلاع وذهاب.

من شعر الحسين بن علي

والحُسَيْنُ ـ رضي الله عنه! ـ هو القائل[١]:

لَعَمْـرُكَ إنَّنـي لأُحِـبُّ دَاراً تَحُـلُّ بهـا سُكَيْنَـةُ وَالـرَّبَـابُ
أُحِبُّهـا وَأَبْـذُل كـلَّ مَـالِـي وَلَيْـسَ لِـلاَئـمٍ عِنْـدِي عِتَـابُ

سُكَيْنَةُ: ابنته، والرَّباب: أُمُّها، وهي بنت امرىء القيس [ابن الجرول] الكلبية.

لابن أبي رَبيعة في سُكَينة بنت الحسين

وفي سُكَيْنة يقول عمر بن عبد اللّه بن أبي ربيعة المخزومي[٢] كذباً عليها[٣]:

قَـالـت سُكَيْنـةُ والـدمـوعُ ذَوَارِفٌ تَجْـرِي علـى الخـدَّيْـنِ وَالْجِلْبَـابِ[٤]
لَيـتَ الْمُغِيـرِيَّ الـذي لَـمْ أَجْـزِهِ فيمـا أطـال تَصَيُّـدِي وَطِـلابـي[٥]
كـانـت تَـرُدُّ لنـا الْمُنَـى أَيَّـامنـا إذ لا نُـلاَمُ عَلَـى هـوًى وتصَـابِ
خُبِّـرْتُ مَـا قـالـتْ فَبِـتُّ كـأنمـا يُـرْمَـى الحشَـى بِنَـوافِـذِ النُّشَّـابِ[٦]
أَسُكَيْـنَ مَـا مَـاءُ الفُـرَاتِ وَطِيبُـهُ مِنِّـي عَلَـى ظَمَـأ وَفَقْـدِ شَـرَابِ[٧]
بـألَـذَّ منـكِ، وإن نَـأَيْـتِ، وَقلَّمَـا تَـرْعَـى النسـاءُ أَمـانَـةَ الْغُيَّـابِ
إنْ تَبْـذُلِـي لـي نَـائـلاً أشفـي بِـهِ دَاءَ الفـؤادِ فقـدْ أَطَلْـتِ عَـذَابـي[٨]

---

(١) البيتان في «العمدة» في محاسن الشعر لابن رشيق القيرواني: ١/ ٥٥.

(٢) هو أبو الخطاب، وأبو حفص، عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي: من أكابر شعراء الغزل وأشهرهم، كان يشبب بكل جميلة، حتى كثرت النساء في شعره. ولم يكن في قريش أشعر منه. وقيل: إنه مات غرقاً سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١/ ٧١؛ جبرائيل جبور، عمر بن أبي ربيعة (ثلاثة أجزاء).

(٣) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ١/ ١١١.

(٤) ذوارف: مُراقة، وقد ذرف الدمع: أراقه. الجلباب: ثوب طويل يستر ما دونه.

(٥) المغيري: لقب عمر، نسبة إلى جده المغيرة. وفي الديوان: «الذي لَمْ تَجْزِهِ». والتصيّد: المطاردة. الطلاب: شدّة الطلب.

(٦) الحشا: مطاوي البطن. النشّاب: السهام. والنوافذ: الصائبة المخترقة.

(٧) في الديوان: «منّا على ظَمإ وَحُبِّ شَرابِ».

(٨) في الديوان:

أَنْ تَبْـذُلـي لِـي نَـائِـلاً يُشْفَـى بِـهِ سَقَـمُ الفُـؤادِ فقَـدْ أَطَلْـتِ عَـذَابـي

والنائل: العطاء. وسقم الفؤاد: الوجد.

وَعَصَيْتُ فيكِ أقاربي وَتقطَّعتْ بَيْني وَبَيْنَهُمُ عُرَى الأسبابِ[١]
فَتَركْتِني لا بالوِصالِ مُمَتَّعاً مِنْهُم، ولا أَسْعَفْتِني بِثَوابِ[٢]
فَقعدْتُ كالمُهْرِيقِ فَضْلةَ مائهِ في حَرِّ هاجِرَةٍ لِلَمْعِ سَرَابِ[٣]

سُكَيْنَةُ ترثي مُصْعَب بن الزبير

وكانت سُكَيْنَة من أجمل نساء زمانها وأعقلهنّ، وكان مُصْعَبُ بن الزُّبَيْر قد جَمَعَ بينها وبينَ عَائشةَ بنت طَلْحَة بن عُبَيْد الله؛ فلما قُتِلَ مُصْعَب قالت سُكَيْنَة:

فإنْ تَقْتُلُوهُ تَقْتُلُوا المَاجِد الذي يَرَى الموتَ إلا بالسيوفِ حَرَاما
وَقَبْلَكَ ما خَاضَ الحُسَيْنُ مَنِيَّةً إلى القومِ حَتَّى أَوْرَدُوهُ حِمَامَا

لعلي بن الحسين

وقال علي بن الحُسَيْن[٤] رحمه الله: لو كانَ أناسُ يعرفونَ جُملةَ الحالِ في فضل الاستبانة، وجملة الحال في فضل التبيين: لأعربوا عن كل ما يتلَجْلَجُ في صدورهم، ولَوَجَدُوا من بَرْدِ اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم، على أنّ إدراكَ ذلك كان لا يعدمهم في الأيام القليلةِ العدَّةِ، والفكرةِ القصيرةِ المدَّةِ، ولكنهم من بين مغمورٍ بالجهلِ، ومفتونٍ بالعُجْبِ، ومعدُولٍ بالهوَى عن بابِ التثبُّتِ، ومصروفٍ بسوء العادَةِ عن فَضْلِ التعلم.

وقال رضي الله عنه: المِرَاءُ يُفْسِدُ الصداقةَ القديمة، ويَحُلّ العقدةَ الوثيقة، وأقلّ ما فيه أن تكونَ به المغالبة، والمغالبةُ من أَمْتَن أسباب القطيعة.

ومن دعائه: اللهم ارْزُقْني خوفَ الوعيد، وسرورَ رجاء الموعود، حتى لا أرْجُو إلا ما رَجَّيت، ولا أخاف [إلا] ما خَوّفت.

---

(١) العرى: جمع عروة، وهي ما يصل لفقتي الثوب. والأسباب: الحبال.
(٢) الثواب هنا: ما ينتظره العاشق من محبوبه من القرب، فهو كالمكافأة على صبره.
(٣) المُهْرِيقُ: المُرِيقُ، يقال: أراق وهراق بمعنى: هَدَرَ وأسال ما عنده. وفضلة الماء: ما بقي عنده. والهاجرة: شدّة الحَرِّ نهاراً. والسَّراب: ما يتراءى للمسافر وقت الظهيرة أنه ماء وليس بماء.
(٤) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي: كان مضرب المثل في الجود والتقوى والحلم، وكان يقوت نحو مائة بيتٍ سِرًّا، وحين توفي عرف الناس مصدر قوتهم. توفي سنة ٩٤ هـ/ ٧١٣ م.

الفرزدق يمدح عليًّا زين العابدين بن الحسين

وحجَّ هشام بن عبد الملك[١]، أو الوليد أخوه، فطافَ بالبيتِ وأرادَ استلامَ الْحَجَر فلم يقدر، فَنُصِب له مِنْبَرٌ فجلس عليه؛ فبينا هو كذلك إذْ أَقْبَلَ عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢] رضي الله عنه في إزار ورداء، وكان أحسنَ الناس وَجْهاً، وأعطرهم رائحة؛ وأكثرَهم خشوعاً، وبين عينيه سَجّادة[٣]، كأنها رُكبة عنز، وطاف بالبيت، وأتى لِيَسْتَلِم الحجرَ، فتنحّى له الناسُ هيبةً وإجلالاً، فغاظ ذلك هشاماً؛ فقال رجلٌ من أهل الشام: مَن الَّذي أكرمه الناسُ هذا الإكرام، وأعظموه هذا الإعظامَ؟ فقال هشام: لا أعْرِفه، لئلا يَعْظُمَ في صدور أهل الشام؛ فقال الفرزدق[٤] وكان حاضراً[٥]:

هــذا ابــنُ خَيْــرِ عِبَــادِ الله كُلّهِــم	هــذا النَّقِـيُّ التَّقـيُّ الطـاهـرُ العَلَـمُ
هــذا الــذي تَعْـرِفُ البَطْحَـاءُ وَطـأَتَـه	وَالبيــتُ يَعْـرِفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ[٦]
إذا رَأَتْــهُ قُــرَيْـشٌ قَــال قَــائلُهــا	إلــى مكــارمِ هــذا يَنْتهــي الكــرَمُ
يَكــادُ يُمْسِكُــهُ عِــرْفــانَ راحتــهِ	رُكــنُ الحطيـم إذا مـا جـاءَ يستلـمُ[٧]

(١) هو أبو الوليد، هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموي: عُرِف بجودة الرأي، والحزم والحلم. دامت خلافته عشرين سنة إلاَّ شهراً. توفي سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ١٦٣).

(٢) زين العابدين: توفي سنة ٩٤ هـ/ ٧١٣ م بالمدينة، ودفن في البقيع في قبر عمه الحسن بن علي السبط. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٢٦٧).

(٣) المراد بالسجادة: أثر السجود.

(٤) هو أبو فراس، همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي، الشهير بالفرزدق: شاعر من الطبقة الأولى، من أهل البصرة. نشأ على حب آل البيت، ثم انضم إلى شعراء الأمويين تكسباً لا اعتقاداً. تهاجى مع جرير والأخطل زماناً طويلاً. توفي ببادية البصرة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٨١؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٠٩).

(٥) الفرزدق، الديوان: ٢/ ١٧٨.

(٦) البطحاء: أرض منبسطة، ومسيل واسع في وسطه مكة. الوطأة: موضع القدم. البيت: الكعبة. الحل: ما جاوز الحرم من الأرض. والحرم: ما لا يحل انتهاكه، ويراد به مكة وما جاورها من أرض.

(٧) الراحة: الكف. الركن: الجانب الأقوى. والحطيم: ما بين ركن الكعبة والباب، وقيل: جدار الكعبة، أو الحجر الأسود فيها. يستلم: يلمس للتبرك. أي أن حجر الكعبة يعرف كفّ زين العابدين، فيكاد يمسكه شغفاً به.

فـي كَفّـهِ خَيْـزُران رِيحُـهُ عَبِـقٌ فـي كَـفّ أَرْوَعَ فـي عِـرْنِينـه شَمَـمُ(١)
يُغْضِـي حَيـاءً وَيُغْضَـى مِـنْ مَهَـابَتِـهِ فمـا يُكلَّـمُ إلا حيـنَ يَبْتَسِـمُ(٢)
مُشْتَقَّـةٌ مِـنْ رَسُـولِ الله نَبْعَتُـهُ طَـابَـتْ عَنـاصِـرُهُ وَالخِيـمُ والشِّيَـمُ(٣)
يُنْمَـى إلـى ذِرْوة العـزّ التـي قَصُـرتْ عَـنْ نَيْلِهـا عَـرَبُ الإسـلامِ وَالعَجَـمُ(٤)
يَنْجَـابُ نـورُ الهـدى عَـنْ نُـورِ غُـرَّتـه كالشمسِ يَنْجَابُ عَنْ إشراقها القَتَمُ(٥)
حَمَّـالُ أثقـال أقـوام إذا اقتـرحـوا حُلْـو الشمـائـلِ تَحْلُـو عنـده نَعَـمُ(٦)
هـذا ابـنُ فـاطمـة إن كُنْـتَ جَـاهِلَـهُ بِجـدّه أَنبيـاءُ الله قَـدْ خُتِمـوا(٧)
اللهُ فَضّلَـهُ قِـدْمـاً وَشـرَّفَـهُ جَـرى بـذَاك لـه فـي لَـوْحِـهِ القَلَـمُ(٨)
مَـنْ جَـدُّهُ دانَ فَضْـلُ الأَنبيـاءِ لَـهُ وَفَضْـلُ أُمتـهِ دانَـتْ لـه الأُمَـمُ
عَـمَّ البـريـةَ بـالإحسـانِ فَـانْقَشعـتْ عنهـا الغَيَـابـةُ والإمـلاقُ والظُّلَـمُ(٩)

---

(١) الأَروعُ: الذكي الرَّوْعِ، وهو الفؤاد. العرنين: الأنف كلّه، وقيل: هو ما صَلُبَ من عظمه، وعرنين كلّ شيء: أوّلُه. الشَّمَمُ: الارتفاع.

(٢) يُغْضي: يَغضُّ من بصره.

(٣) نبعته: شجرته، أي: أصله الكريم. والخيمُ: الشيمة والطبيعة والخُلُقُ والسجية، والخيمُ: الأَصْلُ، قال الشاعر: (ابن منظور، لسان العرب: خيم).

وَمنْ يَـبْتَدِعْ ما لَيْسَ مِنْ خِيمِ نَفْسهِ يَـدَعْـهُ وَيغْلِبْـهُ على النَّفْسِ خِيمُهَـا

والشِّيَمُ: جمع الشيمة، وهي الخُلُقُ والطبيعة.

(٤) يُنْمَى: يُنْسَبُ. ويروى:

يُنْمَى إلى ذُرْوَةِ الدِّينِ التي قَصُرَتْ عَنْهَـا الأَكُـفُّ وعَـنْ إدْرَاكِهـا القَـدَمُ

(٥) القَتَمُ والقتام: الغبار. ويروى:

يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدُّجَى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِها الظُّلَمُ

(٦) يروى: «إذا افتدحوا». افتدح وفدح: أثقل. الشمائل: الطباع، الخصال.

(٧) فاطمة: هي فاطمة الزهراء، بنت النبي ﷺ، وزوج الإمام علي كرّم الله وجهه، جدّ زين العابدين. أي: هو ابن بنت النبي محمد ﷺ.

(٨) اللَّوْحُ: الكتاب الذي يسطر فيه القضاء والقدر لكل إنسان، أي أنه كتب له التشريف والتعظيم منذ القدم.

(٩) انقشعت: انجلت. الغيابة (من الأرض): المُنْهَبِطُ منها، وغيابة كلّ شيء: قعره، تقول: وقعت في غيبة وغيابة، أي في هبطة، ومنه: غيابة الجُبّ والوادي ونحوهما، قال تعالى: ﴿قالَ قَائِلٌ مِنْهُم لا تَقْتُلوا يُوسُفَ وألقوهُ في غَيابَةِ الجُبّ﴾ (سورة يوسف، آية ١٠). ويروى: «عَنْهَا =

كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا تُسْتَوكفَانِ وَلا يَعْرُوهُما العُدُمُ[(١)]

سَهْلُ الخليقةِ لا تُخْشَى بَوادِرُهُ تَزِينُهُ الإثنتانِ الحِلْمُ والكَرَمُ[(٢)]

لا يُخْلِفُ الوَعْدَ مَيْمُونٌ بِغُرَّتِهِ رَحْبُ الفِنَاءِ أَرِيبٌ حِينَ يَعْتَزِمُ[(٣)]

ما قالَ «لا» قَطُّ إلا في تَشَهُّدِهِ لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كانَتْ لاءَهُ نَعَمُ

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهم دِينٌ، وَبُغْضُهم كُفْرٌ، وقُرْبُهُم مَنْجًى وَمُعْتَصَمُ

يُسْتَدْفَعُ السوءُ والبَلْوَى بِحُبِّهِمُ وَيُسْتَرَبُّ بِهِ الإحْسَانُ والنِّعَمُ[(٤)]

مُقَدَّمٌ بعدَ ذِكْرِ اللهِ ذِكْرُهُمُ في كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتُومٌ بِهِ الْكَلِمُ

إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كانوا أَئِمَّتَهُمْ أَو قِيلَ مَنْ خيرُ أَهْلِ الأرضِ قِيلَ هُمُ

لا يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ بُعْدَ غَايَتِهِمْ وَلا يُدانيهِمُ قَومٌ وإِنْ كَرُمُوا

هُمُ الغُيُوثُ إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ وَالأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَى والبأسُ مُحْتَدِمُ[(٥)]

يَأْبَى لهم أَنْ يَحِلّ الذَّمُّ سَاحَتَهُمْ خِيمٌ كَرِيمٌ وأيدٍ بالنَّدى هُضُمُ[(٦)]

لا يَنْقُصُ العُسْرُ بَسْطاً مِن أَكُفِّهِمُ سِيّانِ ذلكَ إن أَثْرَوْا وإنْ عَدِمُوا

أَيّ الخلائقِ لَيْسَتْ في رِقَابِهِمُ لأولِيَّةِ هذا أَوْ لَهُ نِعَمُ[(٧)]

مَنْ يَعْرِفِ اللهَ يَعْرِفْ أولِيَّتَهُ فَالدِينُ من بَيْتِ هذا نَالَهُ الأُمَمُ[(٨)]

وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هذا بِضَائِرِهِ العُرْبُ تعرفُ مَن أَنْكَرْتَ والعَجَمُ[(٩)]

= الغَياهِبُ والإِمْلاَقُ وَالعَدَمُ». الغياهب: الظلمات. والإملاق: الفقر.

(١) غِيَاثٌ: غَوْثٌ وعون. استوكف: استقطر المطر واستدعى جريانه. والعدم: الفقر.

(٢) ويروى: «يَزِينُهُ اثنانِ حُسْنُ الخَلْقِ وَالشِّيَمُ». والخليقة: الطبع. والبادرة: ما يبدو من الإنسان عند الغضب.

(٣) الميمون: الذي يحالفه الخير واليُمْنُ في كلّ حال. الأريب: الوافر العقل.

(٤) يُسْتَرَبُّ: يستزاد.

(٥) الأزمة: الشدّة. الشّرى: جبل بتهامة كثير السباع، ويضرب المثل بها لضراوتها وشدّة فتكها.

(٦) هُضُمٌ: جمع هضيم، وهو الكثير الإنفاق.

(٧) الأولية: الآباء والأجداد، والمراد هنا: جدّه الأكبر رسول الله ﷺ وآل بيته الكرام.

(٨) ويروى: «مَنْ يَشْكُرِ الله يَشْكُرْ أَوَّلِيَّةَ ذا».

(٩) ضائره: مُضِرٌّ به، أي مُحِطٌّ من شأنه.

وقد رُوي أنّ الحَزِينَ الكِنَاني[١] وَفَدَ على عَبْد الله بن عَبْد الملك بن مَرْوَان وهو أميرٌ على مصر فأنشده قصيدة منها:

لما وَقَفْتُ عليه في الْجُموع ضُحًى ... وَقدْ تعرَّضتِ الْحُجَّابُ والْخَدَمُ

حَيَّيْتُهُ بِسَلامٍ وَهو مُرْتَفِقٌ ... وَضَجَّةُ القَوْمِ عند البابِ تَزْدَحِمُ[٢]

في كفه خيزران. . . . . . ـ والبيت الذي يليه[٣].

للأخطل في قثم بن العباس

ويقال: إنها لِدَاوُد بن سَلم[٤] في قُثَم بن العبّاس بن عُبَيْد الله بن العَبَّاس بن عبد المُطَّلب[٥]، وهو الذي يقول فيه الأَخْطَل[٦]:

وَلقدْ غَدوْتُ على التِّجَارِ بِمَسْمَحٍ ... هَرَّتْ عَواذِلُه هَرِيرَ الأَكْلُبِ[٧]

(١) هو أبو الحكم، عمرو بن عبيد بن وهيب بن مالك، ويعرف أيضاً بابن أبي الشعثاء، والحزين لقب غلب عليه: شاعر حجازي، أموي، مطبوع، هجَّاء، خبيث اللسان، يرضيه اليسير، وليس مِمَّن خدم الخلفاء أو مدحهم. توفي نحو ١٠٠ هـ/ ٧١٨ م. (الآمدي، المؤتلف والمختلف: ١٢٢؛ زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية: ١/ ٢٩٥؛ الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ١٢٠).

(٢) مرتفق: متكىء على مرفقه.

(٣) في كفه خيزران. . . . . . والبيت الذي يليه: رواهما ابن رشيق القيرواني في (العمدة: ٢/ ١٣٨) ونسبهما إلى الحزين الكناني أولاً، ثم أشار إلى أن البعض ينسبهما إلى اللعين المنقري، وإلى داود بن سلم في مدح قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

(٤) داود بن سلم، المعروف بالأدلم، مولى بني تيم بن مرّة بن كعب، وقيل: مولى آل أبي بكر: شاعر حجازي مجيد، رقيق الشعر، من أهل المدينة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وقد عرف بالأدلم لسواده وطوله، ويعرف أيضاً بالآدم والأرمك. توفي سنة ١٣٢ هـ/ ٧٦٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٦/ ١١؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ٩٥).

(٥) هو قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: كان أكثر بني هاشم شبهاً بالنبي ﷺ، وهو آخر من طلع من لحده الشريف. استشهد بسمرقند سنة ٥٦ هـ/ ٦٧٨ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٦١).

(٦) هو أبو مالك، غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو، من بني تغلب، والأخطل لقب غلب عليه: شاعر أموي فحل، ولد بالحيرة، وأخذ يتنقل بإقامته بين دمشق والجزيرة. اتصل بالأمويين ومدحهم، واختص بعبد الملك بن مروان. اشتغل بمهاجاة جرير إلى أن مات. توفي ٩٥ هـ/ ٧١٣ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٩٣؛ البغدادي، خزانة الأدب: ١/ ٤٥٩).

(٧) هرَّت: صاحت.

لَـــذٌّ يُقَبِّلُـــه النعيـــمُ، كـــأنَّمـــا مُسِحَـتْ تَـرَائِبُـه بمـاءِ مُـذْهَـبِ[١]
لَبَّـاسِ أَرْدِيــةِ المُلُــوكِ تَــرُوقُــهُ مِـنْ كُـلِّ مُـرتقَـبٍ عُيـونُ الـرَّبْـرَبِ[٢]
يَنْظُــرْنَ مِــنْ خلَــلِ السُّتُــورِ إذا بَـدَا نَظَـرَ الهِجـانِ إلـى الفَنِيـقِ المُصْعَـبِ[٣]

ويقال: بل قالها في علي بن الحُسَيْن اللَّعِينُ المِنْقَري[٤]، وسمي اللعين لأن عمر سمعه يُنشد شعراً والناس يُصَلُّونَ، فقال: مَنْ هذا اللعين؟ فعلق به هذا الاسم وَلْيَقُلْه مَنْ شاء، فقد أحسن ما شاد وأجاد وزاد[٥].

لذي الرمة يمدح بلال بن أبي بردة

وقال ذو الرِّمة[٦] في بِلال بن أبي بُرْدة بن أبي مُوسى الأشْعَري:

مِنَ آل أبي موسى تَرَى الناسَ حَوْلهُ كـأنَّهُـمُ الكِـرْوَانُ عَـايَـنَّ بـازيـا[٧]
فمـا يَعْـرِفُـونَ الضِّحْـكَ إلاّ تَبَسُّمـاً ولا يَنْبِسُـونَ القَـوْلَ إلا تَنَـاجِيَـا[٨]
وَمـا الفُحْـشَ منـهُ يَـرْهَبـونَ وَلا الْخَنَـا عَلَيـهِ، وَلكِـنْ هَيْبَـةٌ هِـيَ مَـاهِيَـا
فَتى السِّنِّ، كَهْلُ الْحِلْم، يُسْمَعُ قَوْلُهُ يُـوَازِنُ أَدنـاهُ الجِبَـالَ الـرَّوَاسِيـا

(١) الترائب: موضع القلادة من الصدر. المُذْهَبُ: الممزوج بالذهب.
(٢) أردية: جمع رداء: ثوب. الربرب: القطيع من بقر الوحش، والظباء، لا واحد له. والمراد به: النساء.
(٣) الهجان من الإبل: البيض الكرام، والهِجانُ من كل شيء: الخالص. والفنق: المكرم. المصعب: الجمل الذي لم يُرْكَب.
(٤) هو أبو أُكَيْدِر، مُنَازِلُ بن ربيعة، وقيل: بن زَمْعَة، من بني مِنْقَر بن كعب بن سعد: شاعر أموي هجّاء سليط، تعرَّض للفرزدق وجرير، فلم يلتفتا إليه، وكان أكثر هجائه في الأضياف. لَقَّبه (اللعين)، عمر بن الخطاب عندما سمعه ينشد شعراً والناس يُصلُّون. توفي سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٤٠٧؛ الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٣٠٥).
(٥) يريد أن الشعر جيد بغض النظر عن قائله.
(٦) هو أبو الحارث، غيلان بن عقبة بن بهشي بن مسعود بن ربيعة، من بني عديّ، وسمّي ذا الرمة لقوله في الوتد: «وأشعث باقي رمّة التقليد». وهو من عُشّاق العرب المشهورين. ولد ونشأ بالبادية، وكان يذهب في شعره مذهب الجاهليين. قال حمّاد الراوية: إنه أحسن الإسلاميين تشبيهاً. توفي سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٤٩؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٢٠).
(٧) الكِرْوَانُ (بكسر الكاف): جمع الكَرَوَان (بفتح الكاف): طائر مُغَرِّد. البازي: الصقر.
(٨) يَنبِسون: ينطقون.

للبحتري يمدح الفتح بن خاقان

ومن أجود ما للمحدَثين في ذلك قول أبي عُبادة البُحْتُريّ في الفتح بن خَاقَان:

وَلما حَضرْنا سُدَّة الإذْنِ أُخِّرَتْ ... رِجالٌ عن البابِ الذي أَنا دَاخِلُهْ
فَأَفضيْتُ من قُرْبٍ إلى ذي مَهابةٍ ... أقابِلُ بَدْرَ التمِّ حينَ أُقابلُهْ
بَدَا ليَ مَحْمُودَ السّجيَّةِ شُمِّرَتْ ... سَرَابيلُهُ عنهُ وطَالتْ حَمَائلُهْ[1]
كما انْتَصَبَ الرُّمْحُ الرُّدَيْنِيُّ ثُقِّفَتْ ... أَنابيبهُ وَاهتزَّ لِلطعنِ عامِلُهْ[2]
وَكالبَدْرِ وَافَتْهُ لِتمٍّ سُعودُهُ ... وَتَمّ سَناهُ وَاستهلّتْ مَنازِلُهْ
فَسلَّمْتُ فاعتاقَتْ جَنَانيَ هَيْبَةٌ ... تُنَازِعُني القولَ الذي أَنا قَائِلُهْ[3]
إلى مُشْرِفٍ في الجود لو أَنَّ حاتماً ... لَدَيْهِ لأَضْحَى حَاتمٌ وَهْوَ عَاذِلُهْ
فَلما تأَمَّلْتُ الطَّلاَقَةَ وَانْثَنَى ... إليَّ بِبِشْرٍ آنَسَتْني مَخَايلُهْ[4]
دَنَوْتُ فَقَبَّلْتُ النَّدى من يَدِ امرىءٍ ... جَميلٍ مُحيَّاهُ سِبَاطٍ أَنامِلُهْ[5]
صَفَتْ مِثْلَ ما تَصْفُو المُدامُ خِلاَلُهُ ... وَرقَّتْ كما رَقَّ النَّسِيمُ شَمَائِلُهْ[6]

ووقعت حرب بالجزيرة بين بني تَغْلِب، فتولى الإصلاح بينهم الفَتْحُ بن خَاقَان[7] فقال البُحْتُري فيما تعلَّق بعضه بذكر الهيبة[8]:

---

(١) السرابيل: جمع السربال: القميص، الثوب. والحمائل: جمع حِمالة (بكسر الحاء): علاقة السيف.
(٢) الرمح الرديني: نسبة إلى امرأة اسمها ردينة كانت تعمل بتثقيف الرماح وبيعها. وعامل الرمح: صدره.
(٣) اعْتَاق وعاق: منع. والجنان: القلب.
(٤) المخايل: جمع مخيلة، وهي الدلالة.
(٥) سِباطٌ: طوال، كناية عن الكرم.
(٦) هذه الأبيات في ديوان البحتري: ١/ ٦٣.
(٧) هو أبو محمد، الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج: أديب، شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة والذكاء. فارسي الأصل، من أبناء الملوك. اتخذه المتوكل العباسي أخاً له، واستوزره، وجعل له إمارة الشام على أن يُنيب عنه، وكان يقدمه على سائر أهله وولده. قُتِل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م. (الزركلي، الأعلام: ٥/ ١٣٣).
(٨) هذه المقطوعة من قصيدة طويلة مطلعها:
ضَمَانٌ على عَيْنَيْكَ أَنّي لا أَسْلُو ... وَأَنَّ فُؤَادي مِنْ جَوىً بِكَ لا يَخْلُو
(البحتري، الديوان: ١/ ٧١).

بَنِـي تَغْلِـبٍ أَعْـزِزْ علـيَّ بـأَنْ أَرى ديـارَكُـمُ أَمْسَـتْ وَلَيْـسَ لَهَـا أَهْـلُ
خَلَـتْ دِمْنَـةٌ مِـنْ سَـاكِنيها وَأَوْحَشَـتْ مَرابعُ مِنْ سِنجارَ يَهْمِي بها الوَبْلُ(١)
إذا مـا الْتَقَـوْا يَـوْمَ الهَيَـاج تَحـاجَـزُوا وَللمـوْتِ فيمـا بينهـم قِسْمَـةٌ عَـدْلُ
كَفِـيٌّ مـنَ الأحيـاءِ لاَقَـى كَفِيَّـهُ وَمِثْـلٌ مـن الأقـوام زَاحَفَـهُ مِثْـلُ(٢)
إذا مـا أَخٌ جَـرَّ الـرمـاحَ انْتَهـى لـهُ أَخٌ لا بَليـدٌ فـي الطِّعـانِ ولا وَغْـلُ(٣)
تَحُـوطُهُـمُ البِيـضُ الـرِّقَـاقُ، وَضُمَّـرٌ عِتـاقٌ، وأَنسـابٌ بهـا يُـدْرَكُ التَّبْـلُ(٤)
بِطَعْـنٍ يَكِـبُّ الـدَّارِعيـنَ دِرَاكُـهُ وَضَـرْبٍ كما تَـرْغُـو المُخَزَّمـةُ البُـزْلُ(٥)
تَجَـافَـى أَميـرُ المـؤمنيـن عَـنِ التـي عَلِمْتُمْ، ولِلْجَانِينَ في مِثْلِها الثُّكْلُ(٦)
وَكـانـت يـدُ الفتـح بن خَـاقـانَ عِنْـدَكُـم يَدَ الغيْثِ عِنْدَ الأَرْضِ أَجْدبَهَا المَحْلُ(٧)
وَلَـوْلاهُ طُلَّـتْ بـالعُقُـوق دِمَـاؤكُـمْ فـلا قَـوَدٌ يُعْطَـى الأذلُّ ولا عَقْـلُ(٨)
تَـلافَيْـتَ يـا فَتْـحُ الأراقِـمَ بَعْـدَ مـا سَقَاهُمْ بِأَوْحَى سُمِّهِ الأَرْقَمُ الصِّلُّ(٩)
وَهَبْـتَ لهـم بـالسِّلْـم بـاقـي نُفُـوسِهِـمْ وَقـد أشـرَفُـوا أن يَسْتَمَّهُـمُ القَتْـلُ(١٠)
أَتَـاكَ وُفـودُ الشُّكْـرِ يُثْنُـون بـالَّـذِي تَقَـدَّم مِـنْ نُعمـاكَ عِنْـدَهُـم قَبْـلُ

---

(١) سنجار: مدينة في نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. يهمي: ينسكب. الوبل: المطر الشديد.

(٢) الكَفِيُّ: النظير، الشبيه. زاحفه: نازله.

(٣) الوَغْلُ: الضعيف النذل.

(٤) البيض الرقاق: السيوف المرهفة المُرقَّقة. والضمر العتاق: الخيول الضامرة الكريمة. والتَّبْلُ: الثأر.

(٥) الدارعون: اللاَّبسو الدُّروع. دراكه: تتابعه. ترغو: تصيح. والمخزمة: التي وُضِع في شدقها الخزام. والبزل: جمع بازل، وهو البعير البالغ من العمر تسع سنين.

(٦) الثكلُ: الفقد.

(٧) المحل: الجدب.

(٨) طُلَّت: هُدِرَتْ. والقَوَدُ: القصاص. والعَقْلُ: الدية.

(٩) أَوحى سُمِّه: أَسرعه. والأرقم الصلّ: الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها، وقيل: التي لا تنفع فيها الرُّقْيَة.

(١٠) شارفوا وأشرفوا: قاربوا.

فَلَـم أرَ يَـوْمـاً كـان أَكْثـر سُـودَداً ... مِنَ اليوم ضَمَّتْهم إلى بَابكَ السُّبْلُ[١]

تَـراءَوْكَ مِـنْ أَقصى السِّمـاط فَقصَّـروا ... خُطاهم، وقد جازُوا السُّتُورَ وَهُمْ عُجْلُ[٢]

وَلَمَّـا قضَـوْا صَـدْرَ السـلام تَهـافَتُـوا ... علـى يَـدِ بَسَّـامٍ سَجِيَّتُـهُ البَـذْلُ

إذا شـرَعُـوا فـي خُطْبَـةٍ قَطَعتْهُـمُ ... جـلالـةُ طَلْـقِ الـوَجْـهِ جـانِبُه سَهْـلُ[٣]

إذا نَكَّسـوا أَبصَـارهُـمْ مـن مَهَـابـةٍ ... وَمـالـوا بلَحْـظٍ خِلْـتَ أنهـمُ قُبْـلُ[٤]

نَصبْـتَ لهـم طَـرْفـاً حـديـداً، ومَنْطِقـاً ... سَديداً، ورَأْياً مثل ما انْتُضِيَ النّصْلُ[٥]

وَسَلَّـتْ سَخيمـاتِ الصـدورِ فَعـالُـكَ الـ ... ـكَـريـمُ، وَأَبْـرَا غِلّهـا قَـولُـكَ الفَصْـلُ[٦]

بِـكَ الْتـأَم الشَّعْـبُ الـذي كـان بَيْنهُـمْ ... على حين بُعْدٍ منه، واجتمع الشَّمْلُ[٧]

فَمـا بَـرِحـوا حَتَّـى تَعـاطـتْ أَكُفُّهـم ... قِـرَاكَ، فـلا ضِغْـنٌ لـديهـم ولا ذَحْـلُ[٨]

وَجَـرُّوا ذُيـولَ العَصْـبِ تَصْفُـو ذُيـولُهـا ... عَطـاء كـريـم مـا تَكـاءدَهُ بُخْـلُ[٩]

وَمـا عَمَّهـم عَمْـرو بـنُ غُنْـم بنِسْبَـةٍ ... كمـا عَمَّهـمْ بـالأَمْـسِ نَـائِلُـكَ الْجَـزْلُ

فَمَهْمَـا رَأَوْا مـن غِبْطـةٍ فـي اصْطِـلاحِهِـمْ ... فَمِنْـكَ بِهـا النُّعْمَـى جَـرَتْ وَلَـكَ الْفَضْـلُ

عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط.

وللطائيين [أبي تَمّام والبُحْتُريّ] في ذلك أشعارٌ كثيرةٌ مختارة، منها قول البحتري يُحذِّر عاقبة الحرب[١٠]:

---

(١) السُّبلُ: جمع سبيل، وهو الطريق، والمراد بالسبل هنا: الحاجات.

(٢) عُجْلٌ: جمع أعجل، وهو المُسْرِعُ.

(٣) طلق الوجه: مُشْرِق، وافر البِشْر.

(٤) قُبْلٌ: جمع أقبل، وهو الذي ينظر بانحراف، كأنما ينظر إلى أنفه.

(٥) النَّصْلُ: السيف.

(٦) السخيمات: جمع سخيمة: الحقد.

(٧) التأم الشعب: اجتمع.

(٨) القِرى: ما يُقدّم للضيف من طعام وشراب ونحوهما. والذحل: الغِلّ.

(٩) تكاءده: منعه وَشَقَّ عليه.

(١٠) هذه القطعة من قصيدة طويلة يمدح بها هيثم بن هارون بن المعمر، ومطلعها:

أَمِنْـكَ تَـأَوُّبُ الطَّيْـفِ الطَّـرُوبِ ... حَبِيـبٌ جـاءَ يُهْـدَى مِـنْ حَبِيـبِ

(البحتري، الديوان: ١/ ٤٤٠).

أَمَــا لِــرَبِيعــةِ الفَــرَسِ انتهــاءٌ عَــن الــزلــزالِ فيهــا والْحُـــرُوبِ[١]
وَكــانـــوا رَقّعُـــوا أَيـــامَ سِلْـــمٍ علـى تِلـكَ الضغَـائـنِ وَالنـدُوبِ[٢]
إذَا مــا الجُــرْحُ رَمَّ علــى فســادٍ تَبَيَّـنَ فيــه تَفْــرِيـسطُ الطبيــبِ
رَزِيَّــةُ هَــالِــكٍ جَلبَــتْ رَزَايَــا وخَطْـبٌ بـاتَ يَكْشِـفُ عـن خطـوبِ
يُشَــقُّ الجَيْــبُ ثــمَّ يجــيءُ أَمْــرٌ يُصَغِّــرُ فيــه تَشْقيــقُ الجيــوبِ
وَقَبْــرٍ عـــن أيَــامِــنِ بَــرْقَعيــدٍ إذا هــي نــاحَــرَتْ أُفُــقَ الجنــوبِ[٣]
يَســحُّ تُــرَابُــهُ أَبَــداً عَليهــا عِبَــاداً مِــنْ مُــرَاقِ دَمٍ صَبِيــبِ[٤]
فَهَــل لِابْنَــيْ عَــدِيٍّ مِــنْ رَشِيــدٍ يَــرُدُّ شَـريـدَ حِلْمِهِمَـا العَـزِيــبِ[٥]
أَخــافُ عَلَيْهِمــا إمــرارَ مَــرْعًــى مِــنَ الكــلإِ الــذي عُقبَـاهُ تُــوبِــي[٦]
وَأَعْلَـــمُ أَنَّ حَــرْبَهُمَــا خَبَــالٌ علــى الــدَّاعــي إِليْهَــا والْمجِيــبِ
لَعَـــلَّ أبَـــا المُعمّـــر يَتّلِيهَـــا بِبُعْــدِ الهــمِّ وَالصَّــدْرِ الــرَّحِيــبِ[٧]
فَكَــمْ مِــنْ سُــؤْدُدٍ قَــدْ بَــاتَ يُعْطِي عَطِيَّـــةَ مُكْثِـــرٍ فيهـــا مُطِيـــبِ
أَهَيْثَــمَ يــابــنَ عبــدِ اللّــه، دَعْــوَى مُشيــرٍ بِــالنصيحــةِ أَوْ مُهِيــبِ[٨]
تَنَــاسَ ذُنــوبَ قَــوْمِــكَ إنَّ حِفْـظَ الــذ نــوبِ إذا قَــدُمْــنَ مِــنَ الــذّنــوبِ
فَلَلسَّهْــمُ السَّــدِيـــدُ أَحَــبُّ غِبّـــا إلـى الـرامـي مِنَ السَّهْـمِ المُصيبِ[٩]
مَتَــى أَحْــرَزْتَ نَصْــرَ بنــي عبيــدٍ إلـــى إخــلاصِ وُدِّ بنـــي حَبِيــبِ
فَقَـــدْ أَصْبَحْـــتَ أَغْلَـــبَ تَغْلِبِـــيٍّ علـــى أَيـــدِي العَشِيـــرةِ وَالقُلُـــوبِ

---

(١) ربيعة القرس: أبو قبيلة، وهو نزار بن معد بن عدنان. والزلزال: الشدة والهول.
(٢) النُّدوبُ: جمع ندبة، وهي أثر الجرح. وفي الديوان: «على تلك القوارح والندوب».
(٣) برقعيد: بلدة بالموصل. ناحرت: قابلت.
(٤) العهاد: المطر الخفيف في الربيع.
(٥) العزيب: من العزوب، وهو الذهاب والغيبة.
(٦) تُوبي: تهلك. وفي الديوان: «الذي عُلْفَاهُ موبي». والمُوبي: ذو الوباء.
(٧) يَتَّليها: يتبعها. والهَمُّ هنا: بمعنى الهِمَّة. وفي الديوان: «والصدر الرحيب».
(٨) مُهيب: داعٍ. وفي الديوان: «مُشِيد بالنصيحة».
(٩) غِبًّا: عاقبةً.

يناسب قولَهُ:

إذا مـــا الجُـــرْحُ رَمَّ علـــى فَسَـــادِ

قولُ أبي الطيب المتنبي لعليّ بن إبراهيم التّنُوخي أحد بني القَصِيص[١]:

فَـــلا تَغْـــرُرْكَ أَلْسنَـــةٌ مَـــوَالٍ تُقلِّبُهُـــنَّ أَفئِـــدَةٌ أَعـــادِي[٢]

وَكُـــنْ كـالمـوْت لاَ يَـرْثِـي لِبَـاكٍ بَكـى مِنْـهُ، وَيَـرْوَى وَهْـوَ صَـادِ[٣]

فَـإنَّ الْجُـرْحَ يَنْغِـرُ بَعْـدَ حيـنٍ إذا كـانَ البنـاءُ عَلَـى فَسَـادِ[٤]

وفي هذه القصيدة:

كَـأَنَّ الهـامَ فـي الهَيْجَـا عُيُـونٌ وَقَـدْ طُبِعَـتْ سُيُـوفُـكَ مِـنْ رُقَـادِ[٥]

وَقَـدْ صُغْـتَ الأَسِنَّـةَ مِـنْ هُمُـومٍ فَمَـا يَخْطُـرْنَ إلاَّ فِـي فُـؤَادِ[٦]

كأنَّ البيتَ الأوّلَ مِنْ هذين ينظرُ إلى قولِ مُسْلِم بنِ الوَلِيدِ[٧] من طَرْفٍ خَفيٍّ:

وَلَـوْ أَنَّ قَـوْمـاً يَخْلُقُـونَ مَنِيَّـةً مِـنْ بَـأْسِهِـمْ كـانُـوا بَنِـي جِبْـرِيـلاَ

قَـوْمٌ إذَا احْمَـرَّ الهَجِيـرُ مِـن الـوَغَـى جَعَلُـوا الجَمَـاجِـمَ لِلسُّيـوفِ مَقِيـلاَ[٨]

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة مطلعها:

أُحَـادٌ أَم سُـدَاسٌ فـي أُحَـادِ لُيَيْلَتُنَـا المَنُـوطَـةُ بِـالتَّنَـادِي

(المتنبي، الديوان: ١/ ٢٠٨ ـ ٢١٢).

(٢) الموالي: جمع المولى، وهو الصديق. والأفئدة: جمع فؤاد. يقول: إنَّ ألسنتهم تُظهر لك الصداقة، وقلوبهم تبطن العداوة، فلا تغتر بظاهرهم.

(٣) الصادي: العطشان: أي يشرب ما يرويه، ولا يزال مشتاقاً إلى الشرب.

(٤) نَغَرَ الجرح: هاج وورم. يريد: أنهم يطوون العداوة في أنفسهم إلى أن تمكنهم الفرصة.

(٥) الهام: الرؤوس. الهيجا: من أسماء الحرب، تُمَدُّ وَتُقْصَرَ. وطبع السيف: طرقه وعمله.

(٦) الأسنة: نصال الرماح.

(٧) هو أبو الوليد، مسلم بن الوليد الأنصاري، المعروف بصريع الغواني: شاعر غزل، من شعراء الدولة العباسية، من أهل الكوفة. مدح الرشيد والبرامكة، وعدداً من الرؤساء والوزراء، ويقال: إن الرشيد كتب شعره بماء الذهب. وهو أول من وسَّع فن البديع في الشعر. توفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٣٤؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٣/ ٩٦).

(٨) احمرار الهجير: هو وقت الظهر، كناية عن سيل الدماء فيه.

وإنما أخذه [أبو الطيب] من قول منصور النميري[١]، وذكر سيفاً:

ذَكَرٌ، بِرَوْنَقِهِ الدِّمَاءُ، كأنما ... يَعْلُو الرجَالَ بِأرْجُوَانٍ فاقِعِ[٢]

وَتَرَى مَسَاقِطَ شَفْرَتَيْهِ كأنَّها ... مِلْحٌ تَبَدَّدَ مِنْ وَرَاءِ الدَّارِعِ

وَتَرَاهُ مُعْتَمًّا إذَا جَرَّدْتَهُ ... بِدَمِ الرِّجالِ عَلَى الأدِيمِ النَاقِعِ[٣]

وَكَأَنَّ وَقْعَتَهُ بِجُمْجُمَةِ الفتَى ... خَدَرُ المُدَامَةِ أو نُعَاسُ الهَاجِعِ

أردت هذا البيت، وقول النُّميري:

وَتَرَاهُ مُعْتَّماً إذَا جَرَّدْتَهُ

يشير إليه قولُ أبي الطيب، وذكر سيفاً[٤]:

يَبِسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ فَهْوَ مُجَرَّدٌ ... مِنْ غِمْدِهِ وكأَنَّما هُوَ مُغْمَدُ[٥]

رَيَّانُ لَو قَذَفَ الذِي أسْقَيْتَهُ ... لَجَرَى من المُهَجَاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ[٦]

وبنو عُبَيْد، وبنو حَبِيب ـ اللذان ذكرهما البُحْتُرِيّ ـ هم: بنو عبيد بن الحارث بن بَكْر بن حَبيب بن عمرو بن غُنْم بن تَغْلِب، وحَبيب بن الهَجْرس بن تيم بن سَعْد بن جُشَم بن بكر بن حَبيب بن عمرو بن غُنْم بن تَغْلِب، وفيهم حَبيب بن حَرْقَة بن تَغلب بن بَكْر بن حَبِيب بن عَمْرو بن غُنْم بن تَغْلِب، فلا أدرى أيهما أراد!

للبحتري أيضاً

وقال البحتري[٧]:

---

(١) هو أبو القاسم، منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النميري: شاعر من أهل الجزيرة الفراتية. اتصل بهارون الرشيد ومدحه. كان تلميذاً لكلثوم بن عمرو العتابي، ومن بحره استقى. توفي نحو ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٧٣٦).

(٢) سيف ذكر: من الذُّكْرة (بضم الذال)، وهي الحدة. والأرجوان: صبغ أحمر. وفاقع: صفة يراد بها المبالغة، فكل ناصع اللون فاقع، وأكثر ما يوصف به الأحمر والأصفر.

(٣) معتم: جمد الدم عليه حتى صار له كالعمامة. والناقع: الذي تَرَوَّى بالدم.

(٤) المتنبي، الديوان: ١/ ١٦٦.

(٥) النجيع: الدم. يقول: إن الدم الجامد عليه قد صار كالغمد له حتى يرى كأنه مغمد وهو مجرد.

(٦) الريَّان: المرتوي. والمهجات: دماء القلوب. وبحر مزبد: يرمي بالزبد. يقول: إنك سقيته من دماء القلوب ما لو مَجَّه لجرى من تلك الدماء بحر مزبد.

(٧) البحتري، الديوان: ١/ ١٠ ـ ١١.

أَسِيتُ لأَخْوَالِي ربيعةَ أَنْ عَفَتْ مَصَايِفُهَا منها، وَأَقْوَتْ رُبُوعُهَا[١]
بِكُرْهِيَ أَنْ باتَتْ خَلاَءً دِيارُهَا وَوَحْشاً مَغَانِيهَا، وَشَتَّى جَمِيعُهَا[٢]
إذا افترقُوا مِنْ وَقْعَةٍ جَمَعَتْهُمُ دِمَاءٌ لأُخْرَى ما يُطَلُّ نَجِيعُهَا[٣]
تَذِمُّ الفتاةُ الرُّودُ شيمةَ بَعْلِهَا إذا باتَ دُونَ الثأْرِ وَهْوَ ضَجِيعُهَا[٤]
حَمِيَّةُ شَعْبٍ جاهليّ وَعِزَّةٌ كِلابيةٌ أَعْيَا الرجالَ خُضُوعُهَا
وَفُرْسَانُ هَيْجاءٍ تَجِيشُ صُدورُهُمْ بأَحْقَادِها حتى تَضِيقَ دُرُوعُهَا
تُقَتَّلُ من وِتْرٍ أَعَزّ نُفُوسِها عَلَيْهَا بأَيْدٍ ما تكادُ تُطِيعُهَا[٥]
إذا احْتَرَبَتْ يوماً ففاضَتْ دماؤُها تَذَكَّرَتِ القُرْبَى ففاضتْ دُموعُها
شَوَاجِرُ أَرْماحٍ تَقَطَّعُ بيْنَهَا شَواجِر أَرْحَامٍ مَلُوم قَطُوعُهَا[٦]
فَكُنْتَ أمينَ الله مَوْلَى حَيَاتِها وَمولاكَ فَتْحٌ يوم ذاكَ شَفِيعُهَا[٧]

لأبي تمام

وقال أبو تمام الطائي[٨]:

مَهْلاً بَنِي مالكٍ لاتَجْلِبُنَّ إلَى حَيِّ الأَراقِمِ دُؤْلُولَ ابنةِ الرَّقِمِ[٩]
لم يَأْلُكُمْ مَالِكٌ صَفْحاً ومَغْفِرَةً لو كانَ يَنْفُخُ قَيْنُ الحيِّ في فَحَمِ[١٠]

---

(١) أسيتُ: حزنت. والمصايف: جمع مصيف. وأقوت: خلت.
(٢) المغاني: جمع مغنى، وهو المنزل الذي غني به أهله: أي أقاموا.
(٣) يُطَلُّ: يُهْدَرُ. النجيع: الدم.
(٤) الرود: الرؤد: الشابة الجميلة الوافرة الحياء.
(٥) الوتر: الثأر.
(٦) الشواجر: القواطع والروابط، وهي من الأضداد. وشواجر أرماح: أي مختلفة الطعن، وشواجر أرحام: أي أرحام مشتبكة.
(٧) فتح: لعله أراد الفتح بن خاقان وزير المتوكل.
(٨) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٩٥.
(٩) الأراقم: حيٌّ من تغلب، وابنة الرقم: الحية. والدؤلول: السم. يقول: لا تقدموا السُّمَّ بأنفسكم إلى حيّ الأراقم ليقتلوكم به. وفي الديوان: «دؤلول ابنة الرقم»، والدؤلول: الداهية.
(١٠) لم يألكم: أي لم يقصر عنكم. والقين: الحداد. وقوله: «لو كان ينفخ قين الحي في فحم»: مثل من قولهم: هو ينفخ في فحم، إذا كان يعمل أمراً مُنجزاً، لأن الفحم إذا نفخ فيه أوقد. والمعنى: لقد صفح عنكم مالك، وتجاوز مراراً عن سيئاتكم لو أنكم ترجعون عن غيِّكم.

أَخْــرَجتمــوه بِكُــرْهٍ مــن سَجِيَّتِــهِ وَالنارُ قَدْ تُنْتَضَى مَنْ ناضِرِ السَّلَمِ(١)
أَوْطَـأْتمـوهُ علـى جَمْـرِ العُقـوقِ، وَلـوْ لم يُحْرَجِ الليثُ لم يَخْرُجْ مِنَ الأَجَمِ(٢)
لَـوْلاَ مُنـاشـدةُ القُـرْبَـى لَغـادَرَكُـمْ حَصَـائِـدَ المُـرْهَفَيْـنِ السَّيْـفِ والقَلَـمِ(٣)
لا تَجْعَلُـوا البَغْـيَ ظَهْـراً إنـهُ جَمَـلٌ مِـنَ القطيعـةِ يَـرْعـىٰ واديَ النَّقَـمِ(٤)

وقال أيضاً(٥):

مَهْـلاً بنـي عَمْـرو بـن غُنُـم؛ إنكُـمْ هَــدَفُ الأَسِنَّــةِ والقَنَــا تَـتَحَطَّــمُ(٦)
مــا مِنْكُــم إلا مُــرَدًّى بِــالحِجَــى أو مُبْشَــرٌ بــالأَحــوذِيَّــةِ مُــؤْدَمُ(٧)
عَمْـرُوُ بْـنُ كلثـوم بـن مـالـك بـن عتَّاب بـنِ سعـدٍ سَهْمكُـم لا يُسْهَـمُ(٨)
خُلِقَـتْ رَبيعـةُ مـن لَـدُنْ خُلِقـت يَـداً جُشَـمُ بْـنُ بكـرٍ كَفُّهَـا والمِعْصَـمُ(٩)
تَغْــزو فَتغْلِــبُ تَغْلِــبٌ مِثْــلُ اسْمِهـا وَتسيـحُ غُنْـمٌ فـي البـلادِ فَتَغْنَـمُ(١٠)
وَسَتَـذْكُـرون غَـداً صَنـائـعَ مـالـكٍ إنْ جَـلَّ خَطْـبٌ أو تُـدُوفِـعَ مَغْـرَمُ(١١)

---

(١) تُنْتَضَى: تُسْتَخْرَجُ. والناضر: الأخضر. والسَّلم: اسم شجر.
(٢) العقوق: العصيان. يحرج: يضيق عليه. والأجم: الغابة. يقول: إن الممدوح قد فُطِر على الحلم والمغفرة، لكنكم أمعنتم في العدوان، حتى خرج الرجل عن طوره، ولولا أنكم جرحتموه بإساءاتكم لما خرج بجيشه لمحاربتكم.
(٣) المرهف: الرقيق الحدّ. أي لولا قرابتكم، لحصدكم بالسيف، وكتب عليكم الذُّلَّ والعار.
(٤) «لا تجعلوا البغي ظهراً»: أي لا تحملوا أموركم عليه، كما تحمل على ظهر الجمل.
(٥) أبو تمام، الديوان: ٢/١٠١. والأبيات من قصيدة طويلة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي.
(٦) «بني عمرو بن غنم»: ويروى: «بني غنم بن تغلب». الهدف: الغرض، المرمى، استعاره لأسنة الرماح، وهو للسهام. وفي الديوان: «يتحطَّمُ».
(٧) مُرَدًّى: مَكْسُوٌّ. الحِجَى: العقل. والأحوذية: الخفة والنشاط والحذاقة. والمُبْشَرُ: المكسو بالبشرة، وهي ظاهر الجلد. والمؤدم: المكسو بالأدمة، وهي باطن الجلد. وقوله: «مبشر بالأحوذية مؤدم»: أي إنه كامل، جمع بين لين البشرة وصلابة الأدمة.
(٨) لا يُسْهَمُ: لا يُغْلَب، وأراد بالسهم: الحظ.
(٩) في الديوان: «مذلدن» أي: من زمن. أي: إن ربيعة مذ خلقت كانت يداً، وكانت جشم بن بكر كفَّ هذه اليد ومعصمها، وما نفع اليد من دون كفٍّ ومعصم؟
(١٠) غُنْم: اسم قبيلة.
(١١) الصنائع: جمع صنيع، وهو المعروف. والمَغْرَمُ: الخسارة.

مَـا لِـي رَأَيْتُ ثَـرَاكُـمْ بِبَسَـالَـةٍ ... مَـالِـي أَرَى أَطْـوَادَكُـمْ تَتَهـدَّمُ؟[١]
مـا هـذِهِ القُـرْبَـى الـتـي لا تُصْطَفَـى ... مـا هـذه الـرَّحِـمُ التـي لا تُـرْحَـمُ؟[٢]
حَسَـدُ القـرابـةِ للقـرابـةِ قَـرْحَـةٌ ... أَعْيَـتْ عَـوائِـدُهَـا وَجُـرْحٌ أقـدمُ[٣]
تِلْكُـمْ قُـرَيـشٌ لـم تَكُـنْ آبـاؤُهـا ... تَهْفُـو ولا أَحْـلاَمُهَـا تَتَقَسَّـمُ[٤]
حَتَّـى إذَا بُعِـثَ النَّبِـيُّ مُحمَّـدٌ ... فيهـم غَـدَتْ شَحْنَـاؤُهـم تَتَضَـرَّمُ[٥]
عَـزَبَـتْ عُقُـولُهُـمُ، وَمـا مِـنْ مَعْشَـرٍ ... إلاَّ وهُـمْ مِنْـهُ أَلَـبُّ وَأَحْـزَمُ[٦]
لَمَّـا أَقَـامَ الـوَحْـيُ بَيْـنَ ظُهُـورِهِـمْ ... وَرأَوا رَسُـولَ اللهِ أَحمَـدَ مِنْهُـمُ
وَمِـنَ الحَـزامـةِ لَـوْ تَكُـونُ حَـزَامـةٌ ... أَلاَّ تُـؤخِّـرَ مَـنْ بِـهِ تَتَقَـدَّمُ[٧]

وَمالك هو: ابن طَوْقِ[٨] بن مالك بن عَتاب بن زُفَر بن مُرَّة بن شُرَيْح بن عَبْد الله بن عَمْرو بن كُلْثُوم بن مَالك [بن عتاب] بن سَعْد بن [زهير بن] جُشَمَ بن بكر [بن وائل] بن حَبيب بن عَمْرو بن غُنم بن تَغْلب، وفيه يقول دِعْبِل يهجوهُ:

النَـاسُ كُلُّهُـمُ يَغْـدُو لِحـاجتـهِ ... مِـنْ بَيْـن ذي فَـرَحٍ مِنْهـا ومَهْمُـومِ
وَمـالـكٌ ظَـلَّ مَشْغُـولاً بِنِسْبَتِـهِ ... يَـرُمّ منهـا بنـاءً غَيْـرَ مَـرْمُـومِ[٩]

(١) ببسالة: أي في بسالة، كذا، وفي الديوان: «مالي رأيت ترابكم يبساً له»، يريد: جافاً لا يله ندى، فليس ينبت شيئاً.
(٢) تُصْطَفى: تختار. ويروى: «لا تُتَّقَى».
(٣) القرحة: الجراحة القديمة التي تَجمَّع فيها القَيْحُ. والعوائدُ: جمع عائد، وأراد بالعوائد: النكسات التي تعود بها القروح. «عواندها»: جمع عاند، من عَنَدَ العرق، إذا سال ولم يرقأ. ويروى:
حَسَـدُ العَشِيـرَةِ لِلْعَشِيـرَةِ قَـرْحَـةٌ ... تَلِـدَتْ وَسَـائِلُهـا وَجُـرْحٌ أَقْـدَمُ
(٤) تهفو: تضطرب. الأحلام: العقول. لا تتقسم أحلامها: لا تَتفرّق آراؤها.
(٥) الشحناء: البغضاء.
(٦) عزبت عقولهم: غابت. أَلبُّ: أَعْقَلُ. أَحْزَمُ: أَضبط.
(٧) الحَزَامَةُ: الحزم، حُسْنُ الرأي. وفي الديوان: «أَلاَّ يُؤَخِّرَ مَنْ بهِ يُتَقَدَّمُ».
(٨) مالك بن طوق: أحد الفرسان الشجعان، بنى «رحبة مالك» على شاطىء الفرات، وله مع الرشيد موقف مشهور. توفي سنة ٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م.
(٩) يَرُمُّ: يُصْلِحُ.

يَبْنِـي بُيُـوتـاً خَـرابـاً لا أَنيـسَ بِهـا ... مـا بَيْنَ طَوقٍ إلى عَمْرِو ابنِ كُلثومِ[1]

والتكثير من المعنى المُعتَرِض، يزيح عن ثغرة الغَرَض[2]، لكني أجري منه إلى حلبة الإجادة، وأقصدُ قصدَ الإفادَةِ، ثم أعود حيثُ أُريد.

لابن الخياط يمدح الإمام مالك بن أنس

وقال ابن الخيَّاط المَكِّي ـ واسمه عبد الله بن سَالم ـ في باب الهيبة، في مالك بن أنس[3] الفقيه، رحمة الله عليه؛ وقيل: إن هذا من قول ابن المُبَارك:

يَـأبَـى الجـوَابَ فَمـا يُـرَاجَـعُ هَيْبَـةً ... وَالسَّـائلـونَ نَـوَاكِـسُ الأَذْقَـانِ[4]

أَدَبُ الـوقـارِ، وَعِـزُّ سُلْطَـانِ التُّقَـى، ... فَهـو المَهِيـبُ وَلَيْـسَ ذَا سُلْطَـانِ

* * *

لأشجع السلمي

وقول الفرزدق:

يَكَـادُ يُمْسِكُـه عِـرْفَـانَ رَاحَتِـهِ

قد تَجَاذَبه جماعةٌ من الشعراء؛ قال أشْجَع بن عَمْرو السُّلَمي[5] لجعفر البرمكي:

---

(١) هو عمرو بن كلثوم التغلبي، الشاعر الجاهلي المشهور صاحب المعلقة التي مطلعها:

أَلا هُبّـي بِصَحْنِـكِ فَـاصْبِحِينـا ... وَلاَ تُبْقِـي خُمُـورَ الأَنْـدَرِينـا

وقد ساد قومه وهو بعد فتًى، وقتل الملك عمرو بن هند في بلاطه، وكانت وفاته سنة ٤٠ ق. هـ/ ٥٨٤ م. (ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال: ٣٦٩ ـ ٤٢٨، الأصفهاني، الأغاني: ١١/ ٤٦).

(٢) الثغرة: الطريق.

(٣) هو الإمام مالك بن أنس، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. توفي سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٦ م. ومن آثاره: كتاب «الموطأ» في الفقه.

(٤) نواكس الأذقان: مطرقون إلى الأرض خشوعاً. والناكس: المطأطىء رأسه من ذُلٍّ، قال تعالى: ﴿نَاكِسُو رُؤُوسِهِم عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (سورة السجدة، آية ١٢).
وقال الفرزدق:

وَإِذا الـرِّجَـالُ رَأَوْا يَـزِيـدَ رَأَيْتَهُـمْ ... خُضُـعَ الـرِّقَـابِ نَـواكِـسَ الأَبْصَـارِ

(الديوان: ١/ ٣٠٤).

(٥) هو أشجع بن عمرو السُّلَمي: شاعر، فحل، مجيد، مطبوع. ولد باليمامة، ونشأ في البصرة =

حَبَّـذَا أَنْـتَ قـادِمـاً تَـرِدُ الشَّـا مَ فَتخْتَـالُ بَيْـنَ أَرْحُـلِ عِيْـرِكْ
إنَّ أَرضـاً تَسْـري إليهـا لَـو اسْطَـا عَـتْ لَسَارتْ إليك مِنْ قَبْلِ سَيْرِكْ

لأبي تمام

وإليه أشار أبو تمام الطائي في قوله[١]:

دِيمَـةٌ سَمْحَـةُ القِيَـادِ سَكُـوبُ مُسْتغيـثٌ بهـا الثَّـرَى المَكْـرُوبُ
لَـوْ سَعَـتْ بُقْعَـةٌ لإعظـامِ نُعْمَـى لَسَعَـى نَحْـوَهـا المكـانُ الجَـديـبُ

وفي هذه القصيدة وصف الدِّيمة، ومدح محمد بن عبد المَلِك الزيَّات[٢]:

لَـذَّ شُـؤْبُـوبُهـا وَطـابَ فَلـو تَسْـ ـطيـعُ قَـامَـتْ فَعَـانقَتْهَـا القُلـوبُ[٣]
فَهْـوَ مـاءٌ يجـري وَمـاءٌ يَليـهِ وَعَـزَالٍ تَنْشَـا وَأُخْـرَى تَصُـوبُ[٤]
أيُّهـا الغَيْـثُ حَـيِّ أَهْـلاً بِمَغْـدا كَ وَعِنْـدَ السُّـرَى وَحيـنَ تَـؤُوبُ[٥]
لأَبِـي جَعْفَـرٍ خَـلائِـقُ تَحْـ ـكِيهِـنَّ قَـدْ يُشْبِـهُ النَّجيـبَ النَّجيـبُ[٦]

بين أبي تمام وابن الزيات

وأنشدها أبا جَعْفَر بن الزيَّات، فقال: يا أبا تمام؛ والله إنك لتحلِّي شِعرَك من جواهر لفظك وبدائع معانيك، ما يزيد حُسْناً على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب؛ وما يُدَّخَرُ لكَ شيءٌ من جزيل المكافأة إلاَّ يَقصُرُ عن شِعْرِكَ في الموازنة. وكان بحضرته رجلٌ من

= يتيماً. مدح الرشيد والبرامكة، واختص بجعفر بن يحيى البرمكي. توفي نحو ١٩٥ هـ/ ٨١١ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٤٤).

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٧٩.

(٢) هو أبو جعفر، محمد بن عبد الملك بن أَبان بن حمزة، المعروف بابن الزيات: أديب فاضل، وعالم باللغة والنحو. استوزره المعتصم والواثق، ونكبه المتوكل، وعَذَّبه في التنور حتى مات، وكان ذلك سنة ٢٣٣ هـ/ ٨٤٨ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٩٤).

(٣) الشُّؤبوبُ: الدَّفْعةُ من المطر.

(٤) عزال: جمع عزلاء، وهي مصبُّ الماء، والمراد بها السحابة. وتصوبُ: تنسكب.

(٥) تؤوب: ترجع.

(٦) النجيب من الرجال: الكريم، الحسيب، الفاضل.

الفلاسفة، فقال: هذا الفتى يموتُ شاباً! فقيل له: مِنْ أينَ حَكَمتَ عليه بهذا؟ فقال: رأيتُ فيه من الحدَّة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس ما علمتُ به أن النفسَ الروحانية تأكل عمره كما يأكلُ السيفُ المُهَنَّدُ غِمْدَه! قال الصولي[1]: مات وقد نَيَّفَ على الثلاثين.

لأبي تمام في أبي دلف

وقال في أبي دُلَف العِجْلي[2] القَاسم بن مُحمد بن عِيسى[3]:

تَكَادُ عَطَايَاهُ يُجَنُّ جُنُونُهَا   إذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا بِنِعْمَةِ طَالِبِ

تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهَشُّ عِرَاصُهَا   فَتركبُ من شَوْقٍ إلى كلِّ رَاكِبِ[4]

وقال البُحْتري[5]:

لَوْ أَنَّ مُشْتَاقاً تَكلَّفَ فَوْقَ مَا   فِي وُسْعِهِ لَمَشَى إِلَيْكَ المِنْبَرُ

وقال أبو الطيب المتنبي لبدر بن عمار[6]:

طَرِبَتْ مَرَاكِبُنَا فَخِلْنَا أَنَّهَا   لَوْلاَ حَيَاءٌ عَاقَهَا رَقَصَتْ بِنَا

---

(١) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول: كاتب العراق في عصره. خراساني الأصل. نشأ وتأدب في بغداد، وقرَّبه الخلفاء، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل. قال عنه المسعودي: لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه. توفي بـ«سُرّ من رأى» سنة ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م. من آثاره: «كتاب الدولة»، و«كتاب العطر»، و«ديوان شعر»، وغيرها. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٦/ ١١٧؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٤٢).

(٢) هو أبو دلف، القاسم بن محمد بن عيسى بن إدريس بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، العجلي: أحد قوّاد المأمون، ثم المعتصم من بعده. كان كريماً سَرِيًّا جواداً مُمدَّحاً مُقدَّماً، ذا وقائع مشهورة، وصنائع مأثورة. أخذ عنه الأدباء والفضلاء، وله صنعة في الغناء. من تصانيفه: «البزاة والصيد»، و«السلاح»، و«سياسة الملوك»، وغيرها. توفي سنة ٢٢٦ هـ/ ٨٤١ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٧٣؛ ابن النديم، الفهرست: ١١٦؛ البكري، سمط اللآلي: ٣٣١؛ المسعودي، مروج الذهب: ٤/ ٥، ٦٢).

(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٤٨.

(٤) العراص: جمع عرصة، وهي ساحة الدار.

(٥) البحتري، الديوان: ١/ ٢٤. وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لا يُكلِّفُ الله نَفْساً إلاَّ وُسْعَها﴾ (سورة البقرة، آية ٢٨٦).

(٦) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٩٦.

لَــوْ تَعْقِــلُ الشَّجــرُ التــي قَــابلتَهَــا ... مَـــدّتْ مُحَيِّـــةً إليـــكَ الأَغْصُنَـــا

رجع ما انقطع

لمحمد بن علي بن الحسين (أبي جعفر الباقر)

قال أعرابي لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين[1] رضي الله عنه: هل رأيت الله حين عَبَدْتَهُ؟ فقال: لَمْ أَكُنْ لِأَعْبُدَ مَنْ لم أَرَه، قال: فكيف رأيتَهُ؟ قال: لم تَرَهُ الأبصارُ بمشاهدة العِيان، ورَأَتْهُ القلوبُ بحقائق الإيمان، لا يُدرَك بالحواسِّ، ولا يُشَبَّه بالناس، معروفٌ بالآيات، منعوتٌ بالعلاماتِ، لا يجورُ في القضيّات، ذلك اللهُ الذي لا إِلَهَ إلا هو. فقال الأعرابي: الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته.

قال الجاحظ[2]: قال محمد بن علي: صلاحُ شأنِ الدنيا بحذافيرها في كلمتين؛ لأنَّ صلاحَ شأن جميع الناس [في التعايش و] التعاشر وهو مِلء مِكْيَال: ثلثاه فطنة، وثلثه تَغَافل.

قال الجاحظ: لم يجعل لغير الفِطْنةِ نصيباً من الخير، ولا حظاً من الصلاح؛ لأن الإنسان لا يتغافلُ عن شيء إلا وقد عرفه وفطن له، قال الطائي:

لَيْــسَ الغَبِــيُّ بِسيِّــدٍ فــي قَــوْمِــهِ ... لَكِــنَّ سَيِّــدَ قَــوْمِــهِ المُتَغَــابِــي

وقال ابن الرومي لأبي محمد بن وَهْب بن عُبيد الله بن سُليمان[3]:

تَظَــلّ إذا نــامــتْ عُيــونُ ذوي العَمَــى ... وَإِنْ حُــدِّدوا زُرقــاً إليــكَ جَــوَاحِظَــا[4]

تَغَــاضَــى لَهُــمْ وَسْنَــانَ، بــل مُتَــواسِنــاً، ... وَتُــوقِظُهُــمْ يَقْظَــانَ بَــلْ مُتَيَــاقِظَــا[5]

---

(١) هو أبو جعفر، محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وَلُقِّب بالباقر، لأنه بَقَرَ العلم، أي شَقَّه، وعرف أصله وخفيّه، وتوسَّع فيه. ولد بالمدينة، وتوفي فيها سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٦ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ١٤٩).

(٢) هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، البصري، المعتزلي، المعروف بالجاحظ: عالم، أديب، مشارك في أنواع من العلوم. ولد بالبصرة، وَتُنْسب إليه الفرقة الجاحظية. توفي سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م. من آثاره: «الحيوان»، و «البيان والتبيين»، و «البخلاء»، وغيرها. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٧١؛ الحموي، معجم الأدباء: ١٦/ ٧٤؛ المسعودي، مروج الذهب: ٨/ ٣٣؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ: ٢/ ١١١).

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٩٦.

(٤) جواحظ: جمع جاحظة، وهي الناتئة الحدقة. وفي الديوان: «إذا نامت عقول ذوي العمى».

(٥) المتواسنُ: المتناوم وليس بنائم. ومتياقظ: متظاهر اليقظة. وفي الديوان: «لا مُتياقظا».

زيد بن علي بن الحسين

[وأبو جعفر هذا هو الباقر]، وكان أخوه زَيْدُ بن علي رضي الله عنه دَيِّناً، شجاعاً، ناسكاً، من أَحْسَنِ بني هاشم عبارةً، وأجملهم شَارَةً.

وكانت ملوك بني أمية تكتُب إلى صاحب العراق أنِ امنَعْ أهلَ الكوفة من حضور زيد بن علي؛ فإنَّ له لساناً أَقْطع من ظُبَةِ السيف وأَحَدَّ من شَبَا الأسِنة[١]، وأبلغ من السحر والكهانَة[٢]، ومن كل نَفْثٍ في عُقْدَة.

وقيل لِزَيْد بن علي: الصَّمْتُ خيرٌ أَم الكلام؟ فقال: قبّح الله المساكتة، ما أفسدها للبيان، وأجلبها للعِيِّ والْحَصَر[٣]! والله لَلْمُماراة أسرعُ في هَدْمِ الْعِيِّ من النار في يَبَسِ العَرْفَج، ومن السيل إلى الْحُدور[٤].

وقال له هِشَام بن عَبْد المَلِك: بلغني أَنَّكَ ترومُ الخلافة وأنت لا تَصْلُحُ لها لأنك ابنُ أَمَة؟ قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابنَ أمةٍ، وإسحاق ابن حُرَّة؛ فأخرج الله من صُلب إسماعيل خيرَ ولد آدم! فقال له: قم! فقال: إذاً والله لا تَراني إلاّ حيثُ تَكْره! فلما خرج من الدار قال: ما أحبَّ أَحَدٌ الحياةَ قط إلاّ ذلَّ، فقال له سالم مولى هشام: لا يسمعنَّ هذا الكلام منك أَحَدٌ، وكان زيد كثيراً ما ينشد:

شَــــرَّدهُ الخــــوفُ وَأَزْرَى بِــــهِ ... كَــذاكَ مَــنْ يَكْــرَهُ حَــرَّ الْجِــلاَدْ[٥]

مُنْخَــرِق الخُفَّيْــنِ يَشْكُــو الــوَجَــى ... تَنْكُبُــه أطــرافُ مَــرْوٍ حِــدَادْ[٦]

قَــدْ كــانَ فــي المــوتِ لَــهُ رَاحَــةٌ ... وَالمــوتُ حَتْــمٌ فــي رِقَــابِ العِبَــادِ

وقد رُوِيت هذه الأبيات لمحمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين، وقد رُوِيت لأخيه موسى.

---

(١) ظبة السيف: طرفه، وكذلك شبا السنان.

(٢) الكهانة: نوع من فتنة الناس باسم البحث عن الغيب.

(٣) الحَصَرُ: عُسْر الكلام.

(٤) الحدور: المنحدرات يجري إليها الماء. والعرفج: ضرب من النبات، سهلي، سريع الاتقاد، واحدته عرفجة، وهو طيب الريح.

(٥) الجِلادُ: الحرب.

(٦) المرو: الحجارة البيض الرقاق. والحداد: جمع حديد. والوجى: أن يشكو البعير باطن خُفّه، والفرس باطن حافره، فهو وَجٍ ووجيٌ، والأنثى: وَجياء.

محمد بن علي يصف أخاه زيد بن علي

قال عبد الرحمن بن يَحْيى بن سَعيد: حدثني رجل من بني هاشم قال: كنا عند محمد بن علي بن الحسين، وأخوه زيد جالس، فدخل رجلٌ من أهل الكوفة، فقال له محمد بن عليّ: إنك لَتَرْوي طرائفَ من نوادر الشعر، فكيف قال الأنصاري لأخيه؟ فأنشده:

لَعَمْرُكَ ما إنْ أَبو مَالِكٍ ... بِوَانٍ وَلا بِضَعيفٍ قُوَاه[١]

وَلا بِأَلَدَّ لَهُ نَازِعٌ ... يُعَادِي أَخَاه إذا ما نَهَاهُ

وَلكنَّه غَيْرُ مِخْلافَةٍ ... كَريم الطبائعِ حُلو نَثَاه[٢]

وَإنْ سُدْتَهُ سُدْتَ مِطْوَاعَةً ... وَمَهْمَا وَكَلْتَ إليه كَفَاهُ

فوضع محمد يده على كَتِفِ زيد، فقال: هذه صِفَتُك يا أخي؛ وأُعِيذُك بالله أَنْ تكون قتيل أهل العراق!

بلاغة جعفر بن الحسن بن الحسين وزيد بن علي بن الحسين

وكانت بين جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي وبين زيد رضوان الله عليهم منازعةٌ في وصيّة، فكانا إذَا تَنَازعا انْثَالَ الناسُ عليهما ليسمعُوا محاوَرَتَهُما؛ فكان الرجلُ يحفظ على صاحبه اللّفظة من كلام جعفر، ويحفظُ الآخرُ اللفظةَ من كلام زيد. فإذا انفصلا وتفرّق الناس عنهما قال هذا لصاحبه: قال في موضع كذا وكذا، وقال الآخر: قال في موضع كذا وكذا؛ فيكتبون ما قالا، ثم يتعلَّمُونه كما يتعلّم الواجب من الفَرْض، والنادرُ من الشعر، والسائرُ من المثل! وكانا أعجوبةَ دَهْرِهما وأُحْدُوثَة عصرهما.

ولما قتل زَيْداً يوسفُ بن عُمر[٣] وصلب جُثَّته بالكُنَاسة[٤] وبعثَ بِرَأسِه مع شَبَّة بن عقال، وكلّف آل أبي طالب البراءة من زيد، وقام خطباؤهم بذلك فكان أولَ مَنْ قام

(١) الواني: اسم فاعل من الوَنَى، وهو الضعف والفتور والكلال والإعياءُ.
(٢) النثا: ما يُقال عن المرء في غيابه، والمراد: أنه لا يُقال عنه غير الخير.
(٣) هو أبو عبد الله، يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي: أميرٌ، والٍ، ولّاه هشام بن عبد الملك اليمن والعراق. وقتل سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٥ م، وَفُصِلَ رأسه عن جسده، وَجُرَّ جَسَدُه في شوارع دمشق، فَتمرُّ به المرأة، فترى جسداً صغيراً فتقول: في أَيِ شيء قُتِل هذا الصبي المسكين؟ لما ترى من صِغر جثته. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ١٠١).
(٤) الكُناسة: محلة بالكوفة.

عبدُ اللّه بن الحسن بن الحسين بن علي رحمة الله عليه فأَوْجَز في كلامه ثم جَلَس، وقام عبدُ اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب فأطْنب ـ وكان شاعراً خطيباً لسِناً ناسباً ـ فانصرف الناسُ وهم يقولون: ابن الطيار مِنْ أَخْطَبِ الناس، فقيل لعبد الله بن الحسن في ذلك؛ فقال: لو شئت أن أقولَ لقلت، ولكن لم يكن مقامَ سرور، وإنما كان مقام مُصِيبة!

من كلام عبد الله بن الحسن بن الحسين

وعبدُ الله هذا هو: أبو محمد وإبراهيم الخارجَيْن على أبي جعفر المنصور، وهو القائلُ لابنِه محمد أو إبراهيم: أيْ بُنَيَّ! إني مُؤَدٍّ حقَّ اللهِ في تأديبك. فأَدِّ إليَّ حقَّ اللهِ في الاستماع مني؛ أي بنيّ! كُفَّ الأذى، وارفض البَذَى[1] واسْتَعِنْ على الكلام بطول الفِكْر في المواطن التي تَدْعُوكَ فيها نَفْسُكَ إلى الكلام، فإنّ للقول ساعاتٍ يَضُرُّ فيها الْخَطأُ، ولا يَنْفَعُ فيها الصَّوَابُ. واحذَرْ مشورةَ الجاهلِ وإنْ كان نَاصِحاً، كما تَحْذَر مشورة العاقِل إذا كان غاشّا؛ لأنه يُرْدِيكَ بِمَشُورَتِهِ؛ واعلم يا بنيّ أن رأيك إذا احتجتَ إليه وَجدتَهُ نائماً، ووجدتَ هواك يَـقْظَان، فإياك أن تستبدّ برَأْيك؛ فإنه حينئذ هَواك؛ ولا تفعَلْ فِعْلاً إلا وأَنْتَ على يقين أنَّ عاقبتَهُ لا تُرْدِيك، وأن نتيجتَهُ لا تَجْني عليك.

وهو القائل: إياك ومُعاداة الرجال فإنك لن تَعْدَمَ مَكْرَ حليم، أو مُعَاداة لئيم.

وكتب إلى صديق له: أُوصيك بتقوى الله تعالى، فإنَّ اللهَ تعالى جعل لمن اتَّقاه المخرج من حيث يَكْرَه، والرزق من حيث لا يحتسب.

وعبدُ الله هو القائل:

أُنُــسٌ حَــرائــرُ مــا هَمَمْــن بِــرَيْبَــةٍ ... كَظِبَــاءِ مَكَّــةَ صَيْــدُهُــنَّ حَــرامُ[2]

يُحْسَبْــنَ مــن لِيــنِ الحــديـثِ دَوانيــاً ... وَيَصُــدُّهــنَّ عــنِ الْخَنَــا الإِســلامُ[3]

بين عبد الملك بن مروان وعمر بن أبي ربيعة

قال: وهذا كما روي أنَّ عبد الملك بن مروان استقبل عُمَر بن عبد الله بن أبي رَبيعة المخزومي[4]، فقال له: قد عَلِمَتْ قريشٌ أنّكَ أَوَّلُها صَبْوَة، وأَبْعَدُها تَوْبة، وَيْحَك!

---

(١) البذى: مقصور البذاء، وهو فحش القول.

(٢) أُنسٌ: آنسات.

(٣) الخَنَا: الفحش.

(٤) هو أبو الخطاب، وأبو حفص، عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي: أرق شعراء =

أمَا لكَ في نساء قريش ما يَكْفِيك من نساء بني عبد مناف[١]؟ ألست القائل:

نَظَـرْتُ إليهـا بـالمحصَّـبِ مِـنْ مِنًـى ... وَلِـي نَظَـرٌ لَـوْلاَ التَّحَـرُّجُ عَـارِمُ[٢]
فَقُلْـتُ: أَصُبْـحٌ أَمْ مَصـابيـحُ رَاهِـبٍ ... بَدَتْ لَكَ خَلْفَ السَّجفِ أمْ أَنْتَ حَالِمُ[٣]
بَعيـدةُ مَهْـوَى القُـرْطِ إمَّـا لِنَـوْفَـلٍ ... أَبُـوهـا وَإمَّـا عَبْـدُ شمـسٍ وَهَـاشِـمُ[٤]

فقال: يا أمير المؤمنين، فإنّ بَعْدَ هذا:

طَلَبْـنَ الهَـوى حَتَّـى إذا مـا وَجَـدْنَـهُ ... صَـدَرْنَ وَهُـنَّ المُسْلِمـاتُ الكَـرائـمُ[٥]

فاستحيا منه عبدُ الملك، وقضى حَوائجه ووصله.

وقال آخر في هذا المعنى:

تَعَطَّلْـنَ إلاّ مِـنْ مَحـاسِـنِ أَوْجُـهٍ ... فَهُـنّ حَـوالٍ فـي الصفـاتِ عَـوَاطِـلُ[٦]
كَـوَاسٍ عَـوَارٍ صَـامتـاتٌ نَـواطـقٌ ... بِعَـفّ الكـلام بَـاخِـلاَتٌ بَـوَاذلُ[٧]
بَـرَزْنَ عَفَـافـاً وَاحْتَجَبْـنَ تَسَتُّـراً ... وَشِيـبَ بِحـقِّ القَـوْلِ مِنْهُـنَّ بَـاطِـلُ[٨]
فَـذُو الحِلْـمِ مُرْتَـادٌ وَذُو الجهـلِ طَـامعٌ ... وَهُـنَّ عَـنِ الفَحْشَـاء حِيـدٌ نَـواكِـلُ[٩]

= عصره غزلاً، وأكثرهم شهرةً. كان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقربه. وكان يُشَبِّبُ بِكُلِّ جميلة، حتى كثرت النساء في شعره، وصارت له في التشبيب طريقة حاكاها الشعراء من بعده. توفي سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١/ ٧١؛ شكري فيصل، تطور الغزل: ٣٣٧ ـ ٥٨٤؛ جبرائيل جبور، عمر بن أبي ربيعة: دراسة كاملة ـ ثلاثة أجزاء ـ).

(١) لعل الصواب: ما يَكفُّكَ عن نساء بني عبد مناف.
(٢) عارم: طامع شرس، أو جريء فوق الحدّ. والتحرّج: الشعور بالإثم.
(٣) السَّجْفُ: السِّتْر. وفي الديوان: «فقلت: أشَمْسٌ» و «تحت السَّجْفِ».
(٤) بعيدة مهوى القرط: كناية عن طول العنق.
(٥) صَدَرْنَ: رجعن. والأبيات في ديوان عمر: ٢/ ٢٢٧، وفيه «نَزَعْنَ وَهُنَّ.... الظَّوالمُ».
(٦) حوالٍ: جمع حالية «التي تزينت بالحليّ». والعواطل: جمع عاطل، وهي التي تعطلت من الحلي.
(٧) كواسٍ: جمع كاسية. والعفّ: العفيف.
(٨) شِيبَ: مُزِجَ.
(٩) حِيدٌ: جمع حيداء، وهي التي تحيد عن مواطن الشبهات والرِّيَب والتهم. والنواكل: جمع ناكلة، وهي النافرة من الفحش.

للعديل بن الفرخ

وقال العُدَيْل بن الفَرْخِ[1] فيما يتطرف طرفاً من هذا المعنى:

لَعِبَ النعيمُ بِهِنَّ في أطلالهِ ... حَتَّى لَبِسْنَ زَمانَ عَيْشٍ غافِلِ[2]

يَأْخُذنَ زِينَتَهُنَّ أَحْسَنَ ما ترى ... فإذا عَطِلْنَ فَهُنَّ غَيْرُ عَواطِلِ

وَإِذا خَبأنَ خُدودَهُنَّ أَرَيْنَني ... حَدَق المَها وأَخذْنَ نَبْلَ القاتلِ[3]

يَرْمِينَنا لا يَسْتَتِرْن بِجُنَّةٍ ... إلا الصِّبا وَعَلِمْنَ أَيْنَ مَقاتلي[4]

يَلبِسْنَ أَرْدِيةَ الشبابِ لأَهْلِها ... وَيجرّ باطِلُهُنَّ ذَيْلَ الباطِلِ

بين عَبْد الله بن الحسن ورجل تعرض له بما يكره

وتعرَّضَ لعبد الله بن الحسن رَجُلٌ بما يَكْرَهُ، فقال فيما أنشده ثعلب:

أَظَنَّت سَفاهَا مِنْ سَفاهَةِ رَأْيِها ... أَنَ أَهْجُوَها لما هَجَتْني مُحَارِبُ[5]

فَلا وَأَبِيها إِنَّني بِعَشيرتي ... وَنَفْسِيَ عَنْ ذاكَ المقامِ لَراغِبُ[6]

وأنشد هذين البيتين أبو العباس المبرّد لرجل لم يسمّه في رجلٍ يُعْرَفُ بابن البَعير، وقبلهما:

يَقولون أَبْناءَ البَعيرِ وَما لَهُمْ ... سَنَامٌ وَلا في ذِرْوَة المجدِ غَارِبُ[7]

بين السفاح وعبد الله بن الحسن

وسايَرَ عَبْدُ الله بن الحَسَن أبا العَبَّاس السفَّاح بِظَهْر مدينةِ الأنبار وهو يَنْظُر إلى بناءٍ قد بناه أبو العباس ويدور به، فأنشد عبدُ الله:

---

(١) هو العُدَيْلُ بن الفرخ بن معن بن الأسود بن ربيعة بن عجل البكري، ويلقب بالعباب: شاعر أموي مُقِلّ. أقام بالبصرة، وهجا الحجاج بن يوسف، ونادم الفرزدق. توفي نحو ١٠٠ هـ/ ٧١٨ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٢٥؛ لويس شيخو، شعراء النصرانية: ١/ ٢١٣).

(٢) الأطلال: جمع الطلل، وهو الدار، أو ما تبقّى من آثار الدار.

(٣) المها: جمع المهاة، وهي البقرة الوحشية.

(٤) الجُنَّةُ: ما يتقي به المرء السهام (الدرع).

(٥) محارب: اسم قبيلة.

(٦) رغبت عن الشيء: زهدت فيه.

(٧) الغارب: الكاهل. وذروة الشيء: أعلاه.

أَلَـم تَـرَ جَـوْشَنـاً لمـا تَبَنَّـى بِنَـاءً نَفْعُـهُ لِبَنِـي بُـقَيْلَـهْ
يُـؤَمِّـلُ أَنْ يُعَمَّـرَ عُمْـرَ نُـوحٍ وَأَمْـرُ اللهِ يَحْـدُثُ كُـلَّ لَيْلَـهْ

وكان أبو العباس له مُكْرِماً، وَلِحقِّه مُعظِّماً؛ فتبسَّم مُغضَباً، وقال: لو عَلِمْنَا لاشترطنا حقَّ المُسَايرة! فقال عبدُ اللّه: بوادِرُ الخواطر، وأغفال المسانح؛ واللهِ ما قُلْتُها عن رَوِيَّة، ولا عارَضَني فيها فكر؛ وأنْتَ أجلُّ مَنْ أَقَال، وأوْلَى مَنْ صَفَح، قال: صدقت؛ خُذْ في غير هذا.

المنصور وعبد الله بن الحسن

ولما قتل المنصورُ ابنَه محمداً ـ وكان عبدُ الله في السجن ـ بعث برأسه إليه مع الربيع حاجبِه؛ فَوُضع بين يديه، فقال: رحمك الله أبا القاسم فقد كنتَ من ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[1]! ثم تمثل:

فَتًـى كـان يَحْمِيـه مـن الـذلّ سَيْفُـهُ وَيكْفيـهِ سَـوْءَاتِ الأُمـورِ اجْتِنـابُهـا

ثم التفتَ إلى الربيع فقال له: قل لصاحبِك قد مضَى من بُؤْسنا مدة، ومن نعيمك مثلُها؛ والموعدُ الله تعالى! قال الربيع: فما رأيت المنصور قطّ أكثَر انكساراً منه حين أبلغتُه الرسالة.

أخذ العباس بن الأحنف[2] هذا المعنى؛ وقيل: عِمَارة بن عُقَيْل بن بِلاَل بن جَرير[3] فقال:

فَـإِنْ تَلْحَظِـي حَـالـي وَحَـالـكِ مَـرةً بِنَظْـرةِ عَيْـنٍ عَـنْ هَـوَى النفسِ تُحْجَبُ
تَجِـد كُـلّ يَـوْمٍ مَرّ مِـنْ بُـؤْسِ عيشتـي يَمُـرُّ بِيَـوْمٍ مِـنْ نَعيمـكِ يُحْسَـبُ

---

(١) سورة الرعد، الآيتان (٢٠ و ٢١).

(٢) وردت ترجمته في مكان سابق.

(٣) هو أبو عقيل، عمارة بن بلال بن جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي: شاعر هجّاءٌ، مقدمٌ، فصيح، وافر العلم، غزير الأدب. كان يسكن بادية البصرة، وكان النحويون يأخذون اللغة عنه. توفي سنة ٢٣٩ هـ/ ٧٩٨ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣١٦؛ ابن عبد ربّه، العقد الفريد: ٥/٣٦٨؛ المرزباني، معجم الشعراء: ٧٨).

بين المنصور وامرأة محمد بن عبد الله بن الحسن

ولما قتل المنصورُ محمدَ بن عبد الله اعترضته امرأةٌ معها صبيان، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، أنا امرأةُ محمد بن عبد الله، وهذان ابْنَاه، أيْتَمَهُما سَيْفُك، وأَضْرَعَهُمَا خَوْفُك[١]. فناشدتُك اللهَ يا أمير المؤمنين أن تُصَعِّر لهما خدَّك، أوْ ينأ عنهما رِفْدُك[٢]؛ وَلِتَعطِفْكَ عليهما شَوَابِكُ النسب، وأَوَاصِرُ الرّحِم[٣] فالتفَتَ إلى الربيع، فقال: ارْدُدْ عليهما ضياع أبيهما، ثم قال: كذا واللهِ أحبُّ أن تكونَ نساءُ بني هاشم.

بين المنصور وجعفر الصادق

وكان أهلُ المدينة لما ظهر محمد أَجْمَعُوا على حربِ المنصور، ونصر محمد؛ فلما ظفِر المنصور أحضر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الصادق، فقال له: قد رأيتَ إطباقَ أَهلِ المدينة على حَرْبي، وقد رأيتُ أن أبعثَ إليهم من يُغَوِّر عيونهم[٤]، ويجَمِّر نَخلَهم[٥]. فقال له جعفر: يا أميرَ المؤمنين؛ إنَّ سليمانَ أُعْطِيَ فشكر، وإنّ أيوبَ ابْتُلِيَ فصبرَ، وإنّ يوسف قَدَرَ فَغَفَرَ؛ فأقْتَدِ بأيِّهم شئت، وقد جعلك الله من نَسْلِ الذين يَعفُونَ ويَصْفَحُونَ، فقال أبو جعفر: إنَّ أحداً لا يُعَلِّمُنا الْحِلْمَ، ولا يُعرِّفُنَا العلم، وإنما قلتُ هَمَمْتُ، ولم ترني فعلت؛ وإنك لتعلمُ أن قدرتي عليهم تَمْنَعُنِي من الإساءةِ إليهم.

تعزية لجعفر الصادق

وعزَّى جعفرُ بن محمد رجلاً، فقال: أَعْظِمْ بنعمةٍ في مصيبة جَلَبَتْ أجراً، وأَفْظِعْ بمصيبةٍ في نعمةٍ أكسبت كُفراً.

هذا كقول الطائي[٦]:

قَـدْ يُـنْعِـمُ اللهُ بـالبَلْـوَى وإنْ عَظُمَـتْ ... وَيَبْتَلِـي اللهُ بَعْـضَ القَـوْمِ بـالنِّعَـمِ

وكان جعفرُ بنُ محمد يقولُ: إنّي لأُمْلِقُ أحياناً فأُتاجر الله بالصدقة فيُرْبِحني.

(١) أَضرعه: أَذَلَّهُ.

(٢) الرفد: العطاء.

(٣) الشوابك والأواصر: الروابط.

(٤) يُغَوِّرُ عيونهم: يطمسها، ويذهب ماءها.

(٥) جَمَّر النخلة تجميراً: قطع جمارها.

(٦) أبو تمام، الديوان: ١٤٨/٢.

من كلام جعفر الصادق

وقال جعفر رضي الله عنه: من تخلَّق بالخلق الجميل وله خُلقُ سوء أَصِيل فَتَخلُّقُه لا محالَة زائل، وهو إلى خُلُقِه الأَوَّل آيل، كَطَلْي الذهب على النحاس يَنْسَحِق وتظهر صُفْرَتُه للناس.

وهذا كقول العَرْجِيّ[١]:

يــأيهــا المُتحلِّــي غَيْــرَ شِيمَتِــه ... وَمِــنْ خَــلائِقِــه الإِقْصَــارُ وَالمَلَــقُ[٢]

إرْجعْ إلى خُلقِكَ المعروفِ وَارْضَ بِهِ ... إنَّ التَّخلُّــقَ يَــأْتِــي دُونَــهُ الخُلُــقُ[٣]

وكان يقول: ما توسَّلَ إليّ أَحدٌ بوسيلة هي أقرب إليَّ من يَدٍ سبقَتْ مني إليه أُتْبعها أخْتَهَا لتحسن رَبَّهَا وحِفْظَها[٤]؛ لأَنَّ مَنْعَ الأَواخر يقطعُ لسانَ الأوائل.

وقيل لجعفر رحمه الله: إنّ أبا جعفر المنصور لا يلبسُ مذ صارت إليه الخلافةُ إلاّ الخشن، ولا يأكلُ إلا الْجَشِب[٥]. فقال: يا وَيْحَه! مع ما مُكِّن له من السلطان، وجُبِيَ إليه من الْخَرَاج! قالوا: إنما يَفْعل ذلك بُخْلاً وجمعاً للمال. فقال: الحمد لله الذي حَرَمه من دُنْياهُ ما ترك له من دينه. انتهى.

قال: ومن دعاء جعفر رضي الله عنه: اللهم إنك بما أنت أهلٌ له من العفو أوْلى بما أنا أهْلٌ له من العقوبة.

من عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر إلى بعض إخوانه

وكان عَبْدُ اللّه [بن مُعَاوية بن عبد اللّه] بن جَعْفر[٦] عالماً، ناسِباً، وكان خطيباً مُفَوَّهاً، وشاعراً مُجيداً، وكتب إلى بعض إخوانه:

---

(١) هو أبو عمر، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، ويلقب بالعرجي، لأنه كان يسكن عرج الطائف: شاعر غزل مطبوع، ينحو في شعره ومغامراته منحى عمر بن أبي ربيعة. تغزل بـ «الجيداء» والدة محمد بن هشام الأموي والي مكة، فغضب محمد بن هشام وألقى بالعرجي في السجن إلى أن مات نحو ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٦٨٠).

(٢) الإقصار: القصور والضعف. والملقُ: إظهار الودّ ذِلَّةً وخضوعاً.

(٣) التخلق: تكلف المرء ما ليس فيه من حسن الخلق.

(٤) رَبَّ الشيء: أصلحه.

(٥) الجشب: هو الطعام القفار الذي لا إدام فيه.

(٦) هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: شاعر مجيد، ولد في خلافة =

أما بعدُ، فقد عاقَني الشكُّ في أَمْرِك عن عزيمة الرّأْي فيك، وذلك أنك ابتدَأْتَني بلُطْفٍ عن غير خِبْرَة؛ ثم أَعقَبْتَني جفاءً عن غير جَرِيرة؛ فأَطْمَعَني أوّلُك في إخائك، وأَيأَسَني آخِرُك عن وفَائِكَ؛ فلا أنا في غير الرجاءِ مجمعٌ لك اطِّراحاً، ولا أنا في غَدٍ وانتظاره منك على ثقةٍ؛ فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشكِّ في أمرك عن عزيمة الرأي فيك؛ فاجتَمَعْنَا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

وهو القائل:

رَأَيْتُ فُضَيْلا كانَ شَيْئاً مُلفّعاً ... فَكشَّفَهُ التَّمْحِيصُ حَتَّى بَدَا لِيا[1]

فَأَنْتَ أَخي ما لَمْ تَكُنْ لِيَ حَاجةٌ ... فَإنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لا أَخاليا

كِلانا غَنيٌّ عَنْ أَخيه حَياتَه ... وَنحْنُ إذا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

فَلا زَادَ ما بَيْني وَبَيْنَكَ بَعْدَمَا ... بَلَوْتُكَ في الحاجاتِ إلاَّ تَمادِيا

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلَةٌ ... كما أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدي المَسَاوِيا

والقائل أيضاً:

لَسْنَا وَإنْ أَحسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْماً على الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كما كانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

لعامر بن الطفيل

وهذا كقول عَامِر بن الطُّفَيْل[2]، قال أبو الحسن علي بن سُلَيْمان الأَخْفَش[3]: أنشدني محمد الحسن بن الحَرُون لِعامر بن الطُّفَيْل:

= معاوية بن أبي سفيان، وهو الذي سمّاه. وقد خرج عبد الله في أيام الوليد بن يزيد، وقصد إلى خراسان، وكان قد ظهر بها أبو مسلم، فأخذه أبو مسلم وحبسه عنده ثم قتله. (الجاحظ، الحيوان: ٣/ ٤٨٨).

(١) مُلَفَّعٌ: مُغَطّى. والتَّمْحِيصُ: التخليص والتنقية، وقيل: الاختبار والابتلاء. ويروى: «كان شيئاً مُلَفَّفاً»، (ابن منظور، اللسان: محص).

(٢) هو أبو علي، عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري: شاعر، فارس، فحل، مجيد. ولد ونشأ بنجد. أدرك الإسلام شيخاً، فاشترط على النبي ﷺ أن يجعل له نصف ثمار المدينة إن هو أسلم، وأن يجعله وليّ الأمر من بعده، فردّه النبي ﷺ، فعاد حانقاً. مات سنة ١١ هـ/ ٦٣٢ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٢١٥؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٣٠).

(٣) هو أبو الحسن، علي بن سليمان بن الفضل، المعروف بالأخفش الأصغر النحوي، كان عالماً، =

تَقول ابنةُ العَمْرِيِّ: ما لَكَ بَعْدَ مَا ... أَرَاكَ صَحِيحاً كَالسليم المُعذَّبِ[(١)]
فَقُلْتُ لها: هَمِّي الذي تَعْرِفينهُ ... مِنَ الثَّأْرِ في حَيَّيْ زُبَيْدٍ وَأَرْحَبِ
إنَ أَغْزُ زُبيداً أَغْزُ قَوْماً أَعِزَّةً ... مُرَكَّبُهُمْ في الحيّ خَيْرُ مُرَكَّبِ
وَإنْ أَغْزُ حَيَّيْ خَثْعمٍ فَدِمَاؤُهُمْ ... شِفَاءٌ وَخيرُ الثأْرِ للمتأَوِّبِ[(٢)]
فما أَدْرَكَ الأَوْتَارَ مِثْلَ مُحقِّقٍ ... بِأَجْرَدَ طَاوٍ كَالعَسِيبِ المُشَذَّبِ[(٣)]
وَأَسْمَرَ خَطِّيٍّ وَأَبْيَضَ بَاتِرٍ ... وَزَغْفٍ دِلاَصٍ كَالغدير المُثَوَّبِ[(٤)]
وَإنِّي وَإنْ كُنْتُ ابنَ سَيِّدِ عامرٍ ... وَفي السرِّ منها والصَّريح المُهذَّبِ
فما سَوَّدتني عَامِرٌ عَنْ وِراثةٍ ... أَبى الله أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ ولا أَبِ
وَلَكنني أَحْمي حِمَاها، وَأتقي ... أَذَاها، وَأَرمي مَنْ رَمَاها بِمنكَبِ

عبد الله بن معاوية يهنىء بإملاك

وقال أيضاً يهنِّىءُ بعضَ الهاشميين بِإِمْلاكٍ[(٥)]: زاد الله في نعمته، وبارك في فَوَاضِله، وجميل نوافِلِه؛ ونسألُ الله ـ الذي قسم لكم ما تحبُّون من السرور ـ أن يجنِّبكم ما تكرهون من المحذور، ويجعل ما أحدثه لكم زيناً، ومتاعاً حسناً، ورشداً ثابتاً، ويجعل سبيلَ ما أصبحت عليه، تماماً لصالح ما سَمَوْت إليه؛ من اجتماع الشَّمْل، وحُسْن موافقةِ الأَهْلِ؛ أَلَّفَ اللهُ ذلك بالصلاح، وتممه بالنجاح، ومَدَّ لك في ثروة العدد، وطِيب الولد، مع الزيادة في المال، وحُسْنِ السلامةِ في الحال، وقُرّة العين، وصلاح ذات البَيْن.

= ثقةً، وهو غير الأخفش الأكبر والأخفش الأوسط. وكانت بينه وبين ابن الرومي الشاعر منافسة. توفي سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٨ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٠١).

(١) السليم: الملدوغ، ويقال له ذلك تيمناً.

(٢) المتأوب: الذي يطرق ليلاً.

(٣) الأجرد: الحصان سقط شعره من الضمور. والطاوي: الضامر. والعسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها. والمُشَذَّبُ: المُقلَّمُ.

(٤) الأسمر الخَطِّي: الرمح المنسوب إلى الخط، وهي منطقة في البحرين كانت الرماح تُسْتَوْرَدُ عبرها، أو تُصنَّع فيها. والأبيض الباتر: السيف القاطع. والزغف: الدروع. والدلاص: اللينة الملساء. والغدير المُثَوَّب: النهر الممتلىء.

(٥) الإملاك: الزواج.

بين أبي عاصم الأسلمي الشاعر والحسن بن زيد

وهجا أبو عَاصم محمد بن حَمْزَة الأسلمي المَدني[١] الحَسَن بن زَيْد بن الحُسَيْن بن أبي طالب رحمة الله عليه، فقال[٢]:

لـــه حَـــقٌّ وَلَيْـــسَ عَليـــهِ حَـــقٌّ وَمهْمَـــا قـــالَ فَـــالحَســـنُ الجميـــلُ
وَقــد كــانَ الــرســولُ يَــرَى حُقــوقــاً عليـــهِ لِغَيْـــرِه وَهْـــوَ الـــرَّســـولُ

فلما ولي الحسن المدينة أتاه متنكِّراً في زي الأعراب، فقال:

سَتَــأْتــي مِــدْحَتــي الحَسَــنَ بــن زَيْــدٍ وَتَشْهَـــدُ لـــي بِصِفِّيـــنَ القُبـــورُ[٣]
قُبــورٌ لــم تَــزَلْ مُــذْ غــاب عَنْهَــا أَبـــو حَسَـــنٍ تُعَـــادِيهـــا الـــدُّهـــورُ
قُبـــورٌ لَـــوْ بِـــأَحْمَـــد أَو عَلـــيّ يَلُـــوذُ مُجِيـــرُهـــا حُمِـــيَ المُجِيـــرُ
هُمَـــا أَبـــوَاكَ مَـــنْ وَضَعَـــا فَضَعْـــهُ وَأَنْـــتَ بِـــرَفْـــعِ مَـــنْ رَفَعـــا جَـــدِيـــرُ

فقال: من أنت؟ قال: أنا الأسلمي. قال: ادْنُ حَيَّاكَ الله! وبسط له رداءَه، وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

بين الحسن بن زيد وداود بن سلم التيمي

وكان الحسن بن زيد قد عَوَّد داود بن سَلْم[٤] مولى بني تَيْم أن يصله، فلما مدح دَاودُ جَعْفَرَ بن سُلَيْمان بن علي ـ وكان بينه وبين الحسن بن زيد تباعدٌ ـ أغضبه ذلك، وقدم الحَسَن من حَجٍّ أو عُمْرَة، فدخل عليه داود بن سَلْم مهنئاً، فقال: أنتَ القائل في جَعْفَر بن سُلَيْمان بن علي:

---

(١) هو أبو عاصم، محمد بن حمزة الأسلمي، وقيل: اسمه عبد الله: شاعر مديني، منصوري، كان وثيق الصلة بالحسن بن زيد. (الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣/ ٢٦).
(٢) البيتان في «العمدة» لابن رشيق القيرواني: ٢/ ١٧٢.
(٣) صِفِّين: موضع بالقرب من الرقة، على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس. جرت فيها موقعة شديدة بين علي ومعاوية سنة ٣٧ للهجرة.
(٤) هو داود بن سلم، المعروف بالأدلم، مولى بني تيم بن مرّة بن كعب، وقيل: مولى آل أبي بكر: شاعر حجازي مجيد، رقيق الشعر، من أهل المدينة، وقد عُرِف بالأدلم لسواد لونه. ويعرف أيضاً بالآدم والأرمك. توفي نحو ١٣٢ هـ/ نحو ٧٦٠ م. (ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ٩٥).

وَكُنَّا حَديثاً قَبْلَ تَأْميرِ جَعْفَرٍ وَكانَ المُنى في جَعْفَرٍ أَنْ يُؤَمَّرا[١]
حَوَى المِنْبَرَيْنِ الطَّاهِرَيْنِ كِلَيْهِما إِذا ما خَطا عَنْ مِنْبَرٍ أَمَّ مِنْبَرا[٢]
كَأَنَّ بني حَوَّاء صَفُّوا أَمامَهُ فَخُيِّرَ في أَنْسابِهِمْ فَتَخَيَّرا

فقال داود: نعم، جعلني الله فِداك، فكنتم خيرة اختياره! وأنا القائل:

لَعَمْري لَئِنْ عاقَبْتَ أَوْ جُدْتَ مُنْعِماً بِعَفْوٍ عنِ الجاني وَإِن كانَ مُعْذِرا[٣]
لأَنْتَ بما قَدَّمْتَ أَوْلَى بِمُدْحَةٍ وَأَكْرَمَ فَخْراً إِن فَخَرْتَ وَعُنْصُرا
هُوَ الغُرَّةُ الزَّهْراءُ مِنْ فَرْعِ هاشِمٍ وَيَدْعو عَلِيًّا ذا المعالي وَجَعْفَرا[٤]
وَزَيْدَ النَّدى وَالسِّبْطَ سِبْطَ مُحمَّدٍ وَعَمَّكَ بِالطَّفِّ الزكيَّ المُطَهَّرا
وَما نالَ مِنْها جَعْفَرٌ غَيْرَ مَجْلِسٍ إِذا ما نَفاهُ العَزْلُ عَنْهُ تَأَخَّرا[٥]
بِحَقِّكُمُ نالوا ذُراها وَأَصْبَحُوا يَرَوْنَ بِهِ عِزًّا عَلَيْكُم ومَظْهَرا

فعادله الحسنُ بنُ زيد إلى ما كان عليه، ولم يزل يصله ويحسن إليه إلى أن مات.

وقوله: «وإن كان مُعْذِراً»، لأن جعفراً أعطاه على أبياته الثلاثة ألفَ دينارٍ.

بين الحسن بن زيد وابن هرمة

ولما ولي الحسن بن زيد المدينة دخل عليه إبراهيمُ بن علي بن هَرْمَة[٦]، فقال له الحسن: يا إبراهيم؛ لَسْتُ كمن باع لك دينه رجاء مدحك، أو خوف ذمك، فقد رزقني الله

(١) يُؤَمَّر: يُولَّى الإمارة.
(٢) أَمَّ: قصد.
(٣) المُعَذِّرُ: ذو العذر.
(٤) الغُرَّةُ: غُرَّةُ القوم: سيدهم. والغُرَّةُ عند العرب: أنفس شيء يُملك وأفضله، وَغُرَّةُ الرجل: وجهه، وقيل: طلعته.
(٥) العزل: لعله أراد العزل عن الولاية.
(٦) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشي: شاعر مفلق مجيد، من سكان المدينة. أدرك الدولتين الأموية والعباسية، فمدح الوليد بن يزيد الأموي، والمنصور العباسي، وانقطع إلى الطالبيين وله شعر فيهم. ويقال: هو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم. توفي سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٠؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٦/ ١٢٧).

تعالى بولادة نبيه ﷺ الممادح، وجَنَّبني المقابح، وإنَّ من حقه عليَّ ألا أُغْضِيَ على تقصير في حقٍّ وجب؛ وأنا أقسم لئن أُتيتُ بكَ سكرانَ لأضربنك حدًّا للخمر، وحدًّا للسكر؛ ولأزيدنَّ لموضع حُرمتكَ بي، فليكن تركك لها لله عز وجل تُعَنْ عليه، ولا تَدَعْهَا للناس فتوكل إليهم. فنهض ابن هرمة، وهو يقول:

نَهانـي ابـنُ الـرَّسُـولِ عـنِ المُـدامِ ... وَأَدَّبنـي بـآدابِ الكـرامِ
وَقـالَ لِـيَ اْصْطَبِـرْ عَنْهَـا وَدَعْهـا ... لِخَـوفِ الله لا خَـوْفِ الأَنـامِ
وَكَيْـفَ تَصبُّـري عَنْهَـا وَحُبِّـي ... لهـا حُـبٌّ تَمكَّـنَ فـي عِظـامـي
أَرَى طَيْـفَ الخيـالِ عَلَـيَّ خُبْثـاً ... وَطيـبَ العيـشِ فـي خُبْـثِ الحـرامِ

وكان إبراهيم منهوماً في الخمر، وجلده خَيْثَم بن عِرَاك صاحبُ شُرْطة المدينة لِرَبَاح بن عبد اللّه الحارثي في ولاية أبي العباس.

بين أبي جعفر المنصور وابن هرمة

ولما وفد على أبي جعفر المنصور ومدحه استحسن شعره ووصله، وقال له: سَلْ حاجتك، قال: تكتب لي إلى عامل المدينة ألاَّ يَحُدّني إذا أُتِيَ بِي سكران فقال أبو جعفر: هذا حدٌّ من حدود الله تعالى لا يجوز أن أعطله، قال: فاحتل لي يا أمير المؤمنين! فكتب إلى عامل المدينة: «مَنْ أتاك بابن هَرْمَة سكران فاجلده مائة، واجلد ابن هَرْمَة ثمانين».

فكان الشُّرَط يَمرُّون به مطروحاً في سِكَكِ المدينة، فيقولون: مَنْ يشتري مائة بثمانين؟!

من شعر موسى بن عبد اللّه الطالبي

وقال مُوسى بن عبد اللّه بن علي بن أبي طالب:

إذا أَنـا لـم أَقْبَـلْ مـن الـدهـر كُـلَّ مـا ... تَكـرَّهْـتُ منهُ طـالَ عَتْبِـي علـى الـدَّهـرِ
إلـى اللهِ كـلُّ الأمـرِ فـي الخلـقِ كُلِّهـم ... وَلَيْـسَ إلـى المخلـوقِ شَيءٌ مِـنَ الأمـرِ
تعـوَّدْتُ مَـسَّ الضـر حتـى أَلِفْتُـهُ ... وَأَسلمنـي طُـولُ البـلاءِ إلـى الصبـرِ
وَوسَّـع صـدري لِـلأذى الأُنْـسُ بِـالأذى ... وَإن كُنْـتُ أَحيـانـاً يَضيـقُ بـه صَـدْري
وَصيَّـرنـي يَـأْسِـي مِـن النـاسِ رَاجيـاً ... لِسُـرْعَـةِ لُطْـفِ الله مـن حَيْـثُ لا أدري

وموسى بن عبد الله هو القائل:

تَـــولّـــتْ بَهْجَـــةُ الــــدنيــــا فَكُـــلُّ جَـــدِيـــدِهـــا خَلَـــقُ[١]
وَخـــــانَ النـــــاسُ كُلُّهــــمُ فمــــا أَدري بِمَـــــنْ أَثِـــــقُ
رَأَيْــــتُ مَعـــالِــــمَ الخَيْــــرا تِ سُـــدَّتْ دُونهـــا الطُّـــرُقُ
فَـــلا حَسَـــبٌ ولا نَسَـــبٌ وَلا دِيـــــنٌ وَلا خُلُــــقُ
فَلَسْـــــتُ مُصَـــــدِّقَ الأَقـــوا مِ فـــي شـــيءٍ وَإِن صَـــدَقُــوا

بَعض أخبار موسى

وكان المنصورُ حبسَهُ لخروجِهِ عليه مع أَخَوَيْه، ثم ضربه أَلْفَ سَوْطٍ، فما نطقَ بِحرْفٍ واحد؛ فقال الربيع: عَذَرْتُ هؤلاء الفساقَ في صَبْرِهم؛ فما بَالُ هذا الفتى الذي نشأ في النعمة والدَّعة؟ فقال:

إنِّـي مـن القَـوْمِ الـذيـن يَـزِيـدُهـم جَلَــداً وَصَبْــراً قَسْــوَةُ السلطـــانِ

وولدت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زَمعة موسى، ولها ستُّونَ سنة، ولا يعلم امرأةٌ ولدت بنت ستين سنة إلا قرشيّة.

بين علي بن محمد العلوي والحسين بن إسماعيل

اجتاز علي بن محمد العَلَوي بالجسر بِحِدْثان[٢] قَتْلِ عُمَر بن يَحْيَى بن عبد الله بن الحسين، وقاتلهُ الحسينُ بن إسماعيل هناك قد جرَّد رجلاً للقتل، فلما رأت أمُّ الرجل عليا سأَلَته أنْ يشفَع فيه، فمال عليٌّ إلى الحسين فأنشده:

قَتلْــتَ أَبــرّ مَــنْ رَكِـبَ المطـايـا وَجِئتُــكَ أَسْتَلِينُــك بِــالكَــلامِ
وَعـــزَّ علـــيَّ أَنْ أَلقــاكَ إلاَّ وَفيمـــا بَيْنَنـــا حَـــدُّ الْحُسَـــامِ
وَلكـــنَّ الجنَـــاحَ إذا أُصِيبـــتْ قَـــوَادِمُـــهُ يَـــرِفُّ علـــى الإكَـــامِ[٣]

فقال له: وما حاجَتُـكَ؟ قال: العفوُ عن ابنِ هذه المرأة! فتركه.

---

(١) الخَلَقُ: البالي.
(٢) حِدْثانُ الأمر: أَوّلُه.
(٣) القوادم: مُقدّم الريش. والإكام: جمع الأكمة: التلّة.

العباس بن الحسين الهاشمي

وسُئِل العباسُ بن الحسين عن رجلٍ، فقال لجليسه: أطرب من الإبل على الْحُدَاء، ومن الثمل على الغِنَاء.

وذكر العباس رجلاً فقال: ما الْحِمام[١] على الأَحْرَار، وطول السَّقَم في الأَسْفَار، وعِظَم الدَّيْنِ على الإقتار[٢]، بأشدَّ من لقائه.

وقال العباسُ بن الحسين للمأمون: يا أمير المؤمنين؛ إن لساني يَنْطَلِق بِمَدْحِكَ غائباً، وقد أحببتُ أن يَتَزَيَّدَ عندك حاضراً، أفتأذنُ لي يا أمير المؤمنين في الكلام؟ فقال له: قل؛ فوالله إنك لتقولُ فَتُحْسِن، وَتَحْضُر فَتزيَّن، وتغيب فَتُؤْتَمَن، فقال: ما بعدَ هذا كلامٌ يا أميرَ المؤمنين! أفتأذن بالسكوت؟ قال: إذا شئت.

وذكر رجلاً بليغاً فقال: ما شَبَّهْتُ كلامَه إلا بثعبان ينهالُ بين رِمَال، وماءٍ يتغلغل بين جِبَال.

وَسَمِعَ الْمُنْتَجِع بن نَبهان كلامَ العباس بن الحسين، فقال: هذا كلامٌ يدلّ سائِره على غابِرِه[٣] وأوله على آخره.

وسأل المأمونُ العباسَ بن الحسين عن رجل؟ فقال: رَأيتُ له حِلْماً وأناة، ولم أسمع لَحْناً وَلا إحالة[٤]؛ يُحَدِّثُكَ الحديثَ على مَطَاوِيه[٥]، ويُنْشِدُكَ الشعرَ على مَدارجه[٦].

وكان المأمون يقولُ: مَنْ أراد أن يسمعَ لَهْواً بلا حَرج فليسمعْ كلامَ العباسِ. والعباسُ بنُ الحسينِ من أَشْعَرِ الهاشميين؛ وهو يُعَدّ في طبقة إبراهيم بن المَهْدي، وهو القائل:

---

(١) الحِمامُ: الموت.

(٢) الإقتار: التضييق على الإنسان في الرزق، والقَتْرُ والإقتار: ضيق العيش.

(٣) سائره: باقيه، وغابره: ماضيه.

(٤) الإحالة: التكلم بالمحال.

(٥) على مطاويه: على خفاياه.

(٦) المدارج: الثنايا الغلاظ بين الجبال، واحدتها: مَدْرَجة، وهي المواضع التي يُدْرَج فيها، أي يُمشى. ومنه: درج الشيخ والصبي، يدرج دَرْجاً وَدَرَجاناً ودريجاً: مَشَيَا مَشْياً ضعيفاً، وَدبًّا.

أَتَـاحَ لَـكَ الهـوى بِيـضٌ حِسَـانٌ ... سَبَيْنَـك بـالعيـونِ وبـالشُّعـورِ[١]
نَظَـرْتَ إلـى النحـور فَكِـدْتَ تَقْضِـي ... وَأَوْلـى لَـوْ نَظَـرْتَ إلـى الخُصـورِ[٢]

وهو القائل أيضاً:

صَـادَتْـكَ مِـنْ بَعْـضِ القُصـورِ ... بِيـضٌ نَـواعـمُ فـي الخُـدورِ
حُـورٌ تَحـورُ إلـى صِبَـا ... ك بِـأَعْيُـنٍ مِنْهُـنَّ حُـورِ[٣]
وَكَـأنمـا بِثُغـورهـنَّ ... جَنَـى الـرُّضـابِ مِـنَ الخمـورِ[٤]
يَصْبُغْـنَ تُفَّـاحَ الخُـدو ... دِ بمـاءِ رُمَّـانِ الصُّـدورِ

وهو: العباسُ بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأم عُبيد الله جَدّةُ بنتُ عبيدِ الله بن العباس بن عبد المطلب عم محمد بن علي أبي الخلفاء.

وكان الرشيدُ والمأمونُ يُقرِّبانِ العباسَ غايةَ التقريب؛ لِنَسَبِهِ وأدبه؛ قال أبو دلف: دخلتُ على الرشيد وهو في طارمة على طنفسة[٥] ومعه عليها شيخٌ جميلُ المنظر؛ فقال لي الرشيد: يا قاسم؛ ما خَبَرُ أرْضك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، خَرَابٌ يَبَاب، أَخْرَبَهَا الأكراد والأعراب. فقال قائل: هذا آفةُ الجبل، وهو أفسده، فقلت: أنا أُصْلحه، قال الرشيد: وكيف ذلك؟ قلت: أفْسَدتُهُ وأنت عليّ وأُصْلِحُه وأنتَ معي! قال الشيخُ: إن همته لَتَرْمِي به من وراء سنِّهِ مَرْمًى بعيداً؛ فسألت عن الشيخ فقيل: العباس بن الحسين، وكان أبو دُلَفَ ذلك الوقت صغيرَ السنِّ.

بين موسى بن جعفر والفضل بن الربيع

ولقي موسى بنُ جعفرٍ[٦] رضي الله عنه محمدَ بنَ الرشيدِ الأمينَ بالمدينة وموسى على

---

(١) أَتاح: هَيَّأَ. وَسَبَيْنَكَ: أَسَرْنَك.
(٢) تقضي: تهلك.
(٣) حُورٌ: بيض، والواحدة حوراء. والحَوَرُ في العين: شدة بياض بياضها مع شدّة سواد سوادها. وتحور: تميل.
(٤) الرُّضابُ: الريق.
(٥) الطارمة: بيت من خشب كالقبة. والطِّنْفِسَةُ والطُّنْفُسَةُ: النُّمْرُقَةُ فوق الرحل، وجمعها طنافس، وقيل: هي البساط الذي له خَمْلٌ رقيق.
(٦) هو أبو الحسن، موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، ووالد علي بن موسى الرضى. ولد في =

بَغْلَة، فقال للفضل بن الربيع: عَاتِبْ هذا، فقال له الفضلُ: كيف لقيتَ أمير المؤمنين على هذه الدابة التي إن طَلَبْتَ عليها لم تَسْبِق، وإن طُلبت عليها تلحق، فقال: لست أحتاجُ أن أطْلُبَ، ولا إلى أن أُطلب؛ ولكنها دابَّةٌ تنحط عن خُيَلاَء الخيلِ، وترتفع عن ذِلة العَيْر[1]، وخيرُ الأمورِ أوسطُها.

علي بن موسى الرضا

أُصِيب علي بن موسى بمصيبة، فصار إليه الحسنُ بن سهل، فقال: إنا لم نَأْتِكَ مُعَزِّين؛ بل جئنَاكَ مُقْتَدِين؛ فالحمدُ لله الذي جعل حياتكم للناس رَحْمَة، ومصائبَكم لهم قدوة.

وكان عليّ بن موسى الرضا رحمه الله قد ولاَّه المأمون عَهْدَه، وعقد له الخلافة بعده، ونزع السّواد عن بني العباس، وأمرهم بلباس الخضرة، ومات علي بن موسى في حياةِ المأمون بطُوس[2]، فشقّ [المأمونُ] قبر الرشيد ودُفِنَ فيه تبرّكاً به، وكان الرشيد قد مات بطوس فدفن هناك؛ ولذلك قال دعبل بن علي الخزاعي[3]:

أَرْبِـعْ بِطُـوسَ علـى قَبْـرِ الـزكـيِّ بهـا ... إنْ كُنْـتَ تَـرِبـعُ مـن دِيـنٍ علـى وَطـرِ[4]

ما يَنفعُ الرِّجسُ من قُرْبِ الزكي، وَلا ... على الـزكـيِّ بِقُربِ الرِّجْسِ مِنْ ضَـرَرِ

هَيْهـاتَ كـلُّ امـرىءٍ رَهْـنٌ بمـا كَسَبَـتْ ... لـهُ يـداه فَخُـذْ مِـنْ ذاكَ أَو فَـذَرِ

قَبـرانِ فـي طُـوسَ: خَيْـرُ النـاسِ كُلِّهـم ... وقَبْـرُ شَـرِّهـم، هـذا مِـن العِبَـرِ

= الأبواء ـ قرب المدينة ـ سنة ١٢٨ هـ. كان صالحاً، عابداً، جواداً، حليماً، كبير القدر. حبسه المهدي في بغداد، ثم أطلقه، ثم حبسه الرشيد، فمات في حَبْسِه سنة ١٨٣ هـ/ ٨٠٠ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٣٠٣).

(١) العَيْرُ: الحمار.

(٢) كانت وفاة علي بن موسى الرضى سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٩ م.

(٣) هو أبو علي، دعبل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي: شاعر مقدم مطبوع، من شعراء الدولة العباسية. ولد في الكوفة، ونشأ فيها يعاشر المُجّان والخلعاء، وطاف في البلاد مُتكسِّباً. وتعتبر مدائحه في آل البيت أحسن شعره. وكان مولعاً بالهجاء، هجا الخلفاء ومن دونهم، ولولا حلمهم لقتلوه. توفي سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م.
(ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٦٤؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ٩٩).

(٤) رَبَعَ: أقام. والوطر: الحاجة.

رثاء دعبل لآل البيت

وكان دِعْبل مداحاً لأهلِ البيت، كثير التعصُّب لهم، والغلوِّ فيهم. وله المرثية المشهورة، وهي من جيد شعره، وأولها:

مَدَارِس آياتٍ عَفَتْ من تِلاَوةٍ ... وَمَنزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ[١]

لآلِ رسولِ الله بالخَيْفِ من مِنًى ... وَبالبيتِ والتَّعريفِ والْجَمَرَاتِ[٢]

دِيَارُ عليٍّ والحسينِ وَجَعْفَرٍ ... وَحمزةَ والسَّجَّادِ ذِي الثَّفِنَاتِ[٣]

قِفَا نَسْأَلِ الدّارَ التي خفَّ أهلُها ... متى عَهْدُها بالصَّوْمِ والصلَوَاتِ

وَأَينَ الأُولى شَطَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوَى ... أَفانينَ في الآفاقِ مُفْتَرِقاتِ[٤]

أُحِبُّ قَصِيَّ الدارِ من أجلِ حُبِّهم ... وَأَهْجُرُ فيهم أُسْرَتي وثِقَاتِي

وهي طويلة.

بين دعبل والمأمون

ولما دخل المأمونُ بغداد أَحْضَر دِعْبِلا بعد أن أعْطَاه الأَمان، وكان قد هجاه وهجَا أباه، فقال: يا دعبل، من الحضيض الأوهد! فقال: يا أميرَ المؤمنين، قد عفوت عمن هو أشدُّ جُرْماً مني! أراد المأمون قول دعبل يهجوه:

إنِّي من القومِ الذين سُيوفُهم ... قَتَلَتْ أخَاكَ وَشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ

شَادُوا بِذكْرِكَ بعد طُولِ خُمولِه ... وَاستنقذوكَ من الْحَضِيضِ الأَوْهَدِ[٥]

يفتخِرُ عليه بقَتْلِ طاهر بن الحسين بن مُصْعَب ذي اليمينين أخاه محمداً، وطاهر مولًى

---

(١) العرصات: جمع عَرَصَة، وهي الساحة.

(٢) الجمرات: جمع الجمرة: اجتماع القبيلة الواحدة على كل من ناوأها من سائر القبائل، ومن هذا قيل لمواضع الجمار التي ترمى بمنى: جمرات، لأن كلّ مجمع حصىً منها جمرة، وهي ثلاث جمرات، وهي المقصودة بقول الشاعر.

(٣) الثفنات: جمع الثفنة، وهي من الناقة والبعير: الركبة وما مسّ الأرض من أعضاء الجسد، وقيل: هو كل ما ولي الأرض من ذي أربع إذا برك أو ربض. والمراد هنا: ما كان على جبهته وركبتيه ممَّا يشبه الثفنات من أثر السجود.

(٤) غربة النوى: بُعْدُه، والنوى: البُعْدُ أو الفِراق.

(٥) الأوهد: الأكثر انخفاضاً من الأرض، والوَهْلُ: اسم للحفرة، والجمع: أَوْهُدٌ وَوُهْدٌ وَوِهَادٌ.

لِخُزَاعة، فاستنشده هذه القصيدة التائيَّةَ، فاستعفاه، فقال: لا بأْسَ عليك، وقد رويتُها، وإنما أحببت أن أسمعَها منك، فأنشدها دِعْبل؛ فلما انتهى إلى قوله:

أَلَــم تَــرَ أَنّــي مُــذْ ثَـلاثيـنَ حِجَّـةً ... أَروحُ وَأَغْـــدُو دَائِـــمَ الحسَـــرَاتِ

أَرى فَيْئَهُـــمْ فـــي غَيْـــرِهـــم مُتَقَسِّمـــاً ... وَأَيـــدِيَهُـــمُ مِـــنْ فَيْئِهِـــم صَفِـــرَاتِ[1]

إذا وُتِـروا مَـدّوا إلـى أَهْـلِ وِتْـرِهـمْ ... أَكُفّـــا عـــنِ الأوتـــار مُنْقَبِضـــاتِ[2]

وآلُ رســـولِ الله نُحْـــفٌ جُسُـــومُهُـــم ... وَآل زِيَـــادٍ غُلَّـــظُ القَصَـــرَاتِ[3]

بَنَـاتُ زِيـادٍ فـي القصـورِ مَصُـونَـةٌ ... وَبِنْـــتُ رَسُـــولِ الله فـــي الفَلَـــوَاتِ

بكى المأمون، وجدَّد له الأمان، وأَحْسَن له الصِّلة.

لسليمان بن قتيبة يرثي آل البيت

مَــرَرْتُ علــى أَبيــاتِ آلِ مُحمَّــدِ ... فلـم أَرَ مـا عَهْـدِي بهـا يَـوْمَ حُلّـتِ[4]

فَــلا يُبْعِــد الله الــديــارَ وَأَهْلَهــا ... وَإِنْ أَصْبَحَـتْ مِـنْ أَهلهـا قـد تَخَلَّـتِ

وَكــانــوا رَجــاءً ثُــمَّ عــادوا رَزِيــةً ... أَلا عَظُمَـتْ تِلـكَ الـرزايـا وَجلَّـتِ[5]

وَإِنَّ قَتيــلَ الطَّــفِّ مــن آلِ هــاشــمٍ ... أَذَلَّ رِقــابَ المُسلميـنَ فَــذلّــتِ[6]

ويشبه قوله: «وكانوا رجاء ثم عادوا رزية» قولَ امرأةٍ من العرب مرَّت بالجسر بجثَّة جعفر بن يحيى البرمكي مَصْلوبا[7]؛ فقالت: لئن أصبحت نهايةً في البلاء، لقد كنت غايةً في الرجاء.

---

(١) صَفِرات: خاليات.

(٢) الوَتْرُ والتِّرَةُ والوَتيرةُ: الظلم في الذَّحْل، وقيل: هو الذَّحْلُ عامةً، وكلُّ من أدركته بمكروه فقد وترته. والموتور: الذي قُتِل له قتيل فلم يُدْرِك بدمه.

(٣) القصرات: جمع قَصَرَة، وهي أصل العُنق.

(٤) حُلَّت: سُكِنَت.

(٥) الرزية: المُصيبة.

(٦) الطفُّ: موضع قرب الكوفة.

(٧) هو أبو الفضل، جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك: وزير الرشيد. كان عالي القدر، بعيد الهمة، عظيم المنزلة، جواداً، فصيحاً. ولد في بغداد سنة ١٥٠ هـ/ ٧٧٦ م وقتل بموضع اسمه «العُمْر» من أعمال الأنبار سنة ١٨٧ هـ/ ٨٠٣ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٣٣٨).

ألفاظ لأهل العصر في أوصاف الأشراف

لها في هذا الموضع مَوْقِع

فلان من شَرَفِ العنصر الكريم، ومعدن الشرف الصميم. أَصلٌ راسخ، وفرعٌ شَامخ، ومَجْدٌ بَاذخ، وحَسَبٌ شَادخ[١].

فلان كريمُ الطرَفين، شريف الجانِبَين، قد ركَّبَ الله دَوْحَتَه في قرارةِ المَجْدِ، وغَرَسَ نَبْعَتُه في محلّ الفضل. أَصلٌ شريف، وعِرْق كريم، ومَغْرِس عظيم، ومَغْرز صميم. المجد لسانُ أوصافه، والشرفُ نَسَبُ أسلافه. نسبٌ فَخم، وشرفٌ ضخم. يستوفي شرفَ الأرومة[٢] بكرم الأُبوَّة والأمومة، وشرف الخؤُولة والعمومة. ما أَتَتْهُ المحاسِنُ عن كَلالة[٣]، ولا ظَفِر بالهدى عن ضلالة، بل تناول المجدَ كابراً عن كابر، وأَخذ الفَخْرَ عن أسِرّةٍ ومنابر:

شَرَفٌ تنقَّل كابراً عَنْ كابِرٍ كَالرُّمْحِ أُنْبُوباً على أُنْبُوبِ[٤]

استقى عِرْقَه من مَنْبع النبوة، ورضعت شَجَرَتُه من ثَدْي الرسالة، وتهدلَت أغصانُه عن نَبْعَةِ الإمامة، وتبحبَحَتْ أطْرافُه في عَرْصَةِ الشّرَف والسيادة[٥]، وتفقَّأَت بيضته عن سُلالةِ الطّهارة[٦]، قد جذَبَ القرآنُ بضَبْعِه[٧] وشقَّ الوَحْيُ عن بصره وسَمْعِه، مختار من أكْرَمِ المناسب، مُنتَخَب من أشْرَفِ العناصر، مُرْتَضًى من أعلى المحاتد[٨]، مُؤَثَّر من أعظمَ

---

(١) شامخ وباذخ وشادخ: مترادفات بمعنى عالٍ وسامق.

(٢) الأرومة: الأصل.

(٣) الكلالة: الرجل الذي لا ولد له ولا والد. وقيل: هو من تكلَّل نسبه بنسبك كابن العم ومن أشبهه، والعرب تقول: لم يرثه كلالةً، أي لم يرثه عن عُرُضٍ، بل عن قُرْبٍ واستحقاق، قال الفرزدق:

وَرِثْتُمْ قَناةَ المُلْكِ لا عَنْ كَلالَةٍ عنِ ابْنَي مَنَافٍ: عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمِ

(الفرزدق، الديوان: ٢/٣٠٩).

(٤) الأنبوب: القصبة.

(٥) تبحبحت: تمكنَّت. عرصة الدار: ساحتها.

(٦) تفقأت: تفتَّحت.

(٧) جذب بضبعه: نوَّه به.

(٨) المناسب: جمع منسب. والعناصر: جمع عنصر. والمحاتد: جمع محتد، وكلها بمعنى واحد، هو الأصل.

العشائر، قد وَرِث الشرفَ جامعاً عن جَامع، وشهد له نداءُ الصوامع، هو من مُضَر في سُوَيداء قَلْبها، ومن هاشم في سَوَاد طَرْفها، ومن الرسالة في مَهْبِط وَحْيِهَا، ومن الإمامةِ في موقف عِزِّها، ينزع إلى المحامدِ بنفس وعِرْق، ويَحِنُّ إلى المكارم بوراثة وخلق؛ يتناسب أصلُه وفَرْعُه، ويتناصف نَجْرُه وطَبْعُه، وهو الطِّيب أصلُه وفرْعُه، الزَّاكي بذره وزَرْعُه، يجمع إلى عزّ النّصاب، مَزِيَّةَ الآداب، لا غَرْو أن يجريَ الجوادُ على عِرْقِه، وتلوح مخايلُ الليثِ في شِبْله، ويكون النجيبُ فَرْعاً مشيداً لأصله. له مع نباهة شَرَفِه، نَزاهة سَلَفِه، ومع كرم أرومته وحَزْمه، مزيةُ أدبه وعلمه، لن تخلف ثمرة غَرْسٍ ارْتِيدَ لها من المنابت أزْكاها، ومن المغارس أطْيبها وأغذاها وأنماها؛ قد جمع شرفَ الأخلاق، إلى [شرفِ الأعراق، وكرمَ الآداب، إلى] كرم الأنساب؛ له في المجد أولٌ وآخِر، وفي الكرم تليدٌ وطَارِف[١]، وفي الفضل حديثٌ وقديمٌ؛ لا غَرْوَ أَنْ يغمر فضلُه، وهو نَجْلُ الصِّيد الأكارم، أو يغزر علمه وهو فَيْضُ البحور الخضارم[٢]. دَوْحَةٌ رسب عِرْقُها، وسَمَق فَرْعُها[٣]، وطاب عُودُها، واعتدل عمودُها، وتفيَّأَتْ ظِلالُها، وتهدَّلَتْ ثمارُها، وتفرَّعَتْ أغصانُها، وبرد مَقيلُها. مَجْدٌ يلحظ الجوْزَاء من عَال، ويطولُ النجمَ كلَّ مَطَال. شَرَفٌ تضع له الأفلاكُ خُدودَها وَجِبَاهَها، وتَلْثِمُ النجومُ أرضَه بأفواهِها وشِفَاهِها. نسبُ المجدِ به عَرِيق، وَرَوْضُ الشرفِ به أَنِيق. ولسانُ الثناء بفَضْله نَطُوق. فَلَكُ المجدِ عليه يَدُور، ويدُ العُلاَ إليه تُشِير. محلّه شاهق[٤]، ومَجْدُه بَاسِق[٥].

---

(١) الطريف: الحديث، الذي يكسبه المرء بنفسه، والتالد والتلاد: القديم الموروث عن الآباء والأجداد.

(٢) الخضارم: جمع خِضْرِم، وهو الواسع.

(٣) سمق فرعها: علا وارتفع.

(٤) الشاهق: الطويل العالي، والشاهق: الجبل المرتفع.

(٥) الباسق: المرتفع في عُلوِّه، قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (سورة ق، آية: ١٠).

بدء الكتاب

الكلام في حمد الله

قد تمَّ ما استفتحت به التأليف، وجعلته مقدمة التصنيف، مع ما اقترن به، وانْضَافَ إليه، والتفَّ به، وانْعَطَف عليه، ورأيتُ أن أبتدىء مقدّمات البلاغات بِغُرَر التحاميد وأوْصَافِها، وما يتعلَّق بأثنائِها وأطْرافِها.

وقد قال سَهْلُ بن هارون في أول كتابٍ عمله: يجب على كلّ مبتدىء مقالةً أن يبتدىءَ بحَمدِ الله قبل استفتاحها، كما بُدِىء بالنعمة قبل استحقاقها.

ولأهل العصر: أولَى ما فَغَرَ[١] به الناطقُ فمه وافتتح به كَلِمه، حَمْدُ اللَّهِ جلَّ ثناؤُه، وتقدَّست أسماؤُه. حَمْدُ الله خيرُ ما ابْتُدِىء به القول وخُتِم، وافتُتِحَ به الخطابُ وتُمِّمَ.

وقال أبو العباس عبد الله بن المُعْتَزّ بالله[٢]: إنَّ الله جلَّ ثناؤه لا يُمثَّل بنظير، ولا يُغْلَبُ بظهير[٣]، جلَّ عن موقع تحصيل أدوات البشر، ولَطُفَ عن ألحاظ خطرات الفِكَر، لا يُحْمَدُ إلا بتوفيقٍ منه يَقْتَضِي حمداً، فمتى تُحْصَى نعماؤه، وتُكَافأ آلاؤه؟ عَجَزَ أقْصَى الشكرِ عن أدَاءِ نعمته، وتضاءَل ما خلق في سعةِ قُدْرَته؛ قَدَرَ فَقَدَّر، وحكَم فأحكم؛ وجعل الدِّين جامعاً لِشَمْلِ عباده، والشرائع مَنَاراً على سبيل طاعته؛ يَتْبَعُها أهل اليقين به، ويَحِيدُ عنها أهلُ الشك فيه.

أخذ أبو العباس قولَه: «ولا يُحْمَدُ إلا بتوفيق منه يقتضي حمداً» من قول محمود بن الحَسَن الوَرَّاق[٤]:

---

(١) فَغَرَ فمه: فتحه.

(٢) هو أبو العباس، عبد اللَّه بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، ويلقب بـ «المرتضي بالله» و «المنتصف بالله»: أديب، شاعر، مطبوع، سهل اللفظ، حسن الإبداع. ولد ببغداد، وبايعه جماعة من رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب بالخلافة، فأقام يوماً وليلة، ثم وثب عليه أصحاب المقتدر وخلعوه، فاستخفى، إلى أن ظفر به المقتدر، وسلمه إلى مؤنس الخادم، فقتله، وسلَّمه إلى أهله ملفوفاً في كساء، سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٩ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٠/٩٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ١١٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٢/ ٢٢١).

(٣) الظهير: المُعين.

(٤) هو محمود بن الحسن الوراق: شاعر مكثر، وأكثر شعره في الأدب والمواعظ والحكم والأمثال. =

إذا كــان شُكْــرِي نِعْمــةَ اللَّــهِ نِعْمَــةً ... عَلَــيَّ لَــهُ فــي مِثْلِهــا يَجِــبُ الشُّكْــرُ
فَكَيْــفَ بُلُــوغُ الشُّكْــرِ إلاَّ بِفَضْلِــهِ ... وَإِنْ طــالَــتِ الأَيــامُ وَاتَّصَــلَ العُمْــرُ
إذا عَــمَّ بِــالسَّــرَّاءِ عَــمَّ سُــرورُهــا ... وَإِنْ مَــسَّ بــالضَّــرَّاءِ أَعْقَبَهــا الأَجْــرُ
فَمــا مِنْهُمــا إلا لَــهُ فيــهِ نِعْمَــةٌ ... تَضِيــقُ بهــا الأَوهــامُ والبَــرُّ والْبَحْــرُ

وإنما أخذه محمود من قول أبي العَتَاهِية(١):

أَحمــدُ الله فَهْــوَ أَلْهَمَنِــي الحَمْـ ... ـدَ علــى الحَمْــدِ والمــزيــدُ لَــدَيْــهِ
كَــمْ زَمــانٍ بَكَيْــتُ فَلَمَّــا ... صِــرْتُ فــي غيــرِهِ بَكَيْــتُ عليــهِ

وقد اضطربت الروايةُ في هذين البيتين وقائلهما، وهذا البيت الثاني كثير، قال إبراهيم بن العباس(٢):

كــذاكَ أيَّــامُنــا لا شــكَّ نَنْــدُبُهَــا ... إذا تَقَضَّــتْ ونَحْــنُ اليَــوْمَ نَشْكُــوهَــا

آخر:

ومَــا مــرَّ يَــوْمٌ أَرْتجــي فيــه راحــةً ... فَــأَفْقِــدُهُ إلاّ بَكيْــتُ علــى أمــسِ

من شعر محمود الوراق

ومحمود هو القائل أيضاً:

تَعْصِــي الإلٰــهَ وأنْــتَ تُظْهِــرُ حُبَّــهُ ... هــذا مُحَــالٌ فــي القيــاسِ بَــديــعُ
لَــوْ كــانَ حُبُّــكَ صَــادِقــاً لأَطَعْتَــهُ ... إنَّ المُحِــبَّ لِمَــنْ أَحَــبَّ مُطِيــعُ

وكان كثيراً ما ينقلُ أخبارَ الماضين، وحِكَم المتقدِّمين، فيحلِّي بها نظامَه، ويُزَيِّنُ بها كلامَه، وهو القائل:

إنِّــي وَهَبْــتُ لِظَــالِمــي ظُلْمِــي ... وَشَكَــرْتُ ذَاكَ لَــه علــى عِلْمِــي

= ولد ونشأ بالبصرة، وتوفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٢٣٦).
(١) وردت ترجمة أبي العتاهية في مكان سابق.
(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول: كاتب العراق في عصره. خراساني الأصل. نشأ وتأدب ببغداد، وقربه الخلفاء، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل. توفي سنة ٢٤٣ هـ/ ٧٥٧ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٥/ ١٤٢).

وَرأيتــهُ أَسْــدَى إلــيَّ يــداً لَمَّــا أَبــان بجَهْلِــهِ حِلْمِــي
رَجَعَــتْ إســاءتُــهُ عليــه، وَلِــي فَضْــلٌ فَعــادَ مُضــاعَــفَ الْجُــرْمِ
فَكــأَنَّمــا الإحْسَــانُ كــانَ لــهُ وَأَنــا المُسِــيءُ إليــه فــي الــزَّعْــمِ
مــا زال يَظْلِمُنِــي وَأَرْحَمُــهُ حَتَّــى رَثَيْــتُ لَــهُ مِــنَ الظُّلْــمِ

وهو القائل:

أرانــي إذا مــا ازْدَدْتُ مــالاً وَثَــرْوَةً وَخَيْراً إلى خَيْرٍ تَزيّدْتُ في الشَّرِّ
فَكَيْــفَ بِشُكْــرِ الله إنْ كُنْــت إنَّمــا أَقــومُ مقــامَ الشُّكْــرِ للَّــهِ بــالكُفْــرِ
بِــأَيِّ اعْتِــذَارٍ أَوْ بــأَيَّــةِ حُجَّــةٍ يقولُ الذي يَدْري من الأمرِ ما أَدْري
إذا كــانَ وَجْــهُ الْعُــذْرِ ليــس بِبَيِّــنٍ فــإنَّ اطِّرَاحَ العُــذْرِ خَيْــرٌ مــن العُــذْرِ

[البيان والبلاغة]

لابن المعتز في فضل البيان

ولابن المُعْتَزّ: البيان تَرْجُمَانُ القلوب، وَصَيْقَلُ العقول، وَمُجَلّي الشبهة، وموجبُ الحجة، والحاكمُ عند اختصامِ الظنون، والمفرِّقُ بين الشَّكِّ واليقين، وهو من سلطان الرُّسُل الذي انْقَاد به المُصْعَبُ[١]، واستقام الأصْيَد[٢]، وبَهُتَ الكافر، وسَلَّم الممتنع، حتى أَشِب[٣] الحقُّ بأنصاره، وخَلاَ رَبْعُ الباطلِ من عُمَّارِهِ؛ وخيرُ البيان ما كان مُصرِّحاً عن المعنى، لِيُسْرِعَ إلى الفهم تلقّيه، وموجَزاً ليخفّ على اللفظ تعاطيه.

فضل القرآن على سائر الكلام

وفَضْلُ القرآن على سائر الكلام معروفٌ غيرُ مجهول، وظاهرٌ غيرُ خفيّ؛ يشهدُ بذلك عَجْزُ المتعاطين، وَوَهنُ المتكلّفين[٤]، وتحيّرُ الكذابين، وهو المبلِّغ الذي لا يُمل، والجديد الذي لا يَخْلُق[٥]، والحق الصادع والنورُ الساطع، والماحِي لِظُلَم الضلال، ولسانُ الصِّدق

---

(١) المُصْعَبُ: الفحل الصعب القياد.
(٢) الأَصْيَدُ: المائل العنق كِبْراً.
(٣) أَشِبَ: تجمّع وقوي.
(٤) الوهن: الضعف والعجز.
(٥) لا يخلق: لا يبلى.

النافي للكذب، ونذيرٌ قدَّمَتْهُ الرحمةُ قبل الهلاك، ونَاعِي الدنيا المنقولة، وبَشِيرُ الآخرةِ المُخلَّدَة، ومِفْتاح الخير، ودليل الجنة. إنْ أَوْجز كان كافياً، وإنْ أكثر كان مُذَكِّراً، وإن أَوْمَأَ[1] كان مُقْنِعاً، وإن أطال كان مُفْهِماً، وإن أمر فناصِحاً، وإن حكم فَعادِلاً، وإن أخبر فصادقاً، وإنْ بيَّن فشافياً، سَهْلٌ على الفهم، صَعْبٌ على المتعاطي[2]، قريبُ المَأْخَذ، بعيدُ المرام، سِرَاجٌ تستضِيءُ به القلوب، حُلوٌ إذا تذوَّقَتْهُ العقول، بَحْرُ العلوم، وديوانُ الْحِكَم، وجَوْهَرُ الكلم، ونُزْهَة المتوسِّمين، ورَوْحُ قلوب المؤمنين، نزل به الرُّوحُ الأمِينُ على محمد خاتم النبيين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، فخصَمَ الباطل، وصَدَع بالحق، وتألف من النُّفرة، وأنْقَذَ من الهَلَكَة، فوصل الله له النصر، وأضرع به خَدَّ الكفر[3].

تفسير الرماني للبلاغة

قال عَلي بن عِيسى الرُّمَّاني[4]: البلاغةُ ما حُطَّ التكلفُ عنه، وبُني على التبيين، وكانت الفائدةُ أغْلَبُ عليه من القافية، بأنْ جَمَعَ مع ذلك سهولةَ المخرج، مع قُرْبِ المتناوَل؛ وعذوبةَ اللفظ، مع رشاقةِ المعنى؛ وأن يكون حُسْنُ الابتداءِ كَحُسْنِ الانتهاء، وحُسن الوَصْل، كَحُسْنِ القَطْع، في المعنى والسمع، وكانت كلُّ كلمة قد وَقعَتْ في حقِّها، وإلى جَنْب أُخْتها، حتى لا يقالَ: لو كان كذا في موضع كذا لكان أولى! وحتى لا يكونَ فيه لفظٌ مختلف، ولا معنى مُستكرَه؛ ثم أُلبسَ بَهَاءَ الحكمة، ونورَ المعرفة، وشرفَ المعنى، وجَزالةَ اللَّفظ، وكانت حَلاوتُه في الصدر وجَلالَتُه في النفس تُفتِّقُ الفهم، وتنثر دقائقَ الحكم، وكان ظاهرَ النفع، شريفَ القَصْد، معتدلَ الوَزْنِ، جميلَ المذهبِ، كريمَ المطلب، فصيحاً في معناه، بَيِّناً في فَحْوَاه؛ وكلُّ هذه الشروط قد حواها القرآن، ولذلك عَجَزَ عن مُعَارَضَتِه جميعُ الأنام.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر القرآن

القرآن حَبْلُ اللَّهِ الممدود، وعَهْدُه المعهود، وَظِلُّه العميم، وصِرَاطُه المستقيم،

(١) أَومأ: أشار.

(٢) يريد بالمتعاطي: المتكلف مجاراته.

(٣) أَضْرَعَ: أذَلَّ.

(٤) هو أبو الحسن، علي بن عيسى بن علي بن عبد اللَّه الرُّمَّاني النحوي المتكلم: أحد الأئمة المشاهير، جمع بين علم الكلام والعربية، وله تفسير القرآن الكريم. ولد ببغداد سنة ٢٩٦ هـ، وتوفي سنة ٣٨٢ هـ/ ٩٩٣ م. وأصله من (سُرَّ من رأى) (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٢٩٩).

وحُجَّتُه الكبرى، وَمحَجَّتُه الوُسْطَى، وهو الواضح سبيلُه، الراشدُ دليلُه، الذي مَنِ استضاءَ بمصابيحه أبْصَر ونَجَا، ومَنْ أعرض عنه ضَلَّ وهَوَى؛ فضائل القرآن لا تُسْتَقْصَى في ألْفِ قَرْن، حُجَّةُ الله وعَهْدُه، ووعيدُه وَوَعْدُه، به يعلمُ الجاهلُ، ويعملُ العاملُ، ويتنبَّه الساهي، ويتذكَّر اللاهي، بَشِيرُ الثواب، ونَذِيرُ العقاب، وَشِفاءُ الصدور، وجَلاَءُ الأمورِ؛ من فضائله أنه يُقْرَأُ دائماً، ويُكْتَبُ، ويُمْلىٰ، ولاَ يُمَلّ. ما أهْوَن الدنيا على مَنْ جعل القرآن [إمامه، وتصوَّر الموتَ أمامه، طُوبَى لمن جعل القرآن] مِصْبَاحَ قَلْبِه، ومفتاح لُبِّه. من حق القرآن حِفْظُ ترتيبه، وَحُسْنُ ترتيله.

قال بعض الحكماء: الحكمة مُوقِظَةٌ للقلوب من سِنَة[١] الغَفْلَةِ، وَمُنْقِذَةٌ للبصائر من سَكْرَةِ الْحيْرَة، ومُحْيِيَةٌ لها من مَوْتِ الجهالة، ومُسْتَخْرِجةٌ لها من ضيقِ الضَّلالَة؛ والعلمُ دواءٌ للقلوب العليلة، ومِشْحَذٌ للأذهان الكليلة[٢]، ونورٌ في الظلمة، وأُنْسٌ في الوَحْشَةِ، وصاحبٌ في الوَحْدَة، وسَمِيرٌ في الخَلْوَةِ، وَوَصْلَةٌ في المجلس، ومادّةٌ للعقل، وتَلْقِيحٌ للفهم، ونَافٍ للعِيّ المُزْرِي بأهْلِ الأحْسَابِ، المقصِّرِ بذوي الألباب؛ أنطق الله سبحانه أهله بالبيان الذي جعله صفةً لكلامه في تنزيله، وأيَّدَ به رُسُلَهُ إيضاحاً للمشكلات، وفَصْلاً بين الشبهات؛ شَرَّفَ به الوضيعَ، وأعزَّ به الذليلَ، وسوَّد بِهِ المَسُود. من تحلَّى بغيره فهو مُعطَّلٌ، ومن تَعَطَّل منه فهو مُغفَّل، لا تُبْلِيه الأيام، ولا تَخْتَرِمُه الدهور[٣]، يتجدّدُ على الابتذال، ويَزْكُو على الإنفاق؛ للَّهِ على ما منَّ به على عبادِهِ الحمدُ والشُّكْرُ.

[أقوال في البلاغة]

رأي عَمْرُو بن عُبَيْد في البلاغة

قيل لعمرو بن عبيد[٤]: ما البلاغة؟ قال: ما بلَّغك الجنَّة، وَعَدَلَ بكَ عنِ النار،

---

(١) السِّنَةُ: أوَّلُ النوم.

(٢) الكليلة: وصف من الكلال، وهو الإعياء (المُتْعَبَةُ).

(٣) اخترمه الدهر: اقتطعه واستأصله.

(٤) هو أبو عثمان، عمرو بن عبيد بن باب، المتكلم الزاهد المشهور، مولى بني عقيل، ثم آل عَرادة بن يربوع بن مالك. كان جَدُّه باب من سَبْي كابل من جبال السند، وكان أبوه يخلفُ أصحاب الشُّرَط بالبصرة، فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا: هذا خير الناس ابن شرّ الناس، فيقول أبوه: صدقتم. توفي بـ«قرّان» سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦٢ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٦٠).

وبصَّرَكَ مَوَاقع رُشْدِك، وعواقبَ غَيِّك. قال السائل: ليس هذا أُريد، قال: من لم يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لم يُحْسِنْ أن يَسْتَمِع، ومن لم يُحْسِنْ الاستماعَ لم يُحْسِن القولَ، قال: ليس هذا أُريد، قال: قال النبي ﷺ: «إنَّا معشرَ الأنبياء فينا بَكْءٌ» أي قِلَّةُ كلام؛ وكانوا يكرهون أَنْ يزيد منطقُ الرجل على عَقْله، قال السائل: ليس هذا أريد، قال: كانوا يخافون من فِتْنَةِ القول ومن سقَطَاتِ الكلام ما لا يخافون من فِتْنَةِ السكوت، وسقَطَاتِ الصَّمْتِ، قال: ليس هذا أُريد، قال عمرو: يا هذا؛ فكأنك تريدُ تَحْبير اللفظ[1] في حسن الإفهام، قال: نعم، قال: إنَّك إن أردتَ تقريرَ حُجَّةِ اللَّهِ عزَّ وجل في عقول المكلّفين، وتخفيف المؤونة عن المستمعين، وتَزْيين تلك المعاني في قلوب المُريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة في الأذهان، رغبةً في سُرْعَةِ إجابتهم، ونَفْيِ الشواغلِ عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ـ كنت قد أُوتيت الحكمةَ وفَصْلَ الخطاب، واستوجَبْت من الله جزيلَ الثواب، فقيل لعبد الكريم بن روح الغِفاري: مَنْ هذا الَّذِي صَبَرَ له عَمْرٌو هذا الصبر؟ قال: سألتُ عن ذلك أبا حفص الشمري، فقال: ومن يَجْتَرِىء عليه هذه الجرأةَ إلاَّ حفص بن سالم؟

من أخبار عمرو بن عبيد

وَعَمْرُو بن عُبَيْد بن بَاب هو رئيسُ المعتزلة في وَقْتِهِ، وهو أَوَّلُ من تكلّم على المخلوق، واعتزلَ مجلسَ الحَسَن البَصْرِي، وهو أول المعتزلة.

ودخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور، فقال: عِظْني، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنَّ اللَّهَ أعطاكَ الدنيا بأسْرِها، فاشْتَرِ نفسَك منه ببعضها؛ يا أميرَ المؤمنين؛ إن هذا الأمرَ لو كان باقياً لأحَدٍ قبلَك ما وصل إليك، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ! قال: فبكى المنصور حتى بَلَّ ثوبه. ثم قال: حاجتَك يا أبا عثمان! وكان المنصور لَمَّا دخل عليه طَرح عليه طَيْلَساناً، فقال: يُرْفَعُ هذا الطيلسان عني! فَرُفِعَ، فقال أبو جعفر: لا تَدَعْ إتياننا! قال: نعم، لا يَضُمُّني وإياك بلدٌ إلاّ دخلتُ إليك، ولا بَدَتْ لي حاجة إلاَّ سألتُك، ولكن لا تُعْطِني حتى أسألك، ولا تَدْعُني حتى آتيك، قال: إذاً لا تأتينا أبداً!

وقد رُوي مثل هذا لابن السمَّاك مع الرشيد.

وقوله «لو كان هذا الأمر باقياً لأحدٍ قبلَك ما وصل إليك» كقول ابن الرومي[2]:

---

(١) تحبير اللفظ: تحسينه وتزيينه.

(٢) ابن الرومي، الديوان: ١/١١٧.

لعَمْـرُكَ مـا الـدُّنيـا بِـدَارِ إقـامـةٍ إذا زالَ عـن عَيْـنِ البصيـرِ غِطـاؤُهـا
وَكيْـفَ بَقـاءُ النـاسِ فيهـا وَإِنَّمـا يُنـالُ بِـأَسْبَـابِ الفَنَـاءِ بَقـاؤُهَـا؟

ووعظ شَبِيبٌ[1] بن شبّة المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الله لم يجعل فوقك أحداً، فلا تَجْعَلْ فوق شكره شكراً.

ودخل عمرو بن عبيد[2] على المنصور وعنده المهدي فقال له: هذا ابنُ أخيك المَهْدي، وليُّ عهد المسلمين، فقال: سَمَّيْتَه اسماً لم يستحقّ حمله، ويفضى إليكَ الأمر وأنت عنه مشغول.

وكان عمرو بن عبيد يقول: اللهم أغْنِني بالافتقار إليك، ولا تُفْقِرْني بالاستغناء عنك.

وقال له المنصور: يا أبا عثمان؛ أَعِنِّي بأصْحَابك: قال: يا أميرَ المؤمنين؛ أظْهِرِ الحقَّ يَتْبَعْكَ أهلُه.

وقال عُمر الشّمري: كان عمرو بن عبيد لا يكادُ يتكلّم، وإن تكلَّم لم يَكَدْ يُطيل؛ وكان يقول: لا خيرَ في المتكلِّم إذا كان كلامُه لمن يَشْهَدهُ دونَ قائله، وإذا طال الكلامُ عرضَتْ للمتكلم أسبابُ التكلف، ولا خيرَ في شيءٍ يَأْتِيك به التكلف.

البلاغة عند أهل الهند

قال مَعْمَر بن الأشْعَث: قلت لِبَهْلَةَ الهنديِّ أيام اجتلَبَ يحيى بنُ خالدٍ أَطباءَ الهند: ما البلاغةُ عند أهلِ الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفةٌ مكتوبة، ولكنني لا أُحسِن ترجمتَها، ولم أُعالِجْ هذه الصناعَةَ، فَأَثِقَ من نفسي بالقيام بخصائصها، ولطيفِ معانيها. قال ابنُ الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها: أولُ البلاغة اجتماعُ آلة البلاغة، وذلك أن يكونَ الخطيب رابطَ الجأش[3]، ساكنَ الجوارِح، قليل اللَّحْظِ، متخيِّر اللفظ، لا

---

(١) هو أبو معمر، شبيب بن شيبة الخطيب المنقري البصري: قدم بغداد في أيام المنصور، فاتصل به، وبالمهدي من بعده، وكان كريماً عليهما، أثيراً عندهما. قال الأصمعي: كان شبيب بن شيبة رجلاً شريفاً، يفزع إليه أهل البصرة في حوائجهم. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/٤٥٨؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٩/ ٢٧٤).

(٢) توفي سنة ١٤٤ هـ/ ٧٦٣ م.

(٣) الجأش: النفس، وقيل: القلب. وجأش النفس: رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع، يقال: إنه لواهي الجأش، فإذا ثبت قيل: إنَّه لرابط الجأش، ورجل رابط الجأش: يربط نفسه عن الفرار، يكفُّها لجرأته وشجاعته.

يكلّم سيدَ الأمّة بكلام الأمة، ولا الملوكَ بكلام السُّوقة، ويكون في قُوَاهُ فَضْلُ التصرف في كل طبقة، ولا يدقّق المعاني كلَّ التدقيق، ولا يُنَقِّحُ الألفاظ كلَّ التنقيح، ولا يُصفِّيها كل التصفية، ولا يهذّبها غايةَ التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يُصادفَ حكيماً، أو فيلسوفاً عليماً، ومن قد تعوَّد حَذْفَ فُضُول الكلام، وإسقاطَ مشتركات الألفاظ؛ وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة التصفح والاعتراض[1]، ووجه التظرُّف والاستظراف.

البلاغة عند ابن المقفع

قال إسحاق بن حَسّان بن قُوهي: لم يُفَسِّر أحد البلاغة تفسيرَ عبد اللَّه بن المُقفع[2] إذ قال: البلاغةُ اسمٌ لمعانٍ في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكونُ في الاستماع، ومنها ما يكونُ في السكوت، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكونُ في الحديث، ومنها ما يكونُ في الاحتجاج، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكونُ جواباً، ومنها ما يكون سَجْعاً، ومنها ما يكون خُطَباً، ومنها ما يكون رسائلَ؛ فغايةُ هذه الأبواب الوَحْيُ فيها والإشارةُ إلى المعنى؛ والإيجازُ هو البلاغة، فأما الخطب فيما بين السِّماطين[3] وفي إصلاح ذات البين، فالإكثارُ في غير خَطَل[4]، والإطالةُ في غير إملال، ولكن لِيَكن في صَدْرِ كلامِك دليلٌ على حاجتك، كما أَنَّ خيرَ أَبياتِ الشعرِ البيتُ الذي إذا سمعتَ صَدْرَه عرفتَ قافيته كأنه يقول فرِّق بين صدر خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التَّوَاهُبَ، حتى يكونَ لكل فَنٍّ من ذلك صَدْرٌ يدل على عَجُزِه، فإنه لا خيرَ في كلامٍ لا يدلُّ على معناك، ولا يشيرُ إلى مَغْزَاك، وإلى العمود الذي إليه قَصَدْت، والغرض الذي إليه نَزَعْت.

فقيل: فإن ملَّ المستمعُ الإطالة التي ذكرت أنها أحقُّ بذلك الموضع؟ قال: إذا أَعطيتَ كلَّ مقامٍ حقَّه، وقمتَ بالذي يجب من سياسة الكلام، وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوقَ ذلك، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛ فإنهما لا يَرْضَيَان بشيء؛ فأما الجاهِلُ فلستَ منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيءٌ لا يُنَال.

---

(١) التصفح: تقليب الصفحات.

(٢) عبد اللّه بن المقفع: كاتب، شاعر. فارسي الأصل. نشأ بالبصرة، وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، وترجم له بعض الكتب. اتهم بالزندقة، فقتله أمير البصرة سفيان بن معاوية المهلبي سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٦/ ١٥٦).

(٣) السِّماطان: الصفَّان.

(٤) الخطل: السخف.

[الإطالة والإيجاز]

وقد مدحوا الإطالةَ في مكانها، كما مدحوا الإيجازَ في مكانه. قال أبو داود [ابن جرير] في خطباء إياد:

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطوالِ، وتَارةً ... وَحْيَ المَلاحظِ خِيفَةَ الرُّقباءِ[1]

قال أبو وَجْزَة السَّعْدِي[2] يصف كلام رجل:

يَكْفِي قَليلُ كَلامِهِ، وَكَثيرُهُ ... ثَبْتٌ، إذا طَالَ النِّضَالُ، مُصِيبُ[3]

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المُبرّد[4] ولم يسمِّ قائلَه، وهو مُولّد ولم ينقصه توليدُه من حظّ القديم شيئاً:

طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ الكَلا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْماً ولَمْ يَهْذُرِ[5]

فَإنْ هو أَطْنَبَ في خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلمُطِيل على المُنْزِرِ[6]

وَإنْ هُو أَوْجَزَ في خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلمُقِلِّ على المُكْثِرِ

وقال آخر يصف خطيباً:

فَإذا تَكلَّم خِلْتَهُ مُتكلّماً ... بِجَميعِ عِدَّةِ أَلْسُنِ الخُطَباءِ

فَكأَنَّ آدم كانَ عَلَّمَهُ الّذي ... قَدْ كانَ عُلِّمَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ

وكان أبو داود يقول: تلخيص المعاني رِفْقٌ، والاستعانة بالغريب عَجْزٌ، والتشدق في

---

(١) وحي الملاحظ: إشارة العيون.

(٢) هو أبو وجزة، يزيد بن عبيد، من بني سعد بن هوازن، أظآر النبي ﷺ: شاعر مجيد، وهو أول من شبَّب بعجوز. توفي بالمدينة نحو ١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥٩١).

(٣) ثبت: متثبت.

(٤) هو أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان الأزدي، المعروف بالمبرد: أديب، نحوي، لغوي، إخباري، نسابة. ولد بالبصرة، وتصدّر للاشتغال ببغداد، وتوفي فيها سنة ٢٨٥ هـ/ ٨٩٨ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣/ ٣٨٠؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١٢/ ١١٤).

(٥) الهَذْرُ: سقط الكلام، الذي لا يُعْبأ به، وقد هَذَرَ كلامه هَذَراً: كثر في الخطأ والباطل.

(٦) المُنْزِرُ: المُقِلُّ.

الإعراب نَقْصٌ، والنظرُ في عيون الناس عِيٌّ، ومسُّ اللحية هُلْكٌ، والخروجُ عما بُنِي عليه الكلام إسهاب.

وقال بعضهم يهجو رجلاً بالعي:

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وَسعْلَةٍ وَمَسْحَةِ عُثْنُونٍ وَفَتْلِ الأَصَابِعِ[١]

العتابي يصف الرجل البليغ

ووصف العَتَّابِي[٢] رجلاً بليغاً فقال: كان يُظْهِر ما غَمض من الحجَّة، ويصوِّر الباطلَ في صورةِ الحق، ويُفْهِمك الحاجةَ من غيرِ إعادة ولا استعانة. قيل له: وما الاسْتِعَانةُ؟ قال: يقول عند مقاطع كلامه يا هناة، واسْمَع، وفَهِمت! وما أشبهَ ذلك. وهذا من أَمَارَاتِ الْعَجْزِ، ودلائل الحصَرِ! وإنما ينقطعُ عليه كلامه فيحاولُ وَصْلَه بهذا، فيكون أَشَدَّ لِانْقِطَاعِهِ.

عدة الخطابة عند أبي داود

وكان أبو داود يقول: رَأسُ الخَطَابة الطَّبْع، وَعَمُودُها الدُّربة، وجَناحَاهَا رِوَاية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وَبَهاؤُهَا تَخيُّرُ اللفظ؛ والمحبةُ مقرونةٌ بقلة الاستِكْرَاه.

منزلة اللفظ من المعنى عند الجاحظ

وقال أبو عُثْمان عَمْرو بن بحر الجاحظ: قال بعض جَهابِذَةِ الألفاظ، وَنُقَّاد المعاني: المعاني القائمةُ في صدور الناس، المختلجة في نفوسهم، والمتصوَّرة في أذهانهم المتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورةٌ خفيَّة، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرفُ الإنسانُ ضميرَ صاحبه، ولا حاجَةَ أخيه وخليطِهِ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذِكْرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها.

وهذه الخصالُ هي التي تُقرّبها من الفهم، وتجلِّيها للعقل، وتجعل الخفيَّ منها ظاهراً،

---

(١) البهر: تتابع النفس وانقطاعه مع الإعياء. والعُثْنُون: اللحية.

(٢) هو أبو عمرو، كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابي: شاعر، مترسل، بليغ، مقدم في الرواية والخطابة، من أهل قنسرين. قدم بغداد، ومدح الرشيد، وانقطع إلى البرامكة. من آثاره: «الآداب»، و«الألفاظ»، و«فنون الحكم»، وغيرها. توفي سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٦٠؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٣/ ١٠٦).

والغائب شاهداً، والبعيدَ قريباً. وهي التي تلخِّص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مُقَيَّداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوَحْشِيّ مألوفاً، [والغفل موسوماً[١]، والموسوم معلوماً]؛ وعلى قَدْرِ وضوحِ الدلالة، وصواب الإشارة، وحُسْنِ الاختصار، ودقة المدْخَلِ، يكون ظهورُ المعنى. وكلما كانت الدلالَة أوضَحَ وأفصَحَ، وكانت الإشارة أَبْيَنَ وأنور، كانت أنفع وأنجع في البيان. والدلالةُ الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله يَمْدَحه، ويَدْعُو إليه، ويحثُّ عليه؛ بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.

البيان عند الجاحظ

والبيان: اسمٌ لكل شيء كَشَفَ لك عن قناع المعنى، وهَتَكَ لكَ الْحُجُبَ دون الضمير، حتى يُفْضِيَ السامعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائلُ والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأيِّ شيء بلَغْتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

الدلالات على المعاني

ثم اعْلَمْ ـ حَفِظَكَ اللَّهُ! ـ أنَّ حُكْمَ المعاني خِلافُ حكم الألفاظ؛ لأنَّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وأسماء المعاني محصورة معدودة، وَمُحَصَّلة محدودَة.

وجميعُ أَصْنَافِ الدلالات على المعاني من لفظٍ أو غيره خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللَّفظ، ثم الإشارة، ثم العُقد، ثم الخطّ، ثم الحال التي تسمى نُصبة. والنُّصْبَة هي الحالُ الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تَقْصُرُ عن تلك الدلالات.

ولكل واحدةٍ من هذه الدلائل الخمسة صورةٌ بائنةٌ[٢] من صورةِ صاحبتها، وحِلْيَةٌ مخالفةٌ أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أَعْيَان المعاني في الجملة، وعن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأَقْدَارِها، وعن خاصِّها وعامِّها، وعن طبقاتها في السارِّ والضار، وعما يكون منها لَغْواً بَهْرَجاً[٣]، وساقطاً مُطَّرَحاً.

---

(١) الغفل: الذي لا علامة له، والموسوم: ذو العلامة، من الوسم.
(٢) صورة بائنة: متميزة، يظهر فرق ما بينها وبين صاحبتها.
(٣) بهرج: رديء.

وفي نحو قول أبي عثمان «إنَّ المعاني غير مقصورةٍ ولا محصورة» يقول أبو تمّام الطائي لأبي دُلَفَ القاسِمِ بن عِيسى العِجْلِيِّ[1]:

وَلَوْ كانَ يَفْنَى الشعرُ أَفْنَتْهُ ما قَرَتْ ... حِيَاضُك مِنْهُ في العُصورِ الذَّوَاهِبِ[2]

وَلكِنَّهُ فَيْضُ العقولِ إذا انجلَتْ ... سَحائبُ منه أُعْقِبَتْ بِسَحَائبِ

كما أشار إلى قول أوْس بن حَجر الأسدي[3]:

أَقولُ بِمَا صَبَّتْ عَلَيَّ غَمَامتي ... وَجُهْدِيَ في حَبْلِ العَشيرةِ أَحْطِبُ[4]

* * *

فضل اللسان

وقال بعضُ البلغاء: في اللسان عشرُ خِصالٍ محمودة، أداةٌ يظهر بها البيان، وشاهدٌ يخبر عن الضمير، وحاكمٌ يفصل الخطاب، وواعظ يَنْهَى عن القبيح، وناطق يردُّ الجواب، وشافع تُدْرَك به الحاجة، وواصفٌ تُعْرَفُ به الأشياء، ومُعْرِب يُشْكَر به الإحسان، ومُعَزٍّ تذهب به الأَحْزان، وحامِدٌ يُذْهِبُ الضغينة وَمُونِقٌ يلهي الأسماع[5].

صلة اللفظ بالمعنى عند ابن المعتز

وقال أبو العباس بن المُعْتَز: لحظةُ القلب أسرعُ خطرةً من لحظة العين، وأبعدُ مَجَالاً، وهي الغائصة في أعماق أوْدِيَةِ الفكر، والمتأمّلة لوجوه العواقب، والجامعةِ بين ما غاب وحَضَر، والميزانُ الشاهدُ على ما نَفَع وضَرَّ، والقلبُ كالمُمْلِي للكلامَ على اللسان إذا نطق، واليد إذا كتبت، والعاقل يكسو المعاني وَشْيَ الكلام في قلبه، ثم يُبْديها بألفاظ كَوَاسٍ في أحسن زينة، والجاهلُ يستعجلُ بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين مَعَارضها، واستكمال محاسنها.

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٥١.

(٢) قَرَتْ: جمعت، من قرى الماء في الحوض إذا جمعه.

(٣) لعله أراد أوس بن حجر بن مالك التميمي، وهو من كبار شعراء الجاهلية، وفي نسبه خلاف بعد أبيه حجر. وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى. كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة. عمّر طويلاً، ولم يدرك الإسلام، وكان غزلاً مغرماً بالنساء. توفي ٢ ق. هـ/ ٦٢٠ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ١٣١).

(٤) يحطب في حبل العشيرة: أي يستعين بها كما يستعين الحاطب بالحبل. والبيت في ديوانه: ص ٧.

(٥) هذه إحدى عشرة خصلة، وليست عشراً.

البيان عند جعفر بن يحيى البرمكي

وقيل لِجَعْفَر بن يَحْيَى البَرْمَكي: ما البيان؟ قال: أن يكونَ الاسمُ يحيط بمعناك. ويَكْشِف عن مَغْزَاكَ، ويخرجه من الشركة، ولا يُسْتَعان عليه بالفكر، ويكون سليماً مِن التكلُّفِ، بعيداً من الصَّنعة، بَرِيئاً من التعقيد، غَنِيًّا عن التأويل.

سهل بن هارون يصف بلاغة جعفر بن يحيى البرمكي

وذكر سهل بن هارون[١] ـ وقيل ثُمَامة بن أشرس ـ جعفَر بن يحيى قال: قد جَمَع في كلامه وبلاغته الهَذَّ والتمهل[٢] والجزالة والحلاوةَ، وكان يُفهم إفهاماً يُغْنيه عن الإعادة للكلام. ولو كان يَسْتَغني مستغنٍ عن الإشارة بمنطقه لاستغنى عنها جعفر. كما استغنى عن الإعادة فإنه لا يتَحبَّسُ ولا يتوقَّفَ في منطِقِه ولا يَتَلَجْلَجُ[٣]، ولا يَتَسعَّل، ولا يترَقَّب لفظاً قد استدعاه من بُعْد، ولا يتلمس معنًى قد عصاه بعد طلبه له.

* * *

بشار بن برد يذكر أسباب تفوقه على أهل عصره

وقيل لبشَّار بن بُرْد[٤]: بِمَ فُقْتَ أهل عمرك، وسبقتَ أَهْلَ عصرك، في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؟ فقال: لأني لم أقبل كلَّ ما تُورِدُهُ عليَّ قريحتي، ويُنَاجيني به طَبْعِي، ويبعثه فكري، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فَسِرْتُ إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سَبْرَهَا، وانتقيت حُرَّها، وكشفتُ عن حقائقها، واحترزتُ من متكلَّفها ولا والله ما ملك قِيادى قَطُّ الإعجابُ بشيء مما آتِي به.

---

(١) هو أبو عمرو، سهل بن هارون، الفارسي، الدستمياني: أديب، كاتب، شاعر، حكيم. اتصل بخدمة المأمون العباسي، وتولى خزانة الحكمة. توفي سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م. من آثاره: «ديوان الرسائل»، و«كتاب النمر والثعلب»، و«تدبير الملك والسياسة»، وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٤/ ٢٨٦).

(٢) الهَذّ: السرعة.

(٣) اللجلجة: ثقل اللسان، ونقص الكلام، وألَّا يخرج بعضه في أثر بعض.

(٤) هو أبو معاذ، بشار بن برد العقيلي بالولاء: شاعر مشهور، قيل: إنه أشهر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان، ونشأ بالبصرة، وقدم بغداد، وحضر مجالس الخلفاء، وكان ضريراً، حسن الصوت، جيد الخطابة. اتهم بالزندقة، فقتل سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٤ م، ودفن بالبصرة. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢١؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٧/ ١١٢).

وكان بشارُ بن برد خطيباً، شاعراً، راجزاً، سجّاعاً، صاحب منثور ومزدوج، ويلقب بالمرعَّث لقوله[١]:

مَـــنْ لِظَبْـــي مُـــرعَّـــثٍ ... سَـــاحِـــرِ الطَّـــرْفِ وَالنظَـــرْ[٢]

قَـــالَ لـــي لَـــنْ تَنَـــالَنِـــي ... قُلْـــتُ أَو يَغْلِـــبَ القَـــدَرْ[٣]

وليس هذا موضع استقصاء ذكره، واختيار شعره، وسأستقبل ذلك إن شاء الله.

[وصية أبي تمام للبحتري]

وقال الوَليد بن عُبَيْد البُحْتُري: كُنْتُ في حَدَاثَتي أَرُوم الشِّعْرَ، وكنتُ أَرْجِعُ فيه إلى طَبْع، ولم أكُنْ أقِف على تَسْهيل مَأْخَذِهِ، ووجوه اقتضابه، حتى قصدتُ أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتَّكَلْتُ في تعريفه عليه؛ فكان أول ما قال لي: يا أبا عُبَادة؛ تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليلُ الهموم، صِفْرٌ من الغموم، واعلم أن العادةَ جرت في الأوقات أن يقصد الإنسانُ لتأليفِ شيءٍ أو حِفْظِه في وَقْتِ السَّحَر؛ وذلك أن النَّفْسَ قد أخذتْ حظَّها من الراحة، وقِسْطَها من النوم، وإن أردتَ التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكْثِر فيه من بيان الصَّبَابة، وتوجُّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولَوْعَة الفراق، فإذا أخذتَ في مديح سيّد ذي أيادٍ فأشْهِر مناقبَه، وأظهر مناسبه، وأبِنْ معالمه، وشرف مقامه، ونضِّد المعاني[٤]، واحذر المجهولَ منها، وإيَّاك أن تَشين شِعْرَك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خيَّاط يقطع الثيابَ على مقادير الأجساد. وإذا عارضك الضَّجَرُ فأَرِحْ نفسَك، ولا تعمل شعرك إلاّ وأنْتَ فارغُ القلبِ، واجعل شَهْوَتَكَ لقولِ الشعر الذَّريعةَ[٥] إلى حسن نظمه؛ فإن الشهوة نعم المعين. وجملةُ الحال أنْ تعتبر شعرَك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماءُ فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة.

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٥٩.

(٢) المُرعَّث: لابسُ الرُّعْثَة، وهو القرط. والطرف: العين. وفي الديوان: «قالَ لي رِيمٌ مُرعَّثٌ». والريم: الظبي.

(٣) في الديوان: «لست والله نائلي».

(٤) نضد: من التنضيد، وهو ضمُّ الشيء إلى الشيء.

(٥) الذريعة: الوسيلة.

وصف البليغ

وقالوا: البليغ مَنْ يَحُوكُ الكلامَ على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قُدُودِ المعانِي.

بعض مزايا الليل للحاتمي

ولذكر الطائي الليل، ذكر بعض أهل العصر ـ وهو أبو علي محمد بن الحسن بن المظفَّر الحَاتمي[(١)] ـ الليل فقال: فيه تَجِمُّ الأذهان[(٢)]، وتنقطع الأشغال، ويصح النظر، وتؤلّف الحكمة، وتدرّ الخواطَر، ويتّسع مَجَالُ القلب، والليل أَضْوَأُ في مذاهب الفكر، وأَخْفى لعمل البر، وأعون على صَدَقة السر، وأصح لتلاوة الذكر، ومُدَبِّرُو الأمور يختارون الليلَ على النهار، فيما لم تصف فيه الأناة لرياضة التدبيرِ وسياسة التقدير، في دَفْع الملمّ، وإمضاء المهمّ، وإنشاء الكتب، وتصحيح المعاني، وتقويم المباني، وإظهار الْحُجَج، وإيضاح المَنْهَج، وإصابة نَظْمِ الكلام، وتقريبه من الأفهام.

وقال بعض رؤساء الكتّاب: ليس الكِتَابُ في كل وقتٍ على غير نسخة لم تُحَرَّر بصواب؛ لأنه ليس أحدٌ أولى بالأناة وبالرويّة من كاتب يَعْرِض عقله، وينشرُ بلاغته؛ فينبغي له أن يعمل النسخ ويرويها، ويقبل عَفْوَ القريحة ولا يستكرهها، ويعمل على أن جميعَ الناس أعداء له، عارفون بكتابه، منتقدون عليه، متفرغون إليه.

فضل الرَّوِيَّة والأناة

وقال آخر: إنّ لابتداء الكلام فتنةً تروق، وجدةً تعجب، فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمُّل، وصَفَت النَّفس، فليعد النظر، وليكن فَرَحُه بإحسانه، مساوياً لِغمِّه بإساءته؛ فقد قالت الخوارج لعبد اللّه بن وهب الراسبي: نبايعك الساعة فقد رأينا ذلك، فقال: دَعُوا الرأي حتى يبلغ أَناته، فإنه لا خيرَ في الرأي الفَطير، والكلام القضيب[(٣)].

---

(١) هو أبو علي، محمد بنُ الحسن المُظَفَّر الكاتب اللغوي البغدادي، المعروف بالحاتمي. اتصل بسيف الدولة، ونال عنده حظوة. والتقى المتنبي ببغداد، وناظره في معاني شعره، وكان يجمع بين البلاغة في النثر، والبراعة في الشعر. توفي سنة ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م. من آثاره: «حلية المحاضرة»، و «كتاب الشراب»، و «مختصر العربية»، و «الرسالة الحاتمية»، وغيرها. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٥٦٩).

(٢) تجمُّ: تستريح.

(٣) الرأي الفطير: الذي لم ينضج. والكلام القضيب: المرتجل.

وقال مُعاوية بن أبي سفيان رحمه الله لِعَبْد اللّه بن جَعْفَر: ما عندك في كذا وكذا؟ فقال: أريد أن أَصْقُلَ عقلي بِنَوْمَة القائلة[1]، ثم أروح فأقول بعدُ ما عندي.

قال الشاعر:

إنَّ الَحديثَ تَغُرُّ القَومَ جَلْوَتُهُ حَتَّى يُغَيِّرَهُ بالوَزْنِ مِضْمارُ[2]
فَعِنْدَ ذلكَ تَسْتكفي بَلاغتهُ أو يَسْتَمِرُّ بهِ عِيٌّ وإكْثَارُ

وقالوا: كل مُجْرٍ بالْخَلاءِ يُسَرُّ[3]، وقال أبو الطيب المتنبي[4]:

وَإِذا ما خَلاَ الْجَبَانُ بأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه والنِّزالاَ

* * *

تخير ابن المقفع ما يرد عليه من الكلام

وكان قلم ابن المُقَفَّع يَقِفُ كثيراً، فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يَزْدَحِمُ في صدري، فيقف قلمي ليتخيّر.

يغتفر في المخاطبة ما لا يغتفر في المكاتبة

وقالوا: الكِتابُ يُتَصفَّح أكثر مما يتصفَّح الخطاب؛ لأنّ الكاتب متخيّر، والمخاطِبَ مضطرّ، ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أأَسْرَعْتَ فيه أم أبطأت؛ وإنما ينظر أأخطأتَ أم أَصبتَ؛ فإبطاؤك غيرُ قادح في إصابتك، كما إن إسراعَك غير مُغَطٍّ على غَلَطِك.

ما يجب في النسخ

ووصف بعضُ الكتّاب النسخ فقال: ينبغي أَن يصحَبها الفكر إلى استقرارها، ثم تُستبرأ[5] بإعادة النظر فيها بعد اختيارها، وَيُوسَّع بين سُطُورِها، ثم تُحَرَّرُ على ثقةٍ بصحتها، وَتُتأَمَّلُ بعد التحرير حَرْفاً حَرْفاً إلى آخرها.

---

(١) نومة القائلة: نومة الظهيرة.
(٢) الجلوة: الزينة.
(٣) يريد: أن الذي يجري فرسه بالخلاء يُسَرُّ بظفره، حيث لا مُناضل له ولا مُبارٍ، وهو مثل في التهكم.
(٤) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٠٠.
(٥) تُسْتَبرأ: أي تُراجع، وَيُعاد النظر فيها حتى تخلو من الأخطاء والشوائب، وَيُضاف إليها ما قد أُغفل ذكره.

فقد كتب المأمون مُصْحَفاً اجْتُمِعَ عليه؛ فكان أوله: بسم الله الرحيم، فأغفلوا الرحمن؛ لأنَّ العينَ لا تَعتبرُ ذلك؛ ثقة أنه لا يُغْلَط فيه، حتى فَطِنَ المأمون له.

وقال محمد بن عبد الملك الزيَّات للحسن بنِ وَهْب: حرِّر هذه النسخة وبكِّر بها، فَتَصبَّح الحسن[١] فقال له: لم تصبَّحت؟ قال: حتى تصَفَّحت!

وقال أحمد بن إسماعيل بَطاحَة: كان بعض العلماء الأغبياء ينظر في نسخِه بعد نفوذ كُتُبه، فقال بعض الكتاب:

مُسْتَلَبُ اللُّبِّ غَوِيُّ الشبابْ ... عَذَّبَهُ الهَجْرُ أَشَدَّ العَذابْ
يُؤَمِّلُ الصَّبْرَ وَأَنّى لَهُ ... بِهِ وقَدْ مُكِّنَ منه التَّصَابْ
كَناظِرٍ في نَسْخَةٍ يَبْتَغي ... إصلاحَها بعد نُفُوذِ الكِتَابْ

أوصاف بليغة في البلاغات

على ألسنة أقوام من أهل الصناعات

قال بعضُ من وَلَّدَ عقائل هذا المنثور، وألَّف فواصل هذه الشُّذور[٢]: تجمَّع قوم من أهل الصناعات، فوصفوا بلاغاتِهم، من طريق صناعاتهم:

فقال الجوهري: أَحسنُ الكلامِ نِظاماً ما ثقبته يَدُ الفكرة، ونظمته الفِطْنة، وَوُصِل جَوْهَرُ معانيه في سُموط[٣] أَلْفَاظه، فاحتملته نحورُ الرواة.

وقال العطَّار: أَطيبُ الكلامِ ما عُجِنَ عَنْبَرُ ألفاظه بِمِسْكِ مَعَانيه، ففاح نسيمُ نَشَقِه، وسطعت رائحة عَبَقِه، فتعلق به الرُّوَاة، وتعطَّرت به السَّراة.

وقال الصائغ: خيرُ الكلام ما أَحْمَيْتَه بِكير الفِكر[٤]، وسبَكْتَه بمشَاعِلِ النّظر، وخلَّصته من خَبَث الإطناب، فبرز بروزَ الإبريز[٥]، في معنى وَجيز.

---

(١) تَصبَّح: تأخر عن الحضور صباحاً.
(٢) الشذور: جمع شذر، وهو فتات الذهب.
(٣) السموط: جمع سمط، وهو خيط النظم.
(٤) الكِيرُ: منفخة الحداد.
(٥) الإبريز: الذهب الخالص.

وقال الصَّيْرفي[١]: خيرُ الكلام ما نَقَدَتْهُ يدُ البصيرة، وجَلَتْهُ عينُ الرويَّة، وَوَزَنَتْهُ بمِعْيَار الفصاحة، فلا نظر يُزَيّفه[٢]، ولا سماعَ يُبَهْرِجُه[٣].

وقال الحدّاد: أحسن الكلام ما نَصَبْتَ عليه مِنْفَخةَ القريحة، وَأَشْعَلْتَ عليه نارَ البصيرة، ثم أَخْرَجْتَهُ من فحم[٤] الإفحام، ورقَّقته بِفطِّيس الإفهام[٥].

وقال النجّار: خيرُ الكلام ما أَحْكَمْتَ نَجْرَ معناه بِقدُومِ التقدير، ونَشَرْتَه بمنشار التدبير، فصار باباً لبيت البيان، وعارِضةً لِسَقْفِ اللسان.

وقال النَّجَّاد: أحسنُ الكلام ما لَطُفَتْ رَفَارِف ألفاظه[٦]، وَحَسُنَتْ مَطَارِح معانيه، فَتنزَّهتْ في زَرَابيِّ محاسنه عيونُ الناظرين[٧]، وأصاختْ لِنَمارِق[٨] بَهْجَتِهِ آذان السامعين.

وقال الماتح: أبْيَن الكلام ما علقت وَذَمُ[٩] ألفاظه بكرة معانيه، ثم أرسلته في قَلِيب[١٠] الفِطَنِ فمتحت به سقاء يكشِفُ الشُّبهات، واستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات.

وقال الخيّاط: البلاغة قميص؛ فَجُرُبَّانه البيان[١١]، وجَيْبُه المعرفة، وكُمَّاه الوجازة، ودَخَارِيصه الإفهام[١٢]، ودُرُوزُه الحلاوة[١٣]، ولابسُ جَسَدُه اللفظ، وروحُه المعنى.

---

(١) الصَّيْرفي والصرَّاف والصَّيْرَفُ: النَقَّادُ الذي يبدل نقداً بنقد، والجمع: صيارفة وصياريف.
(٢) زاف الدراهم وزيفها: حكم برداءتها.
(٣) يبهرجه: يحكم بأنه بهرج، والبهرج: الباطل الرديء.
(٤) فَحَمَ فلان فَحْماً وفُحُوماً: سكت وعجز عن الجواب، وأفحم الخصم إفحاماً: أسكته بالحجة.
(٥) الفطِّيسُ: المطرقة العظيمة، أو أداة كالمطرقة لتكسير الحجارة.
(٦) الرفارف: جمع الرفرف، وهو البساط، والستر، والوسائد يتكأ عليها، قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (سورة الرحمن، آية ٧٦)، أي: على وسائد ونمارق.
(٧) الزرابي: جمع زَرْبِيَّة: الوسادة تُبْسَط للجلوس عليها.
(٨) النمارق: جمع النُّمْرُق: الوسادة الصغيرة يتكأ عليها. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (سورة الغاشية، آية ١٦).
(٩) الوذَم: السير بين آذان الدلو وعراقيها تُشَدُّ بها، وقد أَوذم السِّقَاء: شدَّه بالوذمة.
(١٠) القليب: البئر.
(١١) الجربان: الطوق.
(١٢) الدخاريص: فتحات الأزرار.
(١٣) الدروز: الأطراف الرقاق.

وقال الصبَّاغ: أحسن الكلام ما لم تَنْضَ بهجة إيجازه[١]، ولم تكشف صبغة إعجازه، قد صَقَلَتْهُ يَدُ الرويَّـةِ من كُمُود الإشكال[٢]، فَرَاعَ كواعِبَ الآداب، وألَّف عَذَارَى الألْبَاب.

وقال الحائِك: أحسنُ الكلام ما اتَّصَلت لُحمة ألفاظه بِسَدَى معانيه[٣] فخرج مُفوَّفاً مُنَيَّراً[٤]، وَمُوشَّى مُحبَّراً[٥].

وقال البزَّاز[٦]: أحسن الكلام ما صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظه، وَحَسُن نَشْرُ معانيه فلم يَستَعْجِمْ عنك نَشرٌ، ولم يَسْتَبْهِم عليك طَيّ[٧].

وقال الرَّائِضُ: خيرُ الكلام ما لم يخرج عن حَدِّ التَّخْليع[٨]، إلى منزلة التَّقْرِيب[٩] إلا بعد الرياضة، وكان كالمُهْرِ الذي أطمع أوَّلُ رياضته في تمام ثقَافته.

وقال الجمَّال: البليغُ من أخَذ بخِطام كلامه، فأناخَه في مَبْرك المعنى، ثم جعل الاختصار له عِقَالاً، والإيجاز له مَجَالاً، فلم يَنِدّ عن الآذان، ولم يَشذّ عن الأذهان.

وقال المُخنَّث: خيرُ الكلام ما تكسَّرَت أطرافُه، وتثنَّت أعطافه، وكان لفظه حُلَّة، ومعناه حِلْية.

وقال الخمَّار: أبلغُ الكلام ما طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ العلم، وصَفَّاه رَاوُوق الفَهْم، وضمَّته دِنَانُ الحكمة، فتمشَّت في المفاصل عُذوبتُه، وفي الأفكار رِقَّته، وفي العقول حِدّته.

---

(١) لم تنض: لم تُمْحَ.

(٢) كمد القصَّار الثوب كَمْداً وَكُمُوداً: دَقَّهُ، فهو كَمَّادٌ، وَكَمِدَ الثوبُ: أخلق وتغيَّر لونه.

(٣) اللحمة والسدى: ما يُسدى به الثوب ويلحم.

(٤) ثوب مُفوَّف: رقيقٌ مُوشَّى مُخطَّطٌ. وثوب مُنَيَّر: نُسِجَ على نيرين، والنير: هدب الثوب، ورقمه، ورسمه، ولحمته، والخيوط مع القصب وهي ملفوفة عليه.

(٥) وَشَّى فلان الثوب وَشْياً وَشِيةً: نَمْنَمَهُ وَنَقَشَهُ وحَسَّنَهُ. وثوب مُحبَّر: مُزَيَّن، وقد حبر البُرْدَ حَبْراً: وَشَّاهُ وَزَيَّنَهُ.

(٦) البَزَّازُ: بائع البَزّ: الثياب.

(٧) الطيُّ «اللف» والنشر: هما أن تَلُفَّ بين شيئين في الذكر، ثم تتبعهما كلاماً مشتملاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقةً بأن السامع يردّ كُلاًّ منهما إلى ما هو له. (السكاكي، مفتاح العلوم: ٤٢٥؛ ابن حجة الحموي، خزانة الأدب: ٦٦).

(٨) التخليع: هزُّ المنكبين في المَشْي.

(٩) التقريب: ضرب من العدو، وهو أن يرفع الجواد يديه معاً ويضعهما معاً.

وقال الفُقَّاعي[1]: خيرُ الكلام ما رَوَّحَتْ ألفاظُه غَبَاوَةَ الشكّ، ورفع رِقَّته فظاظةَ الجهل، فطاب حِسَاءُ فطنته، وَعَذُبَ مَصّ جُرَعِهِ.

وقال الطبيب: خيرُ الكلام ما إذا باشر [دواءُ] بيانه سَقَمَ الشُّبهة استطلقت طبيعةُ الغباوة؛ فَشُفِي من سوء التفهم، وأورث صحة التوهّم.

وقال الكحَّال[2]: كما أن الرَّمَدَ قَذَى الأبصارِ، فكذا الشبهة قَذَى البصائر، فاكْحَلْ عَيْنَ اللكنة بِمِيلِ البلاغة، واجْلُ رَمَصَ الغَفْلة[3] بِمِرْوَدِ اليقظة[4].

ثم قال: أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما إذا أشرقت شمْسُه، انكشف لَبْسُه، وإذا صدقت أنواؤه[5] اخضرت أحماؤه[6].

فِقرٌ في وصف البلاغة لغير واحد

قال أعرابي: البلاغةُ التقرب من البعيد، والتباعد من الكُلْفَة، والدلالة بقليل على كثير.

قال عَبْدُ الحَميد بن يَحْيَى: البلاغةُ تقريرُ المعنى في الأفهام، من أَقْرَب وجوه الكلام.

ابن المعتز: البلاغةُ البلوغ إلى المعنى ولم يطل سَفَر الكلام.

سَهْلُ بن هَارون: البيان ترجمان العقول، ورَوْض القلوب، وقال: العقل رائدُ الروح، والعلم رائدُ العقل، والبيان تَرجمان العلم.

---

(١) الفُقَّاعي: الذي يبيع الفُقّاع، وهو شراب يتخذ من الشعير، يُخمّر حتى تعلوه فُقّاعاته، قال ابن مليك الحموي (ت ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م)، وكان فُقَّاعياً:

لَمْ أَجْعَلِ الفُقَّاعَ لي حِرْفَةً ... إلاَّ لِمَعْنَى حُسْنِكَ الشَّاهِدِ
أُقَابِلُ الوَاشِي بِالحَدِّ وَالـ ... ـعَاذِلَ أَسْقِيهِ مِنَ البَارِدِ

(بدر الدين الغزي، الكواكب السائرة: ١/ ٢٦١).

(٢) الكَحَّالُ: الذي يحترف الكحالة، وهي صناعة تُعْنَى بصيانة العين من الأمراض، ومداواتها بالكحل والجراحة.

(٣) الرَّمَصُ: وسخ أبيض يجتمع في موق العين.

(٤) المِرْوَدُ: الميل من الزجاج أو المعدن، يُكْتَحل به، الجمع: مَرَاوِدٌ وَمَرَاوِيدٌ.

(٥) الأنواء: جمع نَوْء، وهو النجم المائل إلى الغروب، والمراد به هنا: المطر.

(٦) الأحماء: جمع حِمًى، وهو المكان يحميه الرجل ويمنعه.

إبراهيم بن الإمام: يكفي من البلاغة ألا يُؤْتَى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يُؤْتَى الناطق من سوء فهم السامع.

العتَّابي: البلاغة مدُّ الكلام بمعانيه إذا قَصر، وحُسن التأليف إذا طال.

أعرابي: البلاغة إيجاز في غير عَجْز، وإطناب في غير خَطَل.

[وكتب إبراهيم بن المهدي إلى كاتب له ورآه يتبع وَحْشِيَّ الكلام: إياك وتتبع الوحشي طمعاً في نَيْلِ البلاغة؛ فإن ذلك العِيُّ الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل.

وقال الصُّولي: وصف يحيى بن خالد رَجُلاً فقال: أخذ بزمام الكلام، فقاده أسهل مَقَاد، وساقه أجمل مَسَاق؛ فاسترجع به القلوبَ النافرة، واستصرف به الأبصار الطامحة.

وسمع أعرابي كلامَ الحسن البصري رحمه الله، فقال: والله إنه لفصيح إذا نطق، ونصيح إذا وَعَظ.

قال الجاحظ: ينبغي للكاتب أن يكون رقيقَ حَوَاشي الكلام، عَذْبَ ينابيع اللسان؛ إذا حاور سدَّد سهمَ الصواب إلى غرض المعنى، لا يكلم الخاصة بكلام العامة، ولا العامة بكلام الخاصة.

وقال أبو العباس المُبرّد: قال الحسن بن سهل لسالم الحراري: ما المنزلة التي إذا نزل بها الكاتب كان كاتباً في قوله وفعله واستحقاقه؟ قال: أن يكون مطبوعاً على المعرفة، مُحْتَنَكاً بالتجربة، عارفاً بحلال الكتاب وحرامه، وبالدهور في تصرفها وأحكامها، وبالملوك في سِيَرِها وأيامها، وأجناس الخط، وبادية الأقلام، مع تشاكل اللفظ وقرب المأخذ. قال الحسن: فليس في الدنيا إذاً كاتب].

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسنُ الاقتضاب عند البَدَاهة، والغزارة يومَ الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحُسْن الإشارة.

وقيل للفارسي: ما البَلاَغَة؟ قال: مَعْرِفَة الفَصْل من الوصل.

وقال علي بن عيسى الرُّمَّاني: البلاغةُ إيصال المعنى إلى القَلْبِ في أحسن صورةٍ من اللفظ.

ومن كلام أهل العصر، في صفة البلاغة والبلغاء

[قال علي بن عِيسَى الرماني]: أبلغ الكلام ما حَسُنَ إيجازه، وقل مَجَازه، وكثر إعجازه، وتناسبَتْ صُدورُه وأعجازُهُ.

أبلغُ الكلام ما يُؤنِس مُسْمِعَه، وَيُوئسُ مضيّعه.

البليغ من يجتني من الألفاظ أنوارَها[١]، ومن المعاني ثمارها.

ليست البلاغةُ أن يُطال عِنَانُ القلمِ أو سِنَانه، أو يُبْسَط رِهان القول ومَيْدَانه، بل هي أنْ يبلغ أَمد المراد بألفاظ أَعْيان، ومعان أَفْراد، من حيث لا تَزَيُّدٌ على الحاجة، ولا إخْلاَلٌ يُفْضِي إلى الفاقة.

البلاغة ميدانٌ لا يُقْطَع إلا بسوابق الأذهان، ولا يُسْلَك إلا ببصائر البيان.

فلان يعبث بالكلام، ويقوده بأَلين زمام، حتى كأنَّ الألفاظَ تَتَحَاسدُ في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتغايَرُ في الانْثِيَال على أنامِله.

هذا كقول أبي تمام الطائي[٢]:

تَغَــايَــرَ الشِّعْــرُ فيــه إذ سَهِــرْتُ لَــهُ ... حَتَّــى ظَنَنْــتُ قَــوافيــهِ سَتَقْتَتِــلُ[٣]

فلان مَشْرَفيُّ المشرق، وصَيْرَفيّ المنطق. البيانُ أَصغر صفاته، والبلاغةُ عَفْوُ خطراته. كأنما أَوحى بالتوفيق إلى صَدْرِه، وحسن الصواب بين طَبْعِه وفكره.

فلان يحزّ مَفَاصِل الكلام، ويسبق فيها إلى دَرك المرام، كأنما جمع الكلام حولَه حتى انتقى منه وانتخَب، وتناول منه ما طَلَب، وترك بعد ذلك أَذْناباً لا رؤوساً، وأَجْساداً لا نفوساً.

فلان يَرْضَى بِعَفْو الطَّبْع، ويقنع بما خفَّ على السمع، ويُوجِز فلا يُخِلُّ، ويُطْنِب فلا يُمِلّ، لله فلان أخذ بأزمَّة القول يقودُها كيف أراد، ويَجْذِبُها أَنَّى شاءَ، فلا تعصيه بين الصَّعب والذَّلُول، ولا تسلمه عند الْحُزونة والسّهول، كلامُه يشتدّ مرَّة حتى تقول الصَّخْر الأملس،

(١) الأنوارُ: جمع نَوْر، وهو الزهر، أو الأبيض منه.
(٢) أبو تمام، الديوان: ٢/٧. والبيت من قصيدة طويلة يمدح بها المعتصم بالله العباسي.
(٣) يقول: إن القوافي لكثرة تواردها عليّ، وحرصها على أن تُحبَّر في شعر مدحه، تغايرت، أي أغارت كل واحدة منها على الأخرى، حتى ظننت أنها ستقتتل.

ويَلين تارةً حتى تقولَ الماء أو أَسْلَس، يقول فَيَصُول، ويُجيب فَيُصِيب، ويَكْتُبُ فيطبّقُ المَفْصِل، أو يُنَسّق الدرَّ المُفَصَّلَ، ويَرِدُ مشارِعَ الكلام وهي صَافِيَة لم تُطْرَق، وجَامّة لم تُرَنَّقْ[1]، خاطِرُهُ البَرْقُ أو أَسْرَعُ لمعاً، والسَّيْفُ أو أَحَدُّ قَطْعاً، والماءُ أو أَسْلَس جَرْياً، والفلك أو أَقْوَم هَدْياً؛ هو ممن يسهلُ الكلام على لفظه، وتتزاحَمُ المعاني على طَبْعِه، فيتناول المَرْمَى البعيدَ بقريب سَعْيه، ويَستَنْبِطُ المَشْرَعَ العميق بيسيرِ جَرْيِه، لسانُه يَفلِقُ الصُّخُور، ويغيض البحور، ويُسْمِعُ الصُّم، ويستنزل العُصْمَ[2]، خطيبٌ لا تنالُه حُبْسَةٌ، ولا ترتهنه لُكْنَة، ولا تتمشّى في خطابه رتة، ولا تتحيَّف بيانه عُجْمَة، ولا تعترض لسانه عُقْدَة.

فلان رقيق الأَسَلَة، عذب العذَبَة[3] لو وُضِع لسانُه على الشعر حَلَقه، أَوْ على الصَّخْر فَلَقه، أو على [الجمر أحرقه، أو على] الصَّفَا خرقه[4]؛ قد أحسن السّفارة، واستوفى العبارة، وأَدّى الألفاظ، واستغرق الأغراض، وأصاب شواكِلَ المراد[5]، وطبّق مَفَاصِلَ السَّداد، وبسط لسانَ الخطاب، ومدَّ أَطناب الإطناب[6]، وقلب الأَمَدَ في الإسهاب، قالَ حتى قال الكلامُ: لو أُعفيت! وكتَب حتى قالت الأقلامُ: قد أحفيت، قد اتَّسع له مَشْرَعُ الإطناب، وانفرجَ له مَسْلَكُ الإسهاب، أرسل لسانَه في مَيْدَانِه، وأرخى له من عنانه، قال وأَطال، وجَالَ في بَسْطِ الكلام كلَّ مَجال، إذا اسْحَنْفَر في الكلام طَفَح آذِيُّه[7]، وسَال

(١) المَشَارِعُ: جمع مَشْرَعَة، وهي مورد الماء الذي يُسْتَقى منه بلا رِشاء. و«جَامَّةٌ لم تُرَنَّق»: ساكنة لم تُعكَّر.

(٢) العُصْمُ: جمع أعصم، وهو الوعل (تيس الجبل) يعتصم بالجبال.

(٣) الأَسَلَةُ: طرف كل شيء مُسْتَدِق، والمراد هنا: طرف اللسان. والعذبة: طرف الشيء، يقال: عَذَبَةُ السوط، وعذبة العمامة، والمراد هنا: طرف اللسان.

(٤) الصَّفَا: جمع الصفاة، وهي الحجر العريض الأملس، ويقال: فلان لا تُقْرَعُ له صفاة: لا يناله أحد بسوء.

(٥) الشواكل: جمع شاكلة، وهي ما بين الأذن والصدغ.

(٦) الأَطناب: جمع طُنُب، وهو الحبل يُشَدُّ به الخباء والسرادق ونحوهما، ومنه أطناب الشمس: أشعتها التي تمتد كأنها القُضُب. والإطنابُ (في علم المعاني): أن يزيد اللفظ على المعنى لفائدة، وهو يقابل الإيجاز، وتتوسطهما المساواة.

(٧) اسحنفر: مضى مسرعاً، قال الأخطل (ت ٩٢ هـ/ ٧١٨ م):

مُسْحَنْفِرٌ مِنْ بِلادِ الرُّوم يَنْتُرُهُ ... مِنْهـا أَكـافِيـفُ فِيهـا دُونَـهُ زَوَرُ

مُسْحَنْفِرٌ: آتٍ بسرعة. والآذيُّ: الموج.

أتِيُّه[١]، وانثال عليه الكلام كانثِيَال الغمام، واستجاب له الخِطاب كصَوْب الرَّباب[٢]. ألفاظٌ كغمزات الألْحَاظ، ومَعَانٍ كأنها فكُّ عَانٍ[٣]! ألفاظ كما نوّرت الأشجار، ومَعَانٍ كما تنفَّست الأَسْحَار، ألفاظ قد استعارت حلاوةَ العِتَابِ بين الأحباب، واستلانَتْ كتشكِّي المشّاق يوم الفراق. كلامٌ قريب شَاسِع[٤] ومُطمع مَانِع، كالشمس تَقْرب ضياءً، وتبعد علاءً؛ أو كالماء يَرْخُص موجوداً، ويغلو مفقوداً. كلامٌ لا تمجُّه الآذان، ولا تُبلِيه الأزمان، كالبُشْرَى مسموعة، أو أزاهير الرياض مجموعة، ومعان كأَنْفَاس الرياح، تَعْبَقُ بالرَّيْحَان والراح.

كلامٌ سَهْلٌ متسلسل، كالمدام بماء الغمام، يقرب إذنه على الأفهام.

كلام كَبَرْد الشَّراب على الأكباد الحِرَار، وبُرْد الشباب في خلع العِذار.

كلام كثيرُ العيونِ، سَلِسُ المتون، رقيقُ الحواشي، سَهْلُ النواحي.

كلامٌ هو السِّحْرُ الحلالُ، والماء الزُّلال، والبُرُود والحِبَر، والأمثال والعِبَر، والنعيم الحاضر، والشباب النَّاضِر.

نظرت منه إلى صورةِ الظَّرف بَحْتاً، وصورة البلاغة سَبْكاً ونحتاً، ألفاظ هي خُدَعُ الدهر، وعُقَدُ السحر.

كلامٌ يسرُّ المحزون، ويُسَهِّل الْحُزون[٥]، ويعطل الدرّ المخزون. كلامٌ بعيد من الكُلَف، نقِيٌّ من الكَلَف[٦].

كلام كما تنفس السَّحَر عن نسيمه، وتبسم الدرُّ عن نظيمه. ألفاظ تأنَّقَ الخاطر في تَذْهِيبها، ومعَانٍ عُنِي الفهمُ بتهذيبها. ألفاظ حسبتها من رِقَّتها منسوخة في صحيفة الصّبَا، وظننتها من سلالتها مكتوبةً في نَحْر الهوى.

كلامٌ كالبُشْرى بالولد الكريم، قُرِعَ به سَمْعُ الشيخ العقيم.

---

(١) الأَتِيُّ: السيل.
(٢) الرباب: السحاب.
(٣) العاني: الأسير.
(٤) الشاسع: البعيد.
(٥) الحُزُون: جمع حَزَن، وهو ما غَلُظَ من الأرض.
(٦) الكَلَفُ: نَمَشٌ في الوجه.

كلام قَرُبَ حتى أَطْمع، وبَعُد حتى امتنعَ، وَقَرُبَ حتى صار قابَ قَوْسَيْن أو أدنى، ثم [سما و] علا حتى صار بالمنزل الأعْلى. رقيق المزاج، حُلْو السماع، نقيُّ السَّبْك، مقبول اللَّفْظ. قرأت لفظاً جليًّا، حَوى معنًى خفيّاً، وكلاماً قريباً، رَمَى غرضاً بعيداً. لو أنَّ كلاماً أُذِيبَ به صَخْر، أو أُطْفِىءَ به جَمْر، أو عُوفي به مريض، أو جُبِر به مَهيض[١] لكان كلامَه الذي يقودُ سامعيه إلى السجود، ويجري في القلوب كجَرْيِ الماء في العُود. ألفاظُه أنوار، ومعانيه ثمار. كلامُه أنسُ المقيم الحاضر، وزادُ الراحل المسافر. كلامُه يُصْغِي إليه المقبور، وَيَنْتَفِضُ له العُصفور. كلامٌ يقضي حقَّ البيان، ويملك رِقّ الحُسْنِ والإحسان، كلامٌ منه يجتنى الدُّر، وبه يُعقَدُ السِّحْر، وعنده يُعْتِب الدهر[٢]، وله يَنْشَرِحُ الصدر.

ومن ألفاظهم في وصف النظم والنثر والشعر والشعراء

نَثْر كنثر الورد، نَظْمٌ كنظم العِقد. نثر كالسِّحر أو أَدَقُّ، ونظمٌ كالماء أو أَرَقُّ. رسالة كالرَّوْضَة الأنيقة، وقصيدة كالمخدَّرة[٣] الرشيقة. رسالة تَقْطُرُ ظَرْفاً، وقصيدة تمزجُ بماء الرَّاح لطفاً. نثره سِحْرُ البيان، ونَظْمه قِطَعُ الْجُمَان. نَثْرٌ كما تفتَّح الزهر، ونظم كما تنفَّس السَّحَر. نَثْرٌ ترقُّ نواحيه وحَوَاشِيه، ونَظْمٌ تروقُ ألفاظه ومعانيه. نَثْرٌ كالحديقة تفتَّحت أَحْدَاق وَرْدِها، ونظم كالْخَرِيدة[٤] تورَّدَتْ أسرارُ خَدِّها. رسالة تَضْحَك عن غُرَر وزَهَر، وقصيدة تنطوي على حِبَر ودُرَر. لم تَرْضَ في بِرِّك، بأخوات النَّثْرَة من نَثْرك[٥]، حتى وصلتها ببنات الشِّعرى من شِعْرك[٦]. كلام كما هبَّ نَسيمُ السحر، على صفحات الزَّهر، ولذَّ طعمُ الكرَى بعد بَرْحِ السَّهر[٧]. وشِعْرٌ في نفسه شاعر، تُوسم به المواسم والمشاعر. كلام أنْسَى حلاوة الأولاد بحلاوته، وطُلاَوَةَ الربيع بطلاوته، وشِعْرٌ من حلَّةِ الشباب مسروق، ومن طِينَة

(١) المَهيضُ: المكسور.

(٢) يعتب: يصفو، من أعتب إذا ترضّى، وأزال أسباب العتب.

(٣) المُخدَّرة: المستورة في خدرها، المصونة. واختدرت المرأة: لزمت الخِدْر، وهو سِتْرٌ يُمَدُّ لها في ناحية البيت، وكلُّ ما واراها من بيت ونحوه.

(٤) الخريدة من النساء: العذراء، البكر، ومن اللؤلؤ: التي لم تثقب بعد.

(٥) النَّثْرَةُ: عنقود من النجوم في صورة السرطان، وهو الثامن من منازل القمر.

(٦) الشِّعْرَى: كوكب نَيِّرٌ يطلع عند شدّة الحرّ. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (سورة النجم، آية ٤٩)، وهما شِعْرَيان: الشِّعْرَى العَبُور، والشِّعْرَى الغميصاء.

(٧) برح السَّهر: شدّته.

الوِصال مَخْلُوق. قصيدة، في فنِّها فريدة، هي عروسٌ كُسْوَتُها القوافي، وحِلْيَتُها المعاني. شِعْرٌ يَتَرقْرَقُ فيه ماءُ الطبع، ويرتفع له حجابُ القلْب والسمع. شعر لا مزية الإعجازِ أَخْطَأتَهُ، ولا فضيلة الإيجازِ تخطَّته. شعرٌ رَوَيْتُه لما رأَيْتُه، وَحَفِظْتُه لما لحظتهُ. أبياتٌ لو جُعِلَتْ خلعاً على الزمان لَتحَلَّى بها مُكَاثراً، وتجلَّى فيها مُفَاخِراً. شِعْرٌ رَاقَنِي، حتى شاقني، فإنه مع قُـرْبِ لفظه بعيدُ المرام، مُمَرَّ النظام[1]، قوي الأسْر[2]، صافي البَحْر. نظمٌ قد أُلبِسَ من البداوة فَصَاحَتها، وغُشِّيَ من الحضارة سَجَاحتها[3]؛ فإن شئت قلت عَبيد ولَبيد[4]، وإن شئـتَ حَبيـب والـوليـد[5]. قصيـدتُـه رَوْضَـة تُجْتَنَـى بـالأفكـار، ونَقْـلٌ يُتَنَـاوَلُ بـالأسمـاع والأبصار[6]، ونَقْلُ العلم والأدب، ألَذُّ من نَقْل المأكَل والمشرب، وفاكهةُ الكلام، أَطيبُ من فاكهة الطعام. نظمٌ كنظم الْجُمَان، ورَوْضٌ كالجِنَان، وأمنِ الفؤاد، وطيبِ الرُّقاد. قصيدةٌ لم أَرَ غيرها بِكْراً، استوفَتْ أقسامَ الْحُنْكة[7]، واستَكْملَتْ أَحْكامَ الدُّرْبَـة[8]؛ فعليها رَوْنَق الشباب، ولها قُوَّةُ المُذْكيَات الصِّلاب[9]، روحُ الشعر، وتاجُ الدهر، ومقدمة عساكر السحر. كل بيت شعر خيرٌ من بيت تِبْر. شعر يُحكم له بالإعجاز والتَّبريز، ويشبّه في صفاء سَبْكه بالذّهب الإبريز. شعرٌ تأتلِفُ القلوب على دُرَرِه ائـتلافاً، وتصير الآذان له أصداقاً. لله

---

(١) مُمَرُّ النظام: قَوِيُّهُ، مُحْكَمُهُ.

(٢) الأَسْرُ: شِدَّةُ الخَلْق، يقال: شَدَّ الله أَسْرَهُ: أَحكم خَلْقَه.

(٣) السَّجاحةُ: استواء الصورة.

(٤) عبيد: هو أبو زياد، عبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر بن مالك الأسدي: شاعر جاهلي فحل، توفي نحو ٢٥ ق.هـ/ نحو ٦٠٠ م، قتله المنذر بن ماء السماء في يوم نحسه. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ١٨٧).
لبيد: هو أبو عقيل، لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامري: شاعر من الفرسان الأشراف في الجاهلية. أدرك الإسلام وأسلم، وترك نظم الشعر، وكان جواداً كريماً. توفي سنة ٤١ هـ/ ٦٦١ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٥/ ٢٩١).

(٥) حبيب: هو أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (توفي ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م)، والوليد: هو أبو عبادة، الوليد بن عبيد البحتري (توفي ٢٨٤ هـ/ ٨٩٨ م). وقد ترجمنا لهما في مكان سابق من هذا الكتاب.

(٦) النقل: ما يتنقل به من أنواع الفواكه على الشراب.

(٧) الحنكة: التجربة.

(٨) الدربة: التمرين.

(٩) المذكيات والمذاكي: خيل بلغت سن القوة.

دَرُّهُ ما أحْلى شعره! وأنقى دُرَّه، وأعْلى قدره، وأعجب أمْره! قد أخذ برِقَاب القوافي، ومَلك رِقّ المعاني، فَضْلُه بُرْهَان حق، وشعره لِسَان صدق. فلان يُغرب بمَا يَجْلِب، ويُبْدِعُ فيما يصنع، حَسَنُ السبك، مُحْكَمُ الرَّصْف، بديع الوَصْف، مرغوب في شِعْرِه، مُتَنَافس في سحره. هو ضارِب في قِدَاحِ الشعر بأعْلَى السهام، آخِذٌ في عيون الفضل بأوْفَى الأقسام، شِعَاره أشعارُه، ودابه آدابه، هو ممن يَبْتَدِهُ فيبتدع، طبعه يُمْلي عليه، ما لا يُمَلُّ الاستِماع إليه. قَريحة غير قَرِيحة، وطَبْعٌ غير طَبِع[١]، وخِيم غيرُ وَخِيم، لبيد عنده بَليد، وعَبِيد لديه من العَبيد، والفرزدقُ عنده أقل من فرزدقة خَمير[٢]، وجرير يُقَاد إليه بجَرير[٣]، قد نسجَ حُلَلاً لا يُبْلِي جِدَّتَها الجديدان، ولا تزداد إلا حُسْناً على تَرَدُّدِ الأَزْمَان. نَظْمُه قد نظم حاشيتي البَرِّ والبَحْر، وأَدركَ ناحيتي الشَّرْقِ والغَرْبِ. أشعارٌ قد وَرِدَتِ المياه، ورَكِبَتِ الأفواه، وسارت في البلاد، ولم تَسِرْ بِزَاد، وطارَتْ في الآفاقِ، ولم تَمْشِ على ساق. شعره أَسْيَرُ من الأمثال، وأَسْرَى من الخيال، سار مَسِيرَ الرياح، وطار بِغَيْر جَناح. أشعارُه سارت مَسِيرَ الشمس، وهبَّتْ هُبوبَ الريح، وطبقت تُخُومَ الأرض، وانتظمت الشرق إلى الغرب. قد كادت الأيامُ تنشدها، والليالي تَحْفَظُها، والجنّ تدرسها، والطير تتغنّى بها. أبياتٌ أَسْفَرَ عنها طَبع المَجْدِ، فعلمت كيف يتكسّر الزَّهر على صفحات الحدائق، وكيف يغرس الدرّ في رياض المَهَارق[٤]. شِعْرٌ قد أَحْسَن خِدْمَته بكمال فِكْره، ووقف كيف شاء عند عَالِي أَمْره. شعرٌ يُعَلَّق في كَعْبَةِ المجد، ويتوّج به مَفْرِقُ الدهر. جاءت القصيدة ومعها عِزَّةُ المُلك، وعليها رواءُ الصدق، وفيها سِيماء العلم، وعندها لِسَانُ المجد، ولها صِيَال الحقِّ، لا غروَ إذا فاضَ بَحْرُ العلم على لسانِ الشِّعْرِ أن ينتج ما لا عين وَقعَتْ على مثله ولا أذن سَمِعَتْ بشبهه. شعر يكتب في غُرّة الدهر، ويشرح في جَبْهَة الشمس [والبدر].

وهذه جملة من فصول أهل العصر تليق بهذا الموضع

من ابن العميد إلى خلاد الرامهرمزي

كتب أبو الفَضْل بن العَميد إلى أبي محمد خِلاد الرّامهرمزي القاضي:

---

(١) غير طَبِع: غير لئيم، وهي من طبع السيف، إذا ركبه الصدأ الكثير.

(٢) الفرزدقة: القطعة من العجين، يقال: إن الشاعر الفرزدق لقب بهذا الاسم لأن وجهه كان يشبهها.

(٣) الجرير: الحبل.

(٤) المهارق: جمع مُهْرَق، وهو الصحيفة البيضاء يكتب فيها.

«وصل كتابُكَ الذي وَصَلْتَ جَناحَه بفنونِ صِلاَتِكَ وتَفَقُّدِكَ، وضروب بِرِّك وتعهُّدك؛ فارتَحْتُ لكلِّ ما أوْلَيْت، وابتهَجْتُ بجميع ما أهْدَيت، وأضَفْتَ إحسانَك في كلِّ فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذِكري، ووقفت عليها شُكْري، وتأمَّلْتُ النظم فملكني العُجْبُ به، وبَهَرَني التعجُّب منه[1]، وقد رُمْتُ أن أجْري على العادة في تشبيهه بِمُسْتَحْسنِ من زهر جَنِيّ، وحُلَلٍ وحِليّ، وشذور الفرائد، في نحُور الخرائد[2].

وَالعَـذارى غَـدَوْنَ فـي الحُلَـلِ البيـ ـضِ وَقَـدْ رُحْـنَ فـي الخُطـوطِ السُّـودِ

فلم أره لشيء عَدْلا، ولا أرْضى ما عَدَدْتُهُ له مثلاً؛ والله يزيدك من فضله ولا يُخْليكَ من إحسانه، ويلهمك مِنْ برِّ إخوانِكِ ما تتمّم به صنيعَك لديهم، ويُرَبُّ معه إحسانُكَ إليهم[3].

من الصاحب بن عباد إلى الشبيبي

وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عبَّاد الصَّاحِب إلى أبي سَعيد الشَّبيبي:

«قد رأى شيخُ الدولتين كيف الْكَلَفُ بسادَتِي من أهل ميكال ـ أيدّهم الله! ـ بين ودّ أُضْمِره على البُعْد، وإيثارٍ أُظهره على تراخي المزار، وتقريظٍ يمليه عليَّ المَلَوان[4]، ومَدْح أنْطِقُ فيه بلسان الزَّمَان، حتى إن ذِكْرَهم إذا جَرَى على لساني اهتزَّتْ له نَفْسِي، وفَضْلَهم إذا جرى على سَمْعِي انفرج له صَدْرِي، فتلك عُصْبَةٌ خيرٍ فَضْلُهَا باهِر، وشرفُها على شرف النماء زاهِر، وشجرةٌ أصلُها ثابت وفَرْعُها في السماء [ناظر]، والله يُتَمِّمُ أعدادها، ولا يعدمني وِدَادها، وإذا كان إكباري لهم هذا الإكبار فكلّ منتسب إلى جنبهم أثِيرٌ لديَّ[5]، كثير في يديَّ. وطرأ عليَّ فلان متنسباً إلى جملتهم، وحبذا الجملة، ومُعتزِياً إلى خدمتهم، وَنِعْمَت الخدمة، ففررناه[6] عن طَبْعٍ سَمْح، ولَفْظِ عَذْب، وصلةِ نثرٍ بنظم؛ فإن شاء قال:

---

(١) بَهَرَ الشيء فلاناً: أدهشه وحَيَّره، ومنه: بهرَت فلانة النساء: فاقتهم حُسْناً.

(٢) الخرائد: العذارى، الأبكار، الواحدة: خريدة.

(٣) يُرَبُّ: يُحْفَظُ وَيُنَمَّى.

(٤) الملوان: الليل والنهار، أو طرفا النهار، يقال: لا أفعله ما اختلف الملوان.

(٥) الأثير: العزيز.

(٦) فررناه: اختبرناه، وَفُرَّ فلان: جُرِّبَ واخْتُبِر، قال الحجاج بن يوسف الثقفي: «وَلَقَدْ فُرِرْتُ عَنْ ذَكاءٍ، وَفُتِّشْتُ عن تَجْرِبَة».

أنا الوليد، وإن شاء قال: أنا عبد الحميد؛ ولم أعظِم بمن خرَّجته تلك النعمة ونتجته تلك السُّدَّة أن يأخذَ من كلِّ حسنة بعُرْوة، ويقدح في كل نار بجَذْوَة؛ وآنَسَنا بالمقام مُدة، أكَّدتها شوافع عِدَّة، إلى أن تذكَّر مَعاهدَ رَأى فيها الدَّهْرَ طَلْقاً، والزمان غُلَاماً، والفضلَ رهناً، والإفضال لِزاماً؛ فَحَنَّ حنينَ الرِّكاب، ورَكبَ عَزِيم الإياب[١].

فصل [من كتاب] كتبه الأمير أبو الفَضْل عُبَيْد اللَّه بن أحمد الميكالي[٢] إلى أبي القاسم الداوودي جواباً عن كتاب له ورد عليه. وأبو الفضل رئيس نيسابور وأعمالها في وقتنا هذا، وسيمرُّ من كلامه ونثره ونظامه ما يغني عن التنويه، ويَكْفِي عن التنبيه، ويجلُّ عن التشبيه، ويكون كما قال أبو الحسن الأخفش علي بن سليمان: [استهدى إبراهيم بن المدبَّر] أبا العباس محمد بن يزيد جليساً يَجْمَعُ إلى تأديب ولده الإمتاعَ بإينَاسِه؛ فَنَدَبني لذلك، وكتب إليه معي: قد أنفذت إليك ـ أعزَّك الله ـ فلاناً، وجملة أمره أنه كما قال الشاعر:

إذا زُرْتُ المُلُوكَ فإنَّ حَسْبِي ... شَفيعاً عِنْدَهُمْ أَنْ يَخْبُرُونِي

من أبي الفضل الميكالي إلى أبي القاسم الداوودي

وفصل أبي الفضل: وقفتُ على ما أتحفني به الشيخ: من نَظْمه الرائق البديع، وخَطِّه المُزْرِي بزهر الربيع، مُوشَّحاً بغُرَرِ ألفاظه، التي لو أُعِيرت حِلْيَتُها لَعطَّلَت قلائد النحور، وأبكارِ معانيه التي لو قُسِّمت حَلَاوتها لأَعْذَبَتْ مَوَارِدَ البحور، فَسَرَّحْتُ طَرْفي منها في رياضٍ جادتْها سحائبُ العلوم والحِكَم، وهبَّ عليها نسيمُ الفضل والكرَم، وابتسمَتْ عنها ثغورُ المعالي والهِمَم، ولم أدرِ ـ وقد حَيَّرَتْني أصنافُها، وبَهرتني ثُغورُها وأوصافها، حتى كَسَتْني اهتزازاً وإعجاباً، وأنشأت بيني وبين التماسك سِتْراً وحجاباً، ولم أدرِ أدهَتْني لها نَشْوَة راح، أم ازْدَهَتْني نغمة ارتياح، وانتظم عندي منها عِقد ثَناءٍ وقَريض، أم قَرَع سَمْعِي منها غناء مَعْبَدٍ وغَرِيض، وكيفما كان فقد حَوَى رتبة الإعجاز والإبداع، وأصبح نُزْهَة القلوب والأسماع، فما من جَارِحةٍ إلا وهي تودُّ لو كانت أذناً فتَلتَقِط دُرَرَهُ وجواهره، أو عيناً تَجْتَلي مَطالعَهُ ومناظره، أو لساناً يَدْرُس مَحاسِنَهُ ومفاخره.

---

(١) العزيم: الجَرْيُ الشديد.

(٢) هو أبو الفضل، عبيد اللَّه بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن عبد اللَّه بن محمد بن ميكال الميكالي: أديب، شاعر، أمير، من أهل نيسابور. من آثاره: «ديوان شعر»، و «مخزن البلاغة»، و «فضائل الملوك»، وغيرها. توفي سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٦/ ٢٣٧).

ومنه إلى الثعالبي

وله فصل من كتاب إلى أبي مَنْصُور عبد الملك بن إسماعيل الثَّعالبي[(١)]: «وصل كتابُ مولاي وسيدي، أبْدَع الكتب هَوَاديَ وأعجازاً[(٢)]، وأبرعها بلاغةً وإعجازاً، فَحسِبْتُ ألفاظَه دَرَّ السحاب، أو أصفى قطراً ودِيمة، ومعانيه دُرّ السِّخاب[(٣)]، بل أوفى قَدْراً وقيمة. وتأملت الأبياتَ فوجدتها فائقةَ النَّظْم والرَّصْفِ، عَبِقَة النسيم والعَرْف، فائزة بقِدَاح الْحُسْن والظَّرْف، مالكة لِزِمام القَلْبِ والطَّرْف؛ ولا غَرْوَ أن يصدر مثلُها عن ذلك الخاطر، وهو هَدَف الفِقَر والنوادر، وصَدَف الدرر والجواهر، والله يُمَتِّعُه بما منحه من هذه الغُرَر والأوضاح، كما أطلق فيه ألسنة الثناء والامتداح.

* * *

أبو منصور الثعالبي

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا [على طريق التخمين لا على حقيقة اليقين] وهو فريدُ دهره، وقريعُ عصره، ونسيجُ وَحْدِه، وله مصنفات في العلم والأدب، تشهدُ له بأعلى الرتب، وقد فَرَّقْتُ ما اخترته منها في هذا الكتاب، مع ما تعلّق بشاكلته من الخطاب؛ منها كتاب سماه «سحر البلاغة»، قال في صدر في الكتاب: «أخرجتُ بعضه من غُرَر نجوم الأرض، ونُكَت أعيان الفضل، من بُلَغاء العصر، في النثر، وحللت بعضه من نظم أمراء الشعر، الذين أوردت مُلَح أشعارهم في كتابي المترجم بيتيمة الدهر[(٤)]، فَلَفَقْتُ جميع ذلك

---

(١) هو أبو منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري: أديب، ناثر، شاعر، لغوي، إخباري. من تصانيفه الكثيرة: «فقه اللغة وسر العربية»، و«سحر البلاغة وسر البراعة»، و«يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، وغيرها. توفي سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ٣/ ٢٤٦؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٦/ ١٨٩).

(٢) الهوادي والأعجاز: البدايات والنهايات.

(٣) السِّخَابُ: القلادة تُتَّخذ من قَرَنْفُلٍ وَسُكٍّ ومَحْلَبٍ، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء.

(٤) «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»: كتاب جمع الكثير من غُرَر شعراء القرن الرابع وصدر القرن الخامس: ملوكهم وأمرائهم ووزرائهم وقضاتهم، ذوي الجد منهم، وذوي المجون، في رقعة البلاد التي كانت يد العرب مبسوطة عليها يومذاك، من بلاد الشام والعراق وجرجان ومصر والمغرب والأندلس وغيرها. وقد صدر هذا الكتاب عن دار الكتب العلمية في بيروت بخمسة أجزاء، وقام بشرحه وتحقيقه الدكتور مفيد محمد قميحة.

وحرّرته، وسقته ونسّقته، وأنفقت عليه ما رُزِقته، وعملته بكدّ الناظر، وجهد الخاطر، وتَعَبِ اليمين، وعرق الجبين، وتعمَّدْتُ فيه لَذَّةَ الْجِدة، ورَوْنَق الحداثة، وحلاوة الطَّراوة، ولم أَشُبْهُ بشيء من كلام غير أهل العصر، إلا في قلائل وقلائد من ألفاظِ الجاحظ وابن المعتز، تخلّلَت أثناءَه، وتوشّحت تضاعيفه، ولم أُخْلِ كلماتِه ـ التي هي وسائط الآداب، وصياقل الألباب، وما تَسْتَمْتِعُه أنْفُسُ الأدباء، وتلذّ أعينَ الكتاب ـ من لفظ صحيح، أو معنًى صريح، أو تجنيس أنيس، أو تشبيهٍ بلا شَبيهٍ، أو تمثيل بلا مَثِيل ولا عَديل، أو استعارةٍ مُختَارة، أو طِباق، ذي رَوْنق باق؛ فمن رَافَقَ هذا الكتاب قَرُبَ تناوُلُه من الكتَّاب، إذا وشّوا ديباجةَ كلامهم بما يقتبسونه من نُوره، وسماحة قيادِه لأفراد الشعراء إذا رصّعوا عقودَ نظامِهم بما يلتقطونه من شذُوره، فأما المخاطبات والمحاورات، فإنها تتبرَّج بغرَّة من غُرره، وتُتَوَّج بِدُرَّةٍ من دُرَرِه.

وقد ذكر جملة مَنْ أخرج معظم كتابه من نثرهم ونظمهم، وهم: الصابيان[١]، والخالِديَّان[٢]، وبديع الزمان، وأبو نصر بن المَرْزُبَان [وعلي بن عبد العزيز القاضي، وأبو محمد القاضي، وأبو القاسم الزعفراني، وأبو فراس الحمداني]، وابن أبي العلاء الأصبهاني، وأبو الطيب المتنبي، وأبو الفتح البُسْتي، وأبو الفضل الميكالي، وشمس المعالي، والصاحب بن عباد، وجماعة يكثر بهم التعداد، قد ذكرهم في كتابه، فكل ما مرَّ أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نَقَلْتُ، وعليه عَوَّلت.

وفي أبي منصور يقول أبو الفتح علي بن محمد البُستي[٣]:

قَلبـي رَهيـنٌ بِنيسـابـورَ عِنْـدَ أَخٍ ... مـا مِثْلُـهُ حِيـن تُسْتَقْـرَى البـلادُ أَخُ
لَـهُ صَحـائـفُ أَخْـلاَقٍ مُهَـذَّبـةٍ ... مـن الحِجَـا والعُـلا والظَّـرْفِ تُنْتَسَـخُ

(١) هما: إبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤ هـ، وهلال بن المحسن المتوفى سنة ٤٤٨ هـ.

(٢) هما: سعيد بن هاشم المتوفى سنة ٤٠٠ هـ، ومحمد بن هاشم المتوفى سنة ٣٨٠ هـ. وعرف هذان الأخوان بالخالدين، نسبة إلى «الخالدية» من قرى الموصل بالعراق، وكانا من خواص سيف الدولة الحمداني. ويقال: إنهما كانا يشتركان في نظم القصيدة، فتنسب إليهما معاً.

(٣) هو أبو الفتح، علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي: شاعر مشهور، ولد في بست (قرب سجستان) وإليها يُنْسَب. كان من كتاب الدولة السامانية في خراسان. مات غريباً في بلدة (أوزجند) ببخارى سنة ١٤٠١ هـ/ ١٠١١ م. (الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٢/١٦٨).

وأما الذين ذكر أسماءهم في كتابه فَسأُظهر من سرائر شعرِهم الرصين، وأجلو من جواهر نثرهم الثمين، ما أخذ من البلاغة باليمين.

من كتب لأبي الفضل الميكالي

فصل لأبي الفضل: وصل كتابُ الشيخ المبشر من خبر سلامته التي هي غُرَّة الزمان البهيم[١]، وعذر الدهر المليم[٢]، بما أشرقت له آفاقُ الفَضْلِ والكرم، وتمّت به نفائِسُ الآلاء والنعم، فَسرَّحْتُ طَرْفي من محاسن ألفاظه، في أنْوار تَرُوق أزَاهِرُها، وقلائِدَ تروعُ دُرَرُها وجواهرُها، ومَبَارّ[٣] يَسْتَرِقُّ الرِّقَابَ باطنُها وظاهرُها.

وله إلى أبي سعيد بن خَلَف الهَمْذَاني:

وصل كتابُكَ متحملاً من أخبار سلامتك، وآثارِ نعمِ اللّهِ بساحتك، ما أدَّى روحَ البَرِّ ونسيمه، وجمع فنونَ الفضل وتقاسيمه، ومجدِّداً عندي من عمر مواصلته، ومعسول كلامه ومحاوَرته، ما ترك غُصْنَ المِقَةَ[٤] غضًّا أوْراقه، وَوَجْهَ الثقة طَلْقاً يتهلّلُ إشراقه، فكم جنيت عنه من ثمر مَسَرة كانت عوائقُ الأيام تُجَاذِبُنِيه، وحويت به من عِلْق مَضَنَّةٍ قلماً يجود الدهر بمثله لبنيه[٥].

وله فصل إلى بعض الحكام بِجُوَيْن[٦]:

وصل كتابُ الحاكم وقد وشَّحه بمحاسن فِقَره، ونتائج فِكَره، من لفظ شهيٍّ أعطته القلوبُ فَضْلَ المقادَة، ومعنى سَنِيٍّ جاده صَوْبُ الإصابة والإجادة، وبِرٍّ هَنِيٍّ اتَّفَقَتْ على الاعترافِ بفضله ألسنةُ الثناءِ والشهادة، فسرَّحْتُ طَرْفي فيما حواه من بدائع وَطُرَف، قد جمعت في الحسن والإحسان بين واسطة وَطَرَف، حتى لم تبقَ في البلاغة يتيمة إلا جبرتها وتمّمتها.

وله إلى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم:

---

(١) البهيم: المظلم.
(٢) المليم: المذنب.
(٣) المَبَارُّ: جمع مَبَرَّة: موضع البِرّ، وهو الخير والإحسان.
(٤) المقة: الحبُّ.
(٥) العلق: الشيء النفيس.
(٦) جوين: كورة كبيرة في خراسان.

كتبت وأنا بمنزلة من ارتدَّ إليه شبابهُ بعد المشيب، وارتدى بِرِدَاءٍ مِنَ العمر قَشِيب[١]، والحمد لله رب العالمين، وصل كتابُ مولاي مُبشِّراً من خير عَوْده إلى مقرِّ عزّه وشَرَفه، محروساً في حفظ اللَّهِ وكَنَفه، بما لم تزل الآمال تتنسَّم روائحه، وتترقَّب غاديَ صُنْع الله فيه وَرَائِحَهُ، واثقةً بأنّ عادةَ الله الكريمة عنده تُسَايره وتُرَافقه، وتلزم جنابه فلا تُفَارِقه، حتى تُخْرِجَهُ من غَمْرة الغَماء خروجَ السيف من الغِمْدِ، والبدر بعد السِّرَار[٢] إلى الانجلاء، فَعددْتُ يوم وُرودِهِ عِيداً، أعاد عهد السُّرور جَدِيداً، وردَّ طَرْفَ الحسود كليلاً وقد كان حَدِيداً، ولم أُشَبِّهْهُ في إهداء الرَّوح والشفاء، وتلافي الرُّوح بعد أَنْ أَشْفَى على المكروه كُلَّ الإشفاء[٣] إلاّ بقميص يوسف حين تلقّاه يعقوب عليه السلام من البشير، وألقاه على وجهه فنظر بعَيْنِ البصير، فكم أوسعتُه لَثْماً واستلاماً، والتقطت منه بَرْداً وسلاماً، حتى لم تبق غُلَّة في الصدر إلا بَرَّدْتُـهَا، ولا غُمّة في النفس إلا طَرَدْتها، ولا شريعة من الأنس إلا وَرَدْتها.

وله فصل من رسالة:

وكان فَرْطُ التعجب مَرَّة وعِظَمُ الإعجاب تارة يقفُ بي عند أول فصل من فصوله، ويثبطني عن استيفاء غُرَرِهِ وحُجُوله، ويُوهمني أنَّ المحاسنَ ما حَوَتْهُ قلائدُه، ونَظَمتهُ فرائدهُ؛ فليس في قوس إحسان وراءها مِنْزَع[٤]، ولا لاقتراح جَنَان فوقها مُتَطَلَّع، حتى إذا جاوزته إلى لَفَفِهِ وتَزْيينه، وأجَلْتُ فكري في نُكتِهِ وعُيونه، رأيتُ ما يُحَيِّر الطَّرْف، ويُعْجز الوَصْفَ، ويَعْلُو على الأول مَحَلاً ومكاناً، ويفوقه حسناً وإحساناً، فَرَتَعْتُ كيف شئتُ في رياضه وحدَائِقه[٥]، واقتبستُ نُورَ الحِكَم من مطالعه ومَشارقه، وسلّمت لمعانيه وألفاظه فضيلَةَ السَّبق والبَرَاعَةِ، وتلقَّيتها بواجبها من النَّشْرِ والإذاعة؛ فإنها جمعت إلى حُسْنِ الإيجاز درجةَ الإعجاز، وإلى فضيلة الإبداع جلالةَ الموقع في القلوب والأسماع.

---

(١) القشيب: الجديد أو النظيف، يقال: ثوب قشيب، وريطة قشيب، وسيف قشيب: حديث عهد بالجلاء، والجمع: قُشُبٌ.

(٢) السِّرَارُ: آخر ليلة من الشهر، ولا يظهر فيها القمر.

(٣) أشفى على المكروه: أشرف عليه.

(٤) المِنْزَعُ: السهم البعيد المَرْمَى، ويقال: رجل مِنْزَع: شديد النَّزْع. ويقال: لم يبق في قوس الصبر منزع، أي أن الصبر نفدت أسبابه.

(٥) يقال: رتعت الماشية رَتْعاً وَرُتوعاً ورِتَاعاً: رعت كيف شاءت في خصب وسعة، ويقال: خرجنا نلعب ونرتع: نلهو وننعم.

وله من فصل:

وصل كتابُ الشيخ فَنَشَر عندي من حُلل إفضاله وإكرامه، ومحاسن خطابه وكلامه، ما لم أشبِّهه إلا بأَنْوَار النُّجُود(١)، وحِبَرَ البرود، وقلائد العُقُود.

أبو منصور الثعالبي يصف أبا الفضل الميكالي

وذكر أبو منصور الثعالبي الأمير أبا الفضل في كتاب أَلَّفَهُ، فقال في بعض فصوله: مَنْ أراد أن يسمعَ سِرَّ النظم، وسِحْرَ الشعر، ورُقْيَةَ الدهر، ويرى صَوْب العَقْل، وذَوْب الظَّرْف، ونتيجة الفَضْل؛ فليستنشد ما أسْفر عنه طبعُ مَجْدِهِ، وأثْمَرَه عالي فكره، من مُلَحٍ تمتزجُ بالنفوس لنفاستها، وَتُشْرَب بالقلوب لسلاستها:

قَــوافٍ إذا مــا رَوَاهــا المَشُــو ... قُ هَــزَّت لَهَــا الغــانيــات القُــدُودَا

كَسَــوْنَ عَبِيــداً ثِيَــابَ العَبِيــدِ ... وَأَضْحَــى لَبِيــدٌ لَــديْهَــا بَلِيــدَا(٢)

وايمُ الله ما مرَّ يومٌ أسعفني فيه الزمانُ بمواجهة وَجْهه، وأسْعَدَني بالاقتباس من نُوره والاغتراف من بَحْرِه، فشاهدت ثِمَارَ المجدِ والسؤود تَنْتَثِرُ من شمائله، ورأيت فضائل الدَّهرِ عيالاً على فضائله، وقرأتُ نسخة الفَضْلِ والكرم من أَلْحَاظِه، وانتَهَبْتُ فضائل الفوائد من ألفاظه، إلاَّ تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرُّومي(٣):

لَـوْلاَ عَجـائـبُ صُنْـعِ اللَّـهِ مـا ثَبَـتَـتْ ... تِلْـكَ الفَضـائـلُ فـي لَحْـمٍ ولا عَصَـبِ

وقول الطائي(٤):

فَلَــوْ صَــوَّرْتَ نَفْسَــكَ لــم تَــزِدْهَــا ... علــى مــا فِيـكَ مِـنْ كَـرَمِ الطِّبَـاعِ(٥)

وقول كُشَاجم(٦):

---

(١) النُّجُودُ: جمع نَجْد، وهو ما ارتفع من الأرض، وفيه يُونع الزهر.

(٢) عبيد: هو عبيد بن الأبرص، ولبيد: هو لبيد بن ربيعة العامري، وهما من شعراء الجاهلية المشهورين.

(٣) ابن الرومي، الديوان: ١/ ١٩٦. وفيه: «لَوْلاَ عَجائِبُ لُطْفِ الله ما نَبَتَتْ».

(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٠٦. والبيت من قصيدة يمدح بها مهدي بن أصرم.

(٥) يريد أنه بلغ أقصى كرم الطباع.

(٦) هو أبو الفتح، محمود بن الحسين بن شاهك، المعروف بكشاجم: شاعر، أديب، من كُتَّاب الإنشاء، من أهل الرملة بفلسطين تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد، وطال مكثه بحلب، =

مَـا كَـانَ أَحْـوَجَ ذا الكَمَـالِ إلـى ... عَيْـبٍ يُـوَقِّيـه مِـنَ العَيْـنِ

ورَبَّعت بقول أبي الطيب[١]:

فَـإِنْ تَفُـقِ الأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِنْهُـمْ ... فَـإِنَّ المِسْـكَ بَعْـضُ دَمِ الغَـزَالِ[٢]

ثم استعرت فيه بيانَ أبي إسحاق الصابي حيث يقول لِلصَّاحب «وَرَّثَهُ الله أعمارها، كما بلّغه في البلاغة أنوارها»:

اللَّـهُ حَسْبِـي فِيـكَ مِـنْ كُـلِّ مـا ... تَعَـوَّدَ العَبْـدُ علـى المَـوْلَـى

فَـلا تَـزَلْ تَـرْفُـلُ فـي نِعْمَـةٍ ... أَنْـتَ بِهـا مِـنْ غَيْـرِكَ الأَوْلَـى[٣]

عود إلى ذكر فصول من كلام الميكالي

وقال في فصل منه: وما أنسَ لا أنسَ أيامي عنده بفيروزاباد إحدى قُرَاه برستاق جُوين، سقاها الله ما يحكي أَخْلاقَ صاحبها من سَيْل القَطْرِ، فإنها كانت ـ بطَلْعَتِهِ البَدْرية، وعِشْرَته العِطْرِيّة، وآدابه العلوية، وألفاظِه اللّؤلؤية مع جلائل نِعَمِهِ المذكورة، ودقائق كرمه المشكورة، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسِنِ أقواله وأفعاله التي يَعْيا بها الواصفون ـ أنموذجات من الجنة، التي وُعِد المتقون، وإذا تذكرتها في المَرابع التي هي مَرَاتِع النَّوَاظر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر، والبساتين التي إذا أخذَتْ بدائعَ زخارفها، ونشرت طرائفَ مطارفها، طُوِيَ لها الديباجُ الْخُسْرَوَاني، وَنُفِيَ معها الوَشْيُ الصّنعاني، فلم تُشَبّه إلا بشِيَمِهِ، وآثار قَلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سِحراً وسيماً، وخيراً عميماً، وارتياحاً مُقيماً، وروحاً ورَيْحاناً وَنَعِيماً.

وكثيراً ما أَحْكي للاخوان أني استغرقتُ أربعة أشهر بحضرته، وتوفّرت على خِدْمَته،

= فمدح أبا الهيجاء، وخدم في بلاط سيف الدولة الحمداني. من آثاره: «ديوان شعر»، و«أدب النديم»، و«البيزرة» في علم الصيد، وغيرها. توفي سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ٣/ ٣٧).

(١) المتنبي، الديوان: ٢/ ١٩.

(٢) يقول: لا عجب إن فضلت الناس وأنت واحد منهم، فإنَّ بعض الشيء قد يفوق جملته، كالمسك فإنه بعض دم الغزال، وهو يفضله فضلاً كثيراً.

(٣) رَفَلَ رَفْلاً وَرُفولاً ورَفَلاناً: جَرَّ ذَيْلَهُ وتبختر في سيره، ورفل في ثوبه: أطاله وجرّه متبختراً.

ولازَمْتُ في أكثر أوقاتي عَالِي مَجْلِسه، وتعطَّرت [عند ركوبه] بِغُبار مَوْكِبه؛ فبالله يميناً كنتُ غنيّاً عنها لو خفت حِنثاً فيها إني ما أنْكَرت طَرَفاً من أخلاقه؛ ولم أشاهد إلاّ مَجْداً وشرفاً مِنْ أحواله. وما رأيتُهُ اغْتَابَ غائباً، أو سبَّ حاضراً، أو حَرَم سائلاً، أو خيَّب آملاً، أو أطاع سلطانَ الغَضَبِ في الحَضَر، أو تَسَلَّى بنار الضَّجَر في السَّفَر، أو بطش بَطْشَ المتجبِّر؛ ولا وجدت المآثِرَ إلا ما يتعاطاه، والمآثِمَ إلا ما يتخطَّاه.

وقال في فصل منه يصفه: وأما فنونُ الأدب فهو ابن بَجْدتها[١]، وأَخُو جملتها، وأبو عُذْرتها[٢]، ومَالِك أَزِمَّتها، وكأنما يُوحَى إليه في الاستئثار بمحاسنها، والتفرُّد ببدائعها، ولِلَّهِ هو إذا غرس الدُّرَّ في [أرض] القراطيس، وطَرَّزَ بالظلام رِدَاء النهار، وألقت بِحَارُ خواطره جواهِرَ البلاغة على أنامله، فهناك الْحُسْنُ بِرُمَّته، والْحُسْن بِكُلِّيته.

المطوعي يذكر أنواع الشعراء ثم يذكر الميكالي

وذكر عُمَر بن علي المطوعي[٣] في كتابٍ ألّفه في شعر أبي الفضل ومنثوره والشعراء، فقال: رأيتُ أهل هذه الصناعة قد تشعبوا على طُرُق، وانقسموا على ثلاث فرق، فمنهم سن اكتسى كلامه شرف الاكتساب دون شرف الانْتِساب كالمكتسبين من الشعراء بالمدائح، المترشحين بها لأَخْذِ الجوائز والمنائح، وهم الأكثرون من أهل هذه الصناعة؛ ومنهم من شَرُفَت بناتُ فكره عند أهل العقول، وجلبت لديهم فضائل القَبُول، لِشَرَف قائلها، لا لِكَثْرَة عقائلها، وكرم واشيها، ولا لرِقَّة حواشيها، كالعدد الكثير، والجم الغفير، من الخلفاء والأمراء والجِلّة والوزراء؛ ومنهم من أخذ بحبل الْجَوْدَة من طَرَفَيْه، وجمع رداءَ الْحُسْنِ من حاشِيَتَيْه، كامرىء القيس بن حُجْر الكندي في المتقدمين، وهو أميرُ الشعراء غير مُنَازِع، وسيدهم غير مُجاذَب ولا مُدافَع، وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين في المولدين، وهو أشعر أبناءِ الخلافة الهاشمية، وأَبرعُ أنشاء الدولة العباسية، ومَنْ جلَّ كلامه في التشبيه، عن

---

(١) البَجْدَةُ: حقيقة الأمر وباطنه، يقال: عنده بجدة ذلك: علمه، وهو ابن بجدتها: العالم بالشيء المتيقن، وأصله: الدليل الهادي في الصحراء.

(٢) العُذْرَةُ: البكارة، وأبو عذرتها: أول من افتضها، كناية عن التفوق في أمر من الأمور.

(٣) هو أبو حفص، عمر بن علي المطوعي: أديب شاعر، من أهل نيسابور. اتصل في شبابه بخدمة الأمير أبي الفضل الميكالي، فألف كتاب «درج الغرر ودرج الدرر في محاسن نظم الأمير ونثره». وشعره كثير الملح والظرف. توفي نحو ٤٤٠ هـ/ نحو ١٠٤٨ م. (الثعالبي، يتيمة الدهر: ٥٠٠/٤).

أن يُمثَّل بنظير أو شبيه، وعَلَت أشعاره في الأوصاف عن أن تتعاطاها ألسنةُ الوُصّاف؛ والأمير أبي فراس بن حَمْدان فارس البلاغة، ورجل الفصاحة، ومن حكمت له شعراءُ العصر قاطبةً بالسيادة، واعترفت لكلامه بالإحسان والإجادة، حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب: بُدِىء الشعرُ بملك وخُتِم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس؛ وهذه الطائفة أشهر الثلاثة تقدّماً، وأثبتها في مواطن الفَخْر ومواطىء الشرف قَدَما، وأسبق الشعراء في مَيْدَان البلاغة، وأرجَحهُم في ميدان البَرَاعة؛ فإنَّ الكلامَ الصادرَ عن الأعيان والصدور، أقرُّ للعيون وأشفى للصدور، فشرف القلائد بمن قُلّدها، كما أن شرف العقائل بمن وَلَّدَها:

وخَيْرُ الشَّعْرِ أكْرَمُه رِجَالاً ... وشَرُّ الشِّعْرِ ما قَالَ العَبِيدُ

وإذا اتفق مَن اجتمعت فيه هذه الشرائط، وانتظمت عنده هاتيك المحاسن، كان خليقاً بأن تُخلَّد في صحائف القلوبِ أشعارُه، وتُدوَّن في ضمائر النفوس آثارُه، وَتُكْتَبُ على الأحداق والعيون أخبارُه، وجديراً بأن يختصَّ بسرعة المجال في المجالس، وخِفّة المدار في المدارس، كالأمير الجليل السيد مولانا:

أَبِي الفَضْلِ مَنْ نالَ السَّماءَ بِفَضْلِهِ ... وَمَنْ وَعَدَتْهُ نَفْسُهُ بِمَزِيدِ

تَوَدُّ عُقودُ الدرّ لو كُنَّ لَفْظَهُ ... فَيَنْظِمُهَا مِنْ تَوْأَمٍ وَفَرِيدِ

وهذه مقطعات لأهل العصر في وصف البلاغة

لأبي الفتح البستي

قال أبو الفتح البُسْتي(١):

مَدَحْتُكَ فَالتَامَتْ قَلائدُ لم يَفُزْ ... بِأَمثالِها الصِّيدُ الكِرَامُ الأَعاظِمُ(٢)

لأَنَّكَ بَحْرٌ والمَعَاني لآلِىءٌ ... وَفِكْرِيَ غَوَّاصٌ وَشِعْرِيَ نَاظِمُ

وقال أيضاً(٣):

ما إن سَمِعْتُ بِنُوّارٍ لَهُ ثَمَرٌ ... في الوَقْتِ يُمْتِعُ سَمْعَ المَرْءِ والبَصَرا(٤)

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٤/ ٣٦٢.

(٢) الصِّيدُ: جمع الأصيد، وهو المائل بعنقه تكبراً وزهواً.

(٣) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٤/ ٣٥٤.

(٤) النُّوّارُ: الزهر، واحدته: نُوَّارَةٌ، والجمع: نَوَاوير.

حَتَّى أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ مُبْتَسِمٌ ... عَنْ كُلِّ لَفْظٍ وَمعْنًى يُشْبِهُ الدُّرَرَا
فَكَانَ لَفْظُكَ فِي لألآئِهِ زَهَراً ... وَكَانَ مَعْنَاهُ فِي أثنائِهِ ثَمَرا
تَسابقَا فَأَصابَا القَصْدَ في طَلَقٍ ... لِلَّهِ مِنْ ثمرٍ قَدْ سَابقَ الزَّهَرَا

وقال أيضاً[1]:

لَمَّا أتاني كِتابٌ مِنكَ مُبْتَسِمٌ ... عَنْ كُلّ بِرٍّ ولَفْظٍ غَيْرِ مَحْدُودِ
حَكَتْ معانيه في أثناء أسْطُرِهِ ... آثارَكَ البِيضَ في أحواليَ السُّودِ

كأنه ألمّ بقول الطائي[2]:

يَرَى أَقْبَحَ الأَشياءِ أَوْبَةَ آملٍ ... كَسَتْها يَدُ المأمولِ حُلَّةَ خائِبِ
وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ تُفَتّحهُ الصّبا ... بَياضُ العَطايا في سَوَادِ المَطالِبِ

وقال أبو الفتح البُسْتي في أبي نصر أحمد بن علي الميكالي[3]:

جَمَعَ الله في الأميرِ أبي نَصْـ ... ـرٍ خِصالاً تَعْلو بها الأقدارُ
راحةً بَرّةً وصَدْراً فَضاءً ... وَذكاءً تَبْدو له الأسرارُ
خَطُّهُ رَوْضَةٌ، وَأَلفاظُهُ الأز ... هار يَضْحَكْنَ، وَالمعاني ثِمارُ

للمطوعي يمدح الميكالي

وقال عمر بن علي المطوعي يُمْدَحُ أَبَا الفضل الميكالي من قصيدة:

وإلى الأميرِ ابنِ الأميرِ المُعْتَلي ... بِكَمالِ سُؤدَدِهِ على الأُمَراءِ
وَطِئَتْ بيَ الوَجْناءُ وَجْنَةَ مَهْمَهٍ ... مُتقاذفِ الأَكْنافِ وَالأرْجاءِ[4]
كَيْمَا أُلاحظَ مِنْهُ في أُفق العُلاَ ... فَلَكاً يُديرُ كَواكبَ العَلْياءِ
كَالْبَدْرِ غيرِ دَوَامِهِ مُتكامِلاً ... كَالْبَحْرِ غَيْرِ عُذوبةٍ وَصفاءِ

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر ٤/٣٥٣.
(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٨٤. والبيتان من قصيدة يمدح بها أبا دُلَف القاسم بن عيسى العجلي.
(٣) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٤/ ٣٦٤.
(٤) الوجناء: الناقة الصلبة. والمهمه: المفازة البعيدة، والبلد المُقْفِر، والجمع: مهامه. ومتقاذف الأكناف: متباعد الأطراف.

بِالفَضْلِ يُكنَى وَهو فيهِ كامِنٌ ... كالرِّي يَكْمُن في زُلالِ الماءِ
يا مَنْ إذا خَطَّ الكِتابَ يَمِينُهُ ... أَهْدَى إلينا الوَشْيَ مِنْ صَنْعَاءِ
لَمْ تَجْرِ كَفُّكَ في البياضِ مُوقِّعاً ... إلاّ تَجلّتْ عن يَدٍ بَيْضَاءِ
قَرْمٌ يداه وقَلْبُه ما مِنْهُمَا ... في النظمِ وَالإعطاء إلا الطائي[١]

وقال فيه أيضاً:

كَلامُ الأميرِ النّدْبِ في ثَنْي نَظْمِه ... يَنُوبُ عن الماءِ الزلالِ لِمَنْ يَظْمَا[٢]
فَتُرْوَى متى تَرْوِي بَدائعَ نَظْمِهِ ... وَتَظْمَا إذا لم تَرْوِ يَوْماً لَهُ نَظْمَا

وكتب إليه أيضاً:

أقولُ وقَدْ جَادتْ جُفوني بأَدْمُعٍ ... كَأَني قد استَمْلَيْتُهُنّ من السّحْبِ
وَقد عَلِقتْ بي للنزاعِ نَوَازعٌ ... كَتَبْنَ مُعاناةَ العَناءِ على قلبي
إلى سَيّدٍ أوفى على الشّمْسِ قَدْرُهُ ... وَزادت مَعاليه ضياءً على الشُّهبِ
أبي الفضلِ مَنْ راحتْ فَواضلُ كفّهِ ... وَراحَتِهِ تُرْبي على عَدَدِ التُّربِ[٣]
سَقى اللّهُ أرضاً حَلّ فيها سَحائباً ... كَنائلِه الفَيّاضِ أَو لَفْظِهِ العَذْبِ
سَحائبَ يَحْدُوها نَسِيمٌ كَخُلْقِهِ ... وَيَقْدُمها بَرْقٌ كَصارمِهِ العَضْبِ[٤]
وَلا زال أَفْلاَكُ السُّعودِ مُطِيفَةً ... بِحَضْرَتِهِ تَنْتَابُها وَهْوَ كالقُطْبِ

للثعالبي يمدح الميكالي

وقال أبو مَنْصُور الثعالبي للأمير أبي الفَضْل:

لَكَ في الفضائلِ مُعْجِزاتٌ جَمّةٌ ... أبداً لِغَيْرِكَ في الوَرَى لَمْ تُجْمَعِ
بَحْرانِ بحرٌ في البلاغةِ شابَهُ ... شِعْرُ الوليد وَحُسْن لَفْظِ الأصْمَعي[٥]

---

(١) القرم: السيد. الطائي في الكرم: هو حاتم الطائي، وفي النظم: أبو تمام.
(٢) النَّدْبُ: الخفيف في الحاجة، الشَّهْمُ، النجيب.
(٣) تُرْبي: تزيد.
(٤) الصارم العضب: السيف القاطع.
(٥) الوليد: هو الوليد بن عبيد، أبو عبادة البحتري.

كـالنُّـور أو كـالسِّحـر أو كـالـدُّرِّ أو ... كـالـوَشْـي فـي بُـرْدٍ عليـه مُـوَشَّـع[١]
شُكـراً فكـم مـن فَقْـرَةٍ لـك كـالغِنَـى ... وَافَـى الكـريـمَ بُعَيْـدَ فَقْـرٍ مُـدْقِـع[٢]
وَإذا تفتَّـقَ نَـوْرُ شِعْـرِك نَـاضـراً ... فَـالحُسْـنُ بَيْـن مُـرَصَّـعٍ وَمُصَـرَّعِ
أرْجَلْـتَ فُـرْسـان الكـلامِ ورُضْـت أَفـ ... ـراسَ البـديـعِ وَأَنْـتَ أَمْجَـدُ مُبْـدع
وَنَقَشْـتَ فـي فَـصِّ الـزمـانِ بَـدائعـاً ... تُـزْرِي بِـآثـارِ الـربيـعِ الْمُمْـرِعِ[٣]

وللثعالبي في وصف فرس

[وقال في وصف فرس أهداه إليه ممدوحه]:

يـا مُهْـدِيَ الطِّـرْف الجـوادِ كـأَنَّمـا ... قَـدْ أَنْعَلُـوهُ بـالـريـاحِ الأَربـعِ[٤]
لا شَـيْءَ أسـرعُ منـه إلاّ خـاطـري ... فـي شُكْـرِ نَـائِلـك اللطيـفِ المَـوْقـع
وَلَـوَ أنَّنـي أَنصفْـتُ فـي إكـرامـهِ ... لِجَـلالِ مُهْـدِيـه الكـريـم الأروَع[٥]
أَنظمتُـهُ حَـبَّ القُلـوبِ لِحُبِّـهِ ... وَجعلـتُ مَـرْبِطَـهُ سَـوادَ المَـدْمَـع
وخَلعْـتُ ثـم قَطعْـتُ غَيْـرَ مُضَيِّـقٍ ... بُـرْدَ الشبـابِ لِجلِّـهِ وَالبُـرْقُـع

للثعالبي جواباً على الميكالي

وكتب إليه في جواب كتاب ورد عليه:

أَنسيـمُ الـريـاضِ حَـوْلَ الغـديـرِ ... مَـازَجَتْـهُ رَيَّـا الحبيـب الأثيـرِ[٦]
أَمْ وُرُودُ البشيـر بـالنّجْـح مـن فَـ ... ـكّ أَسِيـرٍ أو يُسْـرِ أمـرٍ عَسيـرِ
فـي مُـلاءٍ مـن الشبـابِ جـديـدٍ ... تَحْـتَ أيْـكٍ مـن التَّصـابـي نضيـرِ[٧]
أم كتـابُ الأميـرِ سَيِّـدنـا الفَـرْ ... دِ؛ فيـا حَبَّـذا كتـابُ الأميـرِ

---

(١) مُوشَّع: ذو رقوم وطرائق.
(٢) الفقر المُدْقع: الشديد، لصق صاحبه بالدقعاء: التراب.
(٣) المُمْرِعُ: المملوء بالكلأ والعشب.
(٤) الطِّرْفُ: الكريم من الناس والخيل ونحوها، والمراد هنا: الحصان.
(٥) الأروع: الذكي الرَّوع، وهو الفؤاد.
(٦) الأثير: العزيز.
(٧) الأَيْكُ: الشجر الكثيفُ المُلْتَفُّ.

وَثِمَــارُ الصـــدورِ مـــا أَجتنيـــهِ مـــن سُطـــورٍ فيهـــا شفـــاءُ الصـــدورِ
نَمّقَتْهــا أنـــامـــلٌ تَفْتـــقُ الأنْـ ـــوارَ والـزهـر فـي ريـاضِ السطـورِ
كـالمُنـى قـد جُمِعْـنَ فِـي النّعـم الغُـرْ ـرّ مـع الأمـنِ مـن صُـروفِ الـدهـورِ
يـــا أَبـــا الفضـــلِ وابنَـــهُ وأخـــاهُ جـــلّ بَـــاريـــك مـــن لطيـــفٍ خبيـــرِ
شِيَـــمٌ يَـــرْتَضِعْـــنَ دَرَّ المعـــالـــي وَيَعْتَبِـــرْنَ عَـــنْ نسيـــم العبيـــرِ
وَسَجَـــايَـــا كَـــأَنَّهُـــنَّ لَـــدى النَّشْـ ـــرِ رُضَـــابُ الحَيَـــا بِـــأَرْيٍ مَشُـــورِ[1]
وَمُحَيًّـــا لَـــدى الملـــوكِ مُحيّـــا صَـــادقُ البِشْـــرِ مُخْجِـــلٌ للبـــدورِ

جواب الميكالي على أبيات الثعالبي

فأجابه أبو الفضل بأبياتٍ يقول فيها في صفة أبياته:

وَهَـــدِيٌّ زُفَّـــتْ إلـــى السَّمْـــع بِكْـــرٍ تَتَهَـــادى فـــي حِلْيَـــةٍ وَشُـــذُورِ[2]
عَجِـبَ النـاسُ أنْ بـدَتْ مِـنْ سَـوَادٍ فـي بَيَـاضٍ كـالمِسـكِ فـي الكـافـورِ
نُظِمَـــتْ فـــي بـــلاغـــةٍ ومَعـــانٍ مِثْـلَ نظـم العقـودِ فَـوْقَ النحـورِ
كَـمْ تـذكَّـرتُ عِنْـدَهـا مـن عُهُـودٍ للتـلاقـي فـي ظـلّ عَيْـشٍ نَضيـرِ
فَـذَمَمْـتُ الـزمـانَ إذْ ضَـنَّ عَنَّـا بـاجتمـاعٍ يَضُـمُّ شَمْـلَ السـرورِ
وَلئِـــنْ رَاعَنَـــا الـــزمـــانُ بِبَيْـــنٍ أَلْبَـــسَ الأُنْـــسُ ذِلّـــةَ المهجـــورِ
فَعَسَـــى اللَّـــهُ أنْ يُعيـــدَ اجتمـــاعـــاً فـــي أمـــانٍ مـــن حـــادثـــاتِ الـدهـورِ
إنّـــهُ قـــادرٌ علـــى رَدِّ مـــا فـــا تَ وتَيْسيـــرِ كـــلِّ أَمْـــرٍ عَسِيـــرِ

للصابي يمدح الوزير المهلبي

وقال أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن هِلاَلِ الصابي[3] في الوزير المهلَّبي[4]:

---

(١) الأَري: العسل. والمشور: المُصَفّى، تقول: شار العسل واشتاره، إذا صفّاه من الأقراص.
(٢) الهَدِيّ: العروس. والشذور: قطع الذهب أو فُتاتُهُ، الواحدة: شذرة.
(٣) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابىء، الحراني: أديب، عالم، غلبت عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر، وله يد طولى في علم الرياضة. ولد بحرّان، وتوفي ببغداد سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م. (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٦٧؛ الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٧).
(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٣٢٣.

قُلْ للوزيرِ أبي محمدٍ الَّذي ... قد أعجزتْ كلَّ الوَرَى أوصافُهُ
لك في المجالس مَنْطِقٌ يَشْفِي الْجَوَى ... ويَسُوغُ في أُذُنِ الأديب سُلافُهُ[١]
وَكأنَّ لَفْظَكَ جَوْهَرٌ مُتنخَّلٌ ... وَكأنَّما آذانُنا أَصدافُهُ[٢]

* * *

ترجمة الوزير المهلبي

والمهلبي هذا هو أبو محمد الحسن بن هارون بن إبراهيم بن عبد اللّه بن يزيد بن حَاتم بن قَبيصة بن المهلَّب، وَزَرَ لأحمد بن بُوَيْه الدَّيْلَمي، وكانت وزارته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، وكان أبو محمد من سَرَوات الناس وأدبائهم وأجوادهم وأعِفَّائهم[٣]؛ وفيه يقول أبو إسحاق الصابي:

نِعَمُ الله كالوحوشِ فَما تأ ... لَفُ إلا الأَخَايرَ النُّسَّاكا
نَفَّرَتْها آثامُ قَوْمٍ وَصَيَّرْ ... نَ لها البِرّ والتُّقَى أَشْرَاكا[٤]

وكان قبلَ اتِّصاله بالسلطان سائحاً في البلادِ، على طريق الفَقْرِ والتصوّف، قال أبو علي الصوفي: كنت معه في بعض أوقاته، أُماشيه في إحدى طرقاته، فضجر لضيقِ الحال، فقال:

أَلا موتٌ يُبَاعُ فَأشْتَريهِ ... فَهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فِيهِ
أَلا رَحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تَصدّقَ بِالوفاةِ على أَخيهِ

ثم تصرَّف بما يُرْضِيه الدهر، وبلغ المهلبي مَبْلغه قال أبو علي: دخلت البصرة فاجتزت بِسُرَّ مَنْ رأى، وإذا أنا بناشطيات وحراقات وَزَبارب وطَيَّارات في عُدَّةٍ وعُدَد، فسألتُ: لِمَنْ هذا؟ فقيل: للوزير المهلبي، ونعتوا لي صاحبي؛ فوصلتُ إليه حتى رأيته، فكتبتُ إليه رقعة، وتوصّلت حتى دخلتُ فسلَّمت، وجلستُ حتى خلا مجلسه، فدفعتُ إليه الرقعةَ وفيها:

---

(١) السُّلافُ: أَفضل الخمر وأخلصها، ومن كل شيءٍ: خالصه.
(٢) المُتَنَخَّلُ: المختار.
(٣) وكانت وفاته سنة ٣٥٢ هـ/ ٩٦٤ م.
(٤) الأَشراك: جمع شَرَك، وهو حبالة الصائد.

ألاَ قُلْ للوزير بلا احْتِشامٍ مَقالَ مُذَكِّرٍ ما قَدْ نَسِيهِ
أَتَذْكُرُ إذ تَقولُ لِضيقِ عَيْشٍ «ألاَ مَوْتٌ يُبَاعُ فأَشْتَرِيهِ»

فنظر إليَّ وقال: نعم، ثم نهض وأنهضني معه إلى مجلس الأُنْس، وجعل يُذَاكِرني ما مَضَى، ويَذْكُرُ لي كيف ترقَّت حالُه، وقُدِّم الطعام فَطعِمْنَا، وأقبل ثلاثةٌ من الغلمان على رأس أحدِهم ثَلاَثُ بِدَر[١]، ومع الآخر تخوتٌ وثياب، ومع الآخر طيبٌ وبخور، وأقبلَتْ بَغْلَةٌ رائعة بسَرْجٍ ثقيل؛ فقال: يا أبا علي؛ تَفضَّلْ بقبول هذا، ولا تتخلَّف عن حاجة تَعْرِضُ لك، فشكرته وانصرفت، فلما هَمَمْتُ بالخروج من الباب استردّني وأنشدني بديها:

رَقَّ الزمانُ لِفَاقتي وَرَثَى لِطُولِ تَحرُّقي
وَأَنَالَني ما أرْتجي وَأَجارَ مِمَّا أتَّقي
فَلأَغْفِرنَّ لَهُ الكثـ ـيرَ من الذنوبِ السُّبَّقِ
إلاّ جِنايَتَهُ التي فَعلَ المَشيبُ بِمَفْرِقي

* * *

منزلة العقل وطريق رياضته

قال بعضُ العلماء: العقول لها صُوَرٌ مثلُ صورِ الأجسام، فإذا أَنْتَ لم تَسْلُكْ بها سبيلَ الأدب حارَتْ وضلَّت، وإن بَعثْتَها في أَوْدِيتها كلّت وملّت، فاسْلُكْ بعقلك شِعَاب المعاني[٢] والفهم، واستَبْقِهِ بالجمَام للعلم[٣]، وارْتَدْ لعقلك أَفْضلَ طبقاتِ الأدب، وتَوَقَّ عليه آفةَ العَطَب؛ فإنَّ العقلَ شَاهِدُك على الفَضْل، وحَارِسُك من الجهل.

واعْلَمْ أنَّ مغارِسَ العقول كمغارس الأشجار؛ فإذا طابت بِقَاعُ الأرض للشجر زكا ثَمَرُها، وإذا كَرُمَت النفوسُ للعقول طاب خَيْرُها، فاغْمُرْ نفسَك بالكرم، تَسْلَمْ من الآفةِ والسَّقَم.

واعلَمْ أنَّ العقلَ [الحسن] في النفسِ اللئيمة، بمنزلة الشجرة الكريمة في الأرض

---

(١) البِدَرُ: جمع بَدْرَة، وهي كيس فيه مقدار من المال يُتَعامَلُ به، وَيُقَدّم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.
(٢) الشِّعَابُ: جمع شِعْب، وهو الطريق في الجبل.
(٣) الجِمَامُ: الراحة.

الذميمة، ينتفع بثمرها عَلَى خُبْثِ المَغْرِس؛ فاجْتَنِ ثمرَ العقول وإن أَتاك من لِئَام الأنفس. [وقال النبي عليه السلام: «ربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أوعى له». وقيل: رب حامل فقه غير فقيه، ورب رمية من غير رام].

الحكمة وواجب العاقل إزاءها

وقيل: الحِكْمَةُ ضالَّةُ المؤمن، أينما وجدها أخذها. وسمع الشَّعبيُّ الحجاج بن يوسف وهو على المنبر يقول: أمّا بعد، فإنّ الله كتب على الدنيا الفنَاءَ، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناءَ لما كُتِبَ عليه البقاء، ولا بَقاء لما كُتِبَ عليه الفناء، فلا يغرّنكم شاهد الدنيا عن غائبِ الآخرة، وأَقْصِرُوا من الأمل، لِقِصَرِ الأجل. فقال: كلامُ حكمةٍ خَرَجَ منْ قلبٍ خَرَابٍ! وأخرج ألواحَه فكتب.

وقد روي ذلك عن سُفْيان الثَّوْري[١].

وقد سُمع إبراهيم بن هشام وهو يَخْطُب على المنبر ويقول: إن يوماً أشاب الصغير، وأسْكَرَ الكبير، ليومٌ شَرُّه مُسْتَطِير!

وصف الكتب

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ[٢]: الكتاب وعاءٌ مُلِىء عِلْماً. وظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً، وَبُسْتَان يُحْمَلُ في رُدْن[٣]، ورَوْضَةٌ تقلَّب في حِجر، ينطق عن الموتى، وَيُتَرْجِمُ كلامَ الأحياء.

وقال: من صنَّف كتاباً فقد استهدف[٤]؛ فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف[٥].

---

(١) هو أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق... بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الثوري الكوفي: كان إماماً في علم الحديث، وأجمع الناس على دينه وورعه وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين. توفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ٣٨٦).

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان: ١/ ٣٨ ـ ٤١.

(٣) الردن: أصل الكم، ويستعمل في الكم نفسه. وفي الحيوان: «فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تُقَلُّ في حِجْر».

(٤) استهدف: صَيَّر نفسه هدفاً لسهام النقد.

(٥) استقذف: عرَّض نفسه للقذف.

وقال: لا أعلم جاراً أبرّ، ولا خليطاً أنْصَف، ولا رفيقاً أطوع، ولا مُعَلِّماً أخضع، ولا صاحباً أظْهَر كفاية، وأقلَّ جناية، ولا أقلّ إملالاً وإبراماً، ولا أقلّ خلافاً وإجراماً، ولا أقلّ غِيبةً، ولا أبعد من عَضِيهة[١] ولا أكثر أعجوبة وتصَرّفاً، ولا أقل صَلَفاً وتكلّفاً، ولا أبعد من مِرَاء، ولا أترك لِشغْب، ولا أزهد في جِدال، ولا أكفّ عن قتال، مِنْ كتاب. ولا أعلم قَريناً أحْسَن مُواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحْضر مَعُونة، ولا أقلّ مَؤُونة، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمع أمْراً، ولا أطيب ثمرة، ولا أقْرب مُجْتَنَى، ولا أسرع إدراكاً في كل أوَانٍ، ولا أوجد في غير إبّان، مِنْ كتاب. ولا أعلم نِتَاجاً في حداثة سنّه، وقربِ ميلاده، ورِخَصِ ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من التدابير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمودِ الأخبارِ عن القرون الماضية، والبلاد المُتَراخِية، والأمثال السائرة، والأمم ما يَجْمعُ الكتاب[٢].

المأمون يصف الكتاب لأبيه الرشيد

ودخل الرشيد على المأمونِ وهو يَنْظر في كتابٍ، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب يَشْحَذ الفِكْرَة، وَيُحسنُ العِشرة. فقال: الحمدُ لله الذي رزَقني مَنْ يرى بِعَيْن قلبه أكْثرَ مما يرى بعين جسمه.

بعض العلماء يصف سروره بالكتب

وقيل لبعض العلماء: ما بَلغَ من سرورك بأدبك وكُتُبك؟ فقال: هي إن خَلَوْت لذّتي، وإن اهتممتُ سَلْوَتي، وإن قلتَ: إنَّ زهْرَ البستان، ونَوْر الجنان، يَجْلُوان الأبصار، ويُمْتِعَان بحسنهما الألحاظ؛ فإن بستانَ الكتب يَجْلُو العقل، وَيَشْحَذُ الذّهْن، ويُحْيي القلب، ويقوِّي القريحة، ويُعِينُ الطبيعة، ويَبْعَثُ نتائج العقول، ويستثير دفائنَ القلوب، ويُمتِعُ في الخَلْوَةِ، ويُؤْنِسُ في الوَحْشَة، ويُضْحِكُ بنوادره، ويَسُرُّ بغرائبه، ويفيد ولا يَستفيد، ويُعْطي ولا يأخذ، وتَصِلُ لذَّته إلى القلب، من غير سآمة تُدْرِكُك، ولا مشقةٍ تَعْرِض لك.

لأبي الطيب المتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي[٣]:

---

(١) العَضِيهةُ: الكذب والإفك والبهتان.

(٢) في الحيوان: «ما يجمع لك الكتاب».

(٣) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٩١.

وَللسِّـرِّ منِّـي مَـوْضِـعٌ لا يَنَـالُـهُ ... نَـديـمٌ، ولا يُفْضِـي إليـه شَـرَابُ[١]
وَلِلْخَـوْدِ منـي سـاعـةٌ، ثـم بَيْنَنَـا ... فَـلاَةٌ إلـى غَيْـرِ اللقـاءِ تُجَـابُ[٢]
ومَـا العِشْـقُ إلاّ غِـرَّةٌ وَطَمَـاعـةٌ ... يُعَـرِّضُ قَلْـبٌ نَفْسَـهُ فيُصَـابُ[٣]
وَغَيْـرُ فـؤَادِي لِلْغَـوَانِـي رَمِيَّـةٌ ... وغَيْـرُ بَنَـانـي للـرِّخَـاخِ رِكَـابُ[٤]
تَـركْنَـا لأَطْـرافِ القَنَـا كـلَّ لَـذَّةٍ ... فليـس لنـا إلاّ بِهِـنَّ لِعـابُ[٥]
نُصَـرِّفُـه للطَّعْـنِ فَـوْقَ سَـوَابـحٍ ... قـد انقَصَفَـتْ فيهـنَّ مِنْـهُ كِعَـابُ[٦]
أَعَـزُّ مكـانٍ فـي الـدُّنَـا سَـرْجُ سـابـحٍ ... وَخَيْـرُ جَلِيـسٍ فـي الـزّمَـانِ كِتَـابُ[٧]

فقر في الكتب

إنفاق الفضّة على كُتب الآداب، يُخلفك عليه ذَهَبَ الألباب. إنّ هذه الآداب شَوَارد، فاجعلُوا الكتبَ لها أزِمّة. كتاب الرجل عُنوان عقله، ولسانُ فضله.

ابن المعتز: مَن قرأَ سَطْراً من كتاب قد خطّ عليه فقد خان كاتِبَه؛ لأن الخطّ يُحْرز ما تحته.

---

(١) النديم: الجليس على الشراب. يفضي: ينتهي. يريد أنه كتوم للسرّ، يضعه حيث لا يطلع عليه النديم، ولا يصل إليه الشراب مع تغلغله في البدن.
(٢) الخَوْدُ: الفتاة الجميلة الناعمة. وتُجاب: تُقْطَعُ. يقول: أصحب المرأة حيناً يسيراً، ثم أسافر عنها، فيكون بيني وبينها فلاة أقطعها إلى حيث لا نلتقي.
(٣) الغِرَّةُ: الغرور. يقول: العشق غرور بالمعشوق، وطمع في وصله، إذا وقعا في قلب العاشق عرض نفسه للعشق فيصاب به.
(٤) الغواني: النساء الحسان، الواحدة: غانية. والرمية: ما يُرْمَى بالسهام. والبنان: أطراف الأصابع. والركاب: المطي. والرخاخ: أدوات الشطرنج، ويروى: الزجاج. يقول: لا تصيبني الحسان بسهام لحاظهن لأني أصون نفسي عن هواهن، ولا أتعاطى كؤوس الخمر، فتصير يديَّ مركباً للزجاج.
(٥) القنا: عيدان الرماح. واللِّعاب: الملاعبة. يقول: تركنا شهواتنا لأطراف الرماح، أي أحلنا لذاتنا عليها، فإذا دعانا حبُّ اللهو، لهونا بمطاعنة الأقران.
(٦) السوابح: الخيول. وفي الديوان: «الحوادر»: جمع حادر، وهو الغليظ السمين. والكعاب: العُقَد بين أنابيب الرمح. يقول: نصرف الرماح فوق خيل غلاظٍ سِمَانٍ، قد ألفت الطعن قديماً، وانكسرت فيها كعاب من الرماح.
(٧) الدنى: جمع الدنيا. السابح: الفرس السريع الجري.

بُزَرْجَمُهْر: الكتبُ أَصْدَاف الحِكم، تنشقُّ عن جواهر الكلم.

بعض الكتاب: إعجام الخطّ يمنع من استعجامه، وشَكْله يؤمن من إشكاله.

كأن هذا الكاتب نَحَا إلى قول أبي تمام[١]:

تَرَى الحادثَ المُسْتَعجِمَ الخَطْبِ مُعْجَماً ... لَديهِ، ومَشْكُولاً إذا كانَ مُشْكِلا[٢]

ما كُتب قرّ، وما حُفِظ فرّ. الخطوط المُعْجَمَة، كالبرود المُعْلَمَة.

وقال ابن المعتز يصف كتاباً:

وَذي نُكَتٍ مُوشَّى نَمَّقَتْهُ ... وَحاكَتْهُ الأَنامِلُ أَيَّ حَوْكِ

بِشَكْلٍ يَرْفَعِ الإشكالَ عَنْهُ ... كأَنَّ سُطورَه أَغصَانُ شَوْكِ

جملة من ألفاظ أهل العصر

في صفة الكتب وتهاديها، وما يتعلق بأسمائها ومعانيها

حضرة مولاي تَجلُّ عن أنْ يُهْدَى إليها غيرُ الكتب، التي لا يترفّع عنها كبير، ولا يَمْتَنِعُ منها خطير، وقد فكّرت فيما أنفذت به مقيماً للرَّسْم في جملة الخدَم، وحافِظاً للاسم في غمارِ الْحَشم، فلم أجدْ إلا الرّقَّ الذي سبق مُلْكَهُ له، والمال الذي مَنَحهُ وخَوَّله، فَعدَلْتُ إلى الأَدَبِ الذي تَنْفُقُ سوقُه بباب سيدنا ولا تَكْسَد. وتهبّ ريحُه بجانبه ولا تَرْكُد. وأنفذت كتابي هذا راجياً أن أُشَرَّفَ بقبوله، وَيُوقّع إليَّ بحصوله؛ ولَمّا وجب على ذوي الاختصاص لسيدنا إهداءُ ما جرت العادةُ بتسابق الأولياء إلى الاجتهاد في إهدائه، وجب العدولُ في إقامة رسم الخدمة إلى اتباع ما صدر عنه من الرخصة فيما تسهُلُ كلفته، وتجلّ عند ذوي الألباب قيمتُه، وتحلو ثمرتُه. وهو عِلْمٌ يُقْتَنَى، وأدبٌ يُجْتَنَى.

لابن طَبَاطِبا

قال أبو الحسن بن طَبَاطِبا العَلَوي[٣]:

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٤٩. والبيت من قصيدة طويلة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.

(٢) المستعجم: الخفيّ. الخطب: الأمر العظيم. معجماً: مُنقّطاً. مشكولاً: مُعلّماً بالشكل. المُشْكِل: المشتبه. أي: يرى الحادث الغامض واضحاً كأنها كتابة مُنقّطة مشكولة.

(٣) هو أبو الحسن، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم العلوي، المعروف بابن طباطبا: عالم، شاعر، أديب. ولد بأصبهان، وتوفي بها سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م. من تصانيفه: «عيار =

لا تُنْكِـرَنْ إهْـدَاءَنَـا لـك مَنْطِقـا مِنْـكَ استفـدْنـا حُسْنَـهُ وَنِظـامَـهْ
فَـاللَّـهُ عـزَّ وجـلَّ يَشْكُـرُ فِعْـلَ مَـنْ يَتْلُـو عَلَيْـهِ وَحْيَـهُ وكـلامَـهْ

لأحمد بن يوسف

وأهدى أحمد بن يوسف[1] إلى المأمون في يوم مِهْرجَانٍ هديةٌ قيمتها ألف ألف درهم، وكتب:

على العبدِ حَقٌّ فَهْوَ لا بُـدَّ فـاعِلُـهْ وَإن عَظُـم المَـوْلَـى وَجَلَّـتْ فَضـائلُـهْ
أَلَـمْ تَـرنـا نُهْـدي إلـى الله مَـالَـهُ وَإن كـان عَنْـهُ ذا غِنًـى وَهْـوَ قَـابِلُـهْ

لأبي الفَتْح البُسْتي

وقال أبو الفتح البستي:

لا تُنْكِـرنّ إذا أهـديـت نحـوك مِـنْ عُلـومِـك الغُـرّ أَو آدابِـك التُّحَفـا
فَقيّـمُ البَـاغ قَـدْ يُهْـدِي لِمـالكـه بِـرَسْـمِ خِـدْمَتِـهِ مـن بَـاغِـه التُّحَفـا[2]

لأبي إسحاق الصّابي

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى عَضُد الدولة في هذا المعنى: العبيد تُلاطِف ولا تُكَاثر الموالي في هَدَاياها، والموالي تَقْبَل الميسورَ منها قبولاً هو محسوبٌ في عطاياها. ولما كان ـ أدام الله تعالى عزّه! ـ مبرِّزاً على ملوك الأرض في الخطر الذي قَصَّروا عنه شديداً، والسعي الذي وقفوا منه بعيداً، والآداب التي عَجَزوا عن استعلامها فَضْلاً عن عِلْمها، والأدواتِ التي نَكِلوا[3] عن استفهامها فضلاً عن فَهْمِها، وجب أن يُعْدَلَ عن اختياراتهم فيما تَحْظَى به

= الشعر»، و«تهذيب الطبع»، و«العروض». (المرزباني، معجم الشعراء: ٤٢٧).

(١) هو أبو جعفر، أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، مولى بني عجل: كان من أفاضل كتّاب المأمون، وأذكاهم، وأفطنهم، وأجمعهم للمحاسن. وكان جيد الكلام، فصيح اللسان، مليح الخط. توفي سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٩ م، وأخباره كثيرة. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٢١٦/٥).

(٢) الباغُ: الطِّيبُ.

(٣) نكل عن الأمر نُكُولاً: جَبُنَ وَنَكصَ، يقال: نكل عن العدو، ونكل عن اليمين. ونكل فلاناً عن الشيء: نحّاه.

الجسومُ البهيمية، إلى اختيارِه فيما تحظَى به النفوسُ العليَّة، وعما يَنْفق في سوقهم العامية. إلى ما يَنْفُق في سوقه الخاصية، إفراداً لِرُتْبَتِه العُلْيا، وغايته القصوى، وتمييزاً له عمن لا يجري معه في هذا المضمار، ولا يتعلّقُ منه بالغُبَار. وقد حملت إلى الْخِزانة ـ عمرها الله! ـ شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم، فإنْ رأَى مولانا أن يتطوّل[١] على عَبْدِه بالإذن في عَرْضِ ذلك عليه مُشَرِّفاً له وزائداً في إحسانِه إليه فَعَلَ إنْ شَاء الله تعالى.

من أبي الطيب المتنبي إلى ابن العميد

وأَهْدى أبو الطيب المتنبي إلى أبي الفضل بن العميد في يوم نوروز قصيدة مدحه فيها يقول في آخرها[٢]:

كَثُرَ الفِكْرُ كيفَ نُهْدِي كما تُهـ ـدي إلى رَبِّها الرئيسِ عِبادُهْ[٣]

والّذي عِنْدَنا من المالِ والْخَيـ ـلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وَقِيادُهْ[٤]

فَبَعَثْنَا بِأَرْبَعِين مِهَاراً كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُه إنْشَادُهْ[٥]

فَارْتَبِطْهَا فإنَّ قَلْباً نَمَاهَا مَرْبِطٌ تَسْبِقُ الجيادَ جِيَادُهْ[٦]

وفي هذه الكلمة يقول وقد احتفل فيها، واجتهد في تجويد ألفاظها ومعانيها، فعقَّب عليه أبو الفضل في مواضع وقف عليها فقال:

---

(١) يتطوَّل: يتفضَّل.

(٢) أبو الطيب المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٥٢ ـ ٣٧٢، ومطلع هذه القصيدة:

جَاءَ نَيْرُوزُنا وَأَنْتَ مُرادُهْ وَوَرَتْ بالذي أَرادَ زِنَادُهْ

وقد مدح بها المتنبي ابن العميد، وهَنَّأَهُ بالنيروز، ووصف سيفاً قلَّده إياه، وفرساً حمله عليه، وجائزة وصله بها، وكان ابن العميد قد عاب عليه قصيدةً رائية مدحه بها.

(٣) الرَّبُّ هنا: السيد. وفي الديوان: «كما أَهدت إلى رَبّها».

(٤) يقول: كيف تهدي إليه شيئاً كما تهدي العبيد إلى أسيادها، وكل ما عندنا من المال والخيل هو من عنده، قد وهبه لنا وقاده إلينا. وفي البيت طيٌّ ونشر لا يخفى.

(٥) المهار: جمع مُهْر. كَنَّى بالمهار عن أبيات القصيدة الأربعين، وجعل ميدانها الإنشاد لأنها تُعْرَفُ به، كما يُعْرَفُ المُهْرُ في الميدان.

(٦) نماها: من نماء النسب، ذكره جرياً على عادة العرب في حفظ أَنساب الخيل. والارتباط هنا: الحفظ. يقول: احتفظ بها، فإن القلب الذي نشأت منه، واتصلت نسبتها به تسبق جياده جياد غيره، أي ينظم من الشعر ما يفضل شعر سواه.

هَـلْ لِعُـذْرِي إِلَـى الهُمـامِ أَبِـي الفَضْـ ـلِ قُبُـولٌ سَـوَادُ عَيْنَـي مِـدَادُهْ[١]
أَنَـا مِـن شِـدَّة الحيـاءِ عَليـلٌ مَكـرُمَـاتُ المُعِلَّـةِ عُـوَّادُهْ[٢]
مـا كَفَـانـي تَقْصِيـرُ مـا قُلْـتُ فِيـهِ عَـنْ عُـلاَهُ حتـى ثَنـاهُ انْتِقَـادُهْ[٣]
مـا تَعَـوَّدْتُ أَنْ أَرى كـأَبِـي الفَضْـ ـلِ، وهٰـذَا الَّـذي أَتَـاهُ اعْتِيَـادُهْ[٤]
غَمَـرَتْنِـي فَـوائِـدٌ شـاءَ مِنْهَـا أَنْ يكـونَ الكـلاَمُ مِمَّـا أَفَـادُهْ[٥]
مـا سَمِعْنَـا بِمـن أَحَـبَّ العَطـايـا فَـاشْتَهـى أَنْ يَكُـونَ مِنْها فُـؤادُهْ[٦]

وقد كان مدحه بقصيدته التي أولها[٧]:

---

(١) الهُمامُ: السيد، الشجاع، السخيّ. والمداد: الحبر. يشير إلى نقد ابن العميد لقصيدته الرائية، ويعتذر مما فَرط له فيها من مواضع النظر. وقوله: سواد عيني مداده: من باب الدعاء، أي جعل الله سواد عيني مداداً له، وفي هذا إشارة إلى أن ابن العميد كان من أهل الأدب، المشتغلين بالكتابة والتصنيف.

(٢) العُوَّادُ: جمع عائد، وهو الزائر في المرض. يقول: أنا من شدّة حيائي من انتقاده شعري كالعليل، وهدايا الذي أَعلّني تأتيني كل يوم كأنها تعودني من ذلك الاعتلال.

(٣) يذكر سبب حيائه منه فيقول: ما كفاني تقصير شعري عن مبلغ عُلاه، حتى شفعه بانتقاده والتنبيه على ما فيه من العيوب.

(٤) يقول: لم أتعود أن أمدح مثله، فإن قَصَّرتُ عن كُنْهِ وصفه كنت معذوراً، والذي ورد عليه من كلامي شيء معتادٌ عنده، لأنه لا يزال يُمْدَح، فهو أعلم الناس بالشعر. قال الواحدي (ت ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م): وهذا يدل على تحرز أبي الطيب منه، وتواضعه له، ولم يتواضع لأحد في شعره تواضعه لابن العميد.

(٥) في الديوان: «شاءَ فيها».
يشير إلى ما انتقده عليه في شعره، فيقول: إنه أرشده بذلك إلى صواب القول، فكان الكلام من جملة الفوائد التي نالها عنده.

(٦) يقول: لم نسمع قبله بأحد أحب الإعطاء، فتمنى أن يكون قلبه في جملة عطاياه. والمراد: أن ما أفاده من العلم صادر من قلبه، فكأنه قد أعطاه قلبه، والقلب هنا بمعنى العقل.

(٧) المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٤٤ ـ ٣٥١. وقد ذكر الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م) أن المتنبي لما قصد مصر، ومدح كافوراً، مدح الوزير أبا الفضل المذكور بقصيدته التي أولها «بادٍ هواكَ»، وجعلها موسومة باسمه، فكانت إحدى قوافيها «جعفرا»، وكان قد قال فيها:

صُغْـتُ السِّـوارَ لأَيِّ كَـفٍّ بَشَّـرَتْ بِـابْـنِ الفُـراتِ وَأَيِّ عَبْـدٍ كَبَّـرا

فلما لم يرضه، صرفها عنه، ولم ينشده إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة، قصد أرجان، وبها =

بـادِ هَـواكَ صَبَـرْتَ أَمْ لـم تَصْبِـرَا ... وبُكَـاكَ إن لـم يَجْـرِ دَمْعُـكَ أَوْ جَـرَى

وفيها معانٍ مخترعة، وأبيات مبتدعة، يقول فيها:

مَـنْ مُبلـغُ الأعـراب أنّـي بَعْـدَهَـا ... جَـالَسْـتُ رَسْطَـاليـس والإسكَنْـدرا[١]

وَمَلِلْـتُ نَحْـرَ عِشَـارِهـا فَـأضـافنـي ... مَـنْ يَنْحَـرُ البِـدَرَ النُّضَـار لِمَـنْ قَـرَى[٢]

وَسمِعْـتُ بَطْلِيْمُـوس دَارِسَ كُتْبِـهِ ... مُـتَملِّكـاً مُتَبـدِّيـاً مُتحضِّـراً[٣]

وَرأيـتُ كـلَّ الفَـاضليـنَ كـأنَّمـا ... رَدَّ الإلٰـهُ نُفُـوسَهـم وَالأَعْصُـرَا[٤]

نُسِقُـوا لنـا نَسَـقَ الحسـابِ مُقـدَّمـاً ... وَأَتـى فَـذلِـكَ إذْ أَتَيْـتَ مُـؤَخّـرَا[٥]

وفيها يقول:

فَـدعـاك حُسَّـدُك الـرئيـسَ وَأَمْسكُـوا ... وَدعـاكَ خَـالِقـكَ الـرئيـسَ الأَكْبَـرَا

خَلَقَـتْ صِفـاتُـك فـي العيـونِ كَـلامَـهُ ... كـالخـطِّ يَمْـلأُ مِسْمَعـيْ مَـنْ أَبْصَـرا[٦]

أخذه من قول الطائي يصف قصائده[٧]:

بِقُـربٍ يَـرَاهَـا مَـنْ يـراهـا بِسَمْعِـهِ ... وَيَدْنُو إليها ذو الحِجَا وَهْوَ شَاسِعُ[٨]

= ابن العميد، فحوَّل القصيدة إليه، وحذف منها لفظ جعفر، وجعل ابن العميد مكان ابن الفرات.

(١) يريد: أن ابن العميد قد جمع بين حكمة أرسطاليس وسعة ملك الإسكندر.

(٢) العِشار: النياق الوالدات، جمع عشراء. والبِدر: جمع بَدْرَة، وهي كيس فيه سبعة آلاف دينار. والنضار: الذهب. وقرى: أضاف. يقول: مللت في صحبة الأعراب نحر الإبل، فأضافني من يجعل قِراه بِدَرَ الذهب.

(٣) بطليموس (الإسكندري): رياضي، جغرافي، وفلكي يوناني من أهل القرن الثاني للميلاد. نشأ وعاش في الإسكندرية، وأشهر مؤلفاته «المجسطي» وهو موسوعة فلكية رياضية، تقع في ثلاثة عشر كتاباً. (منير بعلبكي، موسوعة المورد: ٨/ ٩٥؛ الشهرستاني، الملل والنحل: ٢/ ١٤١). والمتبدي: الذي تخلق بأخلاق أهل البادية.

(٤) يقول: لقيت بلقائه كل فاضل من الأولين، لأنه قد جمع فضلهم، فكأني معاصرٌ لهم، وكأنَّ الله قد أحياهم وردَّ عصورهم.

(٥) نسقوا: سردوا.

(٦) المسمع: الأذن.

(٧) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٤٨٥. وفيه: «بِغُرٍّ يراها».

(٨) الشاسع: البعيد.

[فقر في وصف الكتب]

كتاب كَتَبَ لي أماناً من الدَّهر، وهنَّاني في أيام العمر. كتاب أوجب من الاعتداد فوق الأعداد، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد. كتابٌ النظرُ فيه نعيم مقيم، والظفرُ به فتح عظيم. كتاب ارتحت لعيانه، واهتززت لِعُنْوَانه. كتاب هو من الكتب المَيَامين[١]، التي تأْتي من قبل اليمين. كتاب عددته من حُجول العُمرِ وغرره[٢]، واعتَدَدْته من فُرَص العيش وغُرَره[٣]. كتابٌ هو أنْفس طالع، وأكْرم متطلّع، وأحْسن واقع، وأجلُّ متوقع. كتابٌ لَوْ قُرِىء على الحجارةِ لانْفجرَت، أو عَلى الكواكب لانْـتَـثَرت. كتابٌ كِدتُ أُبْليه طيًّا ونشراً، وقبّلتهُ أَلْفاً، ويَدَ حامله عشراً. كتابٌ نسيتُ لحسنه الرَّوْضَ والزّهر، وغفرتُ للزمان ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر. كتابٌ أَمْلَتْهُ هِزّة المجدِ على بنانكَ، ونَطَقَ به لسانُ الفَضْل عن لسانك. أنا أَلْتقطُ من كلِّ حَرْفٍ تُدِيرُهُ أَنامِلُكَ تُحفة، وآخُذُ من كل سطرٍ تتجشَّمُ تخطيطَه نُزْهة. إذا قرأت من خطك حَرْفاً، وجدتُ على قلبي خِفًّا[٤]، وإذا تأمّلت من كلامك لفظاً، ازددتُ من أُنْـسِي حَظّاً. كتاب كتبَ لي أماناً من الزمان، وتوقيعٌ وقعَ مِنِّي مَوْقعَ الماء من العطشان. كتاب هو تَعِلَّةُ المسافر[٥]، وأُنْسَةُ المستوحش، وزبد الوصال، وعُقْلة المُسْتوفز[٦]. كتاب هو رُقية القلب الـسليم[٧]، وغرّة العيش البهيم[٨]. كتابٌ هو سَمَرٌ بلا سَهَر، وصَفْوٌ بلا كَدَر. كتابٌ تمتَّعت منه بالنعيم الأبيض، والعيش الأخضر، واستلمته استلام الحجر الأسود[٩]، ووكلتُ طرفي من سُطُورِه بِوَشْيٍ مُهلَّل، وتاج مُكَلَّل، وأَوْدَعْتُ سمعي من محاسنه ما أنساني سماعَ الأغاني من مطربات الغواني[١٠]. نشأت سَحَابة من لفظك، غَيْمتهَا نِعمةٌ سابغَة، وغَيْثُها

---

(١) الميامين: جمع ميمون، وهو ذو اليمن (البركة)، المُبارك.

(٢) الحُجُول: جمع حِجْل، وهو بياض في القوائم، والحِجْلُ: الخلخال، والقيد. والغُرَرُ: جمع غُرَّة، وهو بياض في الجبهة.

(٣) الغُرَرُ: جمع غِرة (بكسر الغين): النزق، وغالباً ما يكون في سنّ الشباب.

(٤) الخف والخفة: الارتياح.

(٥) تعلة المسافر: ما يتلهى به لقطع الوقت.

(٦) المستوفز: المُتهيّىء للوثوب.

(٧) الرُّقْيَةُ: العَوْذَةُ التي يُرْقَى بها المريض ونحوه. والسليم: الملدوغ، يسمى كذلك تيمناً بالشفاء.

(٨) البهيم: المظلم.

(٩) يريد: أنه استلمه تيمناً، كما يتقرب الحاج إلى الله باستلام الحجر الأسود.

(١٠) الغواني: جمع غانية، وهي المرأة التي استغنت بجمالها عن الزينة، وقيل: هي التي استغنت =

حِكْمَةٌ بالغةٌ، سقَتْ رَوْضةَ القلب، وقد جهدتها يَدُ الْجَدْبِ[١]؛ فاهتزَّتْ وَرَبَتْ، واكتست ما اكتسَبَتْ. كتابٌ حسبته ساقطاً إليّ من السماء، اهتزازاً لمطلعه، وابتهاجاً بِحسْنِ موقعه، تناولتُه كما يُتناول الكتابُ المرقومُ، وفضضتُهُ كما يُفَضُّ الرَّحيقُ المختوم[٢]. كتابٌ كالمشتري شَرُفَ به المسير، وقميص يوسفَ جاء به البشير. كتاب هو من الحسن، رَوْضَةُ حَزْن، بل جَنَّةُ عَدْنٍ، وفي شرح النفس وبَسْطِ الأنس بَرْدُ الأكباد والقلوب، وقميص يوسف في أجفان يعقوب. قد أهديت إليّ محاسنَ الدنيا مجموعةً في ورقه، وباهج الحلى والْحُلَل محصورة في طبقه. كتابٌ ألصقتُه بالقَلْبِ والكبد، وشممته شمَّ الولد. ورَدَ منك المِسْكُ ذكيا، والزهرُ جَنِيًّا، والماء مريًا[٣]، والعيش هنيّاً، والسحر بابليّاً[٤] كتاب مَطلعهُ أَهِلّة الأعياد، وموقعه موقع نَيْل المراد. كتاب وجدته قصيرَ العمر، كليالي الوصال بعد الهجْر، لم أبدأ به حتى استكمل، وقارَبَ الآخِر منه الأوّل. كتاب متقض الأطراف، منقطع الأكتاف، أبتَرخ الجوارح، مضطرب الجوانح، كتاب كأنه توقيع متحرِّز، أو تعريض مُتبرز[٥]، كاد يلتقي طَرَفَاهُ، ويتقارب مُفْتتحه ومُنْتَهَاهُ. كتاب التقَتْ طرفاه صِغَراً، واجتمعت حاشيتاه قِصراً. ما أظنني ابتدأْتُهُ حتى ختمته، ولا استفتحته حتى أتممته، ولا لمحته حتى استوفيته، ولا نشرته حتى طويته، وأَحْسبني لو لم أجوّد ضبطه، ولم أُلْزِم يَديَّ حِفْظَهُ، لطار حتى يختلط بالجو، فلا أَرَى منه إلا هباءً منثوراً، وهواءً منشوراً. كتاب حسبته يطيرُ من يدي لِخفَّتِهِ، ويلطف عنِ حسّي لِقلَّتِهِ، وعجبتُ كيف لم تحمله الرياحُ قبل وصوله إليّ، وكيف لم يختلط بالهواء عند وصوله لديّ. كتاب قصَّ الاقتصادُ أجنحته، فلم يَدَع له قوادم وَلا خَوَافِي، وأخذ الاختصار جثته، فلم يبق أَلفاظاً ولا معاني. طلعَ كتابُك كإيماءٍ بطَرْفٍ، أو وَحْيٍ بكَفّ.

= ببيت أبيها عن الأزواج، والمراد هنا: القيان: المغنيات.

(١) أجهدتها: أشقتها، أتعبتها. الجدب: القحل، القحط، المحل.

(٢) الرحيق المختوم: الخمر المعتقة التي لم تُفَضّ عن دنانها الأختام، قال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (سورة المطففين، آية ٢٦).

(٣) المريء: الهنيء.

(٤) بابل: مدينة ينسب إليها السحر، وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ على الملكين بِبَابل هَاروتَ وَمارُوت﴾ (سورة البقرة، آية ١٠٢).

(٥) المتبرز: المتعفف، ورجل برز، وامرأة برزة: عفيف وعفيفة.

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز: استعرت من علي بن يحيى المنجم[١] جُزْءاً فيه أَخبار مَعْبد بخط حماد بن إسحاق الموصلي، وكان وعدني به، فبعث إليّ بستّ ورقات لِطَاف، فرددتها وكتبت إليه: «إن كنتَ أَردتَ بقولك جُزْء الجزء الذي لا يتجزّأ فقد أصبت، وإن كنت أردتَ جُزْءًا فيه فائدةٌ للقارىء، ومُتْعَةٌ للسامع، فقد أحَلْت[٢]؛ وقد رَدَدْتُه عليك بعد أن طار اللَّحْظ عَلَيْه طيرة».

فأجابني: إذا كان السِّفرُ عِنْدَك مَنْجَاةً فما أصْنع[٣]؟

[المحادثة والمجالسة]

وقال أبو العباس: دخل رجلٌ على الحسن بنِ سَهْلٍ بعد أن تأخر عنه أياماً، فقال: ما يَنْقَضِي يومٌ من عمْرِي لا أراك فيه إلا علمت أنه مبتورُ القدرِ، منحوس الحظّ، مَغْبُون الأيام.

فقال الحسن: هذا لأنّك توصل إليّ بحضورك سُروراً لا أجدُه عند غيرك، وأتَنَسَّم من أرواح عِشْرَتك ما تجدُ الحواسُّ به يُغْيَتَها، وتستوفي منه لذَّتها، فنفسُك تألف مني مثل ما آلَفُهُ منك.

وكان يقال: محادثة الرِّجال تَلْقيح الألباب[٤].

وقال ابن الرومي[٥]:

وَلقَــدْ سَئِمْــتُ مَــآرِبِــي فَكــأنَّ أَطْيَبَهَــا خَبِيــثُ
إلاَّ الحــديــثَ؛ فــإنّــهُ مِثْــلُ اسْمِــهِ أبــداً حَــدِيــثُ

قال مخارق: لقيني أبُو إسحاق إسماعيلُ بن القاسم قبل نسكه، فقال: أنَا والله صَبٌّ بك، ولُوع إليك، مغمورُ القلب بشكرك، واللسانِ بذِكْرك، متشوِّف إلى رُؤيتك

---

(١) هو أبو الحسن، علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم: راوية للأشعار والأخبار، حاذق في صنعة الغناء. نادم المتوكل، واختص بمن بعده من الخلفاء أيام المعتمد. توفي بـ «سُرّ من رأى» سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م، ودفن بها. من آثاره: «كتاب البطيخ»، و«أخبار إسحاق بن إبراهيم»، وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٧/ ٣٦١).

(٢) أحلت: تكلمت بالمحال.

(٣) المنجاة: ما يُتَطَهَّرُ به من ورق ونحوه.

(٤) التلقيح: ما تلقح به الشجرة لتثمر، أو ليجود ثمرها.

(٥) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٤٦٥. وفيه: «فكأنَّ طيِّبها».

ومفاوضتك، وقد طالتِ الأيامُ على ما أعِدُ به نَفْسِي من الاجتماع معك، ومن قضاء الوَطَر منك؛ فما عندك؟ أنا الفِدَاء لك! وتزورني أم أَزورك؟

قلت: جعلني الله فِدَاكَ! ما يكونُ عند مَنْ هو منك بهذا الموضع وفي هذا المحلّ إلا الانقياد إلى أمرك، والسمعُ والطاعةُ لك، ولولا أن أسيء الأدبَ في أمرٍ بدَأْتَ فيه بالفضل لقلت: إن كثيرَ ما ابتدأتَ به من القول يقلُّ فيما عندي من الشوقِ إليك، والشَّغَف بك، دون ما حرَّك هذا القولُ مني، فوجَبتْ لك به المنَّة عليّ، وأنا بين يديك، فَاثْنِ عِنَاني إلى ما أرَدْت، وَقُدْنِي كيف شئت، تجدني كما قال القائل:

مـا تَشْتَهِيـهِ فَـإنـي اليَـوْمَ فَـاعِلُـهُ وَالقَلْـبُ صَـبٌّ فمـا جَشَّمتَـهُ جَشِمَـا

وذكر سهل بن هارون رجلاً، فقال: لم أر أحسن منه فَهْماً لجليل، ولا تفهماً لدقيق.

أشار إليه أبو تمام فقال[1]:

وَكُنْـتُ أَعَـزّ عِـزًّا مـن قَنُـوعٍ تَعَـرَّضَـهُ صَفُـوحٌ مـن مَلُـولِ[2]

فَصِـرْتُ أَذلّ مِـنْ مَعنًـى دقيـقٍ بـه فَقْـرٌ إلـى ذِهـنٍ جليـلِ

بين المأمون وسعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم للمأمون: لو لم أَشْكُر الله تعالى إلاّ على حُسْنِ ما أَبْلاني من أَمير المؤمنين من قَصْدِه إليَّ بحديثه، وإشارته إليّ بِطَرْفه؛ لقد كان في ذلك أَعظمُ الرِّفعة، وأرفعُ ما تُوجِبه الحرمة. فقال: يفعل أميرُ المؤمنين ذلك؛ لأن أمير المؤمنين يَجِدُ عندك من حُسْن الإفهام إذا حدّثت وحسن الفهم إذا حُدّثت ما لا يجدُه عند أحَدٍ ممن مضى، ولا يظنُّ أنه يجده عند أحدٍ ممن بَقي، فإنك لتَستَقْصِي حديثي، وتَقِفُ عند مقاطع كلامي، وتُخْبِرُ بما كنتُ أغفلتُه منه.

المتوكل وأبو العيناء

وقال المتوكل لأبي العيناء[3]: ما تحسنُ؟ قال: أَفْهَمُ وأُفهِمْ.

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٢٥٥. والبيتان من قصيدة يهجو بها عيّاش بن لَهيعة.

(٢) القَنُوعُ: الراضي بما قسم له. عَوّضه: أعطاه عوضاً، أي بدلاً. الصفوح: الكريم، والكثير الصفح. وفي الديوان: «صَفُوحٌ عَنْ مَلُولِ».

(٣) هو أبو العيناء، محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان الهاشمي بالولاء، مولى أبي جعفر المنصور. ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، وكان فصيحاً ظريفاً لَسِناً. فقد بصره بعد الأربعين، وتوفي سنة ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٣٤٣).

بين حكيم وتلميذه

وقال بعض الحكماء لتلميذه، وقد ضَرَبَ الموسيقى: أفهمت؟ قال: نعم، قال: بل لم تفهم؛ لأني لا أَرى عليك سرورَ الفهم! وقد قيل: مَنْ نظر إلى الربيع وأنواره، والروض وأصْباغه، ولم يبتهج كان عديمَ حِسّ، أو سقيم نَفْس.

أبو تمام يصف جارية تغني بالفارسية

ومر أبو تمام بايرشهر من أَرْض فارس، فسمع جارية تغنّي بالفارسية، فَشَاقَه شجيّ الصوت، فقال[١]:

وَمُسْمِعَةٍ تَروقُ السمعَ حُسناً ... وَلم تُصْممهُ، لا يَصْمُمْ صَداهَا!
لَوتْ أوتارها فَشَجتْ وَشاقتْ ... فَلَوْ يَسْطيعُ حَاسِدُها فَدَاهَا
وَلم أَفْهم معانيها، وَلكنْ ... وَرَتْ كَبِدي فَلم أَجْهلْ شَداهَا
فَكُنْتُ كأنّني أَعْمَى مُعَنًّى ... يُحبُّ الغانياتِ ولا يَراهَا

أبو تمام يذكر أنه أخذ المعنى من بشار

قال أبو الفضل أحمدُ بن أبي طاهر: قلت لأبي تمام: أخذت هذا المعنى من أحد؟ قال: نعم، أخذتُه من قول بشار بن برد[٢]:

يا قومِ أُذْني لِبَعْضِ الحيِّ عَاشِقَةٌ ... وَالأُذنُ تَعْشَقُ قبلَ العينِ أَحياناَ
قالوا: بِمَنْ لا تَرى تَهْذِي؟ فَقلتُ لَهُمْ: ... الأُذن كالْعَيْنِ تُوفي القلبَ ما كانَا

وقال بشار أيضاً في هذا المعنى[٣]:

قَالتْ عَقِيل بن كَعْبٍ إذ تَعلَّقَها ... قَلبي فأَضْحَى بِهِ منْ حُبّها أَثَرُ[٤]
أَنَّى وَلم تَرَها تَهْذي! فَقُلْتُ لَهُمْ: ... إِنّ الفؤادَ يَرى ما لاَ يَرَى البَصَرُ[٥]

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٤٦٣.
(٢) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٨٣.
(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٢١٤.
(٤) عُقَيْلُ بن كعب: موالي الشاعر. تَعلَّقها: أَحبَّها.
(٥) في الديوان: «أَنَّى ولم ترها تصبو»، وصبا إليها: مال.

وقال[١]:

يُـزَهّـدني فـي حُـبّ عَبْـدَةَ مَعْشَـرٌ قُلـوبُهُـمُ فيهـا مُخـالِفَـةٌ قلبـي[٢]
فَقُلْتُ: دَعُوا قلبي وَما اختارَ وارْتَضَى فَبِالْقَلْبِ لا بِالعَيْنِ يُبْصِرُ ذو اللُّبِّ[٣]
وَما تُبْصِرُ العينانِ في مَوْضِعِ الهَوى وَلا تَسْمَـعُ الأُذُنَـانِ إلا مِـنَ القَلْـبِ

أشباه لمعنى بشار

وقد قال أبو يَعْقوب الخُرَيْمي[٤] في هذا المعنى، وكان قد أعورَ ثم عُمِي، وقيل: إنها للخليل بن أحمد[٥]:

قَـالـتْ أَتهـزأُ بـي غَـدَاةَ لَقِيتُهـا يـا لَلـرِّجَـالِ لِصَبْـوة العُمْيـانِ
فَـأَجبتهـا: نَفْسـي فِـدَاؤُكِ إِنَّمـا أُذْنـي وَعيْنـي فـي الهَـوى سِيَّـانِ

وقريب من هذا قول الحكم بن قتيبة وإن لم يكن منه:

إن كُنْتَ لَسْتَ معي فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعي يَرْعـاك قلبي وَإنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِي
العَيْـنُ تُبْصِـرُ مَـنْ تَهْـوَى وَتَفْقِـدهُ وَنـاظِـرُ القلـبِ لا يَخْلـو مِـنَ النظـرِ

وقال آخر:

أَمَـا والّـذِي لَـوْ شَـاءَ لـم يَخْلُـقِ الهَـوَى لَئِنْ غِبتَ عن عَيْني فما غِبْتَ عَنْ قَلْبي
تُـرِينِيـكَ عَيْـنُ الـوَهْـمِ حتـى كـأنّني أُناجيكَ مِنْ قُرْبٍ وإنْ لم تَكُنْ قُربي

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٤/١٩؛ (الأصفهاني، الأغاني: ٣/٦٧).
(٢) المعشر: الجماعة، متخالطين كانوا أو غير ذلك، وقيل: كلُّ جماعة أمرهم واحد.
(٣) ذو اللبّ: ذو العقل، ويروى: «ذو الحُبّ».
(٤) هو أبو يعقوب، إسحاق بن حسان بن قوهي، المعروف بالخريمي: شاعر مجيد، أصله من خراسان، ونزل بغداد، وكان متصلاً بخريم بن عامر المري وآله، فَنُسبَ إليه، وقيل: كان اتصاله بعثمان بن خريم. وقال أبو حاتم السجستاني: الخريمي أشعر المولدين. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٦/٣٢٦).
(٥) هو أبو عبد الرحمٰن، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تيم الفراهيدي، الأزدي، اليحمدي، البصري: نحوي، لغوي، وأول من استخرج علم العروض، وحصّن به أشعار العرب. توفي بالبصرة سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٤/ ١١٢).

وقال أبو عُثمان سَعيد بن الحَسن النَّاجِم:

لَئِنْ كانَ عَنْ عَيْنيَّ أَحمدُ غائباً فما هُوَ عن عَيْنِ الضَّميرِ بِغائبِ
لَهُ صُورةٌ في القلبِ لم يُقْصِها النوى وَلم تَتخَطَّفْها أَكُفُّ النوائبِ
إذا ساءَني مِنْهُ شُحُوطُ مَزارِه وَضَاقَتْ بِقَلْبي في نَواهُ مَذَاهبي[١]
عَطفْتُ على شَخْصٍ لَهُ غَيْر نَازِحٍ مَحَلَّتُهُ بين الحَشَا والتَّرائبِ[٢]

كيسان مستملي أبي عبيدة

وذكر أبو عبيدة كيسان مُستمليه في بعض الأمر، فقال: ما فَهِمَ، ولو فهم لَوَهِمَ[٣]. وكان كيسانُ يوصف بالْبَلادة والغفلة.

قال الجاحظ: كان يكتبُ غيرَ ما يسمع، ويستقني غير ما يكتب، ويقرَأُ غيرَ ما يستقني[٤]، ويُمْلي غير ما يقرأ، أمليت عليه يوماً:

عَجِبْتُ لِمَعْشَرٍ عَدَلوا بِمُعْتَمِرٍ أَبَا عُمَر

فكتب أبا بشر، وقرأ أبا حفص، واستقنى أبا زيد.

قال أبو عبَّاد: للمحدث على جليسه، السامع لحديثه، أن يَجْمَعَ له بَالَهُ، ويُصْغِي إلى حديثه، ويكتم عليه سِرَّهُ، ويبسط له عذره.

ما يجب للمحدث على جليسه

وقال: ينبغي للمحدث إذا أنكر عَيْنَ السامع أنْ يَسْتَفْهِمَهُ عن مَعْنى حديثه، فإن وجده قد أَخْلَص له الاستماع أتم له الحديث، وإن كانَ لاهياً عنه حرمهُ حُسْنَ الإقبال عليه، ونَفْعَ المؤانسة له، وعرفه بسوء الاستماع والتقصير في حق المحدث.

وقال: نَشَاطُ المحدّث على قَدْر فهم المستمع.

---

(١) الشُّحوطُ: البُعْدُ.
(٢) النازح: البعيد. الترائب: موضع القلادة من الصدر.
(٣) وهم: غلط، أخطأ.
(٤) استقنى: سَوَّدَ.

وكان عبد اللّه بن مَسْعُود[١] ـ رضي الله عنه! ـ يقول: حدِّثِ الناسَ ما حَدَّجُوك بأسماعهم[٢]، ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فُتُوراً فأمسك.

وقال أبو الفتح البُسْتي:

إذا أَحْسَسْتَ في لَفْظي فُتُوراً ... وَحِفْظِي وَالبلاغةِ والبيانِ
فلا تَرْتَبْ بِفَهْمِي إنَّ رَقْصِي ... على مِقْدارِ إيقاعِ الزَّمَانِ

وقال عامر بن عبد قيس: الكلمةُ إذا خرجَتْ من القلب وقعت في القلب. وإذا خَرجت من اللسان لم تُجاوِز الآذان.

وقال الحسن ـ وقد سمع متكلِّماً يَعِظُ فلم تَقَعْ مَوْعِظَته من قلْبِه ولم يرقَّ لها ـ: يا هذا؛ إن بقلبك لشرًّا، أو بقلبي!.

تكرار الحديث

وقال محمد بن صَبِيح المعروف بابن السمَّاك[٣] لجاريته: كيف ترين ما أَعِظُ الناس به؟ قالت: هو حَسَن، إلا أنك تكرره، قال: إنما أُكرِّره ليفهمه مَنْ لم يكن فَهِمه، قالت: إلى أن يفهمه البطيء يَثْقُل على سَمْع الذكي.

واسْتُعِيد ابنُ عباس حديثاً فقال: لولا أني أخافُ أن أَغُضَّ من بهائه، وأُرِيق من مائه، وأُخْلِق من جِدَّتِهِ، لأعدته.

وقال أبو تمام الطائي يصف قصائده[٤]:

مُنَزَّهةً عن السَّرِقِ المؤدّى ... مُكرَّمةً عَنِ المَعْنَى المُعَادِ[٥]

---

(١) عبد اللّه بن مسعود: صحابي جليل، توفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٣ م، وقد وردت ترجمته في مكان سابق.
(٢) حدجوك بأسماعهم: وجهوها نحوك.
(٣) هو أبو العباس، محمد بن صبيح المذكّر، مولى بني عجل، المعروف بابن السماك: كان زاهداً عابداً حسن الكلام. وهو كُوفي، قدم بغداد زمن الرشيد فمكث بها مدةً، ثم عاد إلى الكوفة وتوفي بها سنة ١٨٣ هـ/ ٨٠٠ م. والسمَّاك: نسبة إلى بيع السمك وصيده. (الحافظ الذهبي، العبر في خبر من عبر: ١/ ٢٨٧ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٣٠١).
(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢١٧. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله بن أحمد بن أبي دؤاد.
(٥) في الديوان: «عن السَّرِقِ المُورَّى». والمورى: من وَرَّى الشيء إذا ستره.

أخذه البحتري فقال[١]:

لا يُعْمِـــلُ اللَّفْـــظُ المُكــ ـــرَّر فيـــهِ وَاللَّفْـــظُ المُـــردَّدْ

والإطالة مَمْلولة كما يُمَلُّ التكرير.

الآداب

وقد قال الحسن بن سَهْل: الآدابُ عشرة؛ فثلاثةٌ شهرجانية، وثلاثة أَنُوشروانية، وثلاثة عَربِيَّةٌ، وواحدة أَرْبتْ عليهن؛ فأما الشهرجانية فضربُ العُود، ولعب الشطْرَنج، ولعب الصَّوَالج. وأما الأنوشروانية فالطّب، والهندسة، والفروسية. وأما العربية فالشِّعْر، والنَّسب، وأَيام الناس. وأما الواحدة التي أَرْبَتْ عليهنّ: فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقّاه الناسُ بينهم في المجالس.

السمر ونتف الأحاديث

وكان يُقال: خُذ من العلوم نتفها، ومن الآداب طُرَفها.

وكان يقال: مقطَّعَات الأدب، قُرَاضَاتُ الذهب.

وحضَر بَشّارُ بن بُرْدٍ مجلساً فقال: لا تجعلوا مَجْلِسَنا غِناء كله، ولا شعراً كله، ولا سَمراً كله، ولكن انتهبوه انْتِهَاباً.

وقال الحسن رحمه الله: حادثُوا هذه القلوبَ فإنها سريعةُ الدّثور، واقْدَعُوا[٢] هذه الأنفس فإنها طُلعة[٣]؛ وإنكم إلاّ تَزَعُوها[٤] تَنْزِعْ بكم إلى شَرّ غاية.

وقال أزدشير بن بابك: إن للأذهان كلالاً، وللقلوب مَلاَلاً، ففرّقوا بين الحكمتين يكن ذلك استجماماً.

ويروى في حكمة آل داود: لا ينبغي للعاقلِ أنْ يُخْلِيَ نفسهُ من أربع: عُدّة لِمَعَادِه،

---

(١) البحتري، الديوان: ٢/ ٢١٠. ويروى فيه:

لا يُعْمِـــلُ القَـــوْلَ المُكَـــرَّرَ فيـــه وَالـــرَّأْيَ المُـــرَدَّدْ

(٢) قَدعَ الرجل وغيره: كفَّ، وَأَقْدَعَهُ: كَفَّهُ وَمنَعهُ، وانقدع فلان: كفَّ وامتنع.

(٣) طُلعة: كثيرة التطلع.

(٤) يَزَعُ: يزجر.

وصلاحٌ لِمَعاشه، وفِكْرٌ يقفُ به على ما يُصْلِحُه من فساده، ولذة في غير مُحَرّم يستعينُ بها على الحالات الثلاث.

وما أحسن ما قال أبو الفتح بن كُشَاجِم:

عَجَبِي مِمَّن تَنَاهَتْ حَالُهُ ... وكفَاه اللَّهُ ذِلَّاتِ الطَّلَبْ
كيف لا يَقْسِم شَطْرَيْ عُمْرِهِ ... بَيْنَ حَالَيْن نَعِيم وأَدَبْ؟
سَاعةً يُمتِعُ فيها نَفْسَهُ ... مِنْ غِذاءٍ وشَرابٍ مُنْتَخَبْ
وَدُنُوٍّ من دُمًى هُنَّ لَهُ ... حِينَ يَشتاقُ إلى اللّعب لُعَبْ[1]
فإذا ما نَالَ مِنْ ذَا حَظَّه ... فَحَدِيثٌ وَنشيدٌ وكُتُبْ
مَرةً جِدٌّ، وَأُخْرى رَاحةٌ ... فإذا ما غَسَقَ الليل انْتَصَبْ[2]
فَقَضَى الدنيا نَهاراً حَقَّها ... وَقَضى لله لَيْلاً ما وَجَبْ
تِلْكَ أَقسامٌ مَتى يَعْمَلْ بِها ... دَهْرَهُ يَسْعَدْ وَيَرشُدْ وَيُصِبْ

نظام كسرى في حياته

وقال أبو العباس محمد بن يَزِيد: قَسَّمَ كسرى أيامه فقال: يَصْلُح يَوْمُ الريح للنوم، ويوم الغَيْم للصيد، ويومُ المَطَر للشرب واللَّهو، ويوم الشمس لقضاءِ الحوائج.

رسول الله ﷺ يجزىء نهاره على المصالح

قال الحسن بن خَالَوَيْه[3]: ما كان أَعْرَفهم بسياسة دُنْياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهُمْ عن الآخرة هم غافلون، ولكن نبيَّنا ﷺ قَدْ جَزَّأَ نهاره ثلاثَة أجزاءٍ: جُزْءٌ لله، وجزءٌ لأهله، وجزءٌ لنفسه، ثم جُزْءٌ جزأه بينه وبَينَ الناس؛ فكان يستعين بالخاصَّة على

(١) الدُّمى: جمع دمية، والمراد هنا: النسوة الجميلات.
(٢) غَسَقَ الليل غَسْقاً وغُسُوقاً وَغَسَقَاناً: أظلم.
(٣) هو أبو عبد الله، الحسين (وليس الحسن كما ورد في الأصل) بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي. أصله من هَمَذان، واستوطن حلب، وصار بها أحد أفراد الدهر في كل قسم من أقسام الأدب، واختص بسيف الدولة الحمداني وأولاده. توفي سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨١ م. من آثاره: «كتاب ليس»، و «الآل»، و «القراءات»، وغيرها. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٧٨؛ الثعالبي، يتيمة الدهر: ١/ ١٣٦).

العامة، وكان يقول: أبْلِغُوني حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغي؛ فإنه من أبلغَ [ذا سلطان] حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغَها آمنهُ اللَّهُ تعالى يَوْمَ الفَزَعِ الأكبر.

[عودٌ إلى الإطالة والإيجاز]

وقال شَبِيبُ بن شَيْبَة[١]: إن ابتُلِيت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة فقدِّم إحكام البلوغ في طلب السلامة من الْخَطَلِ، قبل التقدّم من إحكام البلوغ في شَرَفِ التَّجْوِيد؛ ثم إياك أن تَعْدِلَ بالسلامة شَيْئاً، فقليلٌ كافٍ خَيْرٌ لك من كثير غير شاف.

وكان جَعْفَر بن يحيى يقول لِكُتّابه: إن استَطعْتم أن يكون كلامُكم كلُّه مثل التوقيع فافعلوا.

وقال ثُمامَة بن أَشْرَس: لم أرَ قط أَنْطَق من جعفر بن يحيى بن خالد، وكان صاحبَ إيجازٍ.

إياس بن معاوية يحتج للإطناب

وكان أبو واثلة إياسُ بن مُعَاوية[٢] ـ على تقدُّمه في البلاغة، وَفَضْلِ عقله وعلمه ـ بالإكثار مَعِيباً، وإلى التطويل مَنْسوباً، وقال له عبد اللَّه بن شبرمة: أنَا وأنْتَ لا نتفق، أنْتَ لا تشتهي أن تسكت، وأنا لا أشتهي أن أسْمَع. وقيل له: ما فيك عيبٌ إلا كثْرة كلامك، قال: أفتسمعون صواباً أم خطأً؟ قالوا: بل صواباً، قال: فالزيادةُ في الخير خيرٌ.

الجاحظ يرد عليه

قال الجاحظ: وليس كما قال، بل للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضَل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والكَلاَل؛ فذلك هو الفِضَال[٣] والهَذَر والْخَطل والإسْهاب الذي سَمِعْتُ الخطباء يَعيبونه.

---

(١) شبيب بن شيبة: أحد الفصحاء والدهاة. توفي سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٧ م، وقد وردت ترجمته في مكان سابق.

(٢) هو أبو واثلة، إياس بن معاوية بن قُرَّةَ بن إياس بن هلال بن أوس بن مُزَيْنَة المزني: أديب، بليغ، فصيح، راجح العقل، وبه يضرب المثل بالذكاء. ولاّه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة، وتوفي سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤١ م بـ«عبدس»، وهي قرية بين البصرة وخوزستان. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٢٤٧).

(٣) الفضال: المبتذل من قول وغيره.

ابن هُبَيْرة يريد إياساً على القضاء

وذكر الأَصْمعيّ أن ابن هُبَيْرة لما أراد إياساً على القضاء قال: إني والله لا أَصْلح له، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّي دميم حَديد، ولأني عَييّ، قال ابنُ هبيرة: أما الحِدّة فإن السَّوْط يُـقَوِّمك؛ وأما العِيُّ فقد عَبَّرْتَ عما تريد؛ وأما الدَّمامةُ فإني لا أريد أن أُحَاسِن بك.

ولم يصفه أحدٌ بالعيّ، وإنما كان يُعَابُ بالإكثار، ولكنه أراد المدافعة عن نَفْسه. والحديث ذو شجون[1].

أبو العَيْناء وبعض القيان

قال أبو العيناء، ذُكِرْتُ لبعض القِيَان فعشقتني على السماع؛ فلما رأَتْني استقبحتني، فقلت:

وَشَـاطِـرةٍ لمـا رَأَتْنـي تنكَّـرَتْ ... وَقـالـتْ: قَبيـحٌ أَحْـوَلٌ مَـا لَـهُ جِسْـمُ
فـإنْ تُـنْكـري منّـي احْـوِلالاً فـإنّنـي ... أديـبٌ أَريـبٌ لا عَيـيٌّ ولا فَـدْمُ[2]

[فاتصل بها الشعر]، فكتبَتْ إليّ: إنَّا لم نرد أن نُولِّيك ديوانَ الزمام!

فطنة إياس

وكان عُمَرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إلى عَدِيّ بن أَرْطَاة[3]: إن قِبَلك رَجُلَيْن من مُزينة ـ يعني بكر بن عبد الله، وإياس بن معاوية ـ فَوَلِّ أَحَدَهما قضاءَ البَصْرَة؛ فأحضرهما، فقال بكر: واللّهِ ما أُحْسِنُ القضاء؛ فإن كنتُ صادقاً فما تَحِلُّ تَوْلِيَتي، وإن كنتُ كاذباً فذلكَ أَوْجَبُ لِتركِي، فقال إياس: إنكم وَقَفْتُمُوه على شَفِيرِ جهنَّم، فافْتَدَى منها بيَمينٍ يكفرها، وَيَسْتَغْفِرُ الله تعالى منها، فقال له عديّ: أما إذ اهتديت لها فأنْتَ أحقُّ بها، فولّاه.

قوة لَسن إياس

ودخل إيَاس الشام وهو غلامٌ صغير، فقدّم خَصْماً له إلى بعض القضاة، وكان الخَصْمُ

---

(١) شجون: ضروب.
(٢) الأريب: الفطن. الفدم: العي عن الكلام.
(٣) عدي بن أرطأة الفزاري: أمير من أهل دمشق، ولاّه عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة ٩٩ هـ/ ٧١٨ م، فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢١ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣٠٦/١٢).

شَيْخاً، فصالَ عليه إياسٌ بالكلام، فقال له القاضي: خَفِّض عليك فإنه شَيْخٌ كبير، قال: الحقُّ أكْبَر منه، قال: اسكت! قال: فَمَنْ يَنْطِقُ بِحُجَّتي؟ قال: ما أراك تقولُ حقاً، قال: لا إلٰهَ إلا الله! فدخلِ القاضي على عبد الملك فأخبره؛ فقال: اقْضِ حاجتَه الساعَةَ وأخْرِجه من الشام لا يُفْسِد أهْلَها!

* * *

الحديث المملوك

وقال أحمد بن الطيّب السَّرْخَسِي تلميذ يَعْقُوب بن إسْحَاق الكِنْديّ(١): كنتُ يوماً عند العباس بن خالد، وكان ممن حبَّب الله إليه أن يتحدَّث، فأخذ يحدّثني، ويتنقلُ من حديثٍ إلى حديث، وكنا في صَحْنٍ له، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا إلى موضع آخر، حتى صار الظلُّ فَيْئاً؛ فلما أكْثَر وأضْجَر، ومللت حُسْنَ الأدبِ في حُسْنِ الاستماع، وذكرت قول الأوزاعي(٢): إن حسنَ الاستماع قوةٌ للمحدث، قلت له: إذا كنتُ وأنا أسمعُ قد عَيِيتُ مما لا كُلْفَة عليَّ فيه، فكيف أراك وأنْتَ المتكلم؟ فقال: إنَّ الكلام يحلِّلُ الفضولَ اللَّزِجة الغليظة التي تعرض في اللَّهَوَاتِ وأصْل اللسان ومنابت الأسنان، فَوَثَبْتُ وقلت: لا أراني معك اليوم إلا «إيَارج الفيْقرا»؛ فأنت تَتَغَرْغَرُ بي! فاجْتَهَدَ في أنْ أجْلِسَ فلم أفْعَل.

قال أحمد بن الطيّب: كنا مرَّةً عند بعض إخواننا، فتكلَّم وأعْجَبه من نفسه البيان، ومِنَّا حسنُ الاستماع، حتى أفْرَطَ، فعرض لبعض مَنْ حضَر مَلَلٌ، فقال: إذا بارك الله في الشيء لم يَفْنَ، وقد جعل الله تعالى في حديث أخينا البركة!.

ولعبد اللّه بن سالم الخيّاط في رجل كثيرِ الْكَلام:

لِي صَاحِبٌ في حَديثِهِ البَرَكَهْ ... يَزِيدُ عِنْدَ السُّكُونِ وَالْحَرَكَهْ
لَوْ قَالَ لاَ في قَلِيلِ أحْرُفِها ... لَرَدَّها بِالحُروفِ مُشْتَبِكَهْ

---

(١) هو أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل الكندي: عالم بالطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم وغير ذلك. ولد بواسط، ونشأ بالبصرة، وانتقل إلى بغداد، وأصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة. توفي ببغداد سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٧ م. من آثاره: «كتاب الفلسفة»، و«رسالة في الحساب الهندي»، و«المدخل إلى الموسيقى»، وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١٣/ ٢٤٤).

(٢) هو أبو عمرو، عبد الرحمٰن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعي: إمام أهل الشام، لم يكن بالشام أعلم منه، قيل: إنه أجاب في سبعين ألف مسألة، وكان يسكن بيروت، وتوفي فيها سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م: (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ١٢٧).

ومن طرائف التطويل ما أنشأه البديع، وسيمرّ من كلامه ما هو آنَقُ من زَهْر الربيع.

[المُلَح]

منزلة الملح

قال الأَصْمَعي: بالعلم وصَلْنَا، وبالمُلَح نِلْنَا، وقال الأصمعي أيضاً: أنشدت محمد بن عمران قاضي المدينة، وكان أعْقَلَ مَنْ رَأَيْتُه:

يــاأَيُّهــا الســائــلُ عَــنْ مَنْــزِلــي ... نَــزلْــتُ فــي الخــانِ علــى نَفْســي
يَغْــدو علــيَّ الْخُبْــزُ مِــنْ خَــابــزٍ ... لا يَقْبَــلُ الــرَّهْــنَ وَلا يُنْسِــي[١]
آكُــلُ مِــن كِيْسِــي وَمِــنْ كِسْــرَتــي ... حَتــى لَقَــدْ أَوجعنــي ضِــرْســي

فقال: اكتب لي هذه الأبيات، فقلت: أصلحك الله! هذا لا يُشْبِهُ مثلكَ، وإنما يَرْوي مثل هذا الأحداثُ، فقال: اكتُبْها فالأشرافُ تُعْجِبُهم المُلَح.

وقد قال أبو الدَّرْدَاء[٢] رحمه الله تعالى: إني لأستَجِمُّ نَفْسي ببعض الباطل، ليكونَ أقْوَى لها على الحقِّ.

[وقال ابن مَسْعُود رحمه الله: القلوب تمل كما تمل الأبدان، فاطلبوا لها طَرَائِفَ الحكمة].

وقال ابن الماجِشُون: لقد كُنَّا بالمدينة وإن الرجلَ ليحدّثني بالحديث من الفِقْه فَيُمليه عليَّ، ويذكر الخبرَ من المُلَح فأَستعيدُه فلا يفعل، ويقول: لا أُعطيك مُلَحِي، وأهَبُك ظَرْفي وأدبي.

وقال ابن الماجِشُون: إني لأسْمَع بالكلمة المَلِيحة ومالي إلا قميصٌ واحد؛ فأَدْفَعهُ إلى صاحبها، وأستكْسِي اللَّهَ عزّ وجلّ.

بعض ملح الغاضري

وقال الزُّبَيْر بن بَكّار[٣]: رؤي الغاضريّ يُنَازِعُ أشْعَبَ الطَّمِعَ عند بعض الوُلاَة،

---

(١) يُنْسي: يُنْسِىء، من النسيئة، وهي التأخير.
(٢) أبو الدرداء الخزرجي الزاهد الحكيم: أسلم بعد بدر، وولي قضاء دمشق لمعاوية، في خلافة عثمان بن عفّان. توفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٣ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٣٩).
(٣) هو أبو عبد اللّه، الزبير بن بكر بن بكّار بن عبد اللّه بن الزبير بن العوام القرشي، الأسدي، =

ويقول: أَصْلَح اللَّهُ الأمير! إنّ هذا يَدْخلُ عليّ في صناعتي، ويطلبُ مشاركتي في بِضاعتي، وَهَيْأتُه هيأةُ قاضٍ، والأمير يضحك، وكانا جميعاً فرسَيْ رِهان ورضيعَيْ لِبان في بَيَانِهما؛ إلا أنّ الغاضري [كان] لا يتخلّق بالطَّمَع تَخلُّقَ أَشْعَب.

وأتى الغَاضِريّ يوماً الحسنَ بن زيد فقال: جُعِلْتُ فِدَاكَ! إني عصيت اللَّهَ ورسوله، قال: بئس ما صَنَعْتَ! وكيف ذلك؟ قال: لأن رسولَ الله ﷺ قال: لا يُفْلِحُ قومٌ وَلَّوْا أمرَهم امرأة، وأَنا أَطعتُ امرأتي، فاشتريتُ غلاماً فهرب.

قال الحسن: فاختر واحدةً من ثلاث: إن شئتَ فَثَمَنُ الغلام، قال: بِأَبي أنتَ! قِفْ عند هذه ولا تتجاوَزْهَا! قال: أَعْرِضُ عليك الخصلتين، قال: لا، حَسْبي هذه.

وقد رُوِي نحوُ هذا عن أشعب، أنه قال له بعضُ إخوانه: لو صرتَ إليّ العشيَّة نتفرج؟ قال: أخاف أن يجيء ثقيل، قلت: ليس معنا ثالث، فمضى معي، فلمّا صلينا الظهر ودعوتُ بالطعام، فإذا بِدَاقٍّ يدقُّ البابَ، قال: ترى أنْ قد صِرْنا إلى ما نكره، قلت له: إنه صديق، وفيه عشرُ خصال إن كرِهْتَ واحدةً منهن لم آذَنْ له، قال: هَاتِ، قلت: أولها أنه لا يأكل ولا يَشرب، فقال: التسعُ لك! قل له يدخل!

ورأى سُفْيَان الثَّوْري[1] الغاضريَّ وهو يُضْحِكُ الناس؛ فقال: يا شيخُ أَوَ ما عَلِمْتَ أن لله يوماً يَخْسَرُ فيه المُبْطِلون؟ فوجَمَ الغاضري، وما زَال ذاك يُعْرَفُ فيه حتى لَقِي الله عزّ وجلّ.

أَشْعَبُ المشهور بالطمع

وأَشْعَب الطَّمع[2] هو أشعب بن جُبَير، مولى عبد الله بن الزُّبير، وكان أَحْلَى الناس، قال الزبير بن أبي بكر: كان أهلُ المدينة يقولون: تغيَّرَ كلُّ شيء إلا مُلَح أشعب، وخُبْز أبي الغيث، ومِشية بَرّة؛ وكان أبو الغيث يعالج الخُبْز بالمدينة. وبرّة بنت سعيد بن الأسود كانت مِنْ أَجْمَلِ النساء وأحسنهنّ مِشْيَة، وأشعب يضربُ به المثلُ في الطَّمع، وكان أَشْعَبُ قد نشأَ

= الزبيري: من أعيان العلماء. ولي قضاء مكة، وكانت وفاته فيها سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٨/ ٤٦٧).

(١) هو أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي: إمام في علم الحديث، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده، وهو أحد الأئمة المجتهدين. توفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٧ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٩/ ١٥١).

(٢) أَشعب الطامع، وَيُعْرَفُ بابن أم حميد. روى عن عكرمة وسالم، وله نوادر وملح في الطمع والتطفيل أشهر من أن تذكر. توفي سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧١ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٢٣٦).

في حِجْر عائشة بنت عثمان ـ رحمها الله! ـ مع أبي الزناد[١]، قال أشعب: فلم يزَلْ يعلُو وأنْحَطّ حتى بلَغْنَا الغايةَ.

وقال أشعب: أسلمتني أُمي إلى بَزَّاز، فسألتني بعد سنة، أين بلَغْت؟ فقلت: في نصف العمل، قالت: وكيف؟ قلت: تعلمت النَّشْر وبقي الطَّيّ، قالت: أنتَ لا تفلح.

وسألتْه صديقةٌ له خاتماً، فقالت: أذكُرُكَ به، قال: اذكُرِي أنك سألتِني ومَنَعْتُك!

وقيل له: كم كان أصحابُ رسول الله ﷺ يوم بَدْر؟ قال: ثلثمائة عشر درهماً! ثم تنسَّك في آخر عمره، وغزَا ومات على خَيْر، رحمه الله تعالى!.

وقيل لأشعب: أرأيتَ أطمع منك؟ قال: نعم، كلبة آل فلان، رَأَتْ رجلين يَمْضُغَانِ عِلْكاً[٢]، فَتَبِعَتْهُمَا فَرْسخين تظنُّ أنهما يأكلان شيئاً.

وأهدى رجلٌ من ولد عامر بن لُؤَي إلى إسماعيل الأَعْرَج فالوذجة وأشْعَبُ حاضر، فقال: كُلْ يا أشعب، فأكل منها؛ فقال: كيف ترَاها؟ فقال: عليه الطلاق إن لم تكن عُمِلَت قبل أنْ يُوحِيَ ربُّك إلى النَّحْل! أي: ليس فيها حَلاَوة.

ظرف أبي نواس وسرعة بديهته

وروى أبو هَفّان[٣] قال: دخل أبو نُوَاسٍ الحسنُ بن هانىء على يحيى بن خالد فقال له: أنشدني بعض ما قُلْتَ، فأنشده:

إنِّي أنَا الرَّجلُ الحكيمُ بِطَبْعِهِ ... وَيَزِيد في علمي حِكَايَةُ مَنْ حَكَىٰ

أَتَتَبَّعُ الظُّرفاءَ أَكْتُبُ عَنْهُمُ ... كيما أُحدِّث مَنْ أُحِبُّ فَيَضْحَكَا[٤]

---

(١) هو أبو الزناد، عبد الله بن ذكوان، مولى رملة بنت شيبة بن ربيعة، وكانت رملة تحت عثمان بن عفان. أصله من همدان، وولّاه عمر بن عبد العزيز خراج العراق، وكان من كبار المحدثين والعلماء والفقهاء. توفي فجأة بالمدينة سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٩ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ١٨٢).

(٢) العلك: اللبان.

(٣) هو أبو هفّان، عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي العبدي: شاعر، أديب، راوية. ولد بالبصرة، وسكن بغداد، وأخذ عن الأصمعي وحدّث عنه، وشعره سائر على الألسنة، وكان من ندماء أبي نواس ورواته. توفي سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧١ م. من آثاره: «أخبار الشعراء»، و «صناعة الشعر»، و «أخبار أبي نواس». (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٤٠٨).

(٤) وفي ديوانه ص ٣٨٣:

تَتَبَّعُ الظُّرفاءَ إعجاباً بِهِ ... حَتَّى تُحدِّثَ مَنْ تُحِبّ فَيَضْحَكا

فقال له يحيى [بن خالد]: إن [أول] زَنْدك لَيُورِي بأوّل قَدْحةٍ، فقال ارتجالاً في معنى قول يحيى:

أَمـا وَزَنْـدُ أَبـي علـيّ إنـه زَنْـدٌ إذَا اسْتَوْرَيْـتَ سَهْـلٌ قَـدْ حَكَـى
إنّ الإلَـٰـهَ لِعِلْمِـهِ بعبـادِه قَـدْ صَـاغَ جَـدَّكَ لِلسمـاح وَمَنْحَكـا
تَـأْبَـى الصنـائـعَ هِمَّتـي وَقَـرِيحتـي مِـنْ أَهْلِهـا وَتَعَـافُ إلاَّ مَـدْحَكـا

صفة أبي نواس

ووصف أبو عبد اللّه الجماز أبا نواس فقال: كان أظْرفَ النَّاس منطقاً، وأغْزَرهم أدباً، وأقْدَرهم على الكلام، وأسْرَعَهم جواباً، وأكثرهم حياءً، وكان أبيضَ اللَّوْنِ، جميلَ الوَجْهِ، مليح النغمة والإشارة، ملتفَّ الأعْضاء، بين الطويلِ والقصير، مَسْنُونَ الوَجْهِ[١]، قائم الأنف، حسن العينين والمَضْحَك[٢]، حُلْوَ الصُّورَة، لَطيفَ الكَفّ والأطراف؛ وكان فصيحَ اللسان، جَيِّدَ البيان، عَذْبَ الألفاظ، حُلْوَ الشمائل، كثيرَ النوادر، وأَعْلَمَ الناس كيف تكلمت العربُ، رَاويةً للأشعار، علاَّمة بالأخبار، كأن كَلاَمَهُ شعرٌ موزون.

وأقبل أبو شُرَاعة العَبْسي، والجَمَّازُ في حديثه، وكان أقبح الناسِ وجهاً، وكانت يدُ أبي شَرَاعة كأنها كَرَبة نَخْلٍ[٣]؛ فقال الجماز: فلو كانت أطرافه على أبي شرَاعةٍ لتمَّ حُسْنُهُ؛ فغَضِب أبو شراعة وانصرفَ يَشْتُمه.

ترجمة الجماز

والجماز هو: أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حمّاد بن عَطَاء بن ياسِر، وكانوا يَزْعمون أنّهُم من حِمْيَر، نالَهُمْ سِباء في خِلاَفَةِ أبي بكر، رضي الله عنه، وهم مَوَاليه، وسَلْم الخاسر عمهُ[٤]، وكان الجماز من أحْلَى الناسِ حكاية، وأكثرِهم نادرة[٥].

---

(١) مسنون: مخروط.
(٢) المضحك: الفم.
(٣) الكَرَبَةُ: أصل السعفة.
(٤) هو سلم بن عمرو بن حماد، الشهير بسلم الخاسر: شاعر خليع ماجن، من أهل البصرة، من الموالي. سمي الخاسرَ لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً. قدم بغداد، ومدح المهدي والهادي والبرامكة، وكان مَزَّاحاً لطيفاً. توفي سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م، مُخلفاً ثروةً كبيرة صادرها الرشيد. (ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ٢٣٦).
(٥) كان الجماز البصري الشاعر ماجناً، خبيث اللسان، يهوى الغلمان، وقيل: إنه مات فرحاً بعشرة =

قال بعض جلساءِ المتوكّل: كنا نُكْثِر عند المتوكل ذِكْرَ الجماز حتى اشتَاقهُ، فكتبَ في حَمْلِه إليه، فلما دخل أُفْحِم، فقال له المتوكل: تكلّمْ فإنّي أُريدُ أن أسْتَبْرِئكَ، فقال: بِحَيْضَةٍ أو بِحَيْضَتَيْنِ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال له الفتح[1]: قد كلّمتُ أميرَ المؤمنين يُوَلِّيكَ على القرود والكلاب! قال: أفلستَ سامِعاً مطيعاً؟ فضحك المتوكل وأمر له بعَشْرَةِ آلاف درهم.

وكان لا يُدْخِلُ بَيْتَهُ أكثر من ثلاثةٍ لضيقه؛ فدعا ثلاثةً، فجاءه ستّةٌ، وقَرَعَوا الباب، ووقفوا على رِجلِ رِجل فَعدَّ أرجُلَهم من خَلْفِ الباب؛ فلما حصلوا عنده، قال: اخرجُوا عني، فإنما دعوتُ ناساً ولم أدعُ كَراكِيّ[2].

لأبي تمام يمدح عمرو بن طوق

وقال الطائي في عَمْرو بن طَوْق التغلبي[3]:

الْجِدُّ شِيمَتُهُ، وَفيهِ فُكَاهَةٌ سُجُحٌ وَلا جِدٌّ لِمنْ لَمْ يَلْعَبِ[4]
شَرِسٌ، وَيُتْبِعُ ذاكَ لِينَ خَلِيقَةٍ لا خَيْرَ في الصَّهباء ما لم تُقْطَبِ[5]

وله يمدح الحسن بن وهب

وقال في الحسن بن وَهْبٍ[6]:

لِلَّهِ أيامٌ خَطَبْنا لِينَهَا في ظِلّهِ بالخَنْدَريسِ السَّلْسَلِ[7]

= آلاف درهم وهبه إياها المتوكل. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٧٥؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣/ ١٢٥).

(١) هو الفتح بن خاقان، وزير المتوكل ونديمه، وقتل معه في ليلة واحدة، سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦٢ م، وقد وردت ترجمته في مكان سابق.

(٢) الكراكيّ: جمع كَرْكي، وهو طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتر الذنب، قليل اللحم، يأوي إلى الماء أحياناً.

(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ١١٢.

(٤) سُجُحٌ: سهل. يريد أنه يستعين على الجدّ بالمزاح واللعب.

(٥) تقطب: تمزج. يقول: كما أن الخمرة لا خير فيها إذا لم تُمْزَج، فالشراسة لا تصلح إلاّ إذا مُزجت باللين.

(٦) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٩.

(٧) الخندريس: الخمر. السلسل: اللينة.

بِمُدامـةٍ نَغَـمُ السَّمـاعِ خَفيـرُهـا ... لا خَيْـرَ فـي المَعْلـولِ غَيْـرَ مُعلَّـلِ[١]
يَعْشـى عَلَيْهَـا وَهـو يَجْلُـو مُقْلَتَـيْ ... بـازٍ، وَيَغْفَـلُ وَهـو غَيْـرُ مُغَفَّـلِ[٢]
لا طـائـشٌ تَهْفُـو خَـلائقُـهُ، ولا ... خَشِـنُ الـوَقَـارِ كـأنَّـهُ فـي مَحْفَـلِ
فَكِـهٌ يُجِـمُّ الجِـدَّ أَحيـانـاً، وقَـدْ ... يُنْضَـى وَيُهْزَلُ عَيْشُ مَنْ لـم يَهْـزِلِ[٣]

وقال فيه[٤]:

وَلقَـدْ رَأَيْتُـكَ وَالكَـلامُ لآلِـئٌ ... تُـومٌ فَبِكْـرٌ فـي النِّظَـامِ وَثَيِّـبُ[٥]
وَكَـأَنَّ قُسًّـا فـي عُكـاظِ يَخْطُـبُ ... وابـن المقفّـع فـي اليتيمـةِ يُسْهِـبُ[٦]
وَكَـأَنَّ لَيْلَـى الأخيليـة تَنْـدُبُ ... وَكَثِيـرَ عَـزَّةَ يَـوْم بَيْـنٍ يَنْسِـبُ[٧]

---

(١) المعلول: الذي يشرب العلل، وهو الشرب الثاني، بخلاف النهل، وهو الشرب الأول. والمعلل هنا: من قولهم عللنا، أي غنِّنا. والمعنى: لا خير في شراب يُعَلُّ صاحبه لم يكن مُعللاً بالغناء.
(٢) الباز: ضرب من الصقور يستخدم في الصيد. ويعشى: يضعف بصره.
(٣) يُنْضَى: يُهْزَل، من أنضى الدابة: هزلها وأتعبها. أي إن الإنسان يجب أن يكون فكهاً، طيب النفس، يترك الجدّ أحياناً، ويمزح لئلا يُنضى عيشه وَيُهزل.
(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٢٤.
(٥) تُومٌ: أشباه الدرّ. يريد أن يجيء برأي فائق مبتكر.
(٦) قس: هو قس بن ساعدة الإيادي: خطيب، شاعر، حكيم، ويقال: إنه أول من قال في كلامه: «أما بعد»، أي: بعد دعائي لك، وأول من خطب على شرف، واتكأ عند خطبته على سيف أو عصا. قال فيه النبي ﷺ: «يُحْشَرُ أُمَّةً وَحْدَه». وهو من المعمرين. توفي نحو ٢٣ ق. هـ/ نحو ٦٠٠ م). (الأصفهاني، الأغاني: ٥/ ١٩٢). واليتيمة: اسم كتاب لعبد الله بن المقفع. ويروى البيتان الثالث والرابع في الديوان كالتالي:

فَكَـأَنَّ قُسًّـا فـي عُكَـاظِ يَخْطُـبُ ... وَكَـأَنَّ لَيْلَـى الأَخْيَلِيَّـةِ تَنْـدُبُ
وَكُثَيْـرَ عَـزَّةَ يَـوْمَ بَيْـنٍ يَنْسُـبُ ... وَابْـنَ المُقَفَّـعِ فـي اليَتِيمـةِ يُسْهِـبُ

وقد ذكر الشاعر هؤلاء الأعلام (قس، وليلى، وكثير، وابن المقفع) على أنهم المثل الأعلى في البلاغة ورجاحة الرأي، ثم ختم بأن تأثير رأي الممدوح وحسن تعبيره يهزُّ سامعيه، فيتوقر الطائش، ويستخف الوقور، مثلما أنها تبكي وَتُسرّ.
(٧) ليلى الأخيلية: هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية، من بني عامر بن صعصعة: شاعرة، فصيحة، ذكية، جميلة. اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير (ت ٨٠ هـ/ ٦٩٩ م)، ولا يقدم عليها في الشعر غير الخنساء. توفيت بخراسان سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م، ودفنت بجانب قبر توبة. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٣٥٩). وكثير عزة: هو الشاعر الأموي الغَزِل، المتوفى سنة =

يَكْسُو الوقار وَيَسْتخفُ مُوقراً طَوْراً فَيُبْكِي سَامِعِيهِ ويُطْرِبُ

لأبي الفتح البستي

وقال أبو الفتح البُسْتي:

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالهمِّ رَاحةً بِرَاحٍ، وَعلِّلْهُ بِشيءٍ مِنَ المَزْحِ
وَلَكِنْ إذا أَعطيتَهُ المَزْحَ فَلْيَكُنْ بِمقْدارِ مَا نُعْطِي الطعامَ مِنَ المِلْحِ

[المزاح]

الكلام في المزاح

وما زال الأشراف يَمْزَحُون، ويسمحون بما لاَ يَقْدَحُ في أديانهم، ولا يَغضُّ من مُرُوءَاتِهم.

وقال النبي ﷺ: بعثت بالحنيفية السَّمْحَة.

وقال: إني لأمْزَحُ ولا أَقُول إلا حقاً.

إنشاد الشعر

وقيل لِسَعيد بن المُسيّب[١]: إنَّ قوماً من أَهلِ العراق لا يَرَوْن إنشادَ الشعر فقال: لقد نَسَكُوا نُسْكاً أَعْجَمِيًّا.

وقيل لابنِ سيرين[٢]: إنَّ قوماً يزعمون أن إنشادَ الشعر ينقض الوضوء، فأنشد:

لقد أصبحَتْ عِرْسُ الفرزدق نَاشِزاً وَلو رَضِيَتْ رَشح أَسْتِه لاستقرَّتِ[٣]

= ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م، وقد وردت ترجمته في مكان سابق.

(١) هو أبو محمد، سعيد بن المُسيَّب بن حَزْن بن مخزوم القرشي المدني: أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع. توفي سنة ٩١ هـ/ ٧١٠ م، وفي هذا التاريخ خلاف. (ابن سعد، الطبقات: ٥/ ١١٩).

(٢) هو أبو بكر، محمد بن سيرين البصري: فقيه من أهل البصرة، كانت له اليد الطُولى في تعبير الرؤيا. وكان بزازاً، وَحُبِس بدين عليه، وولد له ثلاثون ولداً من امرأة واحدة عربية. توفي سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٩ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٥/ ٣٣١).

(٣) عرس الرجل: زوجه. ونشزت الزوجة: استعصت وأساءت العشرة.

وقام يُصَلّي! وقيل: بل أنشد:

أُنْبِئْتُ أَنَّ عَجُوزاً جِئْتُ أَخْطبها ... عُرقوبُها مِثْلُ شَهْرِ الصَّوم في الطُّولِ[١]

[النسيب]

وقيل لأبي السائب المخزومي: أترى أحداً لا يَشْتَهي النسيب؟ فقال: أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا.

لِعُرْوَة بن أُذينة

وروى مُصْعَب بن عبد اللَّه الزُّبَيْري[٢] عن عُرْوَة بن عُبَيْد اللَّه بن عُرْوَة الزُّبَيْري قال: كان عُرْوَة بن أُذَينة[٣] نازلاً في دارِ أَبي بالعقيق، فسمعتهُ يُنْشِدُ لنفسه:

إنَّ التي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّها ... خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها

فِيكَ الذي زَعَمتْ بها، وَكِلاَكُمَا ... أبْدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَة كُلَّها[٤]

وَلَعَمْرُها لو كان حُبُّكَ فَوْقَهَا ... يوماً وقد ضَحِيَتْ إذَنْ لأظَلَّهَا[٥]

فإذا وجَدْتَ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّميرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّها

بَيْضَاء بَاكَرَها النَّعيمُ فَصَاغَها ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأجلَّها[٦]

لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّماً، لِيَ حاجةٌ ... أَخْشَى صُعُوبتها، وأرجُو ذُلَّها[٧]

---

(١) العرقوب من الإنسان: وتر غليظ فوق عقبه. ورأي ابن سيرين بإنشاد الشعر في «العمدة»: ١/ ٣٠.

(٢) هو أبو عبد اللَّه، مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير: علاّمة بالأنساب، غزير المعرفة بالتاريخ. كان أوجه قريش مروءة وعلماً وشرفاً، وكان ثقة بالحديث، وله شعر. ولد بالمدينة، وسكن بغداد، وتوفي بها سنة ٢٣٦ هـ/ ٨٥١ م. (الزركلي، الأعلام: ٧/ ٢٤٨).

(٣) هو أبو عامر، عُرْوَةُ بن يحيى بن مالك بن الحارث، من بني الليث، من بني كنانة، وأذينة لقب والده يحيى: فقيه، محدث، وشاعر غزل، من أهل المدينة. توفي نحو ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٧١٥).

(٤) الصبابة: رقة الشوق وحرارته.

(٥) ضحيت: تأذت من الشمس.

(٦) أدقها وأجلها: أدق المواضع التي يجب أن تكون دقيقةً، وأجل المواطن التي يجب أن تكون جليلةً، فهي مثلاً دقيقة الخصر، وثيرة الردف.

(٧) أرجو ذُلَّها: أرجو قضاءها.

مَنَعَتْ تَحيّتَها فَقُلْتُ لِصَاحبي: ما كانَ أكْثرَها لنَا وأقلَّها
فَدَنا وقال: لَعلّها مَعْذورةٌ في بَعْضِ رِقْبَتِها، فَقُلْتُ: لَعلَّها[1]

قال: فأتاني أبو السائب المخزومي فقلتُ له بَعْدَ التَّرْحيب به: أَلَكَ حاجة،

فقال: نعم أبياتٌ لِعُروة بلغني أنك سمعتَه يُنْشِدُها، فأنشدته الأبيات، فلما بلغت قوله:

فَدنَا وقالَ لعلَّها معذورَةٌ... البيتَ

طرب، وقال: هذا والله الدائمُ الصَّبابة، الصادق العَهْد، لا الذي يقول:

إن كانَ أَهْلُكِ يَمْنعونَكِ رَغْبَةً عَنّي فأَهْلي بي أَضَنُّ وأَرْغَبُ

لقد عَدا هذا الأعرابي طَوْرَه، وإني لأرجو أن يغفر [الله] لصاحب هذه الأبياتِ لِحُسْن الظنّ بها، وطَلب العُذْر لهَا؛ قال: فعرضت عليه الطعام فقال: لا والله ما كنتُ لأخْلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل، وانصرف.

ترجمة أبي السائب المخزومي

وكان أبو السائب غَزِيرَ الأدب، كثير الطَّرَب، وله فُكاهاتٌ مذكورة، وأخبارٌ مشهورة، وكان جَدُّه يكنّى أبا السائب أيضاً، وكان خليطاً لرسول الله ﷺ، فكان النبيُّ ﷺ إذا ذكره قال: نِعْمَ الخليط كان أبو السائب! لا يُشَارِي ولا يماري[2].

واسمُ أبي السائب عبدُ اللَّه، وكان أشرافُ أهلِ المدينة يستظرفونه ويقدمونه لِشَرَفِ منصبه، وحلاوة ظَرْفه.

وكان عُرْوَة بن أُذينة ـ على زُهْدِه، ووَرَعه، وكَثْرةِ علمه وفَهْمه ـ رقيقَ الغَزَل كثيره، وهو القائل:

إذا وجَدْتُ أُوارَ الحُبِّ في كَبِدي أَقْبَلْتُ نحوَ سِقَاءِ القَوْمِ أبْتَرِدُ[3]
هَبْني بَرَدْتُ بِبَرْدِ الماءِ ظَاهِرَهُ فَمَنْ لِنارٍ على الأحْشاءِ تَتَّقِدُ؟

وقد رُوِي هذانِ البيتان لغيره.

---

(١) رقبتها: الخوف والحذر، أو عيون الرقباء.
(٢) شَارَى فلان: لَجَّ في المجادلة. وماري: ناظر وجادل.
(٣) الأوار: حرُّ الشمس والنار، واللهب، والعطش.

ومرّت به سُكَيْنَةُ[١] بنتُ الحسين بن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ فقالت له: أنْتَ الذي تزعم أنَّك غيرُ عاشق، وأنت تقول:

قَالتْ وَأَبَثَثْتُهَا سِرِّي فَبُحْتُ بِهِ ... قَدْ كُنْتَ عِنْدي تُحبُّ السَّتْرَ فاسْتَتِرِ

أَلَسْتَ تُبْصِر مَنْ حَوْلي؟ فَقُلْتُ لها: ... غَطِّي هَواكِ ومَا أَلْقَى على بَصَري

والله ما خرج هذا من قَلْبٍ سليم.

للأحوص في الغزل

وروى الزّبير عن رجل لم يسمّه، قال: قال لي أبو السّائب: أنشدني لِلأَحْوَص[٢] فأنشَدْتُهُ:

قَالتْ ـ وَقُلْتُ: تَحرَّجِي وَصِلي ... حَبْلَ امرىء بِوِصَالِكُمْ صَبٍّ ـ:

صَاحِبْ إذَنْ بَعلي؟ فقلتُ لها: ... الغدرُ شيءٌ لَيْسَ مِنْ ضَرْبي[٣]

شيئانِ لا أَدْنُو لِوَصْلِهِما ... عِرْسُ الخليلِ وَجَارةُ الْجَنْبِ

أمّا الخليلُ فَلَسْتُ فاجِعَهُ ... والجارُ أَوصاني بِهِ رَبِّي

عُوجَا كذا نَذْكُرْ لغانيةٍ ... بَعْضَ الحديثِ مَطيَّكم صَحْبي[٤]

وَنَقُلْ لها: فيمَ الصُّدُودُ وَلَمْ ... نُذْنِبْ، بَل أنْتِ بدَأتِ بالذَّنْبِ؟

إن تُقْبِلي نُقْبِلْ وَنُنْزِلكُمْ ... مِنَّا بِدارِ السَّهْلِ وَالرُّحْبِ

أَو تَهْجُرِي تَكْدُرْ مَعيشَتُنَا ... وَتُصَدِّعي مُتَلائِم الشَّعْبِ[٥]

---

(١) سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب: شاعرة، أديبة، كانت تجالس الأجلاء من قريش، وتجتمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزَّاحة جميلة. ويقال: اسمها أميمة أو أمينة، وسكينة لقب غلب عليها. توفيت بالمدينة سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٧ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٩٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ١٥٤).

(٢) هو أبو محمد، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري: شاعر أموي ماجن، لقب بالأحوص لحوص في عينه، ولقبه جده عاصم بن ثابت بحمي الدبر، لأن الدبر حمته من المشركين حين أرادوا صلبه. ولشعره ديباجة صافية ورونق. توفي سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٤٤٦؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٥٩).

(٣) ليس من ضربي: ليس من طبعي وخلقي.

(٤) عوجا مطيكم: ميلوا بها.

(٥) الشَّعْبُ: الجمع والتفريق، والإصلاح والإفساد، وهو من الأضداد. والشَّعْبُ: الصَّدْعُ أو الشق في الإناء ونحوه.

فقال: هذا والله المحبُّ حقاً، لا الذي يقُول:

وَكُنْتُ إذا حَبيبٌ رَامَ هَجْري ... وَجدْتُ وَرَايَ مُنفَسحاً عَريضا

ثم قال: اذْهَب، فلا صَحِبك الله، ولا وسَّع عليك!

ظرف أهل الحجاز ورقتهم

وخرج أبو حازم يوماً يَرْمِي الجمار، فإذا هو بامرأة حَاسِر[١] قد فَتَنتِ الناسَ بحُسْنِ وجهها، وألهتْهُمْ بجمالها، فقال لها: يا هذه، إنك بمَشْعَرٍ حرامٍ، وقد فتنتِ الناسَ وشغَلْتِهم عن مَناسكهم، فاتقي الله واسْتَتري؛ فإنّ الله عز وجل يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[٢]؛ فقالت: إني من اللاتي قيل فيهن:

أَماطَتْ كِسَاءَ الْخَزِّ عَنْ حُرِّ وَجْهِها ... وَأَرْخَتْ على المَتْنَيْنِ بُرْداً مُهَلْهَلا

مِنَ اللاّءِ لَمْ يَحْججْن يَبْغِينَ حِسْبَةً ... وَلكنْ لِيَقْتلنَ البَريءَ المُغَفَّلا[٣]

الشعر للحَارث بن خالد المَخْزُومي[٤]. فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا نَدْعُ الله لهذه الصورة الحسنة ألاَّ يعذبها الله تعالى بالنار! فجعل أبو حازم يَدْعُو وأصحابه يُؤَمِّنُونَ، فبلغ ذلك الشعبي، فقال: ما أَرَقّكم يا أَهْلَ الحجاز وأظرفكم! أما والله لو كان من قُرَى العراق لقال اعزبي عليك لَعْنَة الله!

بعض أخبار أبي حازم

وكان أبو حَازم من فضلاء التابعين، وله مقامات جميلة من الملوك، وكلامٌ محفوظ يدلُّ على فضله وعقله، وهو القائل: كل عملٍ تَكْرَهُ من أجله الموتَ فاتركه، ولا يضرك متى متَّ. وكان يقول: ما أحببتَ أن يكون معك غداً فقدّمه اليوم. وكان يقول: إنما بيني

(١) امرأة حاسر وسافر: ليس على وجهها قناع.
(٢) سورة النور، آية: ٣١.
(٣) المُغَفَّلُ: الطيب القلب.
(٤) هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، وأمه فاطمة بنت أبي سعيد بن الحارث بن هشام: أحد شعراء قريش المعدودين، وكان غزلاً يتتبع النساء ويشبب بهن، وله اهتمام بغريب اللغة. توفي نحو ١٠٠ هـ/ نحو ٧١٨ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٣/٣٠٧؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٥٨٢).

وبين الملوك يوم واحد، أما أمس فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم من غَدٍ على وَجَلٍ؛ وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم؟

لأبي العتاهية

وقال أبو العَتَاهية:

حَتَّى مَتى نَحْنُ في الأَيامِ نَحْسُبُها ... وَإِنَّما نَحْنُ فيها بَيْنَ يَوْمَيْنِ
يَوْمٌ تَولَّى، وَيَوْمٌ نحنُ نَأْمُلُه ... لَعلَّهُ أَجْلَبُ اليومينِ لِلحَيْنِ[1]

لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة

وروى الزبير بن أبي بكر قال: قدمت امرأة من هُذَيل المدينةَ، وكانت جميلةً، ومعها ابن لها صغير، وهي أيِّم[2]، فخطبهَا الناسُ وأكثروا، فقال فيها عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مَسْعُود[3]:

أُحِبُّكِ حُبًّا لا يُحبُّكِ مِثلَهُ ... قَريبٌ وَلا في العالمينَ بَعيدُ
أُحبُّكِ حُبًّا لو عَلِمْتِ بِبَعضِه ... لَجُدْتِ ولم يَصْعُبْ عليكِ شَديدُ
وَحُبُّكِ يا أُمَّ العلاءِ مُتَيِّمي ... شَهيدي أَبو بَكْرٍ فَذاكَ شهيدُ
وَيعْلَمُ وَجْدي القاسمُ بنُ مُحمدٍ ... وَعُرْوَةُ ما أَلْقَى بِكُمْ وَسعيدُ
وَيعْلَمُ ما أُخْفِي سُليمانُ كلّه ... وَخارجةٌ يُبْدي لنا وَيُعيدُ
مَتى تَسْأَلي عما أَقول فَتَخْبَري ... فَللْحُبُّ عِندي طَارِفٌ وَتليدُ[4]

فقال له سَعيد بن المُسيّب: قد أمِلْنَا أن تسألنا، ولو سألْتنا ما شهدنا لك بزور.

فقهاء المدينة السبعة

وكان عبيد الله أحَدَ الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علمُ المدينة، وقد ذكرهم

---

(١) الحَيْنُ: الهلاك.
(٢) الأيم: التي لا زوج لها.
(٣) هو أبو عبد الله، عبيد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي: أحد فقهاء المدينة السبعة، ومن أعلام التابعين. سمع من ابن عباس وأبي هريرة وعائشة، وتأدب على يديه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وله شعر رقيق. توفي في المدينة سنة ٩٨ هـ/ ٧١٦ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ١١٤).
(٤) الطارف: الذي يكسبه المرء بنفسه، والتليد: الذي يرثه عن آبائه.

عبيد اللَّه في الأبيات؛ وهم: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي. والقاسم بن [محمد بن] أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير بن العوام، وسعيد بن المسيب بن حزن، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري.

لعبيد اللَّه المسعودي أيضاً

وقيل لِعُبَيْد اللَّه: أتقول الشعر على شَرَفِكَ؟ فقال: لا بد للمصدور[1] أن يَنْفُث؛ وعبيد اللَّه هو القائل:

شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْت فيه ... هَوَاكِ فَلِيمَ وَالتأَمَ الفُطُورُ[2]

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ في فُؤَادِي ... فَبَادِيهِ مع الْخَافِي يَسِيرُ

تَغَلْغَلَ حَيْثُ لم يَبْلُغْ شَرابٌ ... وَلا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرورُ

أشباه لقول المسعودي

أخذه سَلْم بن عَمْرو الخَاسِر فقال:

سَقَتْني بِعينَيْها الهوَى وَسَقَيْتُها ... فَدَبَّ دَبِيبَ الخَمْرِ في كُلّ مَفْصِلِ

وقال أبو نُوَاسٍ[3]:

أُحِبُّ اللَّوْمَ فيها لَيْس إلاَّ ... لِتَزْدادِ اسْمِها فِيها أُلاَمُ

وَيَدْخُلُ حُبُّها في كُلّ قَلْبٍ ... مَدَاخِلَ لا تَغَلْغَلُهَا المُدَامُ[4]

ومنه قول المتنبي[5]:

---

(١) المصدور: المريض صدره، وأصل النفث: تفل الريق. والنفاثة: ما ينفثه المصدور من فيه، ويقال: هذا من نفاثات فلان: من شِعره، ويقال: هذه نفثة مصدور: ما يُخفّف به عن صدره، ويروّح به عن نفسه.

(٢) لِيمَ فلان: عُذِل، وليم بالرجل: قُطع به وحيلَ بينه وبين ما يريد. والتأم الشيء: انضم والتصق فهو ملتئم. والفطور: جمع فطر، وهو الصدع.

(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٣٨٩. ورواية هذين البيتين فيه بصيغة المذكر.

(٤) لا تغلغلها المدام: لا تتغلغل فيها، والمدام: الخمر. وفي الديوان: «لا تُقَلْقِلُها».

(٥) المتنبي، الديوان: ٢٩١/٢. والنديم: الجليس على الشراب. ويفضي: ينتهي. يريد أنه كتوم للسرّ يضعه حيث لا يطلع عليه النديم، ولا يصل إليه الشراب مع تغلغله في البدن.

وَلِلسِّرِّ مِنِّي مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ نَدِيمٌ، ولا يُفْضِي إليه شَرَابُ

وقال بعض المحدثين:

مَا زِلْتَ تُغْوِينِي وَتَطْلُبُ خلّتي حَتّى حَلَلْتَ بِحَيْثُ حَلَّ شرابي[١]

ثُمّ انْصَرَفْتَ بِغَيْرِ جُرْمٍ كانَ لي مَا هكذا الأَحْبَابُ لِلأَحْبَابِ

لأبي محمد بن أبي أمية

أخذ أبو نُواس قوله: «أحب اللوم فيها»... البيتَ من قول [أبي محمد] بن أبي أمية[٢]:

وَحَدَّثَني عَنْ مَجْلِسٍ كُنْتِ زَيْنَهُ رَسولٌ أَمينٌ، وَالنساءُ شُهودُ

فَقلتُ له رُدَّ الحديثَ الذي مَضَى وَذِكْرَكِ من بَيْنِ الحديثِ أُريدُ

أُناشِدُهُ باللهِ إلاّ أَعَدْتَهُ كَأَنّي بَطيءُ الفَهْمِ عَنْهُ بَعِيدُ

لأبي نواس

وقول أبي نوّاس في البيت الأول كقوله[٣]:

إذا غَادَيْتَنِي بِصَبُوحِ لَوْمٍ فَمَمْزُوجاً بتَسْمِيَةِ الحبيبِ[٤]

فَإِنّي لا أَعُدّ اللَّوْمَ فيها عَلَيْكَ، إذا فَعلْتَ، مِن الذنوبِ[٥]

ولا أَنَا إن عَمَدْتُ أَرى جِنَاناً وَإِنْ ضَنَّتْ بِمَبْخُوسِ النصيبِ[٦]

---

(١) الخُلَّةُ: الصداقة والمحبة.

(٢) هو محمد بن أمية بن أبي أمية: كاتب، شاعر ظريف. نادم إبراهيم بن المهدي، وكتب له على بيت المال، وكان إليه ختم الكتب بحضرته. وعاصر أبا العتاهية وله معه أخبار. (الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٢٩).

(٣) أبو نواس، الديوان: ص ٢٥٤.

(٤) وفي الديوان:

إذا غاديتني بِصَبُوحِ عَذْلٍ فَشُوبِيهِ بِتَسْمِيةِ الحَبيبِ

غاديتني: باكرتني، والغداة: ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس. والعذل: اللوم. وشوبيه: اخلطيه.

(٥) في الديوان: «فإنّي لا أَعُدُّ العَذْلَ».

(٦) في الديوان: «وما أَنَا إذْ عَمِرْتُ»، و «وَإِنْ بخلت». وعمرت: بقيت زماناً. ومبخوس النصيب: =

مُقَنَّعَةٌ بِثَوْبِ الحُسْنِ تَرْعَى ... بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ ثَمَرَ القُلُوبِ

وفي جِنَان هذه يقول أبو نواس[١]:

يا ذا الذي عَنْ جِنَانٍ ظَلَّ يُخْبِرُنا ... بِاللَّه قُلْ وَأَعِدْ يا طَيِّبَ الخبرِ
قالوا اشتكَتْكَ وَقالتْ ما ابْتُليتُ به ... أَراه من حَيْثُ ما أَقْبَلْتُ في أَثَرِي
وَيَرْفَعُ الطَّرْفَ نحوي إن مَرَرْتُ بهِ ... حَتَّى لَيُخْجِلني من شِدَّةِ النظرِ[٢]
وَإِنْ وَقَفْتُ لَهُ كَيْمَا يُكَلِّمني ... في المَوْضِعِ الخِلْوِ لم يَنْطِقْ مِنَ الحَصَرِ[٣]
ما زالَ يَفْعَلُ بي هذا وَيُدْمِنُهُ ... حَتَّى لقد صَارَ مِنْ هَمِّي وَمِنْ وَطَرِي[٤]

وفي جنان أيضاً يقول أبو نواس، وكان بها صبًّا، ولها محبًّا[٥]:

جِنَانُ تَسُبُّني ذُكِرَتْ بخيرٍ ... وَتَزْعُمُ أَنَّني رَجلٌ خَبيثُ
وَأَنَّ مَودَّتي كَذِبٌ ومَيْنٌ ... وَأَنِّي للذي تَطْوي بَثُوثُ[٦]
وَلَيْسَ كذا، وَلا رَدٌّ عَلَيْهَا، ... وَلكنَّ المَلُولَ هُوَ النَّكُوثُ[٧]
وَلي قَلْبٌ يُنَازِعني إليها ... وَشَوْقٌ بين أَضلاعي حَثيثُ[٨]
رَأَتْ كَلَفي بها وقَديمَ وَجْدِي ... فَملّتني، كذا كانَ الحديثُ[٩]

[وكانت جِنَان مولاة لبعض الثقفيين].

وفي معنى قول ابن أبي أُميّة يقولُ العباسُ بن الأَحْنَف:

= ممنوعه، والنصيب: الحظ. يقول: لست سيء الحظ ما دمت أرى جنان، وإن كانت لا تجود بشيء، لأن استمتاعي برؤيتها هو حسبي منها.

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٢٤٨.

(٢) في الديوان: «وَيُعْمِلُ الطَّرْفَ»، و«من حِدَّةِ النظرِ».

(٣) الحصر: العي، العجز عن الكلام.

(٤) الوطر: الحاجة.

(٥) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه.

(٦) المَيْنُ: الكذب. بَثُوث: كثير البث لِسِرِّه، وقد بثَّ الخبر أو السرّ: أذاعه.

(٧) ملول: كثير الملل: الضجر. نكوث: كثير النكث للعهود والمواثيق، وقد نكث العهد: نقضه.

(٨) الحثيث: السريع الجاد في أمره.

(٩) كَلِفَ الشيءَ، وبه: أَحبّه وأولع به، فهو كَلِفٌ، وقيل: الكِلْفُ (بتسكين اللام): العاشقُ المُولَعُ.

وَحَـدَّثْتَنِـي يـا سَعْـدُ عَنْهَـا فَـزِدْتَنِـي جُنـوناً فَـزِدْنِـي مِنْ حَـدِيثِـكَ يـا سَعْـدُ

شيم أهل المدينة

وأهل المدينة أكثر الناس ظَرْفاً، وأكثرهم طيباً، وأحلاهم مزاجاً، وأشَدُّهم اهتزازاً للسماع، وَحُسْنَ أدبٍ عند الاستماع. وقال عبد اللّه بن جعفر: إن لي عند السماع هِزّة لو سُئلت عندها لأعْطَيْتُ، ولو قاتلت لأبْلَيت.

طرب أبي ريحانة

وروى أبو العَيْنَاء قال: قال الأصمعي: مررت بدار الزُّبير بالبَصْرَة، فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أَبَا رَيْحَانة جالس بالباب عليه شَمْلة تَسْتُرُهُ، فسلمتُ عليه، وجلستُ إليه؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعَتْ علينا سويداء تحمل قِرْبة، فلما نظر إليها لم يتمالَكْ أن قام إليها، فقال لها: بالله غَنّي صوتاً. فقالت: إن مواليَّ أَعْجَلوني، فقال: لا بدَّ من ذلك، قالت: أما والقِرْبَة على كتفي فلا، قال: فأنا أَحْملها، فأخذ القربة منها، فاندفعت تُغَنِّي:

فُـؤَادِي أَسِيـرٌ لا يُفَـكُّ، وَمُهْجَتِـي تَفِيـضُ، وَأَحْـزَانِـي عَلَيْـكَ تَطُـولُ
وَلِـي مُقْلَـةٌ قَـرْحَـى لِطُـولِ اشتيـاقها إِلَيـكَ، وَأَجْفَـانـي عليـك هُمُـولُ[1]
فَـدِيتُـكَ، أَعْـدَائـي كثيـرٌ، وَشُقَّتـي بَعِيـدٌ، وَأَشْيَـاعـي لَـدَيْـكَ قَلِيـلُ[2]

فَطَرِب وصرخ صَرْخَةً، وضرب بالْقِرْبة إلى الأرض فشقّها؛ فقامت الجارية تبكي، وقالت: ما هذا بِجزَائي منك؛ أَسْعَفْتُكَ بحاجتك فَعَرّضْتَنِي لما أكره من مواليّ. قال: لا تغتمي فإنّ المصيبة عَلَيَّ حصلت، ونزع الشَّملة وَوَضَعَ يداً من خلف ويداً من قُدَّام، وباع الشَّمْلة وابتاع لها قِرْبَةً جديدة، وقعد بتلك الحال؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه! ـ فعرف حاله، فقال: يا أبا ريحانة! أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[3]. قال: لا يا بْنَ رَسُولِ الله، ولكني من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾[4] فضحك، وأمر له بألَفِ درهم.

---

(١) هملت العين هَمْلاً، وَهَملاناً، وَهُمُولاً: فاضت وسالت.
(٢) فديتك: كنت فداءً لك. وشقتي بعيد: أي أن ما بيني وبين أهلي بعيد. والأشياع: الأنصار.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٦.
(٤) سورة الزمر، آية: ١٧، ١٨.

بين الأوقص المخزومي وسكران

ومرَّ بالأَوْقَص المَخْزُومي، وهو قاضي المدينة، سكرانٌ [وهو] يتغنَّى بليل، فأشرف عليه، وقال: يا هذا، شَرِبت حَرَاماً، وأيْقَظْتَ نياماً، وغنّيت خطأ؛ خُذْهُ عني، وأصلَح له الغناء.

ابن المسيب يستمع إلى منشد شعر

وسمع سعيد بن المُسيّب منشداً ينشد:

فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ سِرْبٍ رأيتهُ ... خَرجْنَ مِنَ التَّنعيمِ مُعْتَمِرَاتِ(١)

مَرَرْنَ بِفَخ، ثم رُحْنَ عَشِيّةً ... يُلَبِّينَ لِلرَّحْمنِ مُؤْتَجِراتِ(٢)

وَلَمَّا رأتْ رَكْبَ النُّمَيْرِيّ أَعرضَتْ ... وَكُنَّ مِنَ أنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِراتِ(٣)

دَعتْ نُسْوَةً شُمَّ العَرانِينِ بُزَّلاً ... نَواعِمَ، لا شُعْثاً وَلا غَبِرَاتِ(٤)

فَأَبْرَزْنَ لما قُمْنَ يَحْجِبْنَ دُونَها ... حِجَاباً من القَسِّيّ والحَبِراتِ(٥)

تَضَوَّع طِيباً بَطْنُ نَعْمَانَ إذ مَشَتْ ... بِه زَيْنَبٌ في نِسْوةٍ عَطِرَاتِ(٦)

يُخَبِّئْنَ أطرافَ البَنَانِ من التُّقَى ... وَيَخْرُجْنَ شَطْرَ الليلِ مُعْتَجِراتِ(٧)

---

(١) السرب: القطيع من البقر والظباء، والمراد به هنا جماعة من النساء الحسان. والتنعيم: موضع قرب مكة. والمعتمرات: المُحرمات لأداءِ العُمْرَة.

(٢) فخ: موضع بينه وبين مكة ثلاثة أميال، وبه كانت وقعة الحسين وعقبة. التلبية: قولك لبيك اللهم لبيك. مؤتجرات: طالبات للأجر، وهو الثواب.

(٣) في الأغاني: «ولما رأت ركب النميري راعها».

(٤) العرانين: جمع عرنين، وهو الأنف. وَبُزَّلٌ: جمع بازل، وهو البعير يبلغ تسع سنين فتكتمل قوته، والمراد: وصف هؤلاء النسوة بأنهن بلغن السنَّ التي ينقلن فيها القلب من مكان إلى مكان. وفي الأغاني:

تَهادَيْنَ ما بَيْنَ المُحَصَّبِ مِنْ مِنى ... وَأَقْبَلْنَ لا شُعْثاً وَلاَ غَبِراتِ

والمحصب: موضع بين مكّة ومِنى، وهو إلى منى أقرب.

(٥) القسي: ضرب من الثياب، منسوب إلى قس، وهي قرية مصرية قرب العريش. وفي الأغاني:

فَأَدْنَيْنَ حَتَّى جَاوَزَ الرَّكْبُ دُونَهَا ... حِجَاباً مِن القِسِّي وَالحِبرَاتِ

(٦) في الأغاني: «تَضَوَّعَ مِسْكاً».

(٧) اعتجرت المرأة: اختمرت بالعجار، وهو ثوب تلفه على استدارة رأسها، ثم تتجلبب فوقه بالجلباب. وفي الأغاني:

يُخَبِّئْنَ أَطْرَافَ البَنَانِ مِنَ التُّقَى ... وَيَقْتُلْنَ بِالألْحَاظِ مُقْتَدِراتِ

ويقال: ليست امرأة من الطائف تخرج إلاّ وعلى يديها قفازان للتقى.

فقال سعيد: هذا والله ما يلذّ استماعه، ثم قال:

وَلَيْسَتْ كَأُخْرَى وَسَّعَتْ جَيْبَ دِرْعِها ... وَأَبْدَتْ بَنَانَ الكَفّ لِلجَمَرَاتِ[(١)]

وَغالَتْ بِبَانِ المِسْكِ وَحْفاً مُرَجّلاً ... على مِثْلِ بَدْرٍ لاَحَ في الظُّلُمَاتِ[(٢)]

وَقامتْ تَرَاءَى بين جَمْعٍ فَأفْتَنَتْ ... بِرُؤْيَتِها مَنْ راحَ مِن عَرَفَاتِ

بين الحجاج والنميري

قال: فكانوا يرون أنَّ الشعرَ الثاني له، والأوّل لمحمد بن عبد اللَّه بن نُمَيْر الثقفي[(٣)] يقوله في زَيْنَب بنت يُوسُف أخت الحجّاج؛ [وطلبه الحجّاج] حتى ظَفِر به فقال: أنت القائل ما قلت؟ قال: وهل قلت أصلح الله الأمير إلاّ:

يُخبّئْنَ أَطرافَ البَنانِ من التُّقَى ... وَيَخْرُجْنَ شَطْرَ الليلِ مُعْتَجِراتِ

قال له: كم كُنْتُم إذ تقول:

وَلمَّا رأَتْ رَكْبَ النميري أَعْرَضَتْ

لمحمد بن عبد اللَّه بن نمير الثقفي

قال: والله ما كنت إلا أنا وصاحب لي عَلَى حمارٍ هَزيل! فضحك وعفا عنه، وهو القائل:

أَهَاجَتْكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا ... بِذِي الزِّيّ الجميلِ من الأَثَاثِ[(٤)]

ظَعَائِنُ أَسْلَكَتْ في بَطْنِ قَوٍّ ... تَحُثُّ إذا رَنَتْ أَيّ احْتِثَاثِ[(٥)]

---

(١) الدرع: قميص المرأة، وثوب صغير تلبسه الجارية في البيت.

(٢) الوحف: الأسود (صفة للشعر). والمُرجّل: المُسَرَّحُ.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن نُمير بن خَرَشة بن جُشَم بن قَسيّ؛ وقسي هو ثقيف: شاعر غزل، مولده ومنشؤه بالطائف. من شعراء الدولة الأموية. كان يهوى زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج بن يوسف، وله فيها أشعار كثيرة. وكان الحجاج قد طلبه، فهرب إلى اليمن، ثم ركب بحر عدن، ويقال: إنه استجار بعبد الملك بن مروان فأمّنه. (الأصفهاني، الأغاني: ٦/ ١٨٠).

(٤) الظعائن: جمع الظعينة، وهي المرأة في الهودج. والأثاث: متاع البيت.

(٥) بطن قوّ: موضع. تحثُّ: تحضُّ، والاحتثاث: الحَضُّ. وفي الأغاني:

ظَعائِنُ أَسْلِكَتْ نَقْبَ المُنَقَّى ... تُحَثُّ إذا وَنَتْ أَيَّ احْتِثَاثِ

نقب المنقى: موضع. وونت: فترت، ضعفت، تكاسلت.

كَأَنَّ على الهوادجِ يَوْمَ بانوا ... نِعَاجاً تَرْتعي بَقْلَ البِراثِ[١]
يُهيِّجك الْحَمَامُ إذا تغنّى ... كما سَجَعَ النَّوَادِبُ بالمَرَاثي[٢]

[من أدب ابن المعتز]

وقال ابن المُعْتَزّ: وَعْدُ الدنيا إلى خَلَفٍ، وبقاؤها إلى تَلَفٍ، وبَعْدَ عَطَائِها المنع، وبعد أمانها الفَجْع، طَوَّاحة طرَّاحة، آسية جَرَّاحة، كم راقد في ظلِّها قد أيقظته، وواثق بها قد خَانَته، حتى يلفظَ نَفسَهُ، ويودّع دُنياه، وَيَسْكُن رَمْسَه، وينقطع عن أمله، ويُشْرف على عمله، وقد رَجَح الموتُ بحياته[٣]، ونقضَ قُوَى حَركاته، وطمَس البِلَى جمالَ بَهْجَته، وقطع نِظَامَ صُورته، وصار كخَطٍّ من رَماد تحت صفائح أنْضَاد[٤]؛ وقد أسلمه الأحباب، وافترش التُّراب، في بيت نَجرَتْهُ المَعَاوِلُ[٥]، وفُرِشَتْ فيه الْجَنادل، ما زال مضطرباً في أمَلِه، حتى استقرَّ في أجَلِه، ومحت الأيامُ ذِكْرَه، واعتادتِ الألْحَاظُ فَقْدَه.

بين ابن المعتز وأستاذه ثعلب

وكتب وهو معتقل إلى أستاذه أبي العباس أحمد بن يَحْيَى ثَعْلَب[٦] يتشوّقه:

ما وَجْدُ صَادٍ بِالحِبالِ مُوثَقِ ... بِماءِ مُزْنٍ بَارِدٍ مُصَفَّقِ[٧]

---

(١) بانوا: رحلوا بعيداً. والنعاج: البقر الوحشي. والبراث: الأماكن السهلة من الرمل، واحدها بَرث (بالفتح). وفي الأغاني:

كَأَنَّ على الحَدائِجِ يَوْمَ بانوا ... نِعَاجاً تَرْتَعي بَقْلَ البِراثِ

والحدائج: جمع حديجة، وهي من مراكب النساء، مثل الهودج.

(٢) في الأغاني:

يُهَيِّجُني الحَمَامُ إذا تَداعَى ... كَما سَجَعَ النَّوائِحُ بِالمَراثي

(٣) رجح: مال كما ترجح كفة الميزان.

(٤) صفائح أنضاد: الصفائح: الحجارة العريضة، وأنضاد: جمع نضد، وهو المنحوت باستواء، وقد نَضَدَ الشيءَ: ضمَّ بعضه إلى بعض مُتَّسِقاً.

(٥) المعاول: جمع معول، وهو آلة لحفر الأرض كالقدوم.

(٦) هو أبو العباس، أحمد بن يحيى بن زيد بن سَيَّار النحوي الشيباني بالولاء، المعروف بثعلب: إمام أهل الكوفة في اللغة والنحو، وكان ثقةً، حُجَّةً، مشهوراً بالحفظ، وصدق اللهجة، والمعرفة بالعربية، ورواية الشعر القديم. توفي ببغداد سنة ٢٩١ هـ/ ٩٠٧ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ١٠٢؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٥/ ١٠٢).

(٧) مصفق: صفقته الريح: لعبت به حتى لكأنه يصفق.

بالرِّيح لم يَكْدُرْ ولم يُرَنَّقِ جادتْ به أَخْلافُ دَجْنٍ مُطبِقِ[١]
بصَخْرَةٍ إن تَرَ شَمْساً تَبْرُقِ مَادَ عليها كالزُّجاجِ الأَزرقِ[٢]
صَريحُ غَيْثٍ خَالصٍ لم يُمْذَقِ إلاَّ كَوَجْدِي بكَ، لَكِنْ أَتقي[٣]
يا فَاتحاً لِكُلِّ بابٍ مُغْلَقِ وَصَيْرَفِيَّاً نَاقِداً لِلمَنْطِقِ[٤]
إنْ قالَ هذا بَهْرَجٌ لم يَنْفُقِ إنَّا على البِعَادِ وَالتفرُّقِ[٥]
لِنَلْتَقي بالذكرِ إنْ لَمْ نَلْتَقِ

فأجابه: أخذتَ أطال الله بقاءك أولَ هذه الأبيات مما أمليتُهُ عليك من قول جميل[٦]:

وَما صَادِياتٌ حُمْنَ يَوْماً وَليلةً على الماءِ يَخشَيْنَ العِصيَّ حَوَانِي[٧]
كَواعبُ لم يَصْدُرْنَ عَنْهُ لِوِجْهَةٍ وَلا هُنَّ من بَرْدِ الحياضِ دَوَاني[٨]
يَرَيْنَ حَبَابَ الماءِ والموتُ دُونَهُ فَهُنَّ لأصواتِ السُّقاةِ رَوَاني[٩]
بأَكثرَ مني غُلَّةً وَصَبابةً إليكِ، وَلكنَّ العَدُوَّ عَرَاني[١٠]

---

(١) رَنَّقَ الماء: كدَّره. الأخلاف: الأثداء يفيض منها اللبن. والدَّجْنُ المطبق: السحاب المتراكم.
(٢) ماد الشيء مَيْداً وَمَيَداناً: تحرَّك واضطرب، وماد الغصن: تمايل، وماد السَّراب: تموَّج في مرأى العين واضطرب.
(٣) لم يمذق: لم يمزج، وقد مذق اللبن والشراب بالماء: مزجه وخلطه. يشبه الغيث الشديد بالخمر الخالصة تصرع الشاربين.
(٤) الصيرفي والصراف والصيرف: الذي يبدل نقداً بنقد، والخبير بتمييز النقود، والمراد هنا: البصير بنقد القول.
(٥) البهرج: الزائف.
(٦) هو أبو عمرو، جميل بن عبد الله بن معمر العذري، الشهير بجميل بثينة: شاعر مقدم فصيح، من عشاق العرب المشهورين، وصاحبته بثينة، وكلاهما من عذرة. توفي بمصر سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/٣٤٦؛ الأصفهاني، الأغاني: ٨/٩٠؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/١٩٤). والأبيات في ديوانه: ص ١٢٩.
(٧) صاديات: جمع صادية، وهي العطشى، والمراد بالصاديات: النياق. حواني: لاويات الأعناق. وفي الديوان: «يغشين» أي: يضربن.
(٨) كواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي نهد ثديها.
(٩) الحباب: طرائق تظهر على وجه الماء تصنعها الريح، والفقاقيع على وجه الماء. والرواني: جمع رانية: التي تُديم النظر مع سكون طَرْفٍ.
(١٠) الغُلَّة: شدّة العطش وحرارته. والصبابة: رقة الشوق وحرارته. وعراه الأمر والداء: أَلَمَّ به وأصابه.

وأَخَذْتَ آخِرَهَا من قول رُؤْبَة بن العجَّاج[١]:

إنِّي وإنْ لَمْ تَرَني فَإنّني أَخُوكَ والرَّاعِي إذا اسْتَرْعَيْتَني[٢]

أَرَاكَ بِالْوُدِّ وإنْ لَمْ تَرَني

بعض أخبار ابن المعتز والمختار من قوله

وكان أبو العباس عبدُ اللَّه بنُ المعتز في المنصب العالي من الشعر والنثر، وفي النهاية في إشراق ديباجَةِ البيان، والغاية من رقَّةِ حاشية اللسان. وكان كما قال ابن المرزبان: إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيقِ النَّثْر أتى بحلال السحر، وليس بعد ذي الرُّمة[٣] أكثرُ افتناناً وأكبرُ تصرّفاً وإحساناً في التشبيه منه. وإنما فَرَّقْتُ جُمْلة ما اخترتُ من شعره ونثره في جملة هذا الكتاب؛ لئلاّ أخرج عما تقدّم به الشرط في البسط، وآتي ههنا ببعض ماأختاره له، قال:

وَفِتْيَانٍ سَرَوْا والليلُ داجٍ وَضوءُ الصبحِ مُتَّهَمُ الطُّلوعِ

كأَنَّ بُزاتَهُمْ أُمراءُ جَيْشٍ على أَكْتَافِهم صَدَأُ الدُّرُوعِ

وقال أيضاً:

في ليلةٍ أَكَلَ المُحَاقُ هِلالَها حَتَّى تَبَدَّى مِثْلَ وَقْفِ العاجِ[٤]

---

(١) هو أبو العجاج، رؤبة بن عبد الله بن رؤبة التميمي السعدي: من رُجَّاز العرب المشهورين، ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مدح بني أمية وبني العباس، وكان أكثر مقامه في البصرة. أخذ عنه وجوه اللغة، وكثر الاحتجاج بشعره. توفي سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١١٣؛ البغدادي، خزانة الأدب: ١/ ٨٩).

(٢) الراعي: من يحفظ الماشية ويرعاها، وكلّ من وَلِيَ أمراً بالحفظ والسياسة. وراعاه مراعاةً وَرِعاءً: لاحظه وراقبه، واسترعاه الشيء: استحفظه إياه، أو طلب منه أن يرعاه.

(٣) هو أبو الحارث، غيلان بن عقبة بن بهشي بن مسعود بن عمرو بن ربيعة، من بني عدي، وسمّي ذا الرمة لقوله في الوتد: «أَشْعَثَ باقي رِمَّةِ التقليدِ». وهو من عشّاق العرب المشهورين، وصاحبته ميّة بنت فَلاّن بن طلبة بن عاصم. ولد ونشأ بالبادية. عدَّه حماد الراوية أحسن الإسلاميين تشبيهاً، وقال فيه أبو عمرو بن العلاء: «فتح الشعر بامرىء القيس، وختم بذي الرمّة». توفي بأصبهان سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٤٩؛ حاجي خليفة، كشف الظنون: ٧٨٠؛ زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية: ١/ ٢٩٢).

(٤) وقف العاج: هو القطعة من العاج يُمسك بها الثوب كالدبوس ونحوه.

والصبحُ يَتْلُو المُشْتَرِي فَكأنَّهُ عُرْيانُ يَمْشِي في الدُّجا بِسِراجِ[١]

وقال أيضاً يصف فرساً:

ولقد غَدَوْتُ على طِمِرٍّ سابحٍ عَقَدتْ سَنابِكُهُ عَجاجَةَ قَسْطَلِ[٢]
مُتَلَثِّمٌ لُجُمَ الحَديدِ يَلُوكُها لَوْكَ الفَتاةِ مَساوِكاً من إسْحِلِ[٣]
وَمُحجَّلٍ غَيْرِ اليمينِ كأنَّهُ مُتَبَخْتِرٌ يَمْشِي بِكُمٍّ مُسْبَلِ[٤]

وقال:

قَدْ أَغْتَدِي بِقارِحٍ مُسَوَّمٍ يَعْبُوبِ[٥]
يَنْفِي الْحَصَى بِحافِرٍ كالقَدَحِ المَكْبُوبِ
قَدْ ضَحِكَتْ غُرَّتُهُ في مَوْضِعِ التَّقطِيبِ[٦]

وقال أيضاً:

وَلقَدْ وَطِئْتُ الغَيْثَ يَحْمِلُنِي طِرْفٌ كَلَوْنِ الصبحِ حين وَفَدْ[٧]
جَمَّاعِ أَطْرَافِ الصِّوارِ فما الْـ أُخرى عليهِ إذا جَرَى بِأَشَدْ[٨]
يَمْشِي فَيَعْرِضُ في العِنانِ كَمَا صَدَفَ المُعشَّقُ ذو الدّلالِ وَصَدْ[٩]
فَكأنَّهُ مَوْجٌ يَذوبُ إذا أَطْلَقْتَهُ فإذا حَبَسْتَ جَمَدْ

---

(١) الدجى: جمع دجية، وهي الظلمة.

(٢) الطمر: الحصان السريع الجري. وسنابك الجواد: حوافره. والعجاجة: السحابة، والقسطل: الغبار.

(٣) اللُّجُمُ: جمع لجام، وهو الحديدة في فم الفرس، ثم سَمَّوْها مع ما يتصل بها من سُيور وآلة لِجاماً. والإسحل: شجر تُتَّخذُ من عيدانه المساويك.

(٤) المُحَجَّلُ من الدواب: ما كان البياض منه في موضع الخلاخيل والقيود وفوق ذلك. وَكُمٌّ مُسْبَلٌ: مُرْخًى.

(٥) القارح من ذي الحافر: ما طلع نابه، وذلك في السنة التاسعة. والمُسَوَّم: المُعْلَم. واليَعْبُوبُ: الفرس الطويل السريع، وقيل: الكثير الجري، وقيل: الجواد السهل في عدوه.

(٦) التقطيب: العبوس.

(٧) الطِّرْفُ من الجياد: الكريم.

(٨) الصوار: القطيع.

(٩) صدف عنه: أعرض ومال.

وقال أيضاً يصف سيفاً:

وَلِي صَارِمٌ فيهِ المنايا كَوامِنٌ فَما يُنْتَضَى إلاَّ لِسَفْكِ دِمَاءِ[١]

تَرى فَوْقَ مَتْنَيْهِ الفِرِنْدَ كَأَنَّهُ بَقيةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ[٢]

وقال يَصِفُ ناراً:

مُشَهَّرةٌ لا يَحْجبُ النَّخْلُ ضَوْءَها كأَنَّ سُيوفاً بين عِيدَانها تُجْلَى

يُفَرّج أَغصانَ الوُقودِ اِضْطِرامُها كما شَقّتِ الشقراءُ عَنْ مَتْنِها جُلاّ[٣]

للسري الرفاء

وقال بعض أهل العصر، وهو السَّرِيّ المُوصِليّ[٤]:

يَوْمُ رَذَاذٍ مُمَسَّكِ الحُجُبِ يَضْحَكُ فيه السُّرورُ من كَثَبِ[٥]

وَمَجْلِسٍ أُسْبِلَتْ سَتائِرُهُ على شُموسِ البهاءِ والحسَبِ

وَقدْ جَرَتْ خَيْلُ رَاحِنا خَبَباً في حَلْبِهَا أو هَمَمْنَ بالخبَبِ[٦]

وَالتهَبَتْ نَارُنَا فَمنْظَرُها يُغْنِيكَ عَنْ كُلّ مَنْظَرٍ عَجَبِ

إذا ارتمتْ بالشرارِ فَاطَّرَدَتْ على ذُرَاها مَطَارِدُ اللَّهَبِ

رَأَيْتَ ياقُوتةً مُشبَّكَةً تَطيرُ عنها قُرَاضَةُ الذهبِ[٧]

---

(١) يُنْتَضَى: يُسَلُّ، يُشْهَر، يُخْرَجُ من غمده.

(٢) متنا السيف: جانباه، حَذَّاه. والفرند: ما يُلْمَحُ في صفحة السيف من أثر تموّج الضوء.

(٣) الشقراء: فرس زهير بن جذيمة، ومتنها: ظهرها. والجُلُّ: السَّرْج.

(٤) هو أبو الحسن، السريّ بن أحمد بن السريّ الكندي الموصلي الشاعر المشهور. كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بالموصل، فعرف بالرفَّاء. اتصل بسيف الدولة الحمداني ومدحه، ثم انتقل إلى بغداد، ومدح الوزير المهلبي وجماعة من الرؤساء، فنفق شعره وراج. توفي سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٤٩/٩؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٨٢/١١).

(٥) الرذاذ: المطر الخفيف الضعيف. من كثب: من قرب.

(٦) الخبب: ضرب من العدو، وهو أن ينقل الفرس أيامنه جميعاً وأياسره جميعاً، أو أن يراوح بين يديه.

(٧) القُراضَةُ: ما سقط بالقرض، وقد قرض الشيء قَرْضاً: قطعه بالمقراضين.

فَانْهَضْ إلى المجلسِ الذي ابْتَسَمَتْ ... فيـــهِ ريـــاضُ الجمـــالِ وَالأَدبِ

لأبي الفرج الببغاء

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو الفَرَج البَبَّغاء(١):

فَحَمـــاً قَـــدّم الغـــلامُ فـــأَهْـــدَى ... فـــي كَـــوانينـــهِ حَيـــاةَ النُّفُـــوسِ
كـــان كـــالآبَنُـــوسِ غَيْـــرَ مُحلًّـــى ... فَغـــدا وَهـــو مُـــذْهَـــبُ الآبنـــوسِ
لَقِـــيَ النـــارَ فـــي ثيـــابِ حِـــدَادٍ ... فَكَسَتْـــهُ مُصَبَّغَـــاتِ عَـــرُوسِ

لأبي الفضل الميكالي

وقال أبو الفَضْل الميكالي:

كـــأَنَّ الشَّـــرارَ علـــى نَـــارِنـــا ... وَقـــدْ راقَ مَنْظَـــرُهـــا كُـــلَّ عَيْـــن
سُحَـــالـــةُ تِبْـــرٍ إذا مـــا عَـــلا ... فـــإِمَّـــا هَـــوَى فَفُتَـــاتُ اللُّجَيْـــن(٢)

* * *

لابن المعتز

وقال ابن المعتز يصف سحابة:

وَمُـــوقَـــرَةٍ بِثقْـــلِ المـــاءِ جـــاءَتْ ... تَهَـــادى فَـــوْقَ أَعْنَـــاقِ الـــرِّيـــاحِ(٣)
فَبـــاتَـــتْ لَيْلَهـــا سَحًّـــا وَوَبْـــلاً ... وَهَطْـــلاً مِثْـــلَ أَفْـــوَاه الْجِـــرَاحِ(٤)
كـــأَنَّ سَمـــاءَهـــا لمـــا تَجلَّـــتْ ... خِـــلالَ نُجـــومِهـــا عِنْـــدَ الصبـــاحِ
رِيـــاضُ بَنَفْسَـــجٍ خَضِـــلٍ ثَـــراهُ ... تَفَتَّـــح بَيْنَـــهُ نَـــوْرُ الأقـــاحِ(٥)

---

(١) هو أبو الفرج، عبد الواحد بن نصر بن محمد البغا المخزومي الشامي: شاعر، ناثر. تنقل في البلاد، ومدح سيف الدولة، وبعض الرؤساء. توفي ببغداد سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٨ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٦/ ٢١٤).
(٢) السحالة: النخالة. التبر: الذهب. اللجين: الفضة.
(٣) الموقرة: المثقلة.
(٤) سحَّ الماءُ ونحوه: سال من أعلى إلى أسفل. ووبلت السماء وَبْلاً وَوُبُولاً: اشتد مطرها، والوَبْلُ والوابل: المطر الشديد. والهَطْلُ: المطر المتابع. وقد هطل المطر: تتابع متفرقاً عظيم القطر.
(٥) الخضل: الندي. الثرى: التراب. النَّوْرُ: الزهر.

وقال:

وَلُجَّةٍ للمنايا خُضْتُ غَمْرَتها بصارمٍ ذَكَرٍ صَمْصَامَةٍ خَذِمِ[1]
وَقَارحٍ صَبَغَ الْخِيلانُ دُهْمَتَهُ بِشُبْهَةٍ كَاخْتِلاطِ الصُّبْحِ بالظُّلَمِ[2]

وقال:

وَليلٍ كَكُحْلِ العَيْنِ خُضْتُ ظَلامَهُ بأَزرقَ لَمَّاعٍ وَأَبْيَضَ صارِمِ
وَمَضْبُورةِ الأعضادِ حَرْفٍ كأَنّها تُصافِحُ رَضْرَاضَ الحَصَى بِمَناسِمِ[3]

وقال يصف حَيَّةً:

نَعتُّ رَقْطَاءَ لا تَحْيا لَديغَتُهَا لَوْ قَدَّها السَّيفُ لم يَعْلَقْ به بَلَلُ[4]
تُلْقِي إذا انسلختْ في الأرض جِلْدَتَها كأَنها كُمٌّ دِرْعٍ قَدَّهُ بَطَلُ

وقال أيضاً:

وَأَسأَر مني الدَّهرُ عَضْباً مُهَنَّداً يَفُلُّ شَبَا حَظِّي، وَقلباً مُشَيَّعَا[5]
وَرأْياً كَمِرآةِ الصَّنَاعِ أَرى بِهِ سَرائر غَيْبِ الدهرِ من حَيْثُ ما سَعَى

أخذه من قول المنصور لابنه المهدي: لا تُبْرِمنَّ أمراً حتى تفكّر فيه؛ فإن فِكْرة العاقل مرآته، تريه قبحه وحسنه.

---

(١) الصارم: السيف القاطع. وسيف ذكر أو مذكر: ذو رونق، أو شديد صلب. والذكر من الحديد: أيبسه وأشده وأجوده. والصمصامة والصمصام: السيف الصارم لا ينثني. والخذم: القاطع.

(٢) القارح من الخيل: بمنزلة البازل من الإبل، وهو الذي قوي ببلوغه تسع سنين. والخيلان: جمع خال، وهو شامة في البدن. والدهمة: السواد. والشهبة: لون بين السواد والبياض.

(٣) المضبورة من النوق: المحكمة الخَلْق، المكتنزة اللحم. والأعضاد: جمع عَضُد، وهو ما بين المرفق والكتف. والحرف: الضامرة. ورضراض الحصى: صغارها. والمناسم: جمع منسم، وهو خفّ البعير.

(٤) رقطاء: منقطة. وَقدَّ الشيءَ: شَقَّهُ طولاً.

(٥) أَسأَر: أبقى. وسيف عَضْبٌ: قاطع، ولسان عَضْب: حادٌّ. والمُهنَّد: المصنوع في الهند. وفلَّ السيف فلاًّ: ثَلَمَهُ وكسر حَدَّه. وشباة الشيء: حَدُّ طرفه، يقال: شباة السيف، وشباة العقرب، إبرتها، والجمع: شباً. والمشيع: الشجاع.

ولما دُفِنَ المنصور وقف الربيعُ على قبره فقال: رَحِمَكَ اللَّهُ يا أمير المؤمنين، وغفر لكَ! فقد كان لك حِمًى من العقل لا يطيرُ به الجهل، وكنت ترى باطنَ الأمر بمرآةٍ من الرأي، كما ترى ظاهره. ثم التفت إلى يحيى بن محمد أخي المنصور فقال: هذا كما قال أبو دَهْبَل الجُمَحي[١]:

عُقِمَ النساءُ فما يَلِدْنَ شَبيهَهُ ... إنَّ النساءَ بِمثْلِهِ عُقْمُ[٢]

وبعده:

مُتهلِّلٌ بِنَعَمْ، بِلاَ مُتَباعِدٌ ... سِيَّان منه الوَفْرُ وَالعُدْمُ[٣]

نَزْرُ الكلامِ مِنَ الحياءِ تخالُهُ ... ضَمِناً، ولَيْسَ بِجسْمِهِ سُقْمُ[٤]

أخذ البيت الأخير من قول لَيْلَى الأَخْيَلِيّة:

لا تَقْرَبَنَّ الدَّهرَ آلَ مُطَرِّفٍ ... إنْ ظالماً يَوْماً وَإنْ مَظْلُوما

قَوْمٌ رِباطُ الخيلِ حَوْلَ بُيُوتهِمْ ... وَأسِنَّةٌ زُرقٌ يُخَلْنَ نُجُوما

وَمُمَزَّقٌ عَنْهُ القَمِيصُ تَخَالُهُ ... وَسطَ البيوت مِنَ الحياءِ سَقيما

حَتَّى إذا رُفِعَ اللواءُ رَأَيْتَهُ ... يَوْمَ الهياجِ على الخميسِ زَعيما[٥]

وقال:

يُشَبَّهُون مُلُوكاً في تَجلّتِهِمْ ... وَطُولِ أَنْصِبَةِ الأَعْنَاقِ واللِّمَمِ[٦]

---

(١) هو أبو دهبل، وهب بن زمعة بن أُحيحة الجمحي: شاعر إسلامي، مدح معاوية وعبد الله بن الزبير. وكان سيّداً شريفاً، يحمل الحمالات، ويعطي الفقراء، ويقري الضيوف، وعرف بجمال طلعته، وعفته في شعره. توفي سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥١٢؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٥٦٤).

(٢) عقم: جمع عقيم، وهي المرأة العاقر (التي لا تحمل).

(٣) الوفر والعدم: الغنى والفقر.

(٤) النزر: القليل. والضمن: المريض.

(٥) اللواء: الراية. والخميس: الجيش؛ لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة. والزعيم: الرئيس.

(٦) الأنصبة: جمع نصاب، وهو الأصل الذي ركب فيه العنق. واللمم واللمام: جمع لِمَّة، وهي شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

إذا بَدَا المِسْكُ يَجرِي في مَفَارِقهم ... رَاحُوا كأَنهمُ مَرْضى من الكَرَمِ

وقال أبو علي الحاتمي: وما أحسن أبياتاً أنشدها أبو عمر المُطرّز غلام ثَعْلَب يعترض في أثنائها هذا المعنى:

تَخالُهُم لِلحِلم صُمًّا عَنِ الْخَنا ... وَخُرْساً عنِ الفَحْشَاءِ عِنْدَ التَّهاتُرِ[1]

وَمَرْضَى إذا لاَقَوْا حَياءً وَعِفّةً ... وَعِنْدَ الحُروبِ كالُّليوثِ الْخَوادِرِ[2]

لَهُمْ عِزٌّ إنصافٍ وَذُلُّ تَواضُعٍ ... بِهِمْ وَلَهُمْ ذَلَّتْ رِقابُ العَشائرِ

كَأَنَّ بِهِمْ وَصْماً يَخافونَ عَارَهُ ... وَلَيْسَ بِهِمْ إلاّ اتّقاءُ المَعايِرِ[3]

وأنشد:

أَحلامُ عادٍ لا يَخافُ جَليسهُمْ ... ـ وإن نَطَقَ العَوْراءَ ـ عَيْبَ لِسانِ[4]

إذا حُدّثوا لم يُخْشَ سُوءُ استماعِهِمْ ... وَإنْ حَدَّثُوا أدَّوْا بِحُسْنِ بَيانِ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز:

وَعاقِدِ زُنّارٍ على غُصُنِ الآسِ ... دَقيق المَعَاني مُخْطَفِ الخَصْرِ مَيّاسِ[5]

سَقاني عُقاراً صَبَّ فيها مِزاجَها ... فَأَضْحَكَ عن ثَغْرِ الْحَبَابِ فَمَ الْكاسِ[6]

وقال:

يا لَيْلَةً نَسِيَ الزّمانُ بِها ... أَحْداثَه، كُوني بلا فَجْرِ

فَاحَ المساءُ بِبَدْرِها، وَوَشَتْ ... فيها الصَّبَا بِمَواقعِ القَطْرِ[7]

---

(١) التهاتر: الشّهادات التي يُكذّب بعضها بعضاً، وقد تهاتر الخصمان: ادّعى كل واحدٍ على الآخر باطلاً. والخنا: الفحش في الكلام.

(٢) الخوادر: جمع خادر، وهو الليث يلزم أجمته.

(٣) الوصم: العار، العيب. والمعاير: المعايب.

(٤) العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة.

(٥) الزنّار: رباط يُشَدُّ به الخصر. ومخطف الخصر: ضامره، ومثله: أخطف ومخطوف. وَميَّاس: صيغة مبالغة من ماس: اختال وتبختر.

(٦) العقار: الخمر، سميت بذلك لأنها تعقر صاحبها.

(٧) الصَّبَا: ريح ناعمة تهب من ناحية الشرق.

ثُـــم انْقَضَـــتْ والقَلْـــبُ يَتْبَعُهـــا ... فـي حَيْـثُ مـا سقَطَـتْ مِـنَ الـدَّهْـرِ

وقال:

يـــا رُبَّ إخـــوانٍ صَحِبْتُهـــمُ ... لا يَمْلِكُـــونَ لِسَلْـــوَةٍ قَلْبَـــا[(١)]

لَـــوْ تَسْتطيـــعُ قُلـــوبُهـــم نَفَـــرَتْ ... أَجْسَـــامُهـــم فتعَـــانَقَـــتْ حُبّـــا[(٢)]

لابن الرومي

هذا كقول ابن الرومي[(٣)]:

أُعـــانِقُـــهُ وَالنَّفْـــسُ بَعْـــدُ مَشُـــوقَـــةٌ ... إليـه، وَهَـلْ بَعْـد العِنَـاقِ تَـدانـي[(٤)]؟

وَأَلْثُـمُ فَـاهُ كَـيْ تَـزُولَ حَـرَارَتـي ... فَيَشْتَـدُّ مـا أَلقَـى مـن الهَيَمَـانِ[(٥)]

وَلـم يَكُ مِقْـدَارُ الـذي بي مِنَ الْهَوَى ... لِيَـرْوِيَـهُ مـا تَـرْشُـفُ الشَّفَتَـانِ[(٦)]

كـأَنَّ فُـؤادي لَيْـسَ يَشْفِـي غَليلَـهُ ... سِـوى أنْ يُـرَى الـرُّوحـانِ يَمْتَـزِجَـانِ

من نثر ابن المعتز

ومن منثوره: لا يزالُ الإخْوَانُ يُسافرون في المودَّة، حتى يبلغوا الثُّقة، فإذا بلغوها أَلْقوْا التَّسيار، واطمأَنَّتْ بهم الدار، وأقبلت وفودُ النصائح، وأمنت خَبايَا الضمائر، فَحَلُّوا عُقَد التَّحفُّظ، ونزعوا ملابس التَّخَلُّق.

وله: سار فلان في جيوشٍ عليهم أَرْدِيَة السيوف، وأَقْمِصَةُ الحديد، وكأنَّ رِمَاحَهم قرونُ الوُعولِ[(٧)]، وكأنَّ دُروعَهم زَبَدُ السيولِ، على خيل تأكُل الأرضَ بحوافرها، وتمدّ

---

(١) السَّلْوَةُ: كلّ ما يُسلي، والسُّلُوُّ: هو النسيان مع طيب نفسٍ بعد الفراق.

(٢) نفرت: سعت.

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٢٢٢.

(٤) في الديوان:

أعـانقها والنفـس بعـد مشـوقـة ... إليها وهـل بعـد العنـاقِ تـدانـي

(٥) في الديوان: «فألثم فاها كي تموت حزازتي». والهيمان: العطش الشديد.

(٦) في الديوان: «الذي بي من الجوى ليشفيه».

(٧) الوعول: جمع وَعْل، وهو تيس الجبل، قال الأعشى:

كَنـاطِـحٍ صَخْـرَةً يَـوْمـاً لِيُـوهِنَهَـا ... فَلَـمْ يَضِـرْهَـا وَأَوْهَـى قَـرْنَـهُ الـوَعِـلُ

(ديوانه: ص ١٤٨).

بالنَّقْع سُرَادِقَهَا[١]، قد نُشِرَتْ في وجوهها غُرَر كأنها صحائف الرَّق[٢]، وأمسكها تحجيلٌ كأنه أسورة اللّجين[٣]، وقُرِّطت عُذُراً كأنها الشَّنف[٤]، تتلقّف الأعداء أوائلُهُ ولَم تَنْهَضْ أواخره، قد صُبَّ عليهم وقارُ الصبر، وهبّت معهم ريح النَّصْر.

وله في عليل: آذنَ اللَّهُ في شفائك، وتَلَقَّى داءك بدوائك، ومسحَ بيدِ العافيةِ عليك، ووجَّه وَفْدَ السلامة إليك، وجعل عِلَّتك ماحيةً لذنوبك، مُضَاعِفَةً لثوابك.

وكتب إلى عُبَيْد الله بن سُليمان بن وَهْب[٥] في يوم عيد: أَخَّرَتْنِي العِلَّةُ عن الوزير أعزَّهُ الله، فحضرت بالدعاء في كتابٍ يَنُوبُ عني، ويَعْمُر ما أخْلَتْهُ العوائِقُ مني، وأنا أسألُ الله تعالى أن يجعلَ هذا العيدَ أَعْظَمَ الأعياد السالفة بركةً على الوزير، ودون الأعياد المستَقْبَلة فيما يُحِبُّ ويُحَبّ له، ويَقْبل ما توسل به إلى مَرْضَاته، ويضاعفَ الإحسان إليه، على الإحسان منه، ويمتّعه بصحبة النعمة ولباسِ العافية، ولا يُرِيَهُ في مسرَّةٍ نقصاً، ولا يقطع عنه مَزِيداً، ويجعلني من كل سوءٍ فِدَاء، ويصرف عيونَ الغِيَرِ عنه، وعن حظّي منه.

وله إلى بعض الرؤساء: لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبح الانتقامِ، وتجاوز عن كل مُذْنِب لم يَسْلُكْ من الإعذار طريقاً[٦] حتى اتّخذ من رجاء عَفْوِكَ رَفيقاً.

وله اعتذار إلى القاسم بن عُبَيْدِ اللَّه: ترفّع عن ظُلْمِي إن كنتُ بَرِيئاً، وتفضَّل بالعفو إن كنتُ مسيئاً، فوالله إني لأَطْلُبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لم أجْنِه، وألتَمس الإقالةَ مما لا أعرفه؛ لِتَزْدَادَ تطوُّلاً، وأزداد تَذَلُّلاً؛ وأنا أُعِيذُ حالي عندك بكرمك من واشٍ يَكِيدُهَا، وأحْرُسها بوفائك من

---

(١) النقع: الغبار، أو غبار الحرب خاصة. والسُّرادق: كلّ ما أحاط بشيء من حائط أو مِضْرَب، والفسطاط يجتمع فيه الناس لعرسٍ أو مأتم وغيرهما.

(٢) الرَّقّ: جلد رقيق يكتب فيه.

(٣) اللجين: الفضة.

(٤) الشَّنف (بالفتح): القرط. والعُذُرُ (بضمتين): جمع عذار، وهو جانب اللحية.

(٥) عبيد اللّه بن سليمان بن وهب: وزير، من أكابر الكتاب. استوزره المعتمد على الله وأقرَّهُ بعده المعتضد، واستمرت وزارته عشر سنين وخمسين يوماً. وكانت وفاته سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م. قال ابن المعتز عند دفنه:

هـذا أَبـو القَـاسِـم فـي نَعْشِـهِ   قُـومُـوا انْظُـروا كَيْـفَ تَسِيـرُ الجِبـال

(الزركلي، الأعلام: ٤/ ١٩٤).

(٦) الإعذار: إبداء العذر.

باغٍ يحاوِلُ إفسادها، وأسأل الله تعالى أنْ يجعلَ حظِّي منك، بقدر وُدِّي لك؛ ومحلّي من رجائك، بحيث أستَحِقُّ منك.

وله إليه: لو كان في الصَّمْتِ مَوضعٌ يَسَعُ لَخَففْتُ عن سَمْعِ الوزير وَنَظَره، ولم أشغل وَجْهاً من فِكْره، وما زالت الشكوى، تُعْرِبُ عن لسانِ البَلْوَى، ومن اختلّت حالته، كان في الصَّمْتِ هَلَكَتُه، وقد كان الصبرُ ينصرُني على سَتْرِ أمْرِي حتى خذلني.

وهذا كقول أحمد بن إسماعيل: فصاحةُ الشكوى، على قَدْرِ البلوى، إلا أن يكونَ بالشاكي انقباض، وبالمشكُوِّ إليه إعْرَاض.

[وصف الماء وما يتصل به]

لابن المعتز يصف ماء

وقد أحسن أبو العباس بن المعتز في صفة الماء في أرجوزته التي أنشدتها آنفاً، وقد قال في قصيدة له وذكر إبلاً:

فَتبــدَّى لَهُـــنَّ بـــالنَّجَـــفِ المُـــدْ بِــرِ مــاءٌ صــافـي الجمــامِ عَــرِيٌّ(١)
يَتمشَّــى علــى حَصًــى يَسْلُــبُ المــا ءَ قَـــذَاه فَمتْنُـــهُ مَجْلِـــيٌّ(٢)
وَإذا دَاخَلَتْـــــهُ دُرَّةُ شَمْـــــسٍ خِلْتَـــهُ كُسِّـــرتْ عليـــهِ الْحُلِـــيُّ

وله أيضاً يحن للدويرة ويصف ماء

وقال:

لا مِثْــلَ مَنْــزِلَــةِ الــدُّوَيْــرة مَنْــزِلٌ يــا دارُ جــادكِ وَابِــلٌ وَسَقــاكِ(٣)
بُـؤسـاً لِـدَهْـرٍ غَيَّـرَتْـكِ صُـروفُـهُ لـم يَمْـحُ مـن قلبـي الهـوى ومَحَـاكِ
لَـــمْ يَحْـــلُ للعينيـــنِ بَعـــدكِ مَنْظَـــرٌ ذُمَّ المنــــازل كُلّهــــنَّ سِــــوَاكِ

---

(١) النَّجَفُ: مكان لا يعلوه الماء، مستطيل، منقاد، ويكون في بطن الوادي، أو في بطن الأرض. والنَّجَفُ: التل، والجمع: نِجَافٌ. والنَّجَفُ من الكثيب: إبطه. والجمام: جمع جم، وهو الماء الكثير.

(٢) مَجْلِيٌّ: الصواب أن يقول: مَجْلُوٌّ، لأن فعله جلا، ومضارعه يجلو.

(٣) الدويرة: محلة ببغداد.

أيّ المعـاهـدِ منْـكِ أنْـدُبُ طِيبَـهُ ... مُمْسَـاكِ بـالآصـالِ أم مَغْـدَاكِ
أَمْ بَـرْدُ ظلّك ذي الغصونِ وذي الجَنَى ... أَمْ أَرْضُـكِ المَيْثَـاءُ أَم رَيّـاكِ[1]
وَكـأَنَّمـا سَطعـتْ مَجـامـرُ عَنْبَـرٍ ... أَو فُـتَّ فـأْرُ المِسْـكِ فـوق ثَـراكِ[2]
وَكـأنمـا حَصْبَـاءُ أرضِـكِ جَـوْهَـرٌ ... وَكـأَنَّ مـاءَ الـوِرْدِ دَمْـعُ نَـداكِ
[وكـأنمـا أَيـدي الـربيـع ضُحَيّـةً ... نَشَـرَتْ ثيابَ الـوَشْي فـوق رُبـاكِ][3]
وَكـأَنَّ دِرْعـاً مُفْـرغـاً مِـنْ فِضَّـةٍ ... مَـاءُ الغـديـرِ جَـرَتْ عليـه صَبَـاكِ[4]

لعاتكة المرية في وصف ماء

وعشقت عَاتِكة المُرِّية ابنَ عمٍّ لها فراودها عن نفسها فقالت:

فمـا طَعْـمُ مـاءٍ أيّ مـاء تقـولـهُ ... تَحـدَّر عـن غُـرٍّ طـوالِ الـذوائـبِ
بِمُنْعَـرَجٍ مِـنْ بَطْـنِ وَادٍ تَقـابلـتْ ... عليـهِ رِيـاحُ الصيـفِ مِـنْ كُـلِّ جـانـبِ
نَفَـتْ جَـرْيَـةُ المـاء القَـذَى عـن مُتُونِـه ... فمـا إن بـهِ عَيْـبٌ تَـرَاهُ لِشَـارِبِ
بِـأَطيـبَ مِمَّـنْ يُقْصِـر الطَّـرْفَ دونَـهُ ... تُقَـى الله واستحيـاءُ بَعْـضِ العَـواقـبِ

لجابر بن الأرق يصف الماء

وأنشد الأصمعي قال: أنشدني أبو عَمْرو بن العَلاءِ لجابر بن الأرق، وقال: هو أحْسَنُ ما قيلَ في معناه:

أَيَـا وَيْـحَ نَفْسِـي كلمـا التَحْـتُ لَـوْحَـةً ... على شَرْبَـةٍ من ماءِ أَحْوَاضِ مَارِبِ[5]
بَقَـايـا نِطَـافٍ أَوْدَع الغَيْـمُ صَفْـوَهـا ... مُصقَّلَـةِ الأرْجَـاءِ زُرْقِ المَشَـارِبِ[6]
تَـرَقْـرَقَ دَمْـعُ المُـزْنِ فِيهِـنَّ والْتَـوَتْ ... عَلَيْهِـنَّ أنْفَـاسُ الـريـاحِ الغَـرائـبِ

---

(١) الميثاء: اللينة.
(٢) فأر المسك: ما تجمد من دم الغزال.
(٣) ضحية: تصغير ضحوة.
(٤) مُفْرَغٌ: مصبوب.
(٥) التحت: عطشت، من قولهم: لاح فلان لَوْحاً وَلُوحاً وَلُواحاً ولَوَحاناً، إذا عطش. ومنه: لاح العطش أو السفر أو الحزن فلاناً: غيَّره وأضمره. ومنه: المِلْوَحُ: السريع العطش، ومثله المِلْيَاحُ والمِلْوَاحُ. ومأرب: بلاد الأزد باليمن.
(٦) النطاف والنطف: جمع نطفة: الماء الصافي قلَّ أو كثر.

وأنشد إسحاق بن إبراهيم للأُبَيرِد اليَرْبُوعي[١]، ورويت لِمُضَرِّس بن رِبْعي الأَسدي[٢]:

فَألْقَتْ عَصَا التَّسْيَارِ عنها، وخَيَّمتْ ... بِأَرجاء عَذْبِ الماءِ زُرْقٍ مَحَافِرُهْ

أَزال الْقَذَى عن مائِه وَافِدُ الصّبا ... يَروحُ عليه نَاسماً وَيُبَاكِرُهْ

ولزهير

وأول من أتى بهذا زُهَيْر بن أبي سُلْمَى[٣] في قوله[٤]:

فَلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ[٥]

ولابن الرومي

وقال ابن الرومي[٦]:

وَماءٍ جَلَتْ عن حُرّ صَفْحتِه الْقَذَى ... مِنَ الريحِ مِعْطارُ الأَصائِل والبُكَرْ

بِهِ عَبَقٌ مِمَّا تَسَحَّبَ فَوْقَهُ ... نَسِيمُ الصَّبا يَجْرِي على النَّوْرِ والزَّهَرْ

---

(١) هو الأبيرد بن المعذر بن قيس بن عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم: شاعر بدوي فصيح، مُقلٌّ، لم يفد إلى الملوك، ولم يمدحهم. توفي سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٨ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٣/ ١٢٥؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٦).

(٢) هو مضرس بن ربعي بن لقيط بن فقعس الأسدي: شاعر إسلامي، له خبر مع الفرزدق. وزعم صاحب «الخزانة» أنه جاهلي. وتميَّز بحسن التشبيه والوصف. (البغدادي، خزانة الأدب: ٥/ ٢٢؛ الزركلي، الأعلام: ٧/ ٢٥٠).

(٣) هو زهير بن أبي سلمى (ربيعة) بن رياح المزني، من مضر: أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء. ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة. اشتهر بحكمته ورويّته، وَعُني بشعره، فَعُرفت قصائده بالحوليات. توفي نحو ١٣ ق. هـ/ نحو ٦٠٩ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥١؛ ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال: ٢٣٥؛ بدوي طبانة، معلقات العرب: ١٣١).

(٤) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٧٨.

(٥) الزرقة: شدة الصفاء. ونصل أزرق وماء أزرق: إذا اشتد صفاؤهما. والجمام: جمع جم، وهو من الماء ما اجتمع منه في البئر والحوض ونحوهما. ووضع العصي: كناية عن الإقامة، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم. والتخيّم: ابتناء الخيمة، والمتخيم: المقيم.

(٦) لم نجد هذين البيتين في ديوانه.

[وصف الدور والقصور]

للبحتري يصف بركة الجعفري

ويتعلق بهذا الباب قولُ البُحْتُري يصف بِركة الجَعْفَري[(١)] وهو قصر ابتناه المتوكل في سُرَّ مَنْ رأى[(٢)]:

يـا مَـنْ رَأى البِـركَـةَ الحَسْنَـا ورَوْنَقَهـا ... وَالآنسـاتِ إذَا لاَحَـتْ مَغَـانيهـا[(٣)]
مـا بـالُ دِجْلَـةَ كـالغَيْـرَى تُنَـافِسُهـا ... فـي الحُسْـنِ طَـوْراً وأَطْـوَاراً تُبـاهيهـا!
إذا عَلَتْهَـا الصّبـا أبْـدَت لهـا حُبُكـاً ... مِثْـلَ الجـواشِـنِ مَصْقـولاً حَـوَاشيها[(٤)]
فَحـاجـبُ الشمـسِ أَحيـاناً يُغـازِلُهَـا ... وَريّـقُ الغيـثِ أحيـانـاً يُبـاكِيهـا[(٥)]
إذا النجـومُ تـراءَتْ فـي جَـوانِبهـا ... لَيْـلاً حَسِبْـتَ سَمـاءً رُكّبَـتْ فيهـا
كـأنمـا الفِضّـةُ البيضـاءُ سَـائلـةً ... مـن السّبـائـكِ تَجْـري فـي مَجَـاريهـا
تَنْصَـبُّ فيهـا وُفـودُ المـاء مُعْجَلـةً ... كـالخيـلِ خـارجةً من حَبْـل مُجْريهـا[(٦)]
كـأَنَّ جِـنَّ سليمـانَ الّـذِيـنَ وَلُـوا ... إبـدَاعَهَـا فـأَدقُّـوا فـي مَعَـانيهـا
فَلَـوْ تَمـرُّ بهـا بِلْقيـسُ عـن عُـرُضٍ ... قـالـت: هـي الصَّرْحُ تَمْثِيلاً وَتَشْبيهـا[(٧)]
[لا يبلـغُ السَّمَـكُ المقصـورُ غَـايتَهـا ... لِبُعْـدِ مـا بَيْـنَ قـاصيهـا ودانيهـا]
يَعُمْـنَ فيهـا بـأَوْسَـاطٍ مُجَنّحـةٍ ... كـالطَّيـرِ تَنْشُـرُ فـي جَـوٍّ خَـوَافِيهـا

---

(١) الجعفري: قصر بناه المتوكل قرب سامراء، فلما انتقل إليه، انتقل معه أهل سامراء حتى كادت تخلو، وفي هذا القصر قُتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦٢ م مع وزيره الفتح بن خاقان.

(٢) البحتري، الديوان: ١/ ٣٥.

(٣) في الديوان: «الحسناءَ رؤيتها». والرونق: الحسن، ورونق السيف: ماؤه وصفاؤه، ورونق الشباب: أوله وطراوته. والمغاني: جمع مغنى: المسكن.

(٤) الصَّبا: ريح الشرق الناعمة. الحُبُك: جمع حِباك: الطريقة تحدثها الريح في الرمل والماء الساكن. الجواشن: جمع جوشن، وهو الدرع.

(٥) في الديوان: «فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها»، وهي أنسب للمعنى.

(٦) الوفود: جمع وفد، والمراد هنا: تيار الماء.

(٧) بلقيس: ملكة سبأ في اليمن. الصرح: القصر. وفي هذا البيت إشارة إلى قصة سليمان عليه السلام وبلقيس (راجع القصة في سورة النحل). يشبه الشاعر هذه البركة بقصر بلقيس العجيب.

لعلي بن الجَهْم يصف قصور المتوكل

ولم يُنْفِقْ أحدٌ من خلفاء بني العباس في البناء ما أَنْفَقَه المتوكل؛ وذلك أنه أنفق في أبنيته ثلثمائة ألف ألف، وفي أبنيته يقول عَليّ بن الجَهْم(١):

وَمَا زِلْتُ أَسْمَعُ أَنَّ المُلُو ... كَ تَبْنِي على قَدْرِ أَخْطَارِها
وَأَعْلَمُ أَنَّ عُقولَ الرجا ... ل يُقْضَى عليها بآثَارِها
صُحونٌ تسافرُ فيها العُيونُ ... فَتَحْسِرُ من بُعْدِ أقْطَارِها(٢)
وَقبَّةُ مَلْكٍ كأنَّ النجو ... م تُفضِي إليها بأسْرَارِها
إذا أُوقِدَت نَارُها بالعراقِ ... أضاءَ الحِجازَ سَنَا نَارِها
لها شُرُفاتٌ كأَنَّ الربيعَ ... كَسَاهَا الرِّياضَ بأَنْوَارِها
فَهنَّ كَمُصْطحباتٍ خَرَجْنَ ... لِفِصْحِ النَّصارى وَإِفطارِها(٣)
نَظَمْنَ القِسِيَّ كَنظْمِ الحلى ... بِعُونِ النساءِ وأبْكارِها(٤)
فَمِنْ بينِ عَاقصةٍ شَعْرَها ... وَمُصلحةٍ عَقْدَ زُنّارِها(٥)

وللبحتري

وللبحتري فيها شعرٌ كثير منه(٦):

أَرى المتوكليّةَ قَدْ تعالَتْ ... مَصانِعُها وَأكْمَلَت التماما(٧)

---

(١) هو أبو الحسن، علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود القرشي السامي: شاعر مفلق مطبوع، من أهل بغداد. عاصر أبا تمام، واختص بالمتوكل، ثم غضب عليه المتوكل ونفاه إلى خراسان. شعره سهل التركيب، واضح المعاني. توفي سنة ٢٤٩ هـ/ ٨٦٣ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٠/ ٢١٥؛ المرزباني، معجم الشعراء: ١٤٠؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٤٣).

(٢) تحسر: تكلّ، وقد حَسُرَ البصر حَسارةً فهو حسير، قال تعالى: ﴿يَنْقَلِب إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِير﴾ (سورة الملك، آية: ٤). والأقطار: الأرجاء والنواحي.

(٣) الفصح: من أعياد النصارى، وهو وفق اعتقادهم: عيد ذكرى قيام السيد المسيح من الموت.

(٤) عون: جمع عوان، وهي التي كانت متزوجة.

(٥) الزنّار: رباط يُشَدُّ به الخصر.

(٦) البحتري، الديوان: ١/ ٣٩.

(٧) مصانعها: مبانيها. وفي الديوان: «محاسنها».

قُصورٌ كالكواكبِ لامِعَاتٌ ... يَكَدْنَ يُضِئنَ للسارِيّ الظّلاما
وَروضٌ مِثلُ بُرْدِ الوَشْيِ فيه ... جَنى الحَوْذان يُنْشَرُ والخُزَامى(١)
غَرائبُ من فنونِ النَّور فيها ... جَنَى الزهر الفُرادَى والتّؤاما
تُضَاحِكُهَا الضحى طَوْراً وطَوْراً ... عليها الغَيْمُ يَنْسَجِمُ انسجاما
وَلَوْ لم يَنْتَهِلّ لها غمامٌ ... بِرَيِّقهِ لَكُنْتَ لها غَمَاما(٢)

وقال أيضاً(٣):

قَد تمَّ حُسْنُ الجعفريّ ولم يكُنْ ... لِيَتِمَّ إلاّ للخليفةِ جَعْفَرِ
مَلِكٌ تَبَوَّأَ خيرَ دارٍ أُنشِئت ... [في خير مَبْدًى للأنَامِ ومَحْضَرِ](٤)
[في رأسِ مُشرفةٍ حَصاها لُؤلؤٌ] ... وَتُرابُهَا مِسْكٌ يُشَابُ بِعَنْبَرِ(٥)
مُخْضَرّةٌ والغيثُ ليس بِسَاكبٍ ... وَمُضيئةٌ والليلُ لَيْسَ بِمُقْمِرِ
رُفِعتْ بِمُنْخَرقِ الرياح، وَجاورتْ ... ظِلَّ الغمامِ الصيِّبِ المُسْتَعْبِرِ(٦)

وبعده:

وَرَفَعْتَ بُنْيَاناً كأَنَّ زُهاءَهُ ... أَعلامُ رَضْوَى أو شَواهِقُ صَبْيَرِ(٧)
عالٍ على لَحْظِ العُيونِ كأنّما ... يَنْظُرنَ منه إلى بَيَاضِ المُشْتَري(٨)
مَلأت جَوانبُه الفضاءَ، وَعانقَتْ ... شُرُفاتُهُ قِطَعَ السحابِ المُمْطِرِ
وَتسيلُ دِجْلَةُ تَحْتَهُ فَفِناؤهُ ... من لُجَّةٍ فُرِشَتْ وَرَوْضٍ أَخْضرِ
شَجرٌ تُلاعِبُه الرياحُ فَتَنْثَني ... أَعطافُه في سَائحٍ مُتفجِّرِ

---

(١) الحوذان والخزامى: من النباتات المزهرة. وفي الديوان: «وَبرٌّ مِثْلُ بُرْدٍ».
(٢) رَيّق القطر: الغزير منه.
(٣) البحتري، الديوان: ١/ ٤٠.
(٤) تبوأ المكان وبه: نزله وأقام به، قال تعالى: ﴿وَالذينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإيمانَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٩).
(٥) مشرفة: أي رابية أو تلة عالية. يُشاب: يُمزج.
(٦) الصَّيِّبُ: الكثير الانهمال.
(٧) رَضْوَى وَصَبْيَرُ: جبلان. وفي الديوان: «كَأَنَّ مَنارَهُ».
(٨) المشتري: اسم نجم.

للصنوبري يصف موضعاً في حلب

أخذ أبو بكر الصُّنَوْبَري[1] قولَ البحتري في صفة البركة فقال يصف موضعاً:

سَقَى حلباً سَافِكٌ دَمعَهُ ... بَطِيءُ الرُّقُوءِ إذا ما سَفَكْ[2]
مَيادينُه بُسْطُهُنَّ الرياضُ ... وَساحاتُهُ بَيْنَهُنَّ البِرَكْ
تَرى الريحَ تَنْسِجُ من مائه ... دُرُوعاً مُضَاعَفَةً أو شَبَكْ
كَأنَّ الزُّجاجَ عليها أُذِيبَ ... وَماءَ اللُّجَيْنِ بها قَدْ سُبِكْ
هي الجوُّ من رِقَّةٍ غيرَ أنَّ ... مكانَ الطيورِ يَطِيرُ السَّمَكْ
وَقد نُظِمَ الزهرُ نظمَ النجومِ ... فَمُفْتَرِقُ النَّظْمِ أو مُشْتَبِكْ
كما دَرَّجَ الماءَ مَرُّ الصبَّا ... وَدبَّجَ وَجْهَ السماءِ الْحُبُكْ[3]
يُبَاهِينَ أَعلامَ قُمْصِ القِيانِ ... ونَقْشَ عَصَائِبها والتِّكَكْ[4]

وأخذ قوله:

إذا النُّجُومُ تراءَتْ في جَوَانبها

فقال:

وَلما تعالى البدرُ وامتدَّ ضَوْءُهُ ... بِدجْلَة في تشرينَ في الطُّولِ والعَرْضِ
وَقدْ قَابلَ الماءَ المُفضَّض نُورهُ ... وَبَعْضُ نُجوم الليلِ يَقْفُو سَنَا بَعْضِ[5]
تَوهَّم ذو العينِ البصيرةِ أَنهُ ... يرى باطنَ الأَفلاكِ مِنْ ظَاهِرِ الأرضِ

---

(١) هو أبو بكر، أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي، الحلبي، الأنطاكي، المعروف بالصنوبري: شاعر سكن حلب ودمشق. وقد جمع محمد راغب الطباخ قسماً من شعره، وسمّاه الروضيات. توفي سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٦ م. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ٦١؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٢/ ٩١).

(٢) الرقوء: يقال: رقأ الدمع والدم ونحوهما رَقْئاً وَرُقُوءاً: سكن وجفَّ وانقطع بعد جريانه. ومنه: لا أرقأ الله دمعته، ولا أرقأ عينه، وهو دعاء عليه بدوام البكاء. ورجل رَقُوءٌ بين القوم: مُصْلِحٌ.

(٣) دَرَّجَهُ: جعله دَرَجَاتٍ، ودرَّج البناء: جعل له دَرَجاً. ودَبَّجَ الشيء وَدَبَجهُ: نقشه وزيَّنه، ودبج المطرُ الأرضَ: سقاها فاخضرت وأزهرت.

(٤) التِّكَكُ: جمع تِكَّة، وهي رباط السراويل.

(٥) يقفو: يتبع. والسنا: الضوء.

ولأهل العصر في هذا النَّحْوِ كلامٌ كثير.

للميكالي يصف بركة

قال الأمير أبو الفضل الميكالي، يصف بركة وقع عليها شعاع الشمس فألقته على مَهْو[١] مطلّ عليها يقول:

أمـا تَـرَى البِـرْكَـةَ الغَـرَّاءَ قـد لَبِسَـتْ ... نُوراً مـن الشمـسِ فـي حَافـاتِها سَطعَا

وَالمَهْـوَ مـن فَـوْقِهـا يُلْهِيـك مَنْظَـرُهُ ... كـأنـهُ مَلِـكٌ فـي دَسْتِـه ارتفَعَـا[٢]

وَالمـاءَ مِـنْ تَحْتِـهِ ألقـى الشعـاعَ علـى ... أعلـى سَمـاواتِـهِ فـارتـجَّ مُلْتَمِعَـا

كـأنـهُ السيـفُ مَصْقُـولاً تُقلِّبُـهُ ... كَفُّ الكَميِّ إلى ضَرْبِ الكَميِّ سَعَى[٣]

لعلي بن محمد الإيادي يصف داراً بالمنصورية

وقال علي بن محمد الإيادي يمدح المُعزّ[٤] ويصف دار البحر بالمنصورية[٥]:

وَلمـا استطـال المَجْـدُ واستـولـتِ البُنى ... علـى النَّجْـم واشتـدَّ الـرواقُ المُـرَوَّقُ[٦]

بنـى قُبـةً لِلملـكِ فـي وَسْـطِ جَنَّـةٍ ... لهـا منظـرٌ يُـزْهـى بـه الطَّـرْفُ مُونِـقُ[٧]

بِمَعْشُـوقـةِ السـاحـاتِ، أمَّـا عِـراصُهـا ... فَخُضْـرٌ، وأمَّـا طَيْـرُهـا فَهْـيَ نُطَّـقُ[٨]

---

(١) المَهْوُ: الحصى الأبيض.

(٢) الدَّسْتُ: صدر المجلس، وَدَسْتُ الوزارة: منصبها، والدَّسْتُ: اللباس.

(٣) الكمي: البطل الشجاع المُتكمِّي في سلاحه، وكمى الفارس نفسه: سترها بالدرع والبيضة، وجمع الكَمِيِّ: كُمَاةٌ، وقيل: الكميّ: اللابس السّلاح.

(٤) المُعِزُّ: هو المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُكين بن زيري بن مَناد الحميري، الصنهاجي، صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب: ملك جليل، عالي الهمة، مُحِبٌّ لأهل العلم، كثير العطاء. مدحه الشعراء، وانتجعه الأدباء، وكانت ولادته بالمنصورية، ووفاته بالقيروان سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٢٣٣).

(٥) المنصورية: مدينة من أعمال إفريقية، يقال لها: «صبرة».

(٦) البُنَى: جمع بُنْيَة. والرُّواقُ: بيت كالفسطاط، يُحمل على عمود واحد طويل، ورواق البيت: مقدمه. وقد رَوَّقَ البَيْتَ: جعل له رواقاً.

(٧) مُونِق: حَسَنٌ مُعْجِبٌ.

(٨) العِرَاصُ: الساحات، الواحدة: عَرَصَة.

تَحــفّ بِقَصْــرٍ ذي قُصُــورٍ كَــأَنَّمــا ... تَـرى البَحْـرَ فـي أَرجـائِه وَهـو مُتْأَقُ[1]

لــه بِــرْكَــةٌ للمــاءِ مِــلْءِ فَضَــائِــه ... تَخُــبُّ بِقَصْــرَيْهَــا العيــونُ وَتُعْنِــقُ[2]

لهــا جَــدْولٌ يَنْصَــبُّ فيهــا كــأنــهُ ... حُسَـامٌ جَلاَه القَيْنُ بـالأرضِ مُلصَـقُ[3]

لهـا مَجلِسٌ قَـدْ قـامَ فـي وَسْـطِ مَـائِهـا ... كما قامَ في فَيضِ الفراتِ الخَوَرْنَقُ[4]

كــأنَّ صفــاءَ المــاءِ فيهــا وَحُسْنَــهُ ... زُجـاجٌ صَفَـتْ أَرجــاؤُه فهــو أَزرقُ

إذا بَـثّ فيهـا الليــلُ أَشْخـاصَ نَجْمِـهِ ... رَأَيْـتَ وُجـوهَ الـزّنْـج بـالنـارِ تُحْـرَقُ

وإن صَـافَحَتْهـا الشمسُ لاَحَـتْ كـأَنَّهـا ... فِـرِنْـدٌ علـى تـاجِ المُعـزِّ وَرَوْنَـقُ[5]

كــأَنَّ شُــرافــاتِ المَقــاصـرِ حَـوْلَهـا ... عَــذَارَى عَلَيْهِــنَّ المُــلاَءُ المُمَنْطَــقُ

يَذُوبُ الجفاءُ الجَعْدُ عـن وَجْهِ مائِهـا ... كمـا ذَابَ آلُ الصَّحْصَحَـانِ المُرَقـرَقُ[6]

لعبد الكريم بن إبراهيم يصف موضعاً

وقال عَبْدُ الكَريم بن إبراهيم:

يــا رُبَّ فتيــانِ صِــدْقٍ رُحْــتُ بَيْنَهُــمُ ... وَالشمـسُ كالدَّنِفِ المَعْشُوقِ في الأُفقِ[7]

مَـرْضَـى أصـائلهـا حَسْـرى شَمـائلهـا ... تُـروّح الغُصُـنَ المَمْطُـورَ فـي الـوَرقِ[8]

مُعـاطيـاً شَمْـسَ إبـريـقٍ إذا مُـزِجَـتْ ... تَقلَّـدَتْ عِقْـدَ مَـرْجَـانٍ مـن النَّـزَقِ[9]

عَــنْ مَـاحِـلٍ طـافـحٍ بـالمـاءِ مُعْتَلِـجٍ ... كـأَنمـا نَفْسُـه صِيغَـتْ مـن الحَـدَقِ[10]

---

(١) المُتْأَقُ: الملآن.

(٢) تَخبُّ: من الخَبَب، وهو نوع من السير سريع، وقد خَبَّ الفرس: نقل أيامنه وأياسره جميعاً في العدو. وَتُعْنِقُ: من العَنَقِ، وهو ضرب من السير فسيح وسريع، للإبل والخيل.

(٣) القينُ: الحداد.

(٤) الخورنق: قصر كان للنعمان الأكبر بالعراق.

(٥) الفِرِنْدُ: السيف، وما يُلْمَحُ في صفحته من أثر تموج الضوء، وَحَبُّ الرُّمَّان، والورد الأحمر.

(٦) الآل: السراب. الصحصحان: موضع بين حلب وتدمر.

(٧) الدَّنِفُ: المريض الذي اشتد مرضه، وأشفى على الموت، ومنه: دنفت الشمس: دنت للغروب واصفرّت.

(٨) الممطور: الذي نزل عليه المطر.

(٩) النَّزَقُ: الخِفَّةُ والطيشُ في كلّ أمرٍ، وقيل: العجلة في جَهْلٍ وحُمْقٍ.

(١٠) اعتلج الموج: التطم، والرمل: اجتمع، واعتلجت الأرضُ: طال نباتها والتفَّ وكثر، وَمُعْتَلِجٌ: مُجْتَمِعٌ.

تَضُمُّـهُ الـرِّيـحُ أحيـانـاً، وَتَفْـرِقُـهُ فـالمـاءُ مـا بَيْـنَ مَحْبُـوسٍ وَمُنْطَلِـقِ
مِـنْ أَخضـرٍ نـاضـرٍ والطَّـلُّ يَلْحَقـهُ وَأَبْيَضٍ تحت قَيْظِيِّ الضُّحَى يَقَقُ[(١)]
تَهُـزُّهُ الـريـحُ أَحيـانـاً فَيَمْنَحُهـا لِلـزَّجـرِ خَفْـقَ فـؤادِ العـاشـقِ القَلِـقِ
كـأنَّ حَـافـاتِـهِ نُطِّقْـنَ مـن زَبَـدٍ مَنَـاطقـاً رُصِّعَـتْ مِـنْ لـؤلـؤٍ نَسَـقِ[(٢)]
كـأَنَّ قُبَّتَـه مِـنْ سُنْـدُسٍ نَمـطٍ حَسْنَـاءُ مَجْلُـوَّةُ اللَبَّـاتِ وَالعُنُـقِ[(٣)]
إذا تَبَلَّـجَ فَجْـرٌ فَـوْقَ زُرْقَتِـهِ حَسِبْتَـهُ فَـرَسـاً دَهْمَـاءَ فـي بَلَـقِ[(٤)]
أَوْ لاَزَوَرْداً جَـرَى فـي مَتْنِـهِ ذَهَـبٌ فَـلاَحَ فـي شـارقٍ مـن مَـائِـه شَـرِقِ
عَشِيَّـةً كَمُلَـتْ حُسنـاً وَسـاعـدَهـا لَيْـلٌ يُمَـدِّدُ أَطْنَـابـاً علـى الأُفُـقِ[(٥)]
تُجْلَـى بِغُـرَّةِ وَضَّـاحِ الْجَبِيـن لَـهُ مـا شِئْـتَ مـن كَـرمٍ وَافٍ وَمِـنْ خُلُـقِ

ألفاظ لأهل العصر في وصف الماء وما يتصل به

ماء كالزُّجَاج الأزرق، غدير كعين الشمس، مَوَارِد كالمَبَارِد، وماء كَلِسَان الشمعة، في صفاءِ الدَّمْعَة، يـبح في الرَّضْرَاض، سَبْحَ النَّضْنَاض، ماء أزرق كعين السِّنَّور[(٦)]، صاف كقضيب البلّور، ماء إذا مَسَّتْه يَدُ النسيم حكى سَلاَسِلَ الفضة، ماء إذا صافحته رَاحةُ الريح، لبسَ الدِّرْع كالمسيح، كأنّ الغَدِيرَ بترابِ الماء رِداءٌ مُصَنْدَل، بركة كأنها مرآةُ السماء، بركة مَفْرُوزةٌ بالخضرة، كأنّها مِرْآة مجلوّة، على ديباجة خضراء، بركة ماءٍ كأنها مِرْآةُ الصّناع[(٧)]، غدير ترقرقت فيه دموعُ السحائب، وتواترَتْ عليه أنفاسُ الرياح الغرائب، ماء زُرق جِمامُه،

---

(١) الطلُّ: المطر الخفيف. والقيظي: المنسوب إلى القيظ، وهو الحرُّ الشديد. واليَقَقُ: الناصع البياض.
(٢) المناطق: جمع مِنْطَق: ما يُشَدُّ به الوسط.
(٣) السُّنْدُسُ: ضَرْبٌ من رقيقِ الديباج. واللبَّاتُ واللباب: جمع لَبَّة، وهي موضع القلادة من العنق، وقيل: اللبّات: أعالي الصدور، قال المتنبي:
بِضَرْبٍ أَتَى الهاماتِ وَالنَّصْرُ غَائِبٌ وصَـارَ إِلـى اللَّبَّـاتِ وَالنَّصْـرُ قَـادِمُ
(ديوانه: ٢/ ١٦٦).
(٤) البلق: ارتفاع التحجيل إلى الفخذين. وفرس دهماء: سوداء.
(٥) الأطناب: الحبال.
(٦) السِّنَّورُ: القِطُّ.
(٧) الصَّناع: المرأة الماهرة فيما تصنع، ولعله أراد المرأة التي تُزَيِّنُ النساء.

طامية أرْجاؤه، يَبُوحُ بِأسْرَاره صفاؤه، وتلوحُ في قراره حَصْبَاؤه، ماء كأنما يفقده مَنْ يَشْهَدُه، يتَسَلْسَل كالزرافين[١]، ويرضع أولاد الرَّيَاحِين، انحلَّ عقدُ السماء، ووَهَى عقد الأَنْوَاء، انحلَّ سلكُ القطر عن دُرِّ البَحْر، أَسْعَد السحابُ جفونَ العُشَّاق[٢]، وأكفَّ الأجواد، وانحلَّ خَيْطُ السماء، وانقطع شِرْيَانُ الغَمَام، سحابة يتجلَّى عليها ماءُ البحر، وتفضُّ علينا عقودَ الدّر، سحابٌ حكى المحبَّ في انسكَاب دموعِه، والتهاب النارِ بين ضُلُوعه، سحابة تحدو من الغيوم جِمَالاً، وتمدُّ من الأمطار حِبالاً، سحابة ترسلُ الأمطارَ أمواجاً، والأمواجَ أفواجاً، تحللت عقدَ السماء بالدِّيمةِ الهَطْلاَء، غيث أجشُّ[٣] يروي الهِضَابَ والآكام[٤]، ويُحيي النبات والسَّوَام[٥]، غيثٌ كغزارة فضلِكَ، وسلاسة طبعك، وسلامة عقدك، وصفاء وُدِّك، وَبْلٌ كالنبل، سحابة يَضْحَكُ من بُكَائها الرَّوْض، وتَخْضَرّ من سَوَادها الأرض، سحابة لا تجفُّ جفونُها ولا يَخف أنينها، ديمة رَوَّتْ أديمَ الثرى، ونبهت عُيونَ النَّوْرِ من الْكَرى، سحابةٌ ركبت أعْنَاق الرياح، وسَحَّتْ كأَفْوَاه الجراح، مطر كأَفْوَاه القِرَب، وَوَحْلٌ إلى الركب، أَنْدِيةٌ مَنَّ الله معها على البيوت بالثُّبُوت، وعلى السقوف بالوُقُوف، أَقْبَلَ السَّيلُ يَنْحَدِرُ انحداراً، ويحمل أحجاراً وأشجاراً، كأن به جِنَّة، أو في أحشائه أجِنَّة.

وبعض ما مر من هذه الألفاظ محلول نظام ما تقدم إنشاده.

ولهم في مقدمات المطر

لبست السماءُ جلْبَابَها، وسحبت السحائبُ أذيالها، قد احتجبت الشمسُ في سُرَادق الغَيْم، ولبس الجوُّ مُطْرَفَهُ الأدكَنَ[٦]، باحت الريحُ بأَسْرَارِ النَّدَى، وضربت خَيْمَة الغمام، ورش جيش النسيم، وابتل جناحُ الهواء، واغرورقت مُقْلَةُ السماء، وبَشَّرَ النسيم بالندى، واستعدت الأرضُ للقطر، هَبَّتْ شمائل الْجَنَائِبُ، لِتأليف شمل السحائب. تألفت أشتَاتُ الغيوم، وأسبلت السُّتور على النجوم.

---

(١) الزرافين: آلات يُرْفَعُ بها الماء.

(٢) أسعد: من الإسعاد، وهو المشاركة في البكاء.

(٣) الديمة: المطر يطول زمانه في سكون، الجمع: دِيَمٌ.

(٤) غَيْثٌ أَجشٌّ: ذو صَوْت.

(٥) السوام: جمع سائمة، وهي الماشية.

(٦) المُطْرَفُ: رِداءٌ أو ثوب من خَزّ مُرَبّعٌ ذو أعلام، الجمع: مطارف. والأدكن: المُغْبَرُّ، وقد دَكِنَ دُكْنَةً وَدَكَناً: مال إلى السواد، أو اغْبَرَّ لونه.

وفي الرعد والبرق

قام خطيبُ الرَّعْدِ، ونبض عِرْقُ البَرْقِ، سحابة ارتجزت[١] رَوَاعدها، وأذهبت بروقها مطاردها، نطقَ لسانُ الرعد، وخفق قَلْبُ البرق، فالرعْدُ ذو صَخَبٍ، والبَرْقُ ذو لَهَبٍ، ابتسم البَرْقُ عن قهقهة الرعد، زأرت أُسْد الرعد، ولمعت سيوف البَرْقِ، رعدت [سيوفُ] الغمائم، وبَرَقَتْ، وانحلت عَزَالِيُّ السماء فطبقت، هَدَرت رَوَاعدها، وقربت أبَاعدها، وصدقت مَوَاعدها. كأن البرق قلب مَشُوق، بين التهاب وَخُفُوق.

ويتصل بهذه الأنحاء

ما حكاه عُمر بن علي المطوعي قال: رأى الأمير السيد أبو الفضل عبيد الله بن أحمد ـ أدام الله عزه! ـ أيام مُقَامِهِ بجُوَيْن أن يطالع قريةً من قرى ضِيَاعه تدعى نجاب على سبيل التنزّه والتفرُّج، فكنت في جملة مَن استصحبه إليها من أصحابه، واتّفق أنّا وصلنا والسماءُ مُصْحِيةٌ، والجوُّ صاف لم يطرز ثوبه بعلم الغمام، والأُفق فَيْرُوزَج[٢] لم يعبق به كافور السحاب؛ فوقع الاختيار على ظلِّ شجرةٍ باسقة[٣] الفروع، مُتّسِقَة الأوراق والغصون، قد سترت ما حواليْهَا من الأرْض طولاً وعرضاً، فنزلنا تحتها مُستظلِّينَ بِسَماوَةِ أفْنَانها[٤]، مُسْتَتِرينَ من وَهَجِ الشمس بستارة أغصانها، وأخذنا نتجاذبُ أذْيالَ المذاكرة، ونَتَسالب أهْدَاب المُنَاشَدَة والمحاورة؛ فما شعرنا بالسَّماء إلا وقد أرْعَدَتْ وأبرقت، وأظلمَتْ بعدما أشرقت، ثم جادت بِمَطَرٍ كأفْوَاه القِرَب فأجَادت، وحكت أنامل الأجْوَاد ومدامع العشاق[٥]، بل أوْفَتْ عليها وزادت، حتى كاد غيثها يعود عَيْثاً[٦]، وَهَمَّ وَبْلها[٧] أن يستحيل وَيْلاً فصبرنا على أذاها، وقلنا: سَحَابة صيفٍ عما قليلٍ تَقَشَّع، فإذا نحن بها قد أمطرتنا بَرَداً كالثُّغُورِ، لكنها من ثغور العَذَاب، لا من الثغور العِذَاب، فأَيقنَّا بالبَلاَء، وسلَّمنَا لأسباب القضاء؛

---

(١) ارتجزت: صَوَّتت.

(٢) الفَيْرُوزَجُ: حجر كريم غير شفَّاف، معروف بلونه الأزرق كلون السماء، أو أَمْيَلُ إلى الخضرة، يُتَحلَّى به، ويقال: لون فيروزي: أزرق مائل إلى الخضرة قليلاً.

(٣) باسقة: عالية مرتفعة.

(٤) السماوة: السماء، وهو السقف. والأفنان: جمع فنن، وهو الغصن.

(٥) المدامع: جمع مدمع، وهو مكان الدمع.

(٦) العَيْثُ: الفساد.

(٧) الوَبْلُ والوابل: المطر العظيم القَطْر.

فما مرت إلا ساعةٌ من النهار، حتى سمعنا خَرِيرَ الأنهار، ورأينا السَّيْلَ قد بلغ الزُّبَى[١]، والماء قد غَمَرَ القِيعان والرُّبى[٢]؛ فبادرنا إلى حِصْنِ القرية لائذين من السَّيْلِ بأفنيتها، وعائذين من القطر بأبنيتها، وأثوابنا قد صَنْدَل كافوريَّها ماءُ الوَبْل، وغلَّف طِرازيَّها طينُ الوَحْل، ونحن نحمدُ اللَّهَ تَعالى على سلامة الأبدان، وإن فقدنا بَيَاضَ الأكمام والأردان[٣]، ونشكره على سلامةِ الأنفس والأرواح، شُكرَ التاجر على بقاءِ رأسِ المال إذا فُجِع بالأرباح؛ فبِتنا تلك الليلة في سماءٍ تَكِفُ ولا تَكُفُّ[٤]، وتبكي علينا إلى الصباح بأدْمُعٍ هَوَامٍ، وأربعة سِجَامٍ[٥]؛ فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غِمد الظلام، وصُرِفَ بِوَالي الصحو عَامِلُ الغمام، رأينا صوابَ الرأي أن نُوسِع الإقامة بها رَفْضاً، ونتخذ الارتحالَ عنها فَرْضاً؛ فما زِلْنا نطوي الصحارى أرضاً فأرضاً، إلى أن وافينا المستقر ركضاً؛ فلما نَفَضْنَا غُبَارَ ذلك المسير، الذي جمعنا في رِبْقَةِ الأسير، وأفضيْنَا إلى ساحةِ التيسير، بعدما أُصِبْنَا بالأمر العسير، وتذاكَرْنَا ما لقينا من التعب والمشقّة، في قطع ذلك الطريق وَطَيِّ تلك الشُّقة، أخذ الأمير السيد ـ أطال الله بقاءه! ـ القلم فعلق هذه الأبيات ارتجالاً:

دَهَتْنَا السماءُ غَدَاةَ السَّحَابِ ... بِغَيْثٍ على أُفْقِهِ مُسْبِلِ
فَجَاءَ بِرَعْدٍ لهُ رَنَّةٌ ... كَرَنَّةِ ثَكْلَى وَلَمْ تُثْكَلِ
وَثَنَّى بِوَبْلٍ عَدَا طَوْرُهُ ... فَعَادَ وَبَالاً على المُمْحِلِ[٦]
وَأَشْرف أَصْحَابُنَا مِنْ أَذَاهُ ... على خَطَرٍ هَائِلٍ مُعْضِلِ[٧]
فَمِنْ لائِذٍ بِفَنَاءِ الجِدَارِ ... وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهْمَلِ[٨]
وَمِنْ مُسْتَجِيرٍ يُنَادِي: الغَرِيقَ ... هناك، وَمِنْ صَارِخٍ مُعْوِلِ[٩]

---

(١) الزُّبَى: جمع زبية، وهي الرابية لا يعلوها ماء.
(٢) القيعان: جمع قاع، وهو أرض مستوية مطمئنة عما يحيط بها من الجبال والآكام، تَنْصَبُّ إليها مياه الأمطار، فتمسكها ثم تثبت العشب، والقاعُ: القَعْرُ. والربى: جمع رابية: ما ارتفع من الأرض.
(٣) الأردان: جمع رُدْن، وهو الكُمُّ.
(٤) تَكِفُ: تسيل. وَتَكُفُّ: تمتنع.
(٥) هوام: جمع هامية: سائلة. وسجام: جمع ساجمة: ممطرة.
(٦) المُمْحِلُ: المُجْدِبُ.
(٧) مُعْضِلٌ: شديدٌ، مُسْتَغْلِقٌ، مُعْجِزٌ.
(٨) النَّفَقُ: السِّرْدَابُ.
(٩) المُعْوِلُ: الذي يرفع صوته بالبكاء والصياح، من عَوَّلَ الرجل وأَعال.

وَجَادَتْ علينا سَمَاءُ السقوفِ بِدَمْعٍ من الوَجْدِ لم يَهمِلِ
كَأَنَّ حَرَاماً لها أَنْ تَرَى يَبِيساً من الأرض لَمْ يُبْلَلِ
وَأَقْبَلَ سَيْلٌ له رَوْعَةٌ فَأَدْبَرَ كُلٌّ عن المُقْبِلِ
يُقَلِّعُ ما شاءَ من دَوْحَةٍ وَمَا يَلْقَ من صَخْرَةٍ يَحْمِلِ
كأَنَّ بأَحْشَائِهِ إذا بَدَا أَجِنَّةَ حُبْلَى وَلم تَحْبَلِ
فَمِنْ عامِرٍ رَدَّهُ غَامِراً وَمِنْ مُعْلَمٍ عَادَ كالمَجْهَلِ[1]
كَفانا بَلِيَّتَهُ رَبُّنا فَقَدْ وَجَبَ الشُّكْرُ لِلمُفْضِلِ
فَقُلْ لِلسماءِ ارعُدِي وابْرُقِي فَإنَّا رَجَعْنَا إلى المَنْزِلِ

لأبي الفتح البستي

أخذ المطوعي قوله: فلما سُلَّ سيفُ الصبحِ من غِمْد الظلام» من قول أبي الفتح البستي[2]:

رُبَّ ليلٍ أَغْمَدَ الأنوارَ إلاَّ نُورَ ثَغْرٍ أَوْ مُدامٍ أو نُدامِ
قَدْ نَعِمْنَا بِدَيَاجِيهِ إلى أَنْ سُلَّ سَيْفُ الصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ الظلامِ

لأبي العباس الناشىء

[وقال بعض أهل العصر، وهو أبو العباس النّاشىء[3]]:

خَلِيلَيَّ هَلْ لِلمُزْنِ مُقْلَةُ عاشِقٍ أَم النارُ في أَحشائها وَهي لا تَدْرِي

(١) الغامر: الخراب. والمُعْلَمُ: المعلوم، والمجهل: المجهول.

(٢) هو أبو الفتح، علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي: شاعر مشهور، ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته. كان من كُتّاب الدولة السامانية في خراسان، وعلت مكانته عند الأمير سبكتكين، والتحق بخدمة ابنه يمين الدولة الذي أخرجه إلى ما وراء النهر، فمات غريباً في بلدة «أوزجند» ببخارى سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١١ م. (الثعالبي، يتيمة الدهر: ٤/ ٣٤٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٢/ ١٦٨).

(٣) هو أبو العباس، عبد الله بن محمد الناشىء الأكبر، المعروف بابن شرشير: شاعر مكثر مجيد، من طبقة ابن الرومي والبحتري. ولد بالأنبار، وأقام مدّة ببغداد، ثم خرج إلى مصر فسكنها وتوفي فيها سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م. وله قصيدة على روي واحد وقافية واحدة في أربعة آلاف بيت. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٤١٧؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٠/ ٩٢).

أَشارتْ إلى أرضِ العراقِ فأصبحتْ وَكاللؤلؤِ المنثورِ أَدْمُعُها تَجْري
سَحابٌ حَكَتْ ثَكْلَى أُصيبَتْ بِواحدٍ فَعاجَتْ له نَحْوَ الرياضِ على قَبْرِ[1]
تَسَرْبَلَ وَشْياً من حُزونٍ تَطَرَّزَتْ مَطارِفُها طَرزاً من البَرْقِ كالتِّبرِ
فَوشْيٌ بلا رَقْمٍ، وَرَقْمٌ بلا يَدٍ وَدَمْعٌ بلا عَيْنٍ، وَضِحْكٌ بلا ثَغْرِ

وقال آخر:

أرِقْتُ لِبَرْقٍ شديدِ الوَميضِ تَرامَى غَوارِبُهُ بالشُّهبِ
كأنَّ تَألُّقَه في السَّماءِ سُطُورٌ كُتِبْنَ بِماءِ الذَّهَبِ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز:

كأَنَّ الرَّبابَ الْجَوْنَ دُونَ سَحابِهِ خَليعٌ مِنَ الفِتْيانِ يَسْحَبُ مِئزَرا[2]
إذا لَحِقَتْهُ خِيفَةٌ مِنْ رُعُودِهِ تَلَفَّتَ وَاسْتَلَّ الحُسامَ المُذَكَّرا

لحسان بن ثابت

وقد قال حَسّان بن ثابت[3]:

كأَنَّ الرَّبابَ دُوَيْنَ السَّحابِ نَعَامٌ تَعلَّقَ بِالأَرْجُلِ[4]

لابن المعتز أيضاً

وقال ابن المعتز:

باكيةٌ يَضْحَكُ فِيها بَرْقُها مُوصَلَةٌ بالأرضِ مُرْخَاةُ الطُّنُبْ[5]

---

(١) عاجت: مالت.
(٢) الرباب: السحاب. والجون: الأسود.
(٣) هو أبو الوليد، حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري: شاعر الرسول ﷺ وصاحبه، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. اشتهر في الجاهلية بمدائحه للغساسنة وملوك الحيرة، ثم أصبح المحامي الأكبر عن الإسلام والمسلمين في معارك القول مع المشركين. توفي سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٢٢٣؛ الأصفهاني، الأغاني: ٤/ ١٣٧).
(٤) دُوين: تصغير دون.
(٥) الطُّنُبُ: الحبل، الجمع أطناب.

رَأَيْتُ فيها بَرْقَها مُنْذُ بَدَا كَمِثْلِ طَرْفِ العينِ أَوْ قَلْبٍ يَجِبْ[١]
جَرتْ بها ريحُ الصَّبا حَتى بَدا منها لِيَ البرقُ كأمثالِ الشُّهبْ[٢]
تَحْسَبُه طَوْراً إذا ما انْصَدعَتْ أَحشاؤها عَنْهُ شُجاعاً يَضْطرِبْ[٣]
وَتارةً تَحْسَبُهُ كَأَنَّهُ أَبْلَقُ مَالَ جُلُّهُ حِينَ وَثَبْ[٤]
وَتارةً تَحْسَبُهُ كَأَنَّهُ سَلاَسِلُ مَفْصُولَةٌ مِنَ الذَّهَب

وقال الطائي:

يا سَهْمُ لِلبَرْقِ الذي اسْتَطارا صَارَ على رُغْمِ الدُّجى نَهَارا
آضَ لَنا مَاءً وكانَ نَارا[٥]

وينشد أصحاب المعاني:

نَارٌ تُجدِّدُ لِلعَيْنَيْنِ نُضْرَتَها وَالنارُ تَلْفَحُ عِيداناً فَتَحْتَرِقُ

لابن المعتز يمدح الشراب في الصحو

وقال ابنُ المعتز يَمدح الشُّرْب في الصَّحْوِ، ويذمّه في المطر:

أَنا لا أَشتهي سَماءً كَبَطْنِ الْـ ـعَيْر والشَّرْبُ تحتها في خَرابِ[٦]
بَيْنَ سَقْفٍ قَدْ صَارَ مُنْخُلَ مَاءٍ وَجِدارٍ مُلقّى وَتَلِّ تُرابِ
وَبُيوتٍ يُوقِّع الوَكْفُ فيهـ ـنَّ وإيقَاعُهُ بِغَيْرِ صَوَابِ[٧]
إنما أشتهي الصَّبوحَ على وَجْـ ـهِ سماءٍ مَصْقُولةِ الجِلْبَابِ[٨]
وَنَسيمٍ مِنَ الصَّبا يَتمشّى فَوقَ رَوْضٍ نَدٍ جديدِ الشَّبابِ

(١) يجب: يضطرب.
(٢) الصبا: ريح ناعمة تهبُّ من الشرق.
(٣) الشجاع: الثعبان.
(٤) الأبلق: الجواد يرتفع تحجيله إلى الفخذين، والتحجيل: بياض في القوائم. والجُلُّ: ما يُوضع على ظهر البعير والجواد.
(٥) آضَ: رجع وصار.
(٦) الشَّرْبُ: جماعة الشاربين.
(٧) التوقيع: الضرب على آلة الغناء. والوَكْفُ: انهمال المطر.
(٨) الصبوح: الخمر التي تُشْرَبُ في الصباح.

وَكَأنّ الشمسَ المضيئَةَ دِينَا ... رٌ جَلَتْهُ حَدائِدُ الضُّرَّابِ
في غَدَاةٍ وَكأسُها مِثْلُ شَمْسٍ ... طَلَعتْ في مُلاءَةٍ مِن شَرَابِ
أَوْ عروس قدْ ضُمِّخَتْ بِخَلُوقٍ ... فَهْيَ صَفْرَاءُ في قَميصِ حَبابِ[١]
وَغناءٍ لَا عُذْرَ للعودِ فيهِ ... بِتَنَدِّي الأَوْتَارِ والمِضْرابِ
وَنَقَاءِ البساط من وَضَرِ الطِّيـ ... ـن وَمَسْحِ الأَقدام في كلِّ بَابِ
وَنشاطِ الغلمانِ إن عُرِضَتْ حَا ... جَاتُنا في مَجيئِهِمْ والذّهَابِ
وَجَفَافِ الريحانِ والنَّرجسِ الغَـ ... ـضّ بأيدي الخلانِ والأصحابِ
لا تَنَدَّى أُنُوفُهم كُلّما حُيُّـ ... ـوُا بِضِغْثِ نَدى أُنُوف الكلابِ
ذَاكَ يَوْمٌ أَرَاهُ غُنْماً وَحَظّاً ... مِنْ عَطَاءِ الْمُهَيْمِنِ الوَهَّابِ

وقال الصَّنَوْبري:

أَنيسُ ظباءٍ بِوَحْشِ الظبا ... وَصِبْغُ حَياً مِثْلُ صِبْغِ الحيَا
وَيَوْمٍ تُكلّلُه الشمسُ مِنْ ... صَفَاءِ الهَوَى وَصَفَاءِ الهوا
بِشَمْسِ الدِّنان وَشمْسِ القِيانِ ... وَشَمْسِ الجِنَانِ وَشَمْسِ السَّما

وصف شدة الشوق

وشَبيهٌ بالأبيات التي كتبها ثَعْلب إلى أَبي العباس بن المعتز لجميل[٢] قولُ الآخرِ:

وما وَجْدُ مِلْواحٍ مِنَ الهيم خُلِّيتْ ... عَنِ الورْدِ حتى جَوْفُهَا يَتَصَلْصَلُ[٣]
تَحُومُ وَتَغْشاها العِصِيُّ وَحَوْلَها ... أَقَاطيعُ أَنْعَامٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ
بِأَكْثَرَ مِنِّي لَوْعةً وَصَبَابةً ... إلى الوِرْدِ إلاّ أَنّني أَتجمَّلُ

لأبي حية في هذا المعنى

وقال أبو حَيّة النُّمَيْري:

كَفَى حَزَناً أَنّي أَرَى الماءَ مُعْرَضاً ... لِعَيْني ولَكِنْ لاَ سَبيلَ إلى الوِرْدِ

---

(١) ضُمِّخَتْ: لُطِّخَتْ. والخَلُوقُ: ضَرْبٌ من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.

(٢) وردت هذه الأبيات في الصفحة ١٨٦ من هذا الكتاب.

(٣) الملواح: الناقة أصابها اللَّوْحُ، وهو الظمأ الشديد. والهيم: جمع هيماء، وهي التي أصيبت بداء الهيام، وهو شدة الظمأ. ويتصلصل: يُصوّت.

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي ... بِكَفِّ أَعَزِّ النَّاسِ كُلِّهِمِ عِنْدِي

[وصف رجل حازم لابن المقفع]

قال ابنُ المقفَّع: كان لي أخٌ أعظم الناس في عيني، وكان رَأس ما عظَّمه في عيني صِغَر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بَطْنِه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكْثِر إذا وجد، وكان خارجاً من سُلْطانِ فَرْجه، فلا تدعوه إليه مؤنة، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً. وكان لا يتأثر عند نِعْمَةٍ، ولا يستكينُ عند مصيبة. وكان خارجاً من سُلْطانِ لسانه، فلا يتكلَّمُ بما لا يعلم، ولا يُمارِي فيما علم، وكان خارجاً من سُلْطانِ الجهالة، فلا يتقدَّم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دَهره صامتاً، فإذا قالَ بَزَّ القائلين[1]، وكان ضعيفاً مُستَضْعَفاً، فإذا جدَّ الجدُّ فهو اللَّيْثُ عادياً[2]. وكان لا يدخل في دَعْوَى، ولا يُشارِكُ في مِرَاء[3]، ولا يُدْلي بِحُجَّةٍ حتى يَرَى قاضياً فَهِماً وشهوداً عُدُولاً. وكان لا يلومُ أحداً فيما يكونُ العُذْرُ في مثله حتى يعلمَ ما عُذْرُه.

وكان لا يَشْكُو وجعه إلاّ عند مَنْ يرجو عنده البُرْءَ، ولا يستشيرُ صاحباً إلا أنْ يرجوَ منه النصيحة. وكان لا يتبرَّم[4] ولا يتسخَّط، ولا يتشكّى ولا يتشّهى، ولا ينتقم من العدوّ، ولا يَغْفُل عن الوليّ، ولا يَخُصُّ نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقُوته. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولَنْ تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

لابن كناسة يصف ابن أدهم

وعلى ذكر قوله: «وإن قال بَزَّ القائلين» قال ابن كُنَاسة[5] ـ واسمه محمد بن عبد الله، ويكنى أبا يحيى ـ في إبراهيم بن أَدهم[6] الزاهد:

---

(١) بَزَّ القائلين: غلبهم.
(٢) عادياً: منصوب على الحال.
(٣) المِرَاءُ: الجدل. قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ (سورة الكهف، آية ٢٢).
(٤) يتبرَّم: يتضجَّر.
(٥) هو أبو يحيى، محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى المازني، المعروف بابن كُنَاسَة: أديب فاضل، له علم بالعربية، والشعر، وأيام الناس. توفي بالكوفة سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣ م. من آثاره: «كتاب الأنواء» و«معاني الشعر»، و«سرقات الكميت من القرآن»، وغيرها. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١٠/ ٢٢٢).
(٦) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن أدهم البلخي: سيّد جليل، زاهد، فصيح، وله مناقب وكرامات لا =

رَأَيْتُكَ لا تَرْضَى بما دُونَهُ الرِّضا ... وَقد كانَ يَرْضَى دُون ذاك ابنُ أَدْهَما
وَكانَ يَرى الدُّنْيا صَغيراً عَظيمُها ... وكانَ لأَمْرِ اللَّهِ فيها مُعَظِّمَا
وَأَكْثَرُ ما تَلْقَاهُ في الناس صَامِتاً ... وَإِنْ قالَ بَزَّ القائلين فأَفْحَمَا
يُشِيعُ الغِنَى في النَّاسِ إن مَسَّهُ الغِنَى ... وَتلقى بهِ البأْساءُ عِيسَى بنَ مَرْيَمَا
أَهَانَ الهَوى حَتَّى تَجَنَّبَهُ الهَوى ... كما اجْتَنَبَ الجاني الدَّمَ الطالبَ الدَّما

ألفاظ لأهل العصر في ذكر التقى والزهد

فلان عَذْبُ المَشْرب، عَفّ المَطْلَب، نَقِيّ الساحة من المآثم، بَرِيء الذمة من الجرائم، إذا رضي لم يَقُلْ غيرَ الصدق، وإذا سخِط لم يتجاوَزْ جانِبَ الحق، يرجعُ إلى نفسٍ أَمَّارة بالخير، بعيدةٍ من الشر، مدلولةٍ على سبيل البرّ، أَعْرَض عن زِبْرِج الدنيا وخُدَعها، وأَقبل على اكتساب نِعَم الآخرة ومُتَعِها. كَفَّ كَفَّه عن زُخْرف الدنيا وَنَضْرَتَها، وغَضَّ طَرْفَه عن متاعها وزَهْرتها؛ وأعرض عَنْهَا وقد تَعرَّضَتْ له بزينَتها، وصدَّ عنها وقد تصدَّت له في حِلْيتها.

فلانٌ ليس ممن يَقِف في ظِلّ الطمع، فَيُسِفُّ إلى حَضيض الطَبَع[1]، نَقيُّ الصحيفة، عَلِيٌّ عن الفضيحة، عَفّ الإزار، طاهرٌ من الأَوْزَار، قد عاد لإصلاح المعاد، وإعداد الزاد.

* * *

من أخبار ابن المقفع

وكان ابنُ المُقفَّع من أَشراف فارس، وهو من حكماءِ زمانه، وله مصنّفات كثيرة، ورسائلُ مختارة؛ وكان مُحْجِماً عن قول الشعر، وقيل له: لم لا تقولُ الشعر؟ فقال: الذي أَرضاه لا يَجيئني، والذي يجيءُ لا أَرْضاه.

= تُحْصى. كان يعيش من عرق جبينه، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. ومن شعره:
تَرَكْتُ الخَلْقَ طُرًّا في رِضَاكا ... وَأَيْتَمْتُ العِيالَ لِكَيْ أَراكا
فَلَوْ قَطَّعْتَني في الحُبِّ إِرباً ... لَمَا حَنَّ الفُؤادُ إلى سِوَاكا
وكانت وفاته سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٩ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٢٥٥).

(١) الطَّبَعُ: الخِسَّة.

أخذ هذا بعضُهم فقال[١]:

أَبَى الشعرُ إلاَّ أَنْ يَفِيءَ رَدِيُّهُ إِلَيَّ، وَيَأْبَى منه ما كَانَ مُحْكَما
فَيَا لَيْتَنِي إِذْ لَمْ أُجِدْ حَوْكَ وَشْيِهِ وَلَمْ أَكُ من فُرْسَانِهِ كُنْتُ مُفْحَمَا[٢]

وكان ظريفاً في دينه[٣]، وذكر أنه مرّ ببيت النار فقال:

يا بيتَ عاتكةَ الّذي أَتعزَّلُ حَذَرَ العِدا وَبِهِ الفؤادُ مُوَكَّلُ[٤]
أَصْبَحْتُ أَمْنَحُكَ الصُّدودَ، وَإِنني قَسَماً إِليكَ مع الصُّدودِ لأَمْيَلُ

ترجمة للأحوص

البيتان لِلأَحْوَص بن محمد بن عَاصم بن ثَابِت بن أبي الأَقْلح الأَنْصَارِي أخي بني عَمْرو بن عَوْف. وعاصم بن ثَابت حَمِيُّ الدُّبُرُ[٥] قتله بنو لَحْيَان من هُذَيل يوم الرَّجيع، فأرادوا أن يَبْعَثوا بِرَأْسِه إلى مكة، وكانت سُلافة بنتُ سَعْد نذرت لَتَشْرَبَنَّ في رأسه الخَمْر، وكان قتلَ بعضَ ولدها من طلحة بن أبي طلحة أحد بني عبد الدار يوم أُحد، فلما أرادوا أَخْذَ رأسه حمته الدَّبْرُ ـ وهي النحل ـ فلم يَجِدُوا إليه سبيلاً، وجعلوا يقولون: إنّ الدّبر لو قد أمسى صِرْنا إلى حَشْوِ استه، فلما أمسوا بعثَ الله أَتِيًّا فَوارَاهُ منهم[٦]. وعاتكة التي ذكر هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية.

[ألطف تعريض، وأدق فهم]

ولما دخلَ أبو جعفر المنصورُ المدينة قال للربيع: أَبْغِنِي رجلاً عَاقلاً عالماً بالمدينة لِيَقِفَنِي على دُورِهَا، فقد بَعُدَ عَهْدِي بديار قومي؛ فالْتَمَسَ لَهُ الربيع فتًى من أعقل الناس وأعلمهم، فكان لا يبتدِىءُ بإخْبَارٍ حتى يسأله المنصور فيجيبه بأَحْسَن عبارة، وأجود بيان،

(١) البيتان لعبد الملك بن قريب الأصمعي، انظر العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق القيرواني: ١/ ٢٠٦.
(٢) المُفْحَمُ: المُغَلَّبُ.
(٣) «ظريفاً في دينه»: يريد أنه كان متهماً في دينه، لأنه كان قبل إسلامه مجوسياً يعبد النار.
(٤) أَتعزَّلُ: أَتجنب.
(٥) الدُّبُرُ: جماعة النحل والزنابير.
(٦) الأَتيُّ: السَّيْلُ يأتي من بعيد.

وأوفى معنى، فأُعْجِب المنصور به، وأمر له بمالٍ، فتأخّر عنه، ودعتهُ الضَّرورة إلى استنجازِه، فاجتاز ببيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا بيتُ عاتكة الذي يقول فيه الأحوص: «يا بيت عاتكة الذي أتعزَّل»... البيتَ، ففكر المنصور في قوله، وقال: لم يُخَالف عادتَه بابتداء الإخبار دون الاسْتِخبار إلا لأمر، وأقبل يردّد القصيدة ويتصفحها بيتاً بيتاً حتى انتهى إلى قوله فيها:

وَأراكَ تَفْعَلُ ما تَقُولُ وبَعْضُهُم مَذِقُ اللسانِ يَقولُ ما لاَ يَفْعَلُ(١)

فقال: يا ربيع، هل أَوْصَلْتَ إلى الرجلِ ما أَمَرْنَا له به؟ فقال: أَخَّرْتُه عنه ـ لعلّةٍ ذكرها الربيع ـ فقال: عَجِّلْه له مُضَاعَفاً، وهذا ألطف تعريض من الرجل، وحُسْنُ فهم من المنصور.

[الحسد والحساد]

لابن المقفع في صفة الحاسد

ومن كلام ابن المقفع: الحاسِدُ لا يزالُ زارياً على نعمة الله ولا يَجِدُ لها مَزَالاً، ومكدِّراً على نفسه ما به من النعمة فلا يَجِدُ لها طَعْماً، ولا يزالُ ساخطاً على مَنْ لا يترضَّاه، ومتسخِّطاً لما [لا] ينال، فهو كَظُوم هَلُوع جَزُوع(٢)، ظالم أَشْبَهُ شيء بمظلوم، محروم الطَّلِبَة، مُنغَّص العيشة، دائم التسخّط، لا بما قُسِمَ له يَقْنَع، ولا على ما لم يُقْسَم له يغلب، والمحسودُ يتقلّب في فَضْلِ نعم الله مباشراً للسرور، مُمَهلاً فيه إلى مُدَّةٍ لا يقدر الناسُ لها على قَطْع ولا انتقاص، ولو صبر الحاسدُ على ما به لكان خيراً له؛ لأنه كلما أراد أن يُطْفِىءَ نورَ الله أَعْلاَهُ، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣).

---

(١) مذق اللسان: يقول ما لا يفعل، ومنه: رجل مَذِقٌ: مَلُولٌ، وأصل المَذْق: المزج والخلط، يكون ذلك في اللبن والشراب ونحوهما.

(٢) كظوم: صيغة مبالغة من كظم الرجل غيظه إذا أمسك على ما في نفسه منه صافحاً أو مغيظاً، فهو كاظم وكظيم وكظوم، قال تعالى: ﴿والكَاظِمينَ الغَيْظَ﴾ «سورة آل عمران، آية ١٣٤»، وقال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة يوسف، آية ٨٤). وهلوع: كثير الهلع، صيغة مبالغة من هلع الرجل هلعاً إذا جزع جزعاً شديداً، فهو هَلِعٌ، وهَالِعٌ، وهَلُوعٌ، وَهِلْوَاعٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ (سورة المعارج، آية ١٨). وجزوع: كثير الجزع، صيغة مبالغة من جزع فلان إذا لم يصبر على ما نزل به، فهو جَزِعٌ، وجَازِعٌ، وَجَزوعٌ، وَجُزَاعٌ، قال تعالى: ﴿إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ (سورة المعارج، آية ١٩).

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٢.

لأبي تمام في فضل الحاسد على المحسود

قال الطائي(١):

لَوْلاَ التَّخَوُّفُ لِلعَوَاقِبِ لم تَزَلْ ... لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى عَلَى المَحْسُودِ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فضيلةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لها لَسَانَ حَسُودِ
لَوْلاَ اشْتِعالُ النارِ فيما جَاوَرَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ(٢)

للبحتري في هذا المعنى

أخذه البحتري فقال(٣):

وَلَنْ تَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضعَ نِعْمَةٍ ... إِذَا أَنْتَ لم تُدْلَلْ عليها بِحَاسِدِ

ولقد أحسنَ القائل:

إن يَحْسُدُونِي فَإِنّي غَيْرُ لاَئِمِهِمْ ... قَبْلِي من الناسِ أَهْلِ الفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا
فَدَامَ لِي وَلَهُمْ ما بِي وَمَا بِهِمُ ... وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظاً بما يَجِدُ
أَنَا الذي يَجِدُونِي في صُدُورِهِمُ ... لا أَرْتَقِي صَدَراً عنها ولا أَرِدُ(٤)

لابن الرومي

وقال ابن الرومي لِصَاعد بن مَخْلَد(٥):

وَضِدٌّ لَكُمْ لاَ زَال يَسْفُلُ جَدُّهُ ... ولا بَرِحَتْ أَنفاسُهُ تَتَصَعَّدُ(٦)
يَرَى زِبْرِجَ الدنيا يُزَفُّ إليكُم ... وَيُغْضِي عن استحقاقكم فهو يُفْأَدُ(٧)

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٢٣. والأبيات من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ويعتذر إليه.
(٢) العَرْفُ: الرائحة مطلقاً، وأكثر ما يُستعمل في الطيّبة منها.
(٣) البحتري، الديوان: ١/ ٦٥، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الفتح بن الفتح بن خاقان.
(٤) لا أرتقي صَدَراً ولا أرد: لا أصعد ولا أهبط.
(٥) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ١١٩.
(٦) الجَدُّ: الحَظُّ.
(٧) الزِّبْرِجُ: الحلية والزينة من وشي أو جوهر أو نحو ذلك، والزبرج: الذهب، والسحاب الرقيق فيه حُمْرة. وَيُفْأَدُ: يُحْرَقُ فؤاده.

وَلو قاسَ بِاسْتِحْقَاقِكُمْ ما مُنِحْتُمُ ... لأَطْفَأَ نَاراً في الْحَشا تَتَوقَّدُ
وَأَنْقَى من عِقْدِ العقيلةِ جِيدُها ... وَأَحْسَنُ من سِرْبَالِها المُتَجَرَّدُ[1]

لمعن بن زائدة

وقال مَعْنُ بن زائدة[2]:

إني حُسِدتُ فَزَادَ الله في حَسَدي ... لا عاشَ مِنْ عاش يَوماً غَيْرَ مَحْسُودِ
ما يُحْسَدُ المرءُ إلاّ مِنْ فضائِلِهِ ... بِالعلم والظَّرْفِ، أو بالبَأْسِ والْجُودِ

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الحسد

دَبَّتْ عقارِبُ الحسَدَة، وكمنت أفَاعِيهم بكلّ مَرْصَدٍ. فلان مَعْجُون من طِينَةِ الحسد والمُنَافَسَة، مضروبٌ في قالب الضِّيق والمناقشة. قد وكلَ بي لَحْظاً يَنْتَضِلُ بِأَسْهُم الحسد. فلان جَسدٌ كلُّه حسد، وعقد كُلُّه حِقْد. الحاسدُ يَعْمَى عن محاسن الصُّبح، بعين تَدْرِكُ حقائقَ القُبْحِ.

[التلطف في الطلب]

بين الواثق ومحمد بن حماد

كتب محمد بن حَماد يُعَرِّض في حاجةٍ له ببيتي شعر إلى الواثق يقول:

جَذبْتُ دَواعي النَّفْسِ عَنْ طَلبِ المُنَى ... وَقُلْتُ لها كُفّي عنِ الطَّلَبِ المُزْرِي
فَإنَّ أَميرَ المؤمنينَ بِكفِّهِ ... مَدارُ رَحًى بِالرِزْقِ دَائبة تَجْري

فَوقّع تحتها: جَذْبُكَ نَفْسَكَ عن امتهانها بالمسألةِ دعاني إلى صَوْنك بِسَعَةِ فَضْلي عليك، فَخُذْ ما طلَبْتَ هنيئاً.

---

(١) يقول: إن جيد المرأة أجمل من العقد الذي يُظن أنه يزينه، والجسم العريان أجمل من القميص الذي يستره.

(٢) هو أبو الوليد، معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني: من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء. أدرك العصرين الأموي والعباسي. ولي سجستان، وأقام فيها مدة. قتل غيلة سنة ١٥١ هـ/٨٩٨ م.

بين الحسن بن سهل وعلي بن عبيدة

قال علي بن عُبَيْدة: أتيت الحسن بن سَهْل بفم الصلح؛ فأَقَمْتُ ببابه ثلاثة أشهر لا أَحْظَى منه بطائل، فكتبت إليه:

مَدَحْتُ ابن سَهْلٍ ذا الأَيادي وَمالهُ ... بِذاك يَدٌ عِنْدي وَلاَ قَدَمٌ بَعْدُ
وَما ذَنْبُهُ، وَالناسُ - إلا أَقَلّهم - ... عِيالٌ له، إن كانَ لم يَكُ لي جَدُّ
سَأَحمدهُ لِلناسِ حَتَّى إذا بَدَا ... لَهُ فِيَّ رَأْيٌ عادَ لي ذلك الحَمْدُ

فكتب إليَّ: باب السلطان يَحْتَاجُ إلى ثلاث خِلال: عقل وصَبْرٌ ومال، فقلت للواسطة: تؤدّى عني؟ قال: نعم. قلت: تقول له: لو كان لي مال لأَغْناني عن الطلب إليك، أو صَبْرٌ لصبرت عن الذُّلّ ببابك، أو عَقْلٌ لاستدللت به على النزاهة عن رِفْدِك! فأمر لي بثلاثين أَلف درهم.

* * *

بعض كلام علي بن عبيدة الريحاني

وقال علي بن عُبَيْدة الرَّيحاني يوماً، وقد رأى جارية يَهْوَاها: لولا البُقيا على الضمائر لَبُحْنا بما تُجِنّه السرائر، لكن نِيرَان الْحُبِّ تُتَدَارك بالإخفاء، ولا تُعَاجَل بالإبداء؛ فإن دوامَها مع إغلاق أبواب الكِتْمَانِ، وزوالَها في فَتْحِ مَصَارِعِ الإعلان. وقد قال محمد بن يزيد الأموي:

لا وَحُبِّيكِ لا أُصَا ... فِحِ بالدَّمعِ مَدْمَعا
مَنْ بَكَى حُبَّه اسْتَرَا ... حَ وَإِنْ كَانَ مُوجَعا

ومن كلام عليّ بن عبيدة: اجعَلْ أُنْسَك آخرَ ما تَبْذُل من وُدِّك، وصُن الاسترسال منك، حتى تجد له مستحقاً؛ فإن الأُنْس لِباسُ العِرض، وتُحْفة الثقة، وحِباء الأكفاء، وشِعار الخاصَّة، فلا تُخلق جِدَّته إلا لمن يعرف قَدْرَ ما بذلتَ له منك.

وقال: لولا حركاتٌ من الابتهاج أَجد حِسَّها عند رؤيتك في نفسي لا أعْرِف لها مُثيراً من مظانّها إلاّ مُؤَانَستك لي، لأبقَيْت عليك من العناء، وخفّفت عنك مؤونة اللقاء؛ لكني أجد من الزيادة بك عندي أكْثر من قَدْرِ راحتك في تأَخُّرك عني، فأَضيق عن احتِمال الخسران بالوَحدة منك.

وقال: لِوَجَلي من طُلُوعِ الملالة بِكَرّ اللّقَاء أَسْتَخِفُّ التّجَافي مع شدَّةِ الشوقِ، لتبقى جدَّة الحالِ عند من أُحِبُّ دوامه لي؛ وردُّ طَرْفِ الشوق باطناً أيْسَر من مُعاناةِ الجفاء مع الودّ ظاهراً.

لبعض المحدثين من الشعراء في الشوق

وقال بعض المحدثين:

كم اسْتَرَاحَ إلى صَبْرٍ فلم يُرَحِ ... صَبٌّ إليكُمْ مِنَ الأشواقِ في تَرَحِ[1]
تَرَكْتُمْ قَلْبَهُ من حُزْنِ فُرْقَتِكُمْ ... لو يُرْزَقِ الوَصْلَ لم يَقْدِرْ على الفَرَحِ

وقال أعرابي:

ألاَ قُلْ لِدارٍ بَيْنَ أَكْثِبَةِ الْحِمَى ... وَذات الغَضَى: جادَتْ عليكِ الهَوَاضِبُ[2]
أَجَدّكِ لا آتيكِ إلاّ تَتَابَعَتْ ... دُموعٌ، أَضاعتْ ما حَفِظْتُ، سَوَاكِبُ
دِيارٌ تَنَسَّمْتُ المُنَى نَحْوَ أَرْضِهَا ... وَطَاوَعَني فيها الهَوَى والحَبَائِبُ
لَيَالِيَ لا الهِجرانُ مُحْتَكِمٌ بها ... على وَصْلِ مَنْ أَهْوَى ولا الظنُّ كَاذِبُ

[الأدب في مجلس الحكم]

بين إبراهيم بن المهدي والطبيب ابن بختشيوع عند ابن أبي دواد

تنازع إبراهيمُ بن المهدي[3] وابن بختشيوع الطبيبُ[4] بين يدي أحمد بن أبي

---

(١) التَّرَحُ: الحزن.

(٢) الأكثبة والكُثُبُ والكُثْبَانُ: جمع كثيب، وهو الرمل المستطيل المحدودب. والغضى: شجر من الأَثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفىء، واحدته: غَضَاةٌ، وأهل الغضى: أهل نجد لكثرته هنالك، ولعله أراد بـ«ذات الغضى» اسم موضع. والهواضب: جمع أهضوبة، وهي المطرة الدائمة العظيمة القَطْر، وقد هضبت السماء: دام مطرها أياماً لا يُقْلِع.

(٣) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن المهدي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ويعرف بابن شكلة، وهو أخو هارون الرشيد. ولد ونشأ ببغداد، وكان أسود اللون، عظيم الجثة، ولم يُرَ في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لساناً، ولا أجود شعراً. توفي في سامراء سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٦/ ١٤٢).

(٤) ابن بختشيوع: طبيب سرياني الأصل، عظيم القدر، كان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش، وكان يقربه ويقدمه، ثم إنه أفرط في إدلاله عليه فنكبه، وكان موته سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م.

دُوادٍ[١] في مجلس الحكم في عقار بناحية السَّواد، فأرْبَى عليه إبراهيمُ وأَغْلَظَ له، فأحفظ ذلك ابنَ أبي دُوَاد، فقال: يا إبراهيم، إذا نازَعْتَ في مجلس الحكم بحضرتنا امرءًا فلا أعلمنَّ أنكَ رَفعْتَ عليه صَوْتاً، ولا أَشَرْتَ بيد، وليكن قَصْدُكَ أَمَماً[٢]، وَرِيحُكَ ساكنة، وَكَلامُكَ مُعْتَدِلاً، مع وفاءِ مجالس الخليفة حُقوقَها من التَّعْظِيم، والتوقير، والاستكانة، والتوجّه إلى الواجب؛ فإن ذلك أَشْكَلُ بك، وأَشْمَلُ لمذهبك في مَحْتِدِك، وعظيم خَطرك، ولا تعجَلنَّ، فَرُبَّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثاً، واللَّهُ يعصمك من خَطَلِ القول والعمل، ويتم نِعْمتَهُ عليك كما أتمَّها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم.

فقال إبراهيم: أَصْلَحك اللَّهُ تعالى؛ أمَرْتَ بِسَدَاد، وَحَضَضْتَ على رشاد؛ ولستُ عائداً لما يَثْلِمُ مُرُوءَتي عندك، ويُسْقطني من عينك، ويخرجني من مقدارِ الواجب إلى الاعتذار، فهأنا معتذرٌ إليك من هذه البادرة اعتذارَ مُقِرٍّ بذنبه، مُعْتَرِفٍ بِجُرْمِه، ولا يزال الغضبُ يستفز بي بمواده، فَيردُّني مِثْلُكَ بحلمه، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك؛ وقد جَعلْتُ حقّي من هذا العقار لابن بختيشوع، فليتَ ذلك يكون وافياً بأَرْش الجناية عليه[٣]؛ ولم يَتْلفْ مالٌ أَفادَ موعظةً؛ وحَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيل.

[حكمة أرْدَشير وَحضُّه على العلم]

لما استوثق أَمْرُ أَرْدشير بن بابك[٤] وجَمَعَ ملوكَ الطوائف، وتمَّ له مُلْكُه، جمع الناسَ فخطبهم خطبة حضّ فيها على الألفة والطاعة، وحذَّرهم المعصية ومفارقة الجماعة، وصفَّ الناسَ أربعة صفوف؛ فخرُّوا له سُجَّدا، وتكلَّم مُتكلِّمهم فقال:

لا زلت أيها الملك مَحْبُوًّا من الله تعالى بعزّ النصر، ودَرك الأمل، ودوام العافية،

---

(١) هو أبو عبد اللَّه، أحمد بن أبي دُواد الإيادي القاضي، كان معروفاً بالمروءة والعصبية، وله مع المعتصم في ذلك أخبار مأثورة. وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال، وهو أول من افتتح القول مع الخلفاء، وله شعر جيد. وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٥ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٨١).

(٢) أمم: قريب.

(٣) الأرش: الدية.

(٤) أردشير بن بابك: ملك فارس، ومؤسس الدولة الساسانية. بنى عدداً من المدن، منها: بيضاء اصطخر، وبيضاء المدائن، وعدداً من الحصون والقناطر والجسور، وجعل الزرادشتية دين الدولة الرسمي. (سنير بعلبكي، موسوعة المورد: ١/ ١٥٦؛ الجاحظ، الحيوان: ١/ ٧٢).

وتمام النّعمة، وحُسْن المزيد، ولا زلت تَتَابَعُ لديك المكرمات، وتَشْفَع إليك الذمامات[1] حتى تبلغَ الغايةَ التي يؤمنُ زوالها، وتصل إلى دار القرار التي أعدَّها الله تعالى لنظرائك من أَهْل الزُّلْفَى عنده والمكانة منه، ولا زال ملكك وسلطانك باقيين بقاءَ الشمسِ والقمر، زائدَيْن زيادة النجومِ والأنْهَار، حتى تستويَ أَقْطَارُ الأرض كلها في علوِّ قَدْرِك عليها، ونفاذِ أمْرِك فيها، فقد أشْرَقَ علينا من ضياء نورك ما عمّنا عُمومَ ضياء الصبح، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتَّصَل بأَنْفُسِنا اتصال النسيم؛ فأصبحتَ قد جمع اللَّهُ بك الأيدي بعد افتراقها، وأَلَّفَ القلوبَ بعد توقد نيرانها، فَفَضْلُكَ الذي لا يُدْركُ بوصف، ولا يُحدُّ بِنَعْت.

فقال أردشير: طُوبَى للممدوح إذا كان للمدح مُستَحِقّاً، وللداعي إذا كان للإجابة أهلاً.

وقيل لأردشير: أيُّها الملك الرفيع الذي حَلَب العصور، وجرّب الدُّهور، أي الكنوزِ أَعْظَمُ قدراً؟ قال: العلم الذي خفّ محمله، فَثَقُلَتْ مفارقته، وكَثُرَتْ مرافقته، وخَفِيَ مكانه، فَأُمِنَ من السَّرَقِ عليه؛ فهو في الملأ جَمَال، وفي الوَحْدَة أنيس، يُرَأَّسُ به الْخَسيس، ولا يمكن حاسدك عليه انتقاله عنك. قيل له: فالمال؟ قال: ليس كذلك. مَحْمله ثَقِيل، والهمُّ به طَويل؛ إن كنت في مَلأ شغلك الفِكْرُ فيه، وإن كنت في خَلْوَة أتعبتك حراسته.

[أخلاق الملوك]

وصف ملك الروم

قال الجاحظ: حدثني الفضل بن سهل قال: كانت رسلُ الملوك إذا جاءت بالهدايا يُجْعَلُ اختلافُهم إليّ، فتكون المؤامراتُ فيما معهم من ديواني، فكنت أسأَلُ رَجُلاً رَجُلاً منهم عن سِيَر ملوكهم، وأخبار عظمائهم، فسألتُ رسولَ ملك الروم عن سيرة ملكهم، فقال: بَذَلَ عُرْفَه[2]، وجرَّد سَيْفَه، فاجتمعت عليه القلوبُ رغبةً ورهبةً، لا يُنْظِر جُنْدَهُ، ولا يُحْرِج رعيَّته؛ سَهْلُ النَّوال، حَزْن النكال[3]، الرجاءُ والخوفُ معقودان في يده.

قلت: فكيف حُكْمُه؟ فقال: يردُّ الظُّلم، ويَرْدَعُ الظالم، ويُعْطِي كلَّ ذي حق حقّه؛ فالرعية اثنان: رَاضٍ، ومغتبط.

---

(١) الذمامات: جمع ذمام، وهو العهد ونحوه.

(٢) العُرْفُ: المعروف.

(٣) النكال: العقاب أو النازلة، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ (سورة البقرة، آية ٦٦).

قلت: فكيف هَيْبَتُهم له؟ قال: يُتصور في القلوب، فَتُغْضِي له العيون.

وصف ملك الحبشة

قال: فنظر رسولُ ملك الحبشة إلى إصْغائي إليه، وإقبالي عليه، فسأل الترجمان: ما الذي يقوله الروميّ؟ قال: يَذْكُر ملكهم، ويصِفُ سيرتَه؛ فتكلّم مع الترجمان بشيء، فقال لي الترجمان: إنه يقول: إنّ مَلِكَهم ذو أناة عند القُدْرة، وذو حلم عند الغضب، وذو سَطْوَةٍ عند المغالبة، وذو عقوبةٍ عند الاجْتِرَام، قد كسا رعيَّته جميلَ نِعْمَتِه، وخوّفهم عسف نِقْمَتِه؛ فهم يتراءونه رَأْيَ الهلال خيالاً، ويخافونه مخافةَ الموتِ نكالاً، وَسِعَهم عَدْلُه، ورَدَعَتْهُم سَطْوَته، فلا تَمْتَهِنْهُ مَزْحَة، ولا تؤمّنه غَفْلة؛ إذا أعطى أوسع، وإذا عاقب أوجع؛ فالناس اثنان: راجٍ وخائف، فلا الراجي خَائِبُ الأمل، ولا الخائف بعيد الأجل. قلت: فكيف هيبتهم له؟ قال: لا ترفعُ إليه العيون أجفانَها، ولا تُتْبِعُهُ الأبصارُ إنسانَهَا[١]، كأنَّ رعيتَه قَطاً رفرفت عليها صقورٌ صوائد.

فَحَدَّثْتُ المأمون بهذين الحديثين فقال: كم قيمتُها عندك؟ قلت: ألفا درهم. قال: يا فضل؛ إن قيمتهما عندي أكْثَرُ من الخلافة، أما عرفت قول عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يحسن. أفتعرِفُ أحداً من الخطباء البُلَغاءِ يُحْسِنُ أن يصف أحداً من خلفاءِ الله الراشدين المهديين بهذه الصِّفة؟ قلت: لا. قال: فقد أمَرْتُ لهما بعشرين ألف دينار، واجعل العُذْر مادة بيني وبينهما في الجائزة [على المعوز]؛ فلولا حقوقُ الإسلام وأهله لرأيْتُ إعطاءهما ما في بيتِ مال الخاصة والعامة دون ما يستحقّانِه.

فضل أخت ملك الخزر

وقال الجاحظ: حدّثني حميد بن عطاء قال: كنتُ عند الفَضْلِ بن سهل، وعنده رسولُ ملك الخزَرِ، وهو يحدِّثنا عن أُخْتٍ لملكهم، قال: أصابتنا سَنَةٌ احتدم شوَاظُها علينا بحرِّ المصائب، وصنوفِ الآفات؛ فَفَزِع الناسُ إلى الملك، فلم يَدْرِ ما يُجيبُهم به، فقالت أخته: أيها الملك؛ إن الخوفَ لله خُلُق لا يَخْلُقُ جديدهُ، وسببٌ لا يمتهن عزيزه، وهو دالُّ المَلِكِ على اسْتِصْلاَح رَعِيَّته، وزاجِرُهُ عن استفسادها، وقد فَزِعَتْ إليك رَعِيَّتُكَ بفضلِ العَجْزِ عن الالتجاء إلى مَنْ لا تزيدُه الإساءة إلى خلقه عِزّا، ولا يَنْقُصه العَوْدُ بالإحسان إليهم مُلْكاً، وما

(١) إنسان العين: ناظرها (سوادها).

أحدٌ أوْلَىٰ بحفظ الوصية من الموصِّي، ولا بركوب الدلالة من الدّال، ولا بِحُسْنِ الرعاية من الرّاعي. ولم تزل في نعمة لم تغبرها نِقْمَة، وفي رِضاً لم يكدّره سُخْط، إلى أن جَرَى القَدَرُ بما عَمِي عنه البصر، وذُهِل عنه الْحَذَر، فسلب الموهوب، والواهب هو السالب؛ فَعُذْ إليه بِشُكْرِ النعم، وَعُذْ بهِ من فظيع النِّقم، فمتى تَنْسَهُ يَنْسَك، ولا تجعلنَّ الحياء من التذلل للمعزّ المذِل ستراً بينك وبين رعيتك، فتستحق مذمومَ العاقبة؛ ولكن مُرْهُم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بِكُنْهِ القدرة، وبتذلل الألْسُن في الدعاء بِمَحْضِ الشُّكْرِ له؛ فإن الملك ربما عاقب عَبْدَه ليرجعه عن سَيِّء فِعلٍ إلى صالح عمل، أو لِيَبْعثه على دائبِ شُكْرٍ لِيُحْرِزَ به فَضْلَ أجْر.

فأمرها الملك أن تقومَ فيهم فتنذرهم بهذا الكلام، ففعلت، فرجع القومُ وقد علم الله منهم قبولَ الوَعْظِ في الأمر والنهي؛ فحال عليهم الْحَول وما منهم مفتقد نِعْمَةٍ كان سُلِبَهَا، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصّنع؛ فاعترف لها الملك بالفضل، فقلدها المُلْك؛ فاجتمعت الرعيةُ لها على الطاعة في المكروه والمحبوب.

قال: وهذا وهم أعداء الله تعالى، وضرائر نِعمته، ومستوجبو نِقْمَتِه، أعادَ لهم بالشكر ما أرادوا، وأعطاهم بالإقرار له بِكُنْهِ قدرته ما تمنَّوا، فكيف بمن يَجْمَعُهُ على الشكر نوران اثنان: قرآن منزل، ونبيّ مرسل، لو صدقت النيَّاتُ، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات؛ لكنهم أنكرو ما عرفوا، وجهلوا ما علموا، فانقلبَ جدهم هَزْلاً، وسكوتهم خَبْلاً.

قطعة صادرة من أقوال الملوك
دالة على فضل كرمهم وبعد هممهم

غَضِبَ كسرى أنو شَرْوان على بعض مَرَازبته[١]، فقال: يُحَطُّ عن مرتبته، ولا ينقص من صِلَته؛ فإن الملوك تؤدِّب بالهجران، ولا تعاقِب بالْحِرمَانِ.

واصطنع أنو شَرْوَان رجلاً فقيل له: إنه لا قديمَ له. قال: اصطناعُنا إياه شرّفه.

قال مُعاوية رضي الله عنه: نحن الزمان، من رَفَعْنَاهُ ارتفع، ومن وضعناه اتّضع. وكان يقول: إني لآنَفُ من أن يكون في الأرض جَهْلٌ لا يَسَعُهُ حِلمِي، وذَنْبٌ لا يَسَعُهُ عَفْوِي، وحاجة لا يَسَعُها جُودِي.

---

(١) المرازبة: جمع المرزبان: الرئيس من الفرس.

عبد الملك بن مَرْوان ـ أفْضَلُ الناس مَنْ تَوَاضَعَ عن رِفعَة، وعَفَا عن قُدْرَة؛ وأنْصَف عن قُوَّة.

زِياد[١] ـ استشفعوا لِمَنْ وراءكم؛ فليس كلُّ أحدٍ يصلُ إلى السلطان، ولا كلُّ من وصل إليه يَقْدِرُ على كلامه.

المُهلَّب[٢] ـ عَجِبتُ لمن يشتري المماليك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه! وقد روي هذا لابن المبارك. وقال لبنيه: يا بني؛ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم.

قال أبو تمام الطائي يَسْتَهْدِي فَرْواً، وعَرَّض بقول المهلب[٣]:

فَهَلْ أَنتَ مُهْدِيهِ بِمِثْلِ شَكيرةٍ ... مِنَ الشُّكْرِ يعلو مُصْعِداً وَيُصَوِّبُ[٤]
فَأَنْتَ العليمُ الطّبُ أَيُّ وَصِيَّةٍ ... بها كان أَوْصَى في الثيابِ المُهلَّبُ[٥]

يزيد بن المُهلَّب[٦] ـ اسْتَكْثِرُوا من الحمد؛ فإنّ الذمَّ قلَّ من ينجو منه.

---

(١) زياد: هو زياد ابن أبيه (ابن أبي سفيان): أمير، قائد، خطيب. ولد بمكة، وَوَلَّاه الإمام علي بن أبي طالب إمرة فارس، وَوَلّاه معاوية على البصرة والكوفة، وكانت وفاته بالكوفة سنة ٥٣ هـ/ ٦٧٣ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٣٨٧).

(٢) المهلب: هو أبو سعيد، المهلب بن أبي صفرة الأزدي، العتكي البصري: أمير، قائد، شجاع، حمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز. ولي خراسان سنة ٧٩ هـ، وظلّ والياً عليها حتى وفاته سنة ٨٣ هـ/ ٧٠٣ م. وكان أولاده من كبار القادة الأمجاد النجباء. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٣٥٠).

(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٧٥.

(٤) شكيرة: شعرة، والمراد أن هديته لا تساوي شعرة من شكره. ويعلو ويصوّب: يرتفع وينخفض. وفي الديوان: «بِمِثْلِ شَكِيرِهِ»، والشكير: الريش الصغير. أي: هل أنت مهديه فأشكرك شكراً كثيراً كثرة ريشه؟

(٥) الطبُّ: الماهر الحاذق بعمله.

(٦) هو أبو خالد، يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي: أمير، قائد، شجاع. استخلفه أبو المهلب على خراسان، فعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج بن يوسف، ثم إن الحجاج سجنه وعذّبه. ولّاه سليمان بن عبد الملك على خراسان، فافتتح جرجان ودهستان، وأقبل يريد العراق، فظفر به عمر بن عبد العزيز وسجنه، ثم قتله مسلمة بن عبد الملك بعد وفاة عمر بالبصرة سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢١ م.
(ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٢٧٨ ـ ٣٠٩).

السفَّاح[1] ـ ما أقْبَح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤُنا خالُون من أثرها.

المأمون[2] ـ إنما تُطْلَبُ الدنيا لِتُمْلَكَ، فإذا مُلِكَتْ فلتوهب. وقال: إنما يتكثَّر بالذهب والفضة من يَقِلاَّن عنده.

الحَسَنُ بن سَهْل[3] ـ الأطراف مَنَازِل الأشراف؛ يتناولون ما يريدون بالقُدْرَة، ويتنابهم مَنْ يريدهم بالحاجَةِ. وتعرض له رجل فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي أحسنتَ إليَّ يوم كذا وكذا. فقال: مرحباً بمن توسَّل إلينا بنا.

ولما أراد المعتصم[4] أنْ يُشرّف أَشْنَاس التركي بعقب فَتْح الخُرَّمية أمر أصحابَ المراتب بالترجّل إليه، فترجَّل إليه الحسنُ بن سهل، فنظر إليه حاجبُه يمشي ويتعثر في مَشْيِهِ، فبكى، فقال: ما يبكيك؟ إن الملوك شرّفتنا وشرفت بنا.

ومن كلام أهل العصر

للأسير شَمْس المعالي قَابُوس بن وَشْمَكير[5] ـ مَنْ أَقْعَدَتْهُ نِكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام؛ ومن ألبسه الليلُ ثوب ظلماته نزعَه النهار عنه بضِيائه.

وله: ابتناءُ المناقب باحتمال المتاعب، وإحرازُ الذِّكر الجميل بالسَّعْي في الخطب الجليل.

---

(١) السفاح: هو الخليفة العباسي، أبو العباس السفاح (ت ١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م).

(٢) المأمون: هو الخليفة العباسي، أبو العباس، عبد اللَّه بن هارون الرشيد (ت ٢١٨ هـ/ ٨٤٠ م).

(٣) هو أبو محمد، الحسن بن سهل بن عبد اللَّه السَّرْخَسِيّ: وزير المأمون بعد أخيه الفضل (ذي الرياستين)، وكان عالي الهمة، كثير العطاء، وكان يقول: «عجبت لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه». وكانت وفاته بمدينة سَرْخَس سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م.
(ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٢/ ١٢٠).

(٤) المعتصم: هو الخليفة العباسي محمد بن هارون الرشيد (ت ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م).

(٥) هو أبو الحسن، قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زيار بن وردانشاه الجيلي، شمس المعالي، أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان. كان مُرُّ السياسة، لا يُساغ كأسه، ولا يؤتمن جانبه، فثار عليه شعبه، وخلعه قواده وهو غائب عن جرجان، وولوا ابنه أبا المنصور مكانه، ولم يأمنوا شرّه حتى قُتِل في إحدى القلاع، ودفن بظاهر جرجان سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م.
(الثعالبي، يتيمة الدهر: ٤/ ٦٧؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٢١).

الصَّاحب بن عبّاد:

وَقـائلـةٍ: لِـمْ عَـرَتْـكَ الهُمـومُ ... وَأَمْـرُكَ مُمْتَثَـلٌ فـي الأُمَـمْ؟
فَقُلْـتُ: ذَرِينـي لمـا أَشتكـي ... فَـإِنَّ الهُمـومَ بِقَـدْرِ الهِمَـمْ

أبو الطيّب المتنبي[١]:

أَفـاضِلُ النـاسِ أَغْـرَاضٌ لِـذَا الـزَّمَـنِ ... يَخْلُو من الهَمِّ أَخْلاهُمْ مِنَ الفِطَنِ[٢]

أبو الفتح البُسْتي:

صَـاحِـبُ السُّلْطَـانِ لا بُـدَّ لَـهُ ... مِـنْ هُمُـومٍ تَعْتَـرِيـهِ وَغُمَـمْ
وَالَّـذِي يَـرْكَـبُ بَحْـراً سَيَـرى ... قُحَـمَ الأَهْـوَالِ مِـنْ بَعْـدِ قُحَـمْ[٣]

ومن كلام الملوك الجاري مجرى الأمثال

أردشير ـ إذا رغبت الملوكُ عن العَدْلِ رغبت الرعيَّةُ عن الطاعة.

أَفريدون ـ الأيام صحائفُ آجالِكُم، فَخلِّدُوها أَحْسنَ أعمالِكم.

وقيلَ للإسْكَنْدر[٤]: ما بالُ تعظيمك لمؤدِّبك أكثر من تعظيمك لأبيك؟ قال: لأنَّ أبي سَبَبُ حياتي الفانية ومؤدِّبي سببُ حياتي الباقية.

ودخل محمد بن زِياد مؤدِّب الواثق على الواثق، فأظهر إكرامَه، وأكثر إعظامَه، فقيل له: مَنْ هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أولُ من فَتق لساني بِذِكْرِ اللَّهِ، وأدْناني من رحمة الله.

---

(١) أبو الطيب المتنبي، الديوان: ١/٣١٥. والبيت هو مطلع قصيدة يمدح بها أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد الخصيبي، وهو يومئذ يتقلد القضاء بأنطاكية.

(٢) الأغراض: جمع غرض، وهو الهدف يُرْمَى بالسهام. وفي الديوان: «لَذَى الزَّمَنِ» يقول: إن الأفاضل من الناس كالأغراض للزمان يصيبهم بآفاته ونوائبه، إذ هُم أشدُّ اهتماماً بها من غيرهم، فكأنهم هم المقصودون بها.

(٣) قُحَمٌ: جمع قحمة، وهي الشدّة.

(٤) الإسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م): ملك مقدونيا، وأحد عباقرة الحرب على امتداد العصور. بسط سلطانه على بلاد اليونان، واستولى على صور، وأخضع مصر، ثم زحف على بلاد ما بين النهرين، واحتل بابل، وأطاح بالإمبراطورية الفارسية. توفي في مدينة بابل بالعراق، ودفن في الإسكندرية بمصر، وهي واحدة من مدن كثيرة بناها. (منير بعلبكي، موسوعة المورد: ١/٧٣).

وأُشِير على الإسكندر بتبييت الفرس[١]، فقال: لا أجعل غلبتي سَرِقة. وقيل له: لو تزوَّجت بنت دارا؟ فقال: لا تَغْلِبُني امرأةٌ غلبتُ أباها.

أنو شروان[٢] ـ الملك إذا كثر مَالُه مما يأخذ من رَعيَّتِه كان كمن يعمر سَطْحَ بيته بما يَقْتَلِعه من قواعد بُنْيَانه.

أبرويز[٣] ـ أطِعْ مَنْ [فوقك يطعك مَن] دونك.

السفاح ـ إن من أَدْنَى الناس ووضعائهم مَنْ عدَّ البخل حَزْماً، والعفو ذُلاًّ. وكان يقول: إذا كان الحلم مَفْسَدة كان العفوُ مَعْجَزة، والصبرُ حَسن إلا على ما أوقع بالدِّين، وأوْهَى السلطان؛ والأناةُ محمودة إلا عند إمكان الفرصة.

وقد قال ابن المعتز:

كَمْ فُرْصَةٍ ذَهَبَتْ فَعَادَتْ غُصَّةً ... تُشْجِي بِطُولِ تَلَهُّفٍ وتَنَدُّمِ[٤]

ولما عزم المنصور[٥] على الفَتْكِ بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى، فكتب إليه:

إذا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا تَدَبُّرٍ ... فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَعَجَّلاَ

فأجابه المنصور:

---

(١) التبييت: الهجوم بغتة بالليل.

(٢) أنوشروان: هو كسرى الأول، ملك فارس، ومن أعظم ملوك الأسرة الساسانية. وَسَّع رقعة الإمبراطورية، فامتدت حتى البحر الأسود وجبال القوقاز، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش، ورعى الحياة الثقافية. توفي سنة ٥٧٩ م. ومعنى «أنوشروان»: ذو الروح الخالدة. (البعلبكي، موسوعة المورد: ٦/ ٥١).

(٣) أَبرويز: هو كسرى الثاني، ملك فارس. غزا أرمينيا والعراق، وخاض الحرب ضد البيزنطيين فهزمه هرقل. حكم عليه بالموت فأعدم سنة ٦٢٨ م، وكان اشْتُهر بحبه لزوجته الأرمنية شيرين. ومعنى «أبرويز»: المُنْتَصِر.
(البعلبكي، موسوعة المورد: ٦/ ٥١).

(٤) الغُصَّةُ: ما اعترض في الحلق، وتُشْجي: تحدث الشَّجا وهو الغُصّة.

(٥) هو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور.

إذا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عزيمةٍ ... فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تترَدَّدَا
وَلاَ تُمْهِلِ الأَعداء يَوْماً بِغُدْوَةٍ ... وَبَادِرْهُمُ أَنْ يَمْلكوا مِثْلها غَدَا

وهذا في موضعه كقول الإمام علي كرّم الله وجهه: من فكر في العواقب لم يشجُع.

لسعد بن ناشب

وقال سَعْدُ بن نَاشِب فأفرط:

عَلَيْكُمْ بِدَارِي فَاهْدِمُوهَا؛ فَإِنَّها ... تُرَاثُ كريم لا يَخَافُ العَواقبا[1]
إذا همَّ أَلقى بَيْنَ عَيْنيهِ عَزْمَهُ ... وَنكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانبا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ في رَأْيه غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَرْضَ إلا قَائِمَ السيفِ صَاحِبا
سَأَغْسِلُ عني العارَ بالسيفِ جالباً ... عليَّ قضاءُ الله ما كان جَالِبا
وَيَصْغُرُ في عَيْني تِلادِي إذا انْثَنَتْ ... يَمِيني بإِدْرَاكِ الذي كُنْتُ طَالِبا

وكان سَعْدٌ من مَرَدَةِ العرب وشياطين الإنس، وفيه يقول الشاعر:

وَكَيْفَ يُفيقُ الدهرَ سَعدُ بن ناشب ... وَشَيْطَانُه عِند الأَهِلَّةِ يُصْرَعُ

كتب مروان بنُ محمدٍ الْجَعْدِيُّ إلى عبد اللّه بن علي يَسأَلُه حِفْظَ حرمه. فقال له: الحقّ لنا في دَمِكَ، وعلينا في حُرْمِك.

وقال الرشيد[2] لإسماعيل بن صبيح: إياك والدالّة[3] فإنها تفسد الحرمة، ومنها أُتِيَ البرامكة.

وقال المأمون: الملوكُ تَحْتَمِلُ كُلَّ شيء إلاّ ثلاثاً: إفْشَاءَ السر، والقدح في الملك، والتعرض للحُرَم.

المُعْتَصم ـ إذا نُصِر الهوى بطل الرَّأي.

---

(١) وفي رواية: «فَإنْ تَهْدِمُوا بِالغَدْرِ دَارِي».
(٢) هو الخليفة العباسي، أبو جعفر، هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور بن عبد اللّه (ت ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م).
(٣) الدالة: ما تدل به على صديقك من خير قدمته.

المُنْتَصِر[١] ـ لَذَّةُ العَفْوِ أَطْيَبُ من لذَّة التَّشَفِّي؛ وذلك أن لذةَ العفْوِ يلحقها حَمْدُ العاقبة، ولذّةُ التشفي يلحقها ذمُّ الندم.

والمنتصر يقول عن تجربة؛ لأنه قتل أباه المتوكل، والأَمْرُ في ذلك أشْهَرُ من أن يُذْكَرَ، ولكني أُلْمِعُ منه باليسير:

مقتل المتوكل العباسي

كان المتوكِّلُ قد عَقَدَ لولده المنتصر والمعتزّ والمؤيّد ولايةَ العهد، ثم تغيّر على المنتصر دون أَخَوَيْهِ، وكان يسمّيه المنتظِر، ويقول له: أنتَ تتمنّى موتي، وتنتظر وَقْتِي! ويأمرُ الندماء أن يعبثوا به، إلى أن أوْغَر صَدْره، وأقلَّ صبره؛ فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاثٍ خلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكّلُ يَشْرَبُ مع الفَتْحِ في قصره المعروف بالجعفري، ومعه جماعة من الندماء والمغنّين، وكان المنتصر معهم، فلما انصرمت ثلاثُ ساعاتٍ من الليل قال لِزرَافَة التركي: ألا تَسْمَعُني ساعةً حتى أشكو إليك ما يمرُّ بي؟ قال: بلى، وجعل يماطله ويطاوله، وغلَّقَ بغا الشرابيُّ الأبوابَ كلها إلا باب الماء، ومنه دخل الذين قتلوه، فأوّل مَنْ ضربه باغر التركي ضَرْبَةً قطع بها حبل عاتقه، وتلقّاه الفَتْح بنفسه فأكَبَّ عليه، فَقُتِلا جميعاً، وبويع المنتصر من ساعته، وكانت مدّة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى ـ حين قتل أباه ـ ستة أشهر.

لإبراهيم بن أحمد الأسدي يرثي المتوكل

وقال إبراهيم بن أحمد الأسدي يرثي المتوكّل:

هَكَذا فَلْتَكُنْ مَنَايا الكِرَامِ ... بينَ نايٍ وَمِزْهَرٍ وَمُدَامِ[٢]

بَيْنَ كَأْسينِ أَرْوَتَاه جَميعاً ... كَأْسِ لَذَّاتِه وَكَأْسِ الحِمَامِ

يَقِظٌ في السرورِ حتى أَتاهُ ... ـ قَدَرُ الله ـ حَتْفُه في المنامِ[٣]

وَالمنَايَا مَراتِبٌ يَتَفاضَلْـ ... ـنَ وَبِالمُرْهَفَاتِ مَوْتُ الكرامِ[٤]

---

(١) المنتصر: هو الخليفة العباسي المنتصر بالله بن المتوكل على الله (ت ٢٤٨ هـ/ ٨٦٣ م).

(٢) المِزْهَرُ: العُودُ الذي يُضْرَبُ به، وهو أحد آلات الطرب.

(٣) الحَتْفُ: الهلاك، ويقال: مات فلان حَتْفَ أنفه: مات على فراشه.

(٤) المرهفات: السيوف الرقيقة المُحدَّدة، يقال: سيف رَهِيفٌ، وسيف مُرْهَفٌ.

لـم يـرو نَقْصَـهُ رَسـولُ المنـايـا بِصُنُـوفِ الأَوْجَـاعِ وَالأَسْقَـامِ
هَـابَـه مُعْلِنـاً فَـدَبَّ إِلَيْـهِ فِـي سُتُـورِ الـدُّجـى بِحَـدِّ الحُسَـامِ

لعبد الكريم التيمي يرثي صاحب خراج المغرب

أخذ هذا المعنى عبد الكريم بن إبراهيم التَّيمي، فقال يرثي عِيسى بنَ خَلَف صاحب خراج المغرب، وكان قد تناول دواءً فمات بسببه:

مَنَايا سَـدَّدَتَ الطُّرْقَ عَنْهَا ولـم تَـدَعْ لَهَـا مِـنْ ثَنَـايَـا شَـاهِـقٍ مُتَطَلَّعـا[١]
فَلَمَّـا رَأَتْ سُـورَ المَهَـابَـةِ دُونَهَـا عَلَيْـكَ ولمـا لـم تَجِـدْ فيـكَ مَطْمَعـا
تَـرقَّـتْ بِـأَسْبَـابٍ لِطَـافٍ وَلَـمْ تَكَـدْ تُـوَاجِـهُ مَـوْقُـورَ الجَـلاَلَـةِ أَرْوَعـا[٢]
فَجَـاءَتْـكَ فِـي سِـرِّ الـدواءِ خَفِيَّـةً علـى حِيـنَ لـم تَحْـذَرْ لِـداءٍ تَـوَقُّعـا
فَلَـم أَرَ مـالاً يُتَّقَـى مِثْـلَ سَهْمِهـا وَلا مِثْلَهـا لـم تَخْـشَ كَيْـداً فَتَـرْجِعَـا

وقد رثاه البحتري ويزيد المهلبي[٣] بمرثيتين من أَجْوَد ما قيل في معناهما، وكانا حاضِرَيْن ليلة قَتْلِه. فاختفى أحدُهما في طيّ الباب، والآخر في قناة الشَّاذَرْوَان؛ فمن قصيدة البحتري[٤]:

للبحتري في رثاء المتوكل

تَغَيَّـرَ حُسْـنُ الجَعْفَـرِيِّ وأُنْسُـهُ وَقُـوِّضَ بَـادِي الجعفـريِّ وحَـاضِـرُهْ
تَحَمَّـلَ عَنْـهُ سَـاكِنُـوهُ فُجَـاءَةً فَـعَـادَتْ سَـواءً دُورُهُ وَمقَـابِـرُهْ[٥]
وَلَـم أَرَ مِثْـلَ القَصْـرِ إِذْ رِيـعَ سِـرْبُـهُ وَإِذْ ذُعِـرَتْ أَطْـلاؤُهُ وَجَـآذِرُهْ[٦]

(١) شاهق: عظيم الارتفاع، والجمع شواهق.
(٢) الأروع: الذكي الفؤاد، أو المُعْجِبُ بحسنه وجهارة منظره، أو بشجاعته.
(٣) هو أبو خالد، يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة، من بني المهلب بن أبي صفرة: شاعر، راجز، نديم، راوية، من أهل البصرة. قدم بغداد، ونادم المتوكل العباسي، ومدحه، ورثاه بعد موته. وكان فيه اعتزاز وترفع. توفي ببغداد سنة ٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٤٨؛ الزركلي، الأعلام: ٨/ ١٨٧).
(٤) البحتري، الديوان: ١/ ٥٤.
(٥) عادت: صارت.
(٦) الأطلاء: جمع طلا، وهو ولد الظبية. والجآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية، تُشبه به النساء لجمال عينيه.

وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ ... عَلى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الأَسَى ... وَقَدْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ يُبْهِجُ زَائِرُهْ
فَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ ... تَنُوبُ وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهْ[١]
تَخَفَّى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ ... وَأَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجَاهِرُهْ
صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ حُشَاشَةً ... يَجُودُ بِهَا والمَوتُ حُمْرٌ أَظَافِرُهْ
حَرَامٌ عَلَيَّ الراحُ بَعْدَكَ أَو أَرَى ... دَماً بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الأَرْضِ مَائِرُهْ
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمَ طَالِبٌ ... مَدَى الدَّهرِ وَالمَوتُورُ بِالدَّمِ وَاتِرُهْ[٢]
فَلا مُلِّيَ البَاقِي تُرَاثَ الَّذِي مَضَى ... وَلاَ حُمِّلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ

وهي طويلةٌ، وكان أبو العباس ثعلب يقول فيها: ما قيلت هاشمية أحسن منها، وقد صرّح فيها تصريحَ مَنْ أَذهلته المصائبُ عن تخوّف العواقب.

من شعر البحتري

وقد كان البحتري يرتاح في كثير من شعره إلى ذكره وذكر الفَتْح بن خَاقَان، فمن ذلك قولُه لبعض من يمدحه[٣]:

تَدَارَكَنِي الإِحسَانُ مِنْكَ، وَنَالَنِي ... عَلى فَاقَةٍ ذَاكَ النَّدى وَالتَطَوُّلُ
وَدَافَعْتَ عَنِي حِينَ لا الفَتْحُ يُرْتَجَى ... لِدَفْعِ الأَذَى عَنِّي وَلا المُتَوَكِّلُ

وقال[٤]:

مَضَى جَعْفَرٌ وَالفَتْحُ بَيْنَ مُوَسَّدٍ ... وَبَيْنَ قَتِيلٍ فِي الدِّمَاءِ مُضَرَّجِ
أَأَطْلُبُ أَنْصَاراً عَلى الدَّهرِ بَعْدَمَا ... ثَوَى مِنْهُمَا فِي التربِ أَوسِي وَخَزْرَجِي[٥]

وقال في غلام له[٦]:

---

(١) العميد: السيد المعتمد عليه في الأمور.
(٢) يريد: أَنَّ المَوْتُورَ في هذه الحادثة هو الواتر، لأن الذي قتل المتوكل هو ابنه المنتصر.
(٣) البحتري، الديوان: ٢/ ٢١٤.
(٤) نفسه: ٢/ ٢٧٥.
(٥) ملت أوسه وخزرجه: مثل في فقد النصير، لأن الأوس والخزرج يُضْرَبُ بهما المثل العالي في النُّصْرَة.
(٦) البحتري، الديوان: ٢/ ١٤٦.

عَسى آيسٌ من رَجْعَةِ الوصلِ يُوصَلُ ... وَدَهْـرٌ تَـوَلَّـى بـالأَحِبَّـةِ يُقْبِـلُ[١]
أَيَـا سَكنـاً فـات الفِـراقَ بنَفْسِـهِ ... وَحَـالَ التَّعـادي دُونَـهُ وَالتَّـزَيُّـلُ[٢]
أَتعجبُ لَمَّا لم يَغُلْ جِسْميَ الضّنا ... وَلم يَخْتَرِمْ نَفْسِي الحِمَامُ المُعجَّلُ[٣]
فَقَبْلَـكَ بَـانَ الفَتْـحُ منـي مُـودّعـاً ... وَفَـارَقَنِـي شَفْعـاً لـه المتـوكّـلُ[٤]
فَمـا بَلـغ الـدَّمْـعُ الـذي كُنْـتُ أَرْتَجِـي ... وَلاَ فَـعَـلَ الـوَجْـدُ الـذي خِلْـتُ يَفْعَـلُ

ليزيد بن محمد المهلبي يرثي المتوكل

وقال أبو خالد يزيد بن محمد المُهلَّبي في قصيدة أولها:

لا وَجْـدَ إلا أَراه دُونَ مـا أَجِـدُ ... وَلاَ كَمَـنْ فَقَـدَتْ عَيْنَـايَ مُفْتَقَـدُ

يقول فيها:

لا يَبْعُـدَنْ هـالـكٌ كـانـتْ مَنِيَّتُـهُ ... كَمَا هَوَى مِنْ عِضَاهِ الزُّبية الأَسَدُ[٥]
جـاءت مَنِيَّتُـهُ وَالعيـنُ هـادِيـةٌ ... هَـلاَّ أَتتـهُ المنـايـا وَالقنـا قُصُـدُ[٦]
فَخَـرَّ فـوق سـريـرِ الملـك مُنْجَـدِلاً ... لـم يَحْمِـهِ مُلْكُـهُ لَمَّـا انْقَضـى الأَمَـدُ[٧]
لا يـدفـعُ النـاسُ ضَيْمـاً بَعْـدَ لَيْلَتِهِـمْ ... إذ لا يُهَـزُّ إلـى الجـانـي عليـكَ يَـدُ
عَلَتْـكَ أَسيـافُ مَـنْ لا دُونَـهُ أَحـدٌ ... وَلَيْـسَ فَـوْقَـكَ إلا الـواحـدُ الصَّمَـدُ
إذا بَكَيْـتُ فَـإِنَّ الـدَّمْـعَ مُنْهَمِـلٌ ... وَإنْ رَثَيْـتُ فَـإِنَّ الشِّعْـرَ مُطَّـرِدُ
إِنَّـا فَقَـدْنَـاكَ حَتَّـى لا اصطبـارَ لنـا ... وَمـاتَ قَبْلَـكَ أَقـوامٌ فمـا فُقِـدُوا

---

(١) أَيِسَ منه أَيْساً وإِياساً: يئس وانقطع رجاؤه، فهو آيسٌ وأَيِسٌ.
(٢) التَّزَيُّلُ: التباين والتَّفرُّق، وتَزَيَّل القوم: تباينوا وتفرقوا، وفي التنزيل العزيز: ﴿لو تَزَيَّلُوا لَعذَّبْنَا الذينَ كفرُوا فِيهِمْ عَذَاباً أَليماً﴾ (سورة الفتح، آية ٢٥).
(٣) غَالَهُ غَوْلاً: أهلكه، أخذه من حيث لا يدري. واخترمه الموت: أخذه، وأصل الخَرْمِ: الشَّقُّ والقَطْعُ.
(٤) بان منه، وعنه بَيْناً وبيُوناً وبَيْنُونَةً: بَعُدَ وانفصل. وشَفَعَ الشيءَ: ضَمَّ مثله إليه، وقيل: جعله زوجاً، والشَّفْعُ: خلاف الوتر.
(٥) العِضاه: جمع عاضهة، وهي الحية الشديدة السمّ، تقتل لساعتها. والزُّبية: تلعة الأسد.
(٦) قُصُد: جمع قصد: متكسر.
(٧) مُنْجدلاً: مُنْصرعاً، وقد جدله: صَرَعُه، وانجدل: انصرع.

قَـدْ كُنْـتُ أُسْـرِفُ فـي مـالـي فَتُخْلِفُـهُ   فَعَلَّمَتْنِـي الليـالـي كَيْـفَ أَقْتَصِـدُ

وَقال فيها يذكر الأتراك، ويحضّ على اصطناع العرب:

لمـا اعْتَقَـدْتُـمْ أُنـاسـاً لا حِفَـاظَ لَهُـمْ   ضِعْتُـمْ وَضَيَّعتُـم مَـنْ كَـانَ يُعْتَقَـدُ

وَلـو جَعَلْتُـمْ علـى الأَحْـرارِ نِعْمَتكُـمْ   حَمَتْكُـمُ الـذَّادة المَنْسُـوبـةُ الحُشُـدُ[1]

قَـومٌ هُـمُ الأصـلُ والأَسمـاءُ تَجْمَعكُـمْ   وَالـديـنُ والمجـدُ والأَرْحَـامُ والبلـدُ

إِن العبيـدَ إذا أذللتهُـمْ صَلُحـوا   علـى الهـوَانِ وإن أكـرمتهُـمْ فَسَـدُوا

لأبي حية النميري

وقال أبو حَيَّة النُّمَيْري[2]:

رَمَتْـهُ فَتَـاةٌ مِـنْ رَبِيعَـة عَـامِـرٍ   نَـؤُومُ الضُّحَـى فـي مَـأْتَـمٍ أَيِّ مَـأْتَـمِ[3]

فَقُلْـنَ لهـا فـي السـرِّ: نَفْـدِيكِ لا يَـرُحْ   صَحِيحـاً وَإِلاَّ تَقْتُلِيـهِ فَـأَلْمِمِـي

فَـأَلْقَـتْ قِنـاعـاً دُونَـهُ الشمـسُ وَاتَّقَـتْ   بِـأَحْسَـنِ مَـوْصُـولَيْـنِ كَـفٌّ وَمِعْصَـمِ

وَقَـالَـتْ فَلَمَّـا أَفْـرَغَـتْ فـي فُـؤَادِهِ   وَعَيْنَيْـهِ منهـا السِّحْـرَ قَـالَـتْ لَـهُ نَـمِ

فَـأَصْبَـحَ لاَ يَـدْرِي أَفِـي طَلْعَـةِ الضُّحَـى   تَـرَوَّح أَم دَاجٍ مِـنَ الليـلِ مُظْلِـمِ[4]

أخذ قوله: «فألقت قناعاً دونه الشمس» من قول النابغة الذبياني[5]:

---

(١) الذادة: جمع ذائد، وهو المدافع. والحُشُدُ: جمع حشد، وهو الذي لا يدع عند نفسه شيئاً من الجهد والنصرة والمال إلاَّ جادَ به.

(٢) هو الهيثم بن الربيع بن زرارة، من بني نمير بن عامر، المتوفى نحو ١٨٣ هـ/ ٨٠٠ م، وقد وردت ترجمته في مكان سابق.

(٣) نَؤُومُ: كثيرة النوم، ونؤوم الضُّحى: كناية عن المرأة المترفة المخدومة؛ قال امرؤ القيس:

وَتُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا   نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

(ديوانه: ص ٤٥). (وفي رواية: «رمته أناة»، وأَناة: المرأة فيها فتور عند القيام.

(٤) وجاءت رواية الحماسة للبيتين الأخيرين على الشكل التالي:

وَقَـالَـتْ فَلَمَّـا أَفْـرَغَـتْ فـي فُـؤَادِهِ   وَعَيْنَيْـهِ مِنْهَـا السِّحْـرَ قُلْـنَ لَـهُ قُـمِ

فَـوَدَّ يَجْـدَعُ الأَنْـفَ لـو أَنَّ صَحْبَـهُ   تَنَـادَوا وَقَـالـوا فـي المنـاخِ لَـهُ نَـمِ

فَرَاحَ وما يَدْرِي أَفِي سَاعَةِ الضُّحَى   تَـرَوَّحَ أَم دَاجٍ مِـنَ اللَّيْـلِ مُظْلِـمِ

(٥) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٤٠، والبيتان من قصيدة يصف فيها «المتجردة» زوجة النعمان بن المنذر، وقد سقط نصيفها، فاسترت بيدها وذراعها.

قـامَـتْ تَـرَاءَى بَيْـنَ سَجْفَـيْ كِلَّـةٍ كَـالشَّمْـسِ يَوْمَ طُلُـوعِهَـا بِـالأَسْعُـدِ[(١)]

سَقَـطَ النَّصِيـفُ وَلَـمْ تُـرِدْ إِسقـاطَـهُ فَتَنَـاولَتْـهُ واتَّقَتْنَـا بِـالْيَـدِ[(٢)]

لأبي حَيّة النميري يرثي سلمة بن عياش

وقال أبو حَيَّة يرثي سَلَمة بن عَيَّاش:

كـأنَّ أبا حَفْصٍ فَتَى اليَأْسِ لـم يُجِبْ به الليـلَ والبِيضَ القِلاَصُ النجائبُ[(٣)]

إلى الغـايـة القُصْوَى، ولـم تهـدِ فتيـةً كِـرامـاً وَتَخْطُـوهُ الخطـوبُ النـوائـبُ

وَيُعْمِـلْ عِتَـاقَ العِيـسِ حَتَّـى كـأنَّهـا إذا وُضِعَتْ عنها العَلاَيَا المشاجِبُ[(٤)]

بَعيـدُ مَثَـاتـي الهـمِّ يُمْسِـي ومَـالَـهُ سِوى الله والعَضْبِ السُّرَيجي صَاحِبُ[(٥)]

يَـرُومُ جَسِيمَـاتِ العُـلا فَيَنَـالُهَـا فَتًى في جَسِيمَاتِ المكارمِ راغِبُ[(٦)]

فَـإن يُمْـسِ وَحْشـاً بـابُـهُ فَلَـرُبَّمَـا تَـوَاتَـرُ أَفْـواجـاً إليـه المـواكِـبُ[(٧)]

يُحَيّـونَ بَسَّـامـاً كَـأنَّ جَبِينَـهُ هِـلالٌ بَدَا وانجابَ عَنْهُ السحائبُ[(٨)]

وَمـا غَـائِـبٌ مَنْ غَـابَ يُرْجَى إِيـابُهُ وَلَكِنَّـهُ مَـنْ ضُمِّـنَ اللَّحْـدَ غـائِـبُ

---

(١) السجف: الستر الرقيق المشقوق الوسط. والكلة: الناموسية. تراءى: تظهر نفسها. الأسعد: برج الحمل.

(٢) النَّصيف: كلّ ما غطى الرأس من خمار وغيره.

(٣) القلاص والقلائص: جمع القلوص، وهي من الإبل: الفتية المجتمعة الخَلْق، وذلك من حين تُركَب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة، وكانوا يكنون عن الفتيات بالقلص والقلائص. ونجائب الإبل: خيارها، الواحدة: نجيبة.

(٤) العيس: جمع أعيس، وهو من الإبل: التي يخالط بياضه شقرة، وقيل: الكريم منها. والعتاق: جمع عتيق، وهو الكريم. والعلايا: الأمتعة، مفردها عِليان، والمشاجب: جمع مشجب، وهو عود من خشب تُعلَّق عليه الثياب. وفي رواية: «إذا وُضِعَت عنها الوَلايا»، والولايا: جمع ولية، وهي البرذعة.

(٥) العَضْبُ من السيوف: القاطع. والسريجي: نسبة إلى سُريج، وهو حدَّاد كان مضرب المثل في صنع السيوف.

(٦) الجسيم من الأمور: العظيم.

(٧) الوحش: المُوحش لا أنيس به.

(٨) انجاب: انكشف، ومنه: انجاب الظلام: انقشع وزال.

وزعم الصُّولي أن أبا حيَّة إنما قالها في محمد بن سُليمان بن علي بن عُبَيْد اللَّه بن العباس. وكان أبو حيَّة جَيد الطبع، مألوف الكلام، رقيق حواشي الشعر.

[مجنون بني عامر]

وسُئِلَ الأصمعي عن قَيْس بن المُلَوَّح المجنون[١]، فقال: لم يكن مجنوناً، وإنما كانت به لُوثة كلوثة أبي حَيَّة[٢]، وهو القائل:

رَمَتْني وَسِتْرُ اللهِ بَيْني وَبَيْنَهَا ... عَشِيَّةَ أَحجارِ الكِنَاسِ رَمِيمُ

رَمِيمُ التي قَالتْ لِجارات بَيْتِهَا: ... ضَمِنْتُ لَكم ألاّ يَزَالَ يَهِيمُ

أَلاَ رُبَّ يَوْمٍ لو رَمَتْني رَمَيْتُها ... وَلكنَّ عَهْدِي بِالنِّضالِ قَدِيمُ

فيا عَجَباً مِنْ قَاتِلٍ لي أَوَدُّهُ ... أَشَاطَ دَمِي شَخْصٌ عليَّ كَرِيمُ[٣]

يَرى النَّاسُ أَنِّي قد سَلَوْتُ، وَإِنَّني ... لَمُنْتَقَفُ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ سَقِيمُ[٤]

وأنشدني إسحاق بن إبراهيم المَوْصِلي[٥] في مثله، ولم يسم قائله:

هَلِ الأُدْمُ كالآرامِ وَالزُّهْرُ كالدُّمَى ... مُعَاوِدَتِي أَيامُهُنَّ الصَّوالِحُ[٦]

---

(١) قيس بن الملوح بن مزاحم العامري: شاعر متيم، لقب بالمجنون لهيامه في حب ليلى بنت سعد، التي نشأ معها إلى أن كبرت، فحجبها أبوها، فهام على وجهه ينشد الأشعار، ويأنس الوحوش حتى خولط في عقله، فكان يُرى في أمكنة متعددة بين الشام ونجد والحجاز، إلى أن وجد ميتاً في وادٍ كثير الحجارة سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٨ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ٥ ـ ٧٩؛ البغدادي، خزانة الأدب: ٤/ ٢٢٩).

(٢) اللوثة: مَسٌّ الجنون.

(٣) أشاط دمي: أحرقه.

(٤) المُنْتَقَفُ: الذي اشتد عليه المرض فأعياه وأهزله. والأحناء: جمع حِنْو، وهو ما فيه اعوجاج من عظام البدن.

(٥) هو أبو محمد، إسحاق بن إبراهيم الموصلي: أديب، شاعر، راوية، وإمام في صناعة الغناء. وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس، وشُهِر به عندهم من الغناء، لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق وأكثر ديناً وأمانةً من هؤلاء القضاة. وكان الموصلي نفسه يكره الغناء، ويكره أن يُسَمَّى به. توفي سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٥/ ٢٤٢).

(٦) الأدم: جمع أدماء، وهي السمراء. والزهر: جمع زهراء، وهي البيضاء.

زَمَانَ سِلاَحِي بَيْنَهُنَّ شَبِيبَتِي لها سَائِفٌ مِنْ حُسْنِهِنَّ وَرَامِحُ[١]
فَأَقْسَمْنَ لا يَسقينني قَطْرَ مُزْنَةٍ لِشَيْبِي وَلو سالَتْ بِهِنَّ الأَباطِحُ[٢]

لهارون بن علي بن يحيى المنجم في الشباب

وقال هَارون بن علي بن يَحْيَى المُنجِّم[٣]:

الغانياتُ عُهودُهـ ـنَّ إلى انصرام وانْقِضَابِ
مَنْ شَابَ شِبْنَ لَهُ المودَّ ةَ بالخديعةِ والكِذَابِ[٤]
فَانْعَمْ بِهِنَّ وَزَنْدُ سِنِّ كَ في الشبيبة غَيْرُ خابِي[٥]
ما دُمْتَ في رَوْقِ الصِّبَا وَغُصُونِهِ الخُضْرِ الرِّطَابِ[٦]
فَافْخَرْ بأيام الصِّبا وَاخْلَعْ عِذَارَكَ في التصابِي
وَاعْطِ الشبابَ نَصِيبَهُ ما دُمْتَ تُعْذَرُ بالشَّبَابِ

لأشجع السلمي في الشباب

وقال أَشْجَع بن عَمْرو السُّلَمي[٧]:

وَمالِيَ لا أُعْطِي الشبابَ نَصِيبَهُ وَغُصْنَاهُ يَهْتَزَّانِ في عُودِهِ الرَّطْبِ
رَأيتُ الليالي يَنْتَهِبْنَ شَبِيبَتي فَأَسْرَعْتُ باللذاتِ في ذلك النَّهْبِ
فَإِنَّ بَنَاتَ الدَّهرِ يَخْلِسْنَ لذتي فَقَدْ جُزْنَ سَلمي وَانْتَهَيْنَ إلى حَرْبِي

---

(١) سائف: اسم فاعل من ساف يسيف، إذا ضرب بالسيف. ورامح: اسم فاعل من رمح يرمح، إذا ضرب بالرمح.
(٢) المُزْنَةُ: واحدة المزن: السحابةُ المَطْرَةُ. والأباطح: جمع الأبطح: المكان المتسع يمرُّ به السيل، فيترك فيه الرملِ والحصى الصغار.
(٣) هو أبو عبد الله، هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور، المنجم البغدادي: أديب فاضل، راوية، حسن المنادمة، لطيف المجالسة. توفي سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م. من آثاره: «كتاب النساء»، و «البارع» في أخبار الشعراء المولدين. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٦/ ٧٨).
(٤) شِبْنَ: مَزَجْنَ.
(٥) غير خابٍ: غير منطفىء.
(٦) رَوْقُ الصِّبا: أَوَّله.
(٧) أشجع بن عمرو السُّلَمِيّ: شاعر فحل ظريف. اتصل بجعفر البرمكي، فوصله بالرشيد، فأصبح من مُدَّاحه وندمائه. توفي نحو ١٩٥ هـ/ ٨١١ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٤٤).

وَقَدْ حَوَّلَتْ حالي الليالي وأسْرَجتْ   على الرأسِ أمثال الفتيلِ من العَطْبِ
وَمَوْتُ الفتى خَيْرٌ له مِنْ حَياتِهِ   إذا كانَ ذا حَالين يَصْبُو ولا يُصْبِي

وقال آخر:

مـا الْعَيْشُ إلاَّ أَنْ تُحِـ   ـبَّ وَأَنْ يُحِبَّكَ مَنْ تُحِبُّهْ

فِقَر تتصل بهذه الأبيات، في وصف الشباب

أطاعَ الشبابَ وغِرَّتَهُ، وأجاب الصبا وشِرَّتَهُ[١]، جرَّ إزارَ الصبا، وأذَالَ[٢] ذيولَ الهوى، ورَكَضَ[٣] في ميدان التصابي، وجنى ثمرات الملاهي، هو في اقتبال شبَابه، وحداثة أترابه[٤]، وريْعَان عمره، وعُنفوان أمره، هو في إبَّان شبابه واعتداله وريعان إقباله واقْتباله. بعثَه على ذَلك أشَرُ الصبا[٥]، ولينُ الغُصْنِ، وشَرْخُ الشبيبة[٦] وسكر الحَدَاثة. فَتيّ السّن، رطيب الغُصْن، عمره في إقْبالِه، ونشاطه في استقباله، وشبابُهُ في اقتباله، وماؤُه بحاله. فلانٌ في حكم الأطفال، الذين لم يَعضّوا على نَوَاجذ الرجال. هو في عُنْفُوان شبيبةٍ تُخاف سَقطاتُها وهَفَوَاتُها، ولا يُؤْمن جَيْحَاتُها[٧] ونَزَواتُها. هو في سُكْرَى الشباب والشراب، وبين نزوات الشبان، ونَزَغَات الشيطان، شبابُه أَعْمَى عن الرشد. صمٌّ عن العَذْل، قد لبَّى داعِيَ هَواه، وانغمس في لُجَّةِ صِباه، قد هَجَم بِسُكْرِ الحدَاثَةِ على سكرات الحوادث، يَجْري إلى الصِّبا جَرْيَ الصَّبَا. فلان غُفْلٌ من سِمةِ التَّجْربة، جَامحٌ في عِذار الغَفْلَة، صَعْبُ الرأس[٨] على لجام العِظَة، هو مِنْ سلطان الصِّبَا في النَّوْبَة الأولى، قد خلع عِذَاره وَمِقْوَده، وأَلْقَى إلى البطالة باعَه ويَدَه. هو بين خُمَار الغَدَاة[٩] وَسُكْرِ العَشِيّ لا يعرف الصَّحو، ولا يفارق اللهو. فلان لا يفيق، ولا يذكر التوفيق، هو بين غَرَرِ الشباب، وغرَر الأحباب.

---

(١) غِرَّةُ الشباب: غفلته، وَشِرَّتُه: جِدَّتُه.
(٢) أَذَال: أَهان.
(٣) ركض: جرى.
(٤) الأتراب: جمع تِرْب، وهو المثيل في السنّ.
(٥) أَشَرُ الصبا: مرحه ونشاطه.
(٦) شَرْخُ الشبيبة: أولها ونضارتها.
(٧) جَيْحَاتُ الشبيبةَ: يقال: جاح فلان: عدل عن المحجَّة إلى غيرها، والجائحة: المصيبة تحلّ بالرجل في ماله فتجتاحه كله.
(٨) صعب الرأس: لعله صعب المراس.
(٩) الخُمَارُ: ما يصيب شارب الخمر من ألم وصداع، أو ما يصيب الإنسان من سكر الخمر.

ويتعلق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم في نجابة الشباب وترشحهم للمعالي

قد جمع نَضَارةَ الشباب إلى أُبّهة المشيب، وهو على حدوث ميلادِه وقُرْب إسناده شيخ قَدْرٍ وَهَيْبَة، وإن لم يكن شيخُ سِنٍ وشَيْبَة. هو بين شباب مُقْبل، وعقل مُكْتَمِل، قد لبس بُرْدَ شبابه على عَقْل كهل، وَرَأْي جزل، وَمَنْطق فصل، للدهر فيه مقاصد، وللأيام فيه مَواعد، أَرى له في فَصل ضمانِ الأيام وودائع الحظوظ والأقسام، تَبَاشِيرَ نجح، ومَخَايِلَ نَصْرٍ وفتح، قد استكمل قُوَّة الفَضْلِ، ولم يتكامَلْ له سِنُّ الكَهْلِ. ما زالت مَخَايِلُه وليداً وناشئاً، وشمائله صَغِيراً ويافعاً، نَوَاطِقَ بالحسن عنه وَضَوَامِنَ النُّجْح فيه! قد سما إلى مراتبِ أعْيَان الرجال، التي لا تُدْرَكُ إلا مع الكمال والاكتهال. حُمِدَتْ عزائمهُ، قبل أن حُلَّت تمائمه، وشُهِدَتْ مكرماته، قبل أن تدرج لِدَاتُه[١].

للبحتري

وقال البحتري[٢]:

لا تَنْظُرَنَّ إلى العباسِ من صِغَرٍ ... في السِّن وانظر إلى المَجْدِ الذي شَادَا[٣]

إِنَّ النجومَ نُجُومَ الأفقِ أَصْغَرُها ... في العين أَذْهَبُها في الجوِّ إِصْعَادَا

وقال آخر:

رَأَيْتُ العَقْلَ لم يَكُنِ انتهاباً ... وَلم يُقْسَم على قَدْرِ السِّنينَا

فَلَوْ أَنَّ السِّنينَ تَقَسَّمَتْهُ ... حَوَى الآباءُ أَنصبةَ البَنِينَا

للفضل بن جعفر الكاتب

وَقال الفَضْل بن جَعْفَرَ الكاتب:

فَإِنْ خَلّفته السنُّ فالعَقْلُ بالغٌ ... بِهِ رُتْبَةَ الكَهْلِ المُؤَهَّلِ للمَجْدِ

فَقد كانَ يَحْيَ أُوتِيَ الْحُكْمَ قَبْلَهُ ... صَبِيًّا وَعِيسى كَلَّم النَّاسَ في المَهْدِ

---

(١) اللِّدَاتُ: جمع لدة، وهو التِّرْب، أي المماثل في السن، وتدرج: تمشي. وفي رواية: «تدج» أي: تَدِبُّ.

(٢) البحتري، الديوان: ٢/ ٢٤٥.

(٣) في الديوان: «لاَ تَنْظُرَنَّ إلى الفَيَّاضِ».

[مما قيل في أثر الأيام والليالي]

وكان أبو حَيَّة كثير الرواية عن الفَرَزْدَق، وعُمِّر حتى التقى بابن مُنَاذِر[١] فاستنشده شعره، فأنشده أبو حيَّة:

بين أبي حية وابن مناذر

ألاَ حَيِّ مـن أَجـلِ الحَبيـبِ المَغَانيـا ... لَبِسْـنَ البِلـى ممـا لَبِسْـنَ اللَّيـاليـا

إذا مـا تَقَـاضَـى المَـرْءَ يَـوْمٌ وَلَيْلَـةٌ ... تَقَـاضَـاهُ شَـيءٌ لا يمـلُّ التَّقَـاضِيـا

حَنَتْـكَ الليـالـي بَعْـدَمـا كُنْـتَ مَـرَّةً ... سَـوِيَّ العَصَـا لـو كُـنَّ يُبْقِيـنَ بـاقيـا

فقال ابن مناذر: أَوَ شعرٌ هذا؟ فقال أبو حيّة: ما في شعري عيب، غير أنك تسمعه.

وفي هذه القصيدة يقول أبو حية:

وَلمَّـا أَبَـتْ إلا التـواءً بِـوُدِّهـا ... وَتَكْـدِيـرَهـا الشُّـرْبَ الـذي كـانَ صَـافيـا

شَـرِبْـتُ بِـرَنْـقٍ مِـنْ هَـوَاهـا مُكَـدَّرٍ ... وَكَيْفَ يَعَافُ الرَّنْقَ مَنْ كَانَ صَادِيا[٢]

لعمرو بن قميئة

وقد قال عَمْرُو بن قَمِيئة[٣] في معنى قول أبي حية:

كـانَـتْ قَنَـاتِـي لا تَلِيـنُ لِغَـامِـزٍ ... فَـأَلَانَهـا الإصبـاحُ والإِمْسـاءُ

وَدَعَـوْتُ رَبِّـي فـي السـلامـةِ جَـاهـداً ... لِيُصِحَّنِـي فـإذا السَّـلامـةُ دَاءُ

---

(١) هو أبو جعفر، وقيل: أبو ذريح، محمد بن مناذر، مولى بني صبير بن يربوع: شاعر مقدم فصيح، عالم باللغة والأدب. نشأ واشتهر بالبصرة، وكان في أول أمره متعبداً، ثم تهتَّك وهجا الناس. وله في شعره شدّة الجاهليين، وحلاوة المحدثين. توفي سنة ١٩٨ هـ/٨١٣ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١١٩؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٨/١٠٣).

(٢) ماء رنق: مُكَدَّر، غير صافٍ، وَرَنَّقَ الماء: كَدَّرهُ. يعاف: يكره.

(٣) هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك أحد بني ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من بني بكر بن وائل: شاعر مقدم فحل، مقل في شعره. خرج مع امرىء القيس في رحلته إلى قيصر الروم، ومات في الطريق، فسمته العرب «الضائع»، لموته في غربة. توفي نحو ٥٤٠ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١١/٢٩٢؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٥٤).

للنمر بن تولب

وقال النَّمِر بن تَوْلَب[١]:

يَـوَدّ الفتـى طُـولَ السـلامـةِ والبَقـا فَكَيْـفَ يَـرَى طُـولَ السـلامـةَ يَفْعَـلُ
يَعُـودُ الفتـى مِـن بَعْـدِ حُسـنٍ وَصِحَّـةٍ يَنُـوءُ إذا رَامَ القيـامَ وَيُحْمَـلُ

وقد روي في الحديث الشريف: «كفى بالسلامة داء».

لحميد بن ثَوْر

وقد أحسن حُمَيد بن ثَوْر[٢] في قوله:

أَرَى بَصَـرِي قَـدْ رَابَنِـي بَعْـد صِحَّـةٍ وَحَسْبُـك دَاءً أَنْ تَصِـحَّ وَتَسْلَمـا
وَلَـنْ يَلْبَـثَ العَصْـرَانِ يَـوْمٌ وليلـةٌ إذا طَلبـا أَنْ يُـدْرِكـا مـا تَيَمَّمـا

وهذان البيتان من قصيدة طويلة، وهي أجود شعر حُمَيْد، ومن أَجْوَد ما فيها:

وَمَـا هـاجَ هـذا الشـوقَ إلّا حمـامَـةٌ دَعَـتْ سَـاقَ حُـرٍّ فَـرْحَـةً وتَـرنُّمَـا[٣]
تَـرُوحُ عليـه وَالِهـاً ثـم تَغْتَـدِي مُـولّهـةً تَبْغِـي لـه الـدَّهـرَ مَطْعَمَـا
تُـؤمِّـلُ مِنْـهُ مُـؤْنِسـاً لِانْفِـرَادِهـا وَتَبكِـي عليـه إنْ زَقَـا وَتَـرنَّمَـا[٤]
كـأنَّ علـى إشـراقِـهِ نُـورَ خَمْـرَةٍ إذا هُـوَ مَـدَّ الجيـدَ منـهُ لِيَطْعَمـا

---

(١) هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي: شاعر مقل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم وحسن إسلامه. وهو أحد أجواد العرب المذكورين، وفرسانهم المشهورين. سمّاه أبو عمرو بن العلاء «الكيس» لجودة شعره وحسنه. توفي نحو ١٤ هـ/ ٦٣٥ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ١٦٠؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: ١/ ٧٨).

(٢) هو أبو المثنى، حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري: شاعر مخضرم، عاش زمناً في الجاهلية، وأدرك حيناً مع المشركين، ثم أسلم ووفد على النبي ﷺ، ومات في خلافة عثمان. وهو شاعر مجيد، له كثير من الأوصاف والتشابيه، وعدّه ابن سلام في الطبقة الرابعة من الشعراء الإسلاميين. توفي نحو ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ٥٨٤؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ٨).

(٣) سَاقُ حُرٍّ: ذكر القَماريّ (نوع من الحمام).

(٤) زقا الطائر: صاح.

فَلَمَّا اكْتَسَى الرِّيشَ السُّحامَ ولم تَجِدْ ... لها مَعَهُ في ساحةِ الحيّ مَجْثَمَا(١)
تَنَحَّتْ قريباً فَوْقَ غُصنٍ تَذأَّبَتْ ... بهِ الريحُ صِرْفاً أَيّ وَجْهِ تيَمَّما(٢)
فأَهْوَى لها صَقْرٌ مُسِفٌّ فلم يَدَعْ ... لها وَلَداً إلا رِماماً وأعْظُما(٣)
فَأَوْفَتْ على غُصْنٍ ضُحَيًّا ولم تَدعْ ... لِنائحةٍ في نَوْحِها مُتَلَوَّما
عَجِبْتُ لها أَنّى يكونُ غِناؤُها ... فَصيحاً وَلَم تَفْغَرْ بِمَنْطِقِها فَما(٤)
فَلَمْ أَرَ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا ... وَلاَ عَربيًّا شاقَه صَوْتُ أَعْجَما

ومن خَبيثِ الهجاء قَوْلُه في هذه القصيدة يخاطب رجلين بعثهما:

وَقُولا إذا جَاوَزْتُما أَرْضَ عَامِرٍ ... وَجَاوَزْتُما الحيَّيْنِ نَهْداً وَخَثْعَما
تُريعانِ مِنْ جَرْمِ بنِ زَيَّان أَنَّهُمْ ... أَبَوْا أَنْ يُريقوا في الهَزاهِزِ مِحْجَمَا(٥)

وما هُجِيَتْ جَرْم بأشدَّ من هذا، يريد أنهم لذلتهم لم يَتِروا أحداً فيطالبهم بِذَحْل.

وقال الأصمعي: قيل لبعض الصالحين: كيف حالُك؟ قال: كيف حالُ من يَفْنَى ببقائه، وَيَسْقَم بسلامته، وَيُؤْتَى من مَأمنه.

لمحمود الوراق

وقال محمود الوراق:

يُحِبُّ الفتى طُولَ البقاءِ كأنَّهُ ... على ثِقَةٍ أَنَّ البقاءَ بَقَاءُ
إذا ما طَوَى يوماً طوى اليومُ بَعْضَهُ ... وَيَطْويهِ ـ إنْ جَنَّ المساءُ ـ مَساءُ(٦)
زِيادَتُهُ في الجِسْمِ نَقْصُ حَيَاتِهِ ... وَأَنَّى على نَقْصِ الحياةِ نَماءُ(٧)
جَديدان لا يَبْقَى الجَميعُ عَلَيْهِما ... وَلا لَهُمَا بَعْدَ الجميعِ بَقاءُ

---

(١) السحام: الأسود. والمجثم: مكان الرقاد.
(٢) تذأبت: أتت من كل جانب كما يفعل الذئب.
(٣) سَفَّ الطائر سفيفاً: مَرَّ على وجه الأرض في طيرانه.
(٤) تفغر: تفتح.
(٥) الهزاهز: الحروب. والمحجم: وعاء الحجامة والفصد.
(٦) جَنَّ الليل جَناً وَجُنُوناً وَجِناناً: أظلم، وجنَّ الظلام: اشتد، وجنَّ الشيء وعليه: ستره.
(٧) النماء: الزيادة.

للمتنبي

وقال المتنبي[١]:

زِيَادَةُ شَيْبٍ وَهْيَ نَقْصُ زِيَادَتِي ... وَقُوَّةُ عِشْقٍ وَهْيَ مِنْ قُوَّتِي ضَعْفُ[٢]

للبحتري

وبيت محمود الأخير كقول البحتري[٣]:

أَنَاةً أَيُّها الفَلَكُ المدارُ ... أَنَهْبٌ ما تُصَرِّفُ أَم جُبارُ[٤]
سَتَفْنَى مِثْلَ ما تُفْنِي وَتَبْلَى ... كما تُبْلِي فَيُدْرَكُ مِنْكَ ثارُ
تُنابُ النائباتُ إذا تَناهَتْ ... وَيَدْمُرُ في تَصَرُّفِهِ الدَّمارُ
وَمَا أَهْلُ المنازِلِ غَيْرُ رَكْبٍ ... مَطَايَاهُمْ رَواحٌ وَابْتِكَارُ

ويقول فيها:

لنا في الدَّهر آمالٌ طوالٌ ... نُرَجِّيها وأعمارٌ قِصارُ
أَمَا وأَبي بني حَارِ بْنِ كَعْبٍ ... لَقَدْ طَرَدَ الزمانُ بِهِمْ فَسَاروا
أَصابَ الدَّهْرُ دَوْلَةَ آلِ وَهْبٍ ... وَنَالَ الليلُ مِنْهُم والنهارُ
أَعَارَهُمُ رِداءَ العِزِّ حتى ... تَقَاضاهم فَرَدُّوا ما استعاروا
وَقَدْ كانوا وَأَوْجُهُهُم بُدُورٌ ... لِمُبْصِرِها وَأَيديهم بِحَارُ

لابن هانىء

أخذ قوله: «سَتَفْنَى مثل ما تُفْنِي» أبو القاسم بن هَانىء فقال:

---

(١) أبو الطيب المتنبي، الديوان: ١/٢٣٣. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي.
(٢) يقول: إن ما ازددته من الشيب مُفْضٍ إلى نقص ما ازددته من الشباب، وقوة ما بي من العشق مؤدية إلى ضعف البدن ونقص القوة.
(٣) البحتري، الديوان: ٢/٣٣٠.
(٤) الجُبَارُ: الهَدَرُ، وهو ما لا قِصاص فيه ولا غُرْمَ، يقال: ذهب دَمُهُ جُباراً، ويقال: حرب جبار: لا دِيةَ فيها ولا قصاص. وفي الديوان: «أَنَهْبٌ أَمْ تُطَرِّقُ أَمْ جُبَارُ». وتطرق: من طرق له: جعل له طريقاً.

تَفْنى النجومُ الزُّهْرُ طَالِعَةً والنَّيْرَانِ الشَّمْسُ والقمرُ
وَلَئِنْ تَبَدَّتْ في مَطَالِعِها مَنْظُومَةً فَلَسَوْف تَنْتَثِرُ
وَلَئِنْ سَعَى الفَلَكُ المُدَارُ بِها فَلَسَوْفَ يُسْلِمُها وَيَنْفَطِرُ

لابن الرومي

وقد استقصى علي بن العباس الرومي المعنى الأول فقال[١]:

والدَّهرُ يُبْلِي الفَتى من حَيْثُ يُنْشِئُهُ حَتَّى تَكُرَّ عَلَيْهِ لَيْلَةُ القَرَبِ[٢]
يَغْذُوهُ في كُلِّ آنٍ وَهْوَ يَأْكُلُهُ وَيَحْتَسِي نَغَباً مِنْهُ على نُغَبِ[٣]
يُودِي بِحَالٍ فَحَالٍ مِن شَبِيبَتِهِ تَسَرُّبَ الماءِ في مُسْتَانَفِ الكُتَبِ[٤]
حَسْبُ امرِئٍ مِنْ خَنَى دَهْرٍ تَطَاوُلُهُ وإنْ أَجَمَّ فَلَمْ يُنْكَبْ وَلم يُنَبِ[٥]
في هُدْنَةِ الدَّهْرِ كافٍ من وَقَائِعِهِ وَالعُمْرُ أَقْدَحُ مِبرَاةً من الوَصَبِ[٦]

وقال أيضاً[٧]:

يَا بَانِيَ الحِصْنِ أَرْسَاهُ وَشَيَّدَهُ حِرْزاً لِشِلْوٍ من الأَعْدَاءِ مَشْجُونِ[٨]
انْظُرْ إلى الدهرِ هل فَاتَتْهُ بُغْيَتُهُ في مَطْمَحِ النسرِ أو في مَسْبَحِ النُّونِ[٩]
وَمَنْ تَحَصَّنَ مَنْخُوباً على وَجَلٍ فَإِنَّما حِصْنُهُ سِجْنٌ لِمَسْجُونِ
أَشْكُو إلى الله جَهْلاً قد أَضَرَّ بِنا بَل لَيْسَ جَهْلاً ولَكِنْ عِلْمُ مفتونِ

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ١/ ١٨٩. والأبيات من قصيدة قالها في الحسن بن عبيد الله بن سليمان.
(٢) ليلة القَرَب: أن تسير الليل كله لترد الماء في الغد.
(٣) النغب: جمع نغبة، وهي الجرعة.
(٤) الكتب: جمع كتبة، وهو السير الذي تخرز به قربة الماء.
(٥) خنا الدهر: آفاته ونوائبه. وفي الديوان: «من جنى دهر».
(٦) الوَصَبُ: الوجع والمرض، والتعب، والفتور في البدن. وفي الديوان: «أقدح ميراة».
(٧) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٢١٣.
(٨) الشِّلْوُ: العضو، والقطعة من اللحم، والبقية من كل شيء، والجمع: أشلاء. وأشلاء الإنسان وغيره: أعضاؤه بعد التفرق والبِلَى.
(٩) النون: الحوت.

لأبي تمام

وقال الطائي[١]:

وَإِنْ تُبْنَ حِيطانٌ عليه فإنَّما ... أُولئكَ عُقَّالاَتُهُ لا مَعاقِلُهْ

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله في التغيّر، فأُخبر أنه مشغول، فرجع، فبعث إليه الرشيد: خُنْتَني فاتهمتني، فقال: إذا انقضَت المُدَّة كان الْحَتفُ في الحيلة، والله ما انصرفتُ إلا تخفيفاً.

أَخذَه ابن الرومي فقال وقد فصده بَعْضُ الأطباء، فزعم أن الفَصْدَ زاد في علته[٢]:

غَلطَ الطبيبُ عليَّ غَلْطَةَ مُوردٍ ... عَجِزتْ مَحالَتُهُ عنِ الإِصدارِ[٣]

وَالناسُ يَلْحَوْنَ الطَّبيبَ، وَإِنَّما ... غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المِقْدَارِ[٤]

[وصف الثغور]

لأبي حية النميري

وقال أبو حَيَّةَ النميري:

سَقَتْني بكأْسِ الحبِّ صِرْفاً مُروَّقاً ... رِقاق الثَّنايا عَذْبَةَ المُتَرَنَّقِ[٥]

وَخُمصانةٍ تَفْتَرُّ عَنْ مُتَنَشَّقٍ ... كَنَوْرِ الأقاحي طَيِّبِ المُتَذَوَّقِ[٦]

إذا امْتَضَغَتْ بَعْدَ امْتِناعٍ مِنَ الضُّحى ... أَنابيبَ مِنْ عُودِ الأَراكِ المُخلَّقِ[٧]

سَقَتْ شُعَبَ المِسْوَاكِ ماءَ غَمامةٍ ... فَضِيضاً بِخُرْطُومِ الرَّحِيقِ المُرَوَّقِ[٨]

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٤. وفيه: «وإنْ يَبْنِ». وَعُقَّالاتُهُ: قيوده وحبوسه. ومعاقله: ملاجئه.

(٢) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ١٩٨. وقد فَصَدَ المريض: أخرج مقداراً من دم وريده بقصد العلاج.

(٣) المحالة: الحيلة، ومنه يقال: المرء يعجز لا المحالة.

(٤) لحا فلاناً: لاَمَهُ وَعَذَلَهُ، ولَحَاهُ اللَّهُ: قَبَّحه ولَعَنهُ. وفي الديوان: «خطأ الطبيب».

(٥) المُتَرَنَّقُ: العين، تقول: رنق النوم في عينيه: خالطهما.

(٦) الخمصانة: الضامرة. والمُتنشَّقُ: الثغر؛ لأنك تَتنشَّقُ منه نكهته العطرة. والمُتَذَوَّقُ: الريق، لأنك تتذوقه.

(٧) المُخَلَّقُ: المُضَمَّخُ بالخلوق، وهو ضرب من الطيب.

(٨) الفضيض: ما تناثر من الماء والبرد ونحوهما، والماء يخرج من العين، أو ينزل من السماء، قال جميل بن معمر العذري: =

وأنشد الثَّوري:

تَــرى الــدُّرَّ مَنْثُــوراً إذا مــا تَكلَّمــتْ ... وَكــالــدُّرِّ مَنْظُــومــاً إذا لــم تَكلَّــمِ

تُعبِّــدُ أَحــرارَ القُلــوبِ بِــدَلِّهــا ... وَتَمــلأُ عَيْــنَ النــاظــرِ المُتــوسِّــمِ[١]

والبيت الأول من هذين كقول البحتري[٢]:

فَمِــنْ لُــؤْلُــؤٍ تَجْلُــوه عِنْــدَ ابْتِســامِهــا ... وَمِــنْ لُــؤْلُــؤٍ عِنْــدَ الحــديــثِ تُســاقِطُــهْ

وقد تقدّم.

لذي الرمة

قال أبو الفَرَج الرِّياشي[٣]: سمعت الأَصْمَعي يقول: أحسن ما قيل في وصف الثغر قول ذي الرِّمة:

وَتَجْلُــو بِفَــرْعٍ مِــنْ أَرَاكٍ كَــأَنَّــهُ ... مِنَ العَنْبَرِ الهِنْدِيِّ والمِسكِ يُصْبَحُ[٤]

ذُرَى أُقْحُــوانٍ وَاجَــه الليــل وَارْتَقَــى ... إليــهِ النَّــدَى مِــنْ رامَــةَ المُتَــروِّحُ

هِجــانُ الثَّنَــايــا مُغْــرِبٌ لــو تَبَسَّمَــتْ ... لأَخْرَسَ عَنْــهُ كَــادَ بِــالقــولِ يُفْصِحُ[٥]

للنابغة الذبياني

ومن قديم هذا المعنى وجيّده قولُ النابغة الذبياني في صفة المُتَجَرِّدَةِ امرأةِ النّعمان بن المُنْذِر[٦]:

= يَكَــادُ فَضِيضُ الماءِ يَخْدِشُ جِلْدَهَــا ... إذا اغْتَسَلَــتْ بِــالمَــاءِ مِــنْ رِقَّــةِ الجِلْــدِ
(ديوانه: ص ٤٢).

(١) الدَّلُّ: الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك، ويقال: امرأة ذات دَلّ: ذات شَكْلٍ تُدِلّ به، وأَدلّت عليه: وَثِقَتْ بمحبته فأفرطت عليه.

(٢) البحتري، الديوان: ١/ ٢٠٥.

(٣) هو أبو الفضل، العباس بن الفرج الرياشي النحوي اللغوي البصري: عالم، راوية، عارف بأيام العرب. روى عن الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما. قتل بالبصرة أيام العلوي البصري صاحب الزنج سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧١ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ٢٧).

(٤) أراد بفرع من أراك السواك، تجلو به أسنانها، وَكنَّى بما وصف به السواك عن طيب رائحة فمها.

(٥) هجان الثَّنايا: أي ثناياها ناصعة البياض، من قولهم: إبل هجان، أي بيض كرام.

(٦) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٤٠ ـ ٤١.

تَجْلُو بِقَادِمَتَيْ حَمَامَةِ أيكةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُهُ بالإثْمِدِ[١]
كالأُقْحُوَانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ نَدِي[٢]
زَعَمَ الهُمَامُ بأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شَهِيُّ المَوْرِدِ
زَعَمَ الهُمَامُ ولم أَذُقْهُ أَنَّهُ يُشْفَى بِرَيَّا رِيقِهَا العَطِشُ الصَّدِي[٣]

للمتوكل الليثي

ومن قوله: «ولم أذقه» أخذ كلّ من أتى بهذا المعنى، ففقه الناس بَعْدَهُ، قال المُتوكّل اللَّيْثِي[٤]:

كَأَنَّ مُدَامَةً صَهْبَاءَ صِرْفاً تَرَقْرَقُ بَيْنَ رَاوُوقٍ ودَنٍّ[٥]
تُعَلُّ بِهَا الثَّنَايَا مِنْ سُلَيْمَى فِرَاسَةُ مُقْلَتِي وَصَحِيحُ ظَنِّي

لبشار بن برد

وقال بشّار[٦]:

يا أَطْيَبَ النَّاسِ رِيقاً غيرَ مُخْتَبَرٍ إلاَّ شَهَادَةَ أَطْرافِ المَسَاوِيكِ[٧]

---

(١) تجلو: تكشف. القوادم: الريش المقدم في جناح الطائر، ويكون شديد السواد. يشبه سواد شفتيها بالقوادم، وبياض ثغرها ببياض البرد. واللثات: مغرز الأسنان، ومن عادتهم أن يذروا عليه بالإثمد (الكحل) ليبين بياض الأسنان.

(٢) الأقحوان: نور أبيض، وأشد ما يكون صفاؤه غب المطر، إذ يزول ما عليه من الغبار بالماء.

(٣) الريّا: الرائحة. والصدي: العطشان.

(٤) هو أبو جهمة، المتوكل بن عبد الله بن نَهْشَل الليثي: من شعراء الحماسة، من أهل الكوفة. عاصر معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ومدحهما، واجتمع بالأخطل وتناشدا الشعر، فاستحسن الأخطل شعره وقدّمه. وكان المتوكل على رأس الطبقة السابعة من الإسلاميين. وتميز شعره بالمتانة والسهولة والرقة. توفي بعد ٦٤ هـ/ بعد ٦٨٣ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٢/ ١٥٥؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٧٢؛ المرزباني، معجم الشعراء: ٣٣٩).

(٥) الصِّرْفُ: الخالص لم يُشَب بغيره، يقال: شراب صرف: غير ممزوج. والراووق: الباطية، الكأس، والجمع: رواويق. والدنّ: وعاء ضخم للخمر ونحوها.

(٦) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٢٩. والأبيات في الأغاني: ١٨/ ١٩٢.

(٧) المساويك: جمع سواك: العود الذي يُسْتَاكُ به من أراك أو بشام. والمعنى: أنها ناولته سواكها الذي استاكت به، فوجد به نكهة فمها.

قَدْ زُرْتِنا مرةً في الدهرِ واحدةً ... ثَنِّي ولا تَجْعليها بَيْضَةَ الدِّيكِ[1]
يا رَحْمَةَ الله حُلِّي في مَنازِلنا ... حَسبي برائحةِ الفِرْدَوسِ مِنْ فِيكِ[2]

وقيل لبشار: يا أبا معاذ، كم بين قولك، وأنشد هذه الأبيات، وبين أن تقول[3]:

إنما عَظْمُ سُلَيْمَى خُلَّتي ... قَصَبُ السُّكَّرِ لا عَظْمَ الْجَمَلْ[4]
وَإذا قُرِّبَ مِنْهَا بَصَلٌ ... غَلَبَ الْمِسْكُ على ريحِ البَصَلْ[5]

فقال: إنما الشاعر المطبوع كالبحر: مرةً يقذِفُ صَدَفَهُ، ومرةً يقذف جِيَفَه.

[تفضيل السواد]

لابن الرومي في وصف جارية

وقد تناول هذا المعنى أبو الحسن عليّ بن العباس الرومي من أَقْرَب متناول فقال ـ وكَشَفَه بأَوْضح عبارة ـ في صفته لجارية أبي الفضل عبد الملك بن صالح السوداء بعد أن استوفى جميعَ صفاتها وكان قد اقتُرِح عليه وَصْفُها[6]:

وَصَفْتُ فيها الَّذي هَويتُ على الـ ... ـوَهْمِ وَلم نَخْتَبِرْ وَلَمْ نَذُقِ
إلاّ بأَخبارِكَ التي رُفِعَتْ ... مِنْكَ إلينا عن طَيةِ البُرُقِ[7]
حَاشا لِسَوْداءِ مَنْظَرٍ سَكَنَتْ ... ذُرَاكَ إلاَّ عَنْ مَخْبَرٍ يَقَقِ[8]

(١) بيضة الديك: يزعم العامة أن الديك يبيض في عمره بيضة صغيرة لا قِشْرَ لها، فإذا باضها، لم يبض مرة أخرى، ويقال: إن «بيضة الديك» تُضْرَبُ مثلاً في الشيء الذي يحدث مرة واحدة لا ثانية لها.

(٢) حسبي: يكفيني. الفردوس: الجنة.

(٣) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٣٣.

(٤) في الديوان: «إنَّ سَلْمَى خُلِقَتْ مِنْ قَصَبٍ».

(٥) ذكر الشاعر القصب والعظم، وَلَيْسَا من لغة الغزل، ولا مما يليق بالأحبة، وقد اعترف بشار بوهن هذين البيتين حين قال: إنما الشاعر المطبوع كالبحر، يقذف صَدَفَهُ مرةً، ومرةً يقذف جِيَفَهُ، كما سيأتي.

(٦) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤. والأبيات من قصيدة قالها في عبد الملك بن صالح الهاشمي.

(٧) البُرَقُ: جمع بُرْقَة، وهي مكان تكثر فيه الظباء. وفي الديوان: «التي رُفِعَتْ».

(٨) يَقَقٌ: ناصع البياض. وفي الديوان «سَكَنَتْ دارَكَ».

وهذه الأبيات من قصيدةٍ له وصف فيها السواد، واحتجّ بتفضيله على البياض، حتى أَغْلق فيه الباب بعده، ومنع أن يَقْصِدَ فيه أحدٌ قصده، إلاّ كان مقصّر السهم عن غرض الإحسان. وقد نبّه علي بن عبد الله بن العباس [المسيب على] فضائلها، وأجاد التشبيه، وكشف عن وجوه الإبداع، وضروب الاختراع.

لأبي حفص الشطرنجي

وقد مدح الناسُ السوادَ والسُّود فأكثروا؛ فمن جيد ما قالوا فيه قول أبي حَفْص الشِّطْرَنْجي:

أَشْبهَكِ المِسْكُ وَأَشْبَهْتِهِ قَائمةٌ في لَوْنِهِ قَاعِدَهْ
لا شكَّ إذ لَوْنُكُما وَاحدٌ أَنَّكُمَا من طِينَةٍ وَاحِدَهْ

لابن الرومي

فأخذ ابنُ الرومي هذا المعنى، وأضاف إليه أشياء أخر توسعاً واقتداراً، فقال[١]:

يَذْكُرِكِ المِسْكُ وَالغَوالي وَالسّكُّ ذَواتُ النسيم والعَبَقِ[٢]

وهذه الأشياءُ وإن كانت ناقِصةً عن المسك، فهي ممدوحةٌ بالطيب، غير مستغنى عن ذكرها في التشبيه؛ فأما زيادَتُه على جميع مَنْ تعاطى مدح السواد فقوله:

سَوْدَاء لم تَنْتَسِبْ إلى بَرَصِ الـ ـشُّقْرِ ولا كُلْفَةٍ ولا بَهَقِ[٣]

والأبيض الشديد البياض مَعِيبٌ، وقد دلّ عليه قوله:

وَبَعْضُ ما فُضّلَ السوادُ بِهِ وَالحقُّ ذو سُلَّمٍ وَذُو نَفَقِ
أَلَّا يَعيبَ السَّوادَ حُلْكَتُهُ وَقَدْ يُعابُ البياضُ بالبَهَقِ[٤]

قوله: «الحق ذو سُلّم وذو نَفَق» أَراد أَنَّ الحقّ يتصرَّفُ في جهات، وضَربَ الصعودَ

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٩٢.

(٢) المسك: نوع من الطيب. والعبق: طيب الرائحة. والسُّكُّ: ضَرْبٌ من الطيب يُرَكَّبُ من مسك ورامك.

(٣) الكلفة: النمش يكون في الوجه. والبَهَقُ والبُهَاقُ: داء يذهب بلون الجلد، فتظهر فيه بُقَعٌ بيضٌ.

(٤) الحلكة: شدّة السواد.

والنزولَ لذلك مثلاً؛ ثم قصد لِوَصْفِ هذه السوداء بالكمال في الصفة؛ ومن عيب السُّودان أن أكفّهم عابسة[١] متشقّقة، وأطرافهم ليست بناعمة لينة، وكذلك لا يزال الفَلْحُ في شفاههم، وهي الشقوق المذمومة الموجودة في أكثر السودان في أوساط الشفاه، وأيضاً فإن الأسود مهجو بخبث العَرَق، فنفى هذه الصفات المذمومة الموجودة في أكثر السودان عنها، فقال:

لَيْسَتْ من العُبْسِ الأَكُفِّ ولا الـ ـفُلْحِ الشِّفاهِ الخبائثِ الْعَرَقِ[٢]

ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة، فقال:

فِي لِينِ سَمُّورَةٍ تَخَيَّرهـا الْـ ـفَرَّاءُ أَو لِينِ جَيِّدِ الدَّلَقِ[٣]

ومن بديع مدح السوداء قوله:

أَكْسَبها الحُبُّ أَنَّها صُبِغَتْ صِبْغَةَ حَبِّ القُلُوبِ والْحَدَقِ
فَانْصَرَفَتْ نَحْوَها الضمائرُ وَالأَ بْصَارُ يَعْشَقْنَ أَيّما عَشَقِ

فأخبر أنّ القلوب إنما أحبتها بالمجانسة التي بينها وبين حَبِّ القلوب من السواد، وكذلك الْحدَق.

لأبي نواس

ومن جيِّد تشبيهات أبي نواس وقد نبَّه نديماً للصبوح فأخبر عن حاله وقال[٤]:

فَقَامَ والليلُ يَجْلُوهُ الصَّباحُ كَما جَلاَ التبسمُ عَنْ غُرِّ الثَّنِيَّاتِ

---

(١) عابسة: يابسة.

(٢) فُلْحُ الشفاه: في شفاههم فَلْحَةٌ، وهي شِقٌّ في الشفة السُّفْلَى. وقد انفلحت الشفة أو اليد: تشقّقت.

(٣) الدَّلَقُ: دويبة كالسمورة. والسَّمُّورةُ: مؤنث السَّمُّور، وهو حيوان ثدييٌّ ليليٌّ من الفصيلة السمورية، من آكلات اللحوم، يُتَّخذ من جلده فَرْوٌ ثمين.

(٤) أبو نواس، الديوان: ص ١٧٤. وفيه: «فقلت والليل يجلوه الصباح». يجلو: يكشف. والثنيات: جمع الثنية: الأضراس الأربع في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل. والغُرُّ: البيض.

لابن الرومي أيضاً

ولعلي بن العباس عليه التقدم بقوله:

يَفتَرُّ ذاك السوادُ عن يَقَقٍ ... مِنْ ثَغْرِها كَاللآلىءِ النُّسُقِ[١]

كأنَّها والمزاحُ يُضْحِكُها ... لَيلٌ تَعَرَّى دُجاهُ عَنْ فَلَقِ[٢]

وفضلُ هذا الكلام على ذاك أن هذا قدَّمَ لمعناه في التشبيه مقدمة أَيَّدَتْه، ووطَّأَتْ له الآذان[٣]، وأصغت الأفهام إلى الاستحسان، وهي قوله:

يَفْتَرُّ ذاك السوادُ عَنْ يَقَقٍ

وفي هذه السوداء يقول، وقد سأله أبو الفَضْل الهاشمي أن يستغرقَ صفات محاسنها الظاهرة والباطنة، فقال:

لها حِرٌ يَسْتَعِيرُ وَقْدَتَهُ ... مِنْ قَلْبِ صَبٍّ وَصَدْرِ ذي حَنَقِ[٤]

كَأَنَّمَا حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ... ما أَلهبتْ في حَشاهُ من حُرَقِ

يَزْدَاد ضِيقاً على المِرَاسِ كمَا ... تَزْدَادُ ضِيقاً أُنْشُوطَةُ الوَهَقِ[٥]

ثم فكَّرَ فيما فكَّرَ فيه النابغة، وقد أمره النعمانُ بوصف المتجرِّدة، فوصف ما يجوز ذكره من ظاهر محاسنها، ثم كره أن يذكر من فضائلها ما لا يسوغ بمثله أن يذكر منها، فردَّ الإخبار عن تلك الفضائل إلى صاحبها، وهو الملك، فقال[٦]:

زَعَمَ الهُمَامُ بِأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ ... عَذْبٌ إذا قبَّلْتَهُ قُلْتَ ازْدَدِ

فَاحتذى عليّ بن العباس هذا، فقال بعدما سأله أن يستغرقَ في وصف فضائلها الظاهرة والباطنة:

---

(١) نسق: مُتَّسق.
(٢) تَعرَّى: تَكَشَّف.
(٣) وطأت: مهدت.
(٤) الحر: الفَرْجُ.
(٥) الوهق: الحبل يُرْمَى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة أو الإنسان.
(٦) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٤١.

خُذْهَا أَبَا الفضل كُسْوَةً لَكَ مِنْ … خَزٍّ الأَماديح لا مِنَ الْخِرَقِ[1]

وَصَفْتُ فيها التي هَوِيتَ على الْـ … ـوَهْمِ ولم تَخْتَبِرْ ولم تَذُقِ

إلاَّ بأخبارِكَ التي وَقَعَتْ … منكَ إلينا عن طَيِّبَةِ البُرَقِ

حَاشَا لِسَوْداءَ مَنْظَرٍ سَكَنَتْ … ذُرَاكَ إلاَّ عَنْ مَخْبَرٍ يَقَقِ

وهذا المعنى أومأ إليه النابغة إيماءً خفيّاً تذهبُ مَعْرِفَتُه عن أكثرِ الناس، ولو آثر النابغةُ تَرْكَ الاختصار، وهمَّ بكَشْفِ المعنى وإيضاحه، ما زادَ على هذا الكشف الذي كشفه ابن الرومي.

للفرزدق

وأصحاب المعاني ينشدون للفرزدق[2]:

وَجَفْنِ سِلاَحٍ قد رُزِئْتُ فلم أَنُحْ … عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ عليه البَوَاكِيَا

وَفِي بَطْنِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ … لَوَ أنَّ المَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا[3]

ومعناه عندهم أنه رثى امرأة توفّيت حاملاً، فقال علي بن العباس وقد وصف هذه المرأة السوداء:

لابن الرومي

أَخلِقْ بها أَنْ تَقُومَ عن ذَكَرٍ … كالسَّيْفِ يَفْرِي مُضَاعَفَ الحلَقِ[4]

إنَّ جُفُونَ السيوفِ أكثَرُهَا … أَسْوَدُ والحقُّ غيرُ مُخْتَلَقِ[5]

فهذه زيادةٌ بينة، وعبارة واضحة، لم تحتج إلى تفاسير أصحاب المعاني، وقال مما لم ينشده المثني:

غُصْنٌ مِنَ الآبنوس رُكِّبَ في … مُؤتَزَرٍ مُعْجِبٍ وَمُنْتَطَقِ

يَهْتَزُّ مِنْ نَاهِدَيْهِ في ثَمَرٍ … وَمِنْ دَوَاجِي ذُرَاه في وَرَقِ

(١) الخَزُّ (من الثياب): ما ينسج من صوف وإبريسم، وقيل: ما ينسج من إبريسم خالص.

(٢) لم نجد هذين البيتين في ديوانه.

(٣) الحفيظة: قوة الإباء. وأنسأته: أخّرته.

(٤) فَرَى الشيءَ فَرْياً: شقّه، وفتّته.

(٥) جفون: جمع جَفْن، وجفن السيف: غِمْده.

وهذا معنى قد بلغ قائِلُه من الإجادة، فوق الإرادة، وامتثل أبو الفضل الهاشمي ما أشار به ابن الرومي، فأولدها، فأنجبت.

وفي معنى قول الفرزدق قال الطائي وأحسن وذكر وَلَدَيْنِ تَوْأَمَيْنِ ماتا لعبد الله بن طاهر[1]:

إن تُـرْزَ فـي طَـرَفَـيْ نهـارٍ واحـدٍ رُزْأَيْـنِ هـاجَـا لَـوْعـةً وَبـلاَبِـلا
فـالثّقـلُ ليـسَ مُضـاعفـاً لمطِيَّـةٍ إلا إذا مـا كـانَ وَهْمـاً بـازِلا[2]
لَهفـي علـى تلـكَ المشـاهـدِ منْهُمـا لَـو أُمهلـتْ حَتَّـى تكـونَ شَمَـائِـلاَ
لَغَـدا سُكُـونَهُمَـا حِجًـى، وَصِبَـاهُمَـا حُكْمـاً، وَتِلْـكَ الأَرِيحيّـةُ نـائِـلا[3]
إنَّ الهِـلالَ إذا رَأَيْـتَ نَمـاءَهُ أَيقنـتَ أَن سَيكُـونُ بَـدْراً كـامِـلا

وعلى ذكر التوأمين ألفاظ لأهل العصر في التهنئة بتوأمين

تيسَّرت مِنْحَتَانِ في وطن، وانتظمت مَوْهِبتان في قَرَن[4]، طلع في أُفُق الكمال نجْمَا سَعْد، وشِهَابا عِزٍّ، وكَوْكَبَا مَجْد، فتأهَّلت بهما رُبوعُ المحاسن، وَوُطِّئت لهما أَكْنافُ المكارم، واستشرفَتْ إليهما صدورُ الأسرَّةِ والمَنابر. بلغني خَبَرُ الموهبة المشفوعة بِمِثْلها، والنِّعْمَة المقرونة بِعِدْلها[5] في الفارسين المقبلين، رضيعي العزّ والرفعة، وقَرِيني المجدِ والمنعة، فشملني من الاغتباط ما يُوجِبُه ازْدِوَاجُ البُشْرَى، واقترانُ غَادِيةٍ[6] بأُخْرَى.

والشيءُ يُذْكَر بما قارب ناحيةً من أنْحائه، وجاذبَ حاشيةً من رِدَائِهِ.

[شيء من الهجاء يشتمل على تضمين]

وقال بعض أهل العصر يهجو رجلاً وضمَّن قول النابغة:

كـالأقحـوان غَـدَاةَ غِـبِّ سَمَـائِـهِ

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) الوَهْمُ: الجمل الضخم القوي. والبازل: المكتمل السنّ، يقال: بزل البعير: طلع نابه، وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة، فهو وهي بازل، والجمع بُزَّلٌ للجمال، وبوازل للنوق.

(٣) الأَرْيَحيَّةُ: الارتياح للندى والنشاط إلى المعروف.

(٤) القرن: الحبل المفتول من لحاء الشجر أو من الصوف.

(٥) العِدْلُ (بالكسر): النظير، المثيل.

(٦) الغادية: السحابة تمطر غدوةً.

وأزاحه عن بابه؛ فجاءَ مليحاً في الطبع، مقبولاً في السمع:

يا سائلي عَنْ جَعْفَرٍ، عَهْدِي بِهِ ... رَطْبَ العِجَانِ وَكفُّه كَالْجَلْمَدِ[(١)]

كالأُقْحُوَان غَدَاة غِبّ سمائِهِ ... جَفَّت أعاليه وأسْفَلُه نَدِي

ومن مستحسن ما روي في هذا التضمين قول الآخر وضمن بيتاً لِمُهَلْهِل بن رَبِيعة[(٢)]:

وسَائلةٍ عَنِ الحَسَنِ بن وَهْبٍ ... وَعَمَّا فيه مِنْ كَرَمٍ وَخيرِ

فَقُلْتُ هُوَ المُهَذَّبُ، غَيرَ أنِّي ... أَراه كثيرَ إرخاءِ السُّتُورِ

وَأَكثرُ ما يُغنِّيه فَتَاهُ ... حُسَيْنٌ حِينَ يَخْلُو بِالسُّرورِ

فَلَوْلاَ الريحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ... صَلِيلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذُّكورِ[(٣)]

وهذا البيت لمهلهل مما يَعدُّونهُ من أول كذب العرب، وكانت قبل ذلك لا تكذب في أشعارها، وكان بين الموضع الذي كانت فيه هذه الواقعة وهي بالجزيرة وبين حُجْر وهي قَصَبَةٌ باليمامة مسافةٌ بعيدة، فأخرجَه هذا الشاعر بقوة مُنَّتِهِ، ونفاذِ فِطْنَتِه، إلى معنًى آخر مستظرف في بابه. وهذا المذهبُ أحسَنُ مذاهب التضمين. ومن مليح ما في هذا الباب تضمينات الحمدوني في طيلسان أحمد بن حرب المهلبي، وسيأتي ما أختارُه من ذلك في غيرِ هذا الموضع.

[عوْد إلى وصف الثغور ونقائها]

لجميل بن مَعْمَر العذري

وقد جاء في صِفَةِ الثغور والأفواه والرِّيق شعرٌ كثير. قال جميل[(٤)]:

---

(١) العجان: الأست. الجلمد: الصخر.

(٢) هو أبو ليلى، عدي، وقيل امرؤ القيس بن ربيعة بن مُرّة بن هبيرة، من بني جشم بن بكر، من بني تغلب: شاعر من أبطال العرب في الجاهلية. سُمِّي مهلهلاً لأنه أول من هلهل الشعر، أي: أَرَقَّهُ. كان من أفصح الناس لساناً، وأصبحهم وجهاً، وكان في صباه مغرماً باللهو والنساء، حتى سمّي «زير النساء». مات في الأسر، وقيل: في البادية وقد اعتزل، وتقدمت به السن، وخولط في عقله نحو ٥٢٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٢١٥؛ الأصفهاني، الأغاني: ٥/ ٤٨؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٧، ٨).

(٣) هذا هو بيت مهلهل المُضَمَّن. والبيض: السيوف. والذكور: جمع ذكر، وهو من الحديد: أيبسه وأشدّه وأجوده. وقد ذكَّر السيف: وضع في رأسه الذُّكْرَة، وهي القطعة من الفولاذ تزاد في رأس السيف ونحوه، وسيف مُذَكَّرٌ: ذو رونق.

(٤) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه.

تَمَنَّيْتُ مِنْهَا نَظْرةً وَهْيَ وَاقِفٌ ... تُرِيك نَقِيًّا واضِحَ الثغرِ أشْنَبَا[١]

كأَنَّ عَرِيضاً من فَضِيضِ غَمَامةٍ ... هَزِيمُ الذُّرى تَمْرِي له الريحُ هَيْدَبا[٢]

يُصَفَّقُ بالمسكِ الذكيِّ رُضَابُهُ ... إذا النَّجْمُ مِنْ بَعْدِ الهُدوِّ تَصَوَّبا[٣]

وقال[٤]:

وَكَأَنَّ طارِقَها على عَلَلِ الكَرى ... وَالنَّجْمُ وَهْناً قَدْ بَدَا لِتَغَوُّرِ[٥]

يَسْتَافُ رِيحَ مُدامةٍ مَعْلُولةٍ ... بِرُضابِ مِسْكٍ في ذَكِيِّ العنبرِ[٦]

لعمر بن أبي ربيعة

وقال عُمَر بن عبد اللّه بن أبي رَبيعة المَخْزُومي[٧]:

يَمُجُّ ذَكِيَّ المِسْكِ مِنْهَا مُفَلَّجٌ ... نَقِيُّ الثنايا ذُو غُرُوبٍ مُؤَشَّرُ[٨]

يَرِفُّ إذا تَفْتَرُّ عنه كَأَنَّهُ ... حَصَى بَرَدٍ أَو أُقحوانٌ مُنَوِّرُ[٩]

---

(١) أشنب: من الشنب، وهو برد ورقة وعذوبة في الأسنان.

(٢) العريض: القطعة من السحاب. والفضيض: ما تناثر من المطر والماء. والهزيم: الصوت. والذرى: القمم. والهيدب: ذيل السحاب.

(٣) تَصوَّبَ: انحدر.

(٤) جميل بن معمر، الديوان: ص ٦٠.

(٥) الطارق: القادم ليلاً. الكرى: النوم، النعاس. الوَهْنُ: نحو نصف الليل، أو بعد ساعة منه، وقد وَهَنَ وَهْناً: دخل في الوَهْنِ من الليل، أو ضعف في الأمر والعمل والبدن. وتغوّر النجم: غاب.

(٦) يستاف: يشمُّ، ومنه قول رؤبة بن العجاج: «إذا الدَّليلُ استافَ أَخلاقَ الطُّرُق» وفي الديوان:

يَسْتَافُ رِيحَ مُدامَةٍ مَعْجُونَةٍ ... بِذَكِيِّ مِسْكٍ، أو سحيقِ العَنْبَرِ

(٧) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ١/٢٤٧.

(٨) مَجَّ الماء أو الشراب من فيه مَجًّا: لفظه، ومنه: مَجَّت النحل العسل، ومجَّت الشمس ريقها، والنبات يمج الندى. المُفَلَّجُ: يقال: رجل مُفَلَّجُ الثنايا: مُنْفَرِجُها، وقد فَلَّجت المرأة أسنانها: فَرَّقت بينها للزينة. والغُروب: جمع غَرْب، وهو الريق، أو كثرته في الفم. ومؤشر: من الأشر، وهو تحزيز أطراف الأسنان.

(٩) يَرِفُّ: يتلألأ. افْتَرَّ فلان: ابتسم وبدت ثناياه. وفي الديوان: «تراه إذا ما افْتَرَّ عَنْهُ كأنَّهُ».

للهذلي

وقال الهُذَلي:

وَمَـا صَهْبَـاءُ صَـافيـةٌ لِصَـبٍّ كَلَـوْنِ الصِّـرف مُنْجـابٌ قَـذَاهَـا
تُشَـجُّ بِنُطْفَـةٍ مِـن مَـاءِ مُـزْنٍ أَحلّتـه بِـرَضْـراضٍ عُـرَاهَـا[1]
بِـأَطْيَـبَ مَشْـرَعـاً مِـنْ طَعْـمِ فِيهَـا إذا مـا طـارَ عَـنْ سِنَـةٍ كَـرَاهَـا

وقال آخر:

وَشَـقَّ عنهـا قِنـاع الخـزّ عـن بَـرَدٍ كـالـدُّرّ لا كَسَـسٌ فيـه ولا ثَعَـلُ[2]
كـأنّـهُ أُقْحـوانٌ بـاتَ بَضْـرِبُـهُ طَلٌّ من الدَّجْنِ مقَّاطُ النَّدَى هَطِلُ[3]
كـأنَّ صِـرْفـاً كُمَيْـتَ اللَّـوْنِ صـافيـةً شُجَّـتْ بِمَـاءِ سَمـاءٍ شَنَّـهُ جَبَـلُ[4]
فُـوهَـا إذا مـا قَضَـتْ مـن نَـوْمِهـا سِنَـةً أَو اعتـراهـا سُبـاتُ النَّـوم والكَسَـلُ[5]

وقال الآخر:

هِجـانُ اللَّـوْنِ وَاضِحَـةُ المُحَيَّـا قَطيـعُ الصَّـوتِ آنِسَـةٌ كَسُـولُ[6]
تَبَسَّـمُ عَـن أَغَـرَّ لـه غُـرُوبٌ فُـراتُ الـرِّيـقِ لَيـس بِـهِ فُلـولُ[7]
كـأَنَّ صَبِيـبَ غـاديـةٍ لِصَـبٍّ تُشَـجُّ بِـه شـآميـةٌ شُمُـولُ
علـى فِيهـا إذا الجَـوْزاء عـالَـتْ مُحَلِّقَـةً وَأَرْدَفَهـا رَعِيـلُ[8]

---

(١) الرَّضْرَاضُ: الحصى الصغار في مجاري الماء، والقطر الصغار من المطر.
(٢) الكَسَسُ: يقال: كَسَّ الرجل كَسّاً: برزت أسنانه السفلى مع الحنك الأسفل، وتأخر الحنك الأعلى، فهو أكَسُّ، وهي كَسَّاءُ. والثَّعَلُ: زيادة سنٍّ أو دخول سنٍّ تحت آخر.
(٣) الطَّلُّ: المطر الخفيف يكون له أثر قليل. والدَّجْنُ: إلباسُ الغَيْمِ الأرضَ وأقطارَ السماء، يقال: يَوْمُ دَجْنٍ، ويومٌ دَجْنٌ.
(٤) كميت اللون: فيها سواد وحمرة. شُجَّت: مُزِجت. شَنَّهُ: صَبَّهُ متفرقاً وبرده.
(٥) فوها: فمها.
(٦) هجان اللون: بيضاء. وقطيع الصوت: التي يتكسّر كلامها لرقته.
(٧) فُراتٌ: عَذْبٌ، قال تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ ماءً فُراتاً﴾ (سورة المرسلات، آية ٢٧).
(٨) الرعيل: جماعة النجوم.

لابن المعتز

وقال ابن المعتز:

يـا نَـديمـيَّ اشْـرَبَـا وَاسْقِيـانـا ... قَـدْ بَـدَا الصُّبْـحُ لنـا وَاسْتَبـانـا
وَاقْتُـلا هَمِّـي بِصِـرْفٍ عُقَـارٍ ... وَاتْـرُكَـا الـدَّهْـرَ فمـا شـاءَ كـانـا
إنَّ لِلمَكْـرُوهِ لَـذْعَـةَ شَـرٍّ ... فـإذا دامَ علـى المَـرْءِ هَـانـا
وَامْـزِجـا كَـأْسـي بِـريقَـةِ أَلْمَـى ... طَـابَ لِلعَطْشَـانِ وِرْداً وَحَـانَـا
مِـنْ فَـمٍ قَـدْ غُـرِسَ الـدُّرُّ فيـه ... نَـاصِحِ الـريـقِ إذا الـرِّيـقُ خَـانَـا[1]

لابن الرومي

وقال ابن الرومي[2]:

يـا رُبَّ ريـقٍ بـاتَ بَـدْرُ الـدُّجـى ... يَمجُّـهُ بَيْـنَ ثَنـايَـاكـا
يُـرْوي ولا يَنْهـاكَ عَـنْ شُـرْبِـهِ ... وَالمـاءُ يُـرْويـكَ وَيَنْهـاكـا

لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر

وقال عُبَيْد الله بن عَبْد الله بن طاهر[3]:

وإذا سألْتُكِ رَشْفَ رِيقِكِ قُلْتِ لِي: ... أَخْشَـى عُقُـوبـةَ مَـالِـكِ الأَمـلاكِ
ماذا عَلَيْكِ؟ جُعِلْتُ قَبْلَكِ في الثَّرى! ... مِـنْ أَنْ أَكُـونَ خَليفـةَ المِسْـوَاكِ
أَيَجُـوزُ عِنْـدَكِ أَنْ يَكُـونَ مُتيّـمٌ ... صَـبٌّ بِحبِّـكِ دُونَ عُـودِ أَرَاكِ

وهذا المعنى يجاوزُ الإحصاء، ويفوتُ الاستقصاء؛ وكلّه مأخوذ من قول امرىء القَيْس[4]:

---

(١) ناصح الريق: لم تتغيّر نكهته.
(٢) ابن الرومي، الديوان: ٥/٧٦.
(٣) هو أبو أحمد، عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر بن الحسين الخزاعي: أمير، فاضل، أديب، وشاعر فصيح. ولد ببغداد، وكان رفيع المنزلة عند المعتضد العباسي. له تصانيف أشهرها: «الإشارة» و«السياسة الملوكية». توفي سنة ٣٠٠ هـ/٩١٣ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١٠/٣٤٠؛ حاجي خليفة، كشف الظنون: ٩٨).
(٤) امرؤ القيس، الديوان: ص ١١٠.

لامرىء القيس

كَأنَّ المُدَامَ وَصَوْبَ الغَمَامِ ... وَرِيحَ الخُزَامَى ونَشْرَ القُطُرْ[1]
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا ... إذا طَرَّبَ الطائرُ المُسْتَحِرْ[2]

فجمع ما فرَّقوه، وأخذه الجعفري فقصَّر عنه:

للجعفري

كَأَنَّ المُدامَ وَصَوْبَ الغَمَامِ ... ورَيحَ الخُزامى وَذَوْبَ العَسَلْ
يُعَسَلُّ بهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا ... إذا النَّجْمُ وَسْطَ السماءِ اعْتَدَلْ

للحاتمي

ويلحق بهذه المعاني من شِعْرِ أهل العصر قولُ أبي علي محمد بن الحسين بن المُظفَّر الحاتمي ـ وذكر خمراً:

مِنْ كفِّ ساقٍ أَهْيَفٍ حَرَكَاتُهُ ... فِتَنٌ تَقَنَّعَ بالملاحةِ واعْتَجَرْ[3]
نَاوَلْتُهُ كَأْسِي وَكَسْرُ جُفُونِهِ ... يُوحِي إليَّ أَنِ ارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ
فَثَنَى لها أَقْلَامَ دُرٍّ رَخْصَةٍ ... تَهْوِي إلى أفرادِ دُرِّ ذِي أُشُرْ[4]
فَتحدَّرَتْ مِنْ كَأْسِهِ في ثَغْرِهِ ... كالشمسِ تَغْرُبُ في هِلالٍ مِنْ قَمَرْ

لأبي الفتح كشاجم

وأهدى أبو الفتح كُشَاجم لبعض القيان مِسْواكاً وكتب إليها[5]:

---

(١) الخُزَامَى: نبات من الفصيلة الشفوية، أنواعه عطرة، من أطيب الأفاويه، واحدته: خزاماة. والنَّشْرُ: الريح الطيبة. القُطُر: العود الذي يُتبخَّر به.

(٢) المُسْتَحِرُ: الحرَّان، ولعلّه أراد بالمستحر: الذي يُطَرِّب وقت السحر، أي في آخر الليل قبيل الفجر. ويعلّ: يسقى مرة بعد أخرى. وطرَّب: صوَّت.

(٣) اعتجر: من الاعتجار، وهو لبسة خاصة بالنساء والغلمان.

(٤) الرخصة: اللينة.

(٥) هو أبو الفتح، محمود بن الحسين بن شاهك، المعروف بكشاجم: شاعر أديب، من كُتَّاب الإنشاء، من أهل الرملة بفلسطين، تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد ومصر. وطال مُكْثُهُ بحلب، فمدح أبا الهيجاء، وخدم في بلاط سيف الدولة الحمداني. توفي سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م.=

قَدْ بَعَثْنَاهُ لِكَيْ تَجْلُو بِهِ ... وَاضِحاً كَاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ أَغَرّ
طَابَ مِنْهُ العَرْفُ حَتَّى خِلتُهُ ... كَانَ مِنْ رِيقِكَ يُسْقَى فِي الشَّجَرْ
وَأَمَا وَاللَّهِ لَو يَعْلَمُ مَا ... حَظُّهُ منكِ لأَثْنَى وَشَكَرْ
لَيْتَنِي المُهْدَى فَيَروي عَطَشِي ... بَرْدُ أَنْيَابِكِ فِي كُلِّ سَحَرْ[1]

[شعر عمر بن أبي ربيعة، وشعر الحارث بن خالد]

وكان ذُكِرَ بحضرة ابن أبي عَتيق شِعْرُ عُمَر بن أبي رَبيعة والحَارِث بن خالد[2] المخزوميين، فقال رجلٌ من وُلد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة: صاحِبُنا الحارث أَشعر، فقال ابنُ أبي عتيق: دَعْ قولَك يَابْنَ أخي، فَلِشِعْرِ ابنِ أبي ربيعةَ لَوْطَةٌ بالقلب[3]، وعَلَقٌ بالنفسِ، ودَرْك للحاجَة ليس لشِعْرِ الحارث؛ وما عُصِيَ اللَّهُ بشعرٍ قطّ أكثر مما عُصِيَ بشعر ابن أبي ربيعة، فَخُذْ عني ما أَصِفُ لك: أَشْعَرُ قريش مَنْ رَقّ معناه، ولَطُف مَدْخَله، وسَهُل مَخْرجُهُ، وتعطَّفتْ حواشيه، وأنارت معانيه، وأَعْرَبَ عن صاحبه، فقال الذي من ولد خالد بن العاص: صاحبُنا الذي يقول:

إنـي ومَا نَحَرُوا غَداةَ مِنًى ... عِنْدَ الجمار تَؤُودها العُقُلُ[4]
لَوْ بُدِّلَتْ أَعْلَى مَنَازِلها ... سُفْلاً وأَصْبَحَ سُفْلُها يَعْلُو
فَيَكادُ يَعْرِفُها الخبيرُ بها ... فيرُدُّهُ الإقواءُ وَالمَحْلُ[5]
لَعَرَفْتُ مَعْنَاها بما احْتَمَلَتْ ... مِنّي الضُّلُوعُ لأَهْلِهَا قَبْلُ

فقال ابنُ أبي عتيق: يابنَ أخي، اسْتُرْ على صاحبك، ولا تشاهد المحاضر بمثل هذا، أما تَطَيَّر الحارثُ عليها حين قَلَبَ رَبْعَها فجعل عاليه سافلَه، ما بقي إلا أن يسألَ اللَّهَ

= (ابن العماد، شذرات الذهب: ٣/ ٣٧؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٧٧).

(١) ليتني المُهْدَى: أي ليتني المسواك الذي أهديته.

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم: أحد شعراء قريش المعدودين الغَزِلين، نشأ بمكة، وقيل: وليها لعبد الملك بن مروان. توفي بعد ٨٠ هـ/ بعد ٦٩٩ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٥٨٢).

(٣) لوطة بالقلب: علوق به.

(٤) العقل: جمع عقال، وهو الحبل الذي يُعْقَل به البعير. والعقال: القلوص الفتية من الإبل.

(٥) الإقواء: خُلُوُّ الديار من ساكنيها. والمحل: الجدب.

حجارةً من سِجِّيل وعذاباً أليماً. ابنُ أبي ربيعة كان أحْسَنَ الناسِ للرَّبع مخاطبةً وأجملَ مصاحبةً إذ يقول[١]:

سَائِلاَ الرَّبْعَ بِالبُلَيِّ وَقُولا ... هِجْتَ شَوْقاً لِيَ الغَدَاةَ طَوِيلا[٢]
أَيْنَ أَهْلٌ حَلُّوك إذ أَنْتَ مَسْرو ... رٌ بِهِمْ آهِلٌ أَرَاكَ جَمِيلا
قال: سارُوا وَأَمْعَنُوا، واستقلُّوا ... وَبِكُرْهِي لو اسْتَطَعْتُ سَبِيلا[٣]
سَئِمُونَا وما سَئِمْنَا مُقَاماً ... وَاسْتَحَبُّوا دَمَاثَةً وَسُهولا[٤]

وها هنا حكاية تَأْخُذُ بِطرَفِ الحديث، دخل مزيد المدني على مَوْلًى لبعض أهل المدينة، وهو جالسٌ على سرير ممهّد، ورجلٌ من ولد أبي بكر الصديق، وآخرُ من ولد عمر ـ رضي الله عنهما! ـ جالسان بين يَدَيه على الأرض؛ فلما رأى المولى مَزْيداً تجهَّمه، وقال: يا مَزْيد ما أكْثَرَ سؤالك! وأشدّ إلْحافك! جئتَ تسألني شيئاً؟ قال: لا والله، ولكني أردتُ أن أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد:

إنِّي وما نَحَرُوا غَداة مِنىً ... عِنْدَ الْجمار تَؤُودُها العُقْلُ
لو بُدِّلَتْ أَعْلَى منازلها ... سُفْلاً وَأَصْبَحَ سُفْلَهَا يَعْلُو

فلما رأيتك ورأيتُ هذين بين يديك عرفتُ معنى الذي قال. فقال: اعزُب في غير حِفْظِ الله! وضَحِكَ أهلُ المجلس.

وأخذ الحارث قوله:

لَعَرَفْتَ مَغْنَاها بما احْتَمَلَتْ ... مِنِّي الضُّلوعُ لِأَهْلِها قَبْلُ

من قول امرىء القيس؛ قال علي بن الصباح وَرَّاقُ بن أبي مُحَلم، قال لي أبو محلم: أتعرفُ لامرىء القيس أبياتاً سينية قالها عند موته في قُرُوحه والحلة المسمومة، غير قصيدته التي أولها[٥]:

---

(١) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ١٤٥.
(٢) البُلَيُّ: اسم موضع.
(٣) استقلوا: مضوا وارتحلوا.
(٤) دماثة: سهولة، ومنه: أرض دمِثة ودمثاء: سهلة لينة.
(٥) امرؤ القيس، الديوان: ص ١١٧. والبيت بتمامه:
أَلِمَّا على الرَّبْعِ القَديم بِعَسْعَسَا ... كَأَنِّي أُنادِي أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا
وألَم بالقوم أو بالمكان: أتاه في زيارة غير طويلة. وعسعس: جبل طويل لبني عامر.

أَلِمَّا عَلَى الرَّبْعِ القديمِ بِعَسْعَسَا

فقلت: لا أعرف غيرها، فقال: أَنْشَدَنِي جماعةٌ من الرُّواة[١]:

لِمَنْ طَلَلٌ دَرَسَتْ آيُهُ وَغَيَّرَهُ سَالِفُ الأَحْرُسِ[٢]
تَنَكَّرُهُ الْعَيْنُ مِن حَادِثٍ وَيَعْرِفُهُ شَغَفُ الأَنْفُسِ

لِطُرَيْح الثقفي

وقد أخذه طُرَيْحُ بن إسماعيل الثقفي[٣]، فقال:

تَسْتَخْبِرُ الدِّمَنَ القِفار وَلَمْ تَكُنْ لِتَرُدَّ أَخْبَاراً على مُسْتَخْبِرِ
فَظَلِلْتَ تَحْكُمُ بين قَلْبٍ عَارِفٍ مَغْنَى أَحِبَّتِهِ وَطَرْفٍ مُنْكِرِ

للحسن بن وهب

وقال الحسن بن وَهْبٍ، إشارة إلى هذا المعنى:

أَبْلَيْتَ جِسْمِي من بعدِ جِدَّتِهِ فَمَا تَكَادُ العيونُ تُبْصِرُهُ
كَأَنَّهُ رَسْمُ مَنْزِلٍ خَلَقٍ تَعْرِفُهُ العَيْنُ ثم تُنكِرُهُ

ليحيى بن منصور الذهلي

وقال يَحْيَى بن مَنْصُور الذُّهلي:

أَمَا يَستفيقُ القلبُ إلا انْبَرَى لَهُ تَذكُّر طَيْفٍ مِنْ سُعَادَ وَمَرْبَعِ
أُخَادِعُ مِنْ عِرْفَانِهِ العَيْنَ؛ إنهُ مَتَى تَعْرِف الأَطلالَ عَيْنِيَ تَدْمَعِ

---

(١) امرؤ القيس، الديوان: ١٢١.

(٢) آيهُ: الواحدة آية: العلامة. والأحرس: الدهر. وفي الديوان:
لِمَنْ طَلَلٌ دَارِسٌ آيُهُ تَقَادَمَ فِي سَالِفِ الأَحْرُسِ
وداثر: ممحو.

(٣) هو أبو الصلت، طريح بن إسماعيل بن عبيد بن أسيد الثقفي: شاعر مخضرم، نشأ في دولة بني أمية، واستفرغ شعره في الوليد بن يزيد. وأدرك دولة بني العباس، ومات في أيام المهدي، سنة ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٤/ ٣٠٤؛ الزركلي، الأعلام: ٣/ ٢٢٦).

وقال آخر:

هـــي الـــدارُ التـــي تَعـــرِ فُ لِـــمْ لا تَعْـــرِفُ الـــدَّارَا
تَـــرَى مِنْهَـــا لأَحبَـــابـ ـــكَ أعـــلاماً وآثـــارَا
فَيُبْـــدِي القَلْـــبُ عِـــرْفـــاناً وَتُبْـــدِي العَيْـــنُ إنكـــارَا

لأبي نواس

وقال أبو نوَاس، وتعلق أولُ قوله بهذا المعنى، وأنا أنشد الأبيات كلها لِمَلاَحَتِها؛ إذ كان الغرض في هذا التصرف هو إرادة الإفادة[1]:

أَلاَ لاَ أَرَى مثلي امْتَرَى اليوم في رَسْمِ تَغَـصُّ بـه عَيني وَيَلْفِظُـهُ وَهْمِـي[2]
أَتَـتْ صُـوَرُ الأشيـاءِ بَيْنِـي وَبَيْنَـهُ فَظَنِّي كَـلا ظَنٌّ وَعِلمي كَـلاَ عِلْـمِ[3]
فَطِـبْ بِحـديـثٍ مـن حَبيـبٍ مُساعـدٍ وسَـاقيـةٍ بيـن المَـرَاهـقِ والحُلْـمِ[4]
ضَعيفـةُ كَـرِّ الطَّـرْفِ تَحسـبُ أنَّهـا قَـريبـةُ عَهْـدٍ بـالإِفَـاقَـةِ مِـنْ سُقْـمِ
يُفـوّقُ مَـالـي مـن طَـرِيـفٍ وَتَـالِـدٍ تَفـوُّقـيَ الصَّهْبـاءَ مـن حَلَـبِ الكَـرْمِ[5]
وَإِنـيّ لآتـي الـوَصْـلَ مِـنْ حَيْـثُ يُبْتَغَـى وَتَعْلَـمُ قَوْسِـي حِيـنَ أَنْزِعُ مَنْ أَرْمِـي[6]

---

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٨٧.
(٢) امترى في رسم: شكَّ فيه. تَغَصُّ به عيني: جعل تأذي العين من رؤية الطلل كغصة من يغصّ بالماء، فاستعار هذه لتلك. يلفظه: يرميه.
(٣) في الديوان: «فَجَهْلِي كَلاَ جَهْلٍ وَعِلْمِي كَلاَ عِلْمِ».
(٤) رواية الديوان:
فَطِبْ بِحَـديـثٍ مِنْ نَـدِيم مُساعِـدٍ وَسَـاقيـةٍ سِـنَّ المُـراهِـقِ لِلحلْـمِ
و«بين المراهق والحلم»: أي سنّها قاربت سنّ الاحتلام، وليست مع ذلك طفلة.
(٥) رواية الديوان: «تَفَوّقُ مالي». وتفَوّق الفصيل: شرب اللبن، والمقصود هنا أن الخمر أتت على كلِّ ماله (الطريف والتالد).
(٦) رواية الديوان:
وَإِنِّي لآتـي الوَصْلَ من حَيْثُ يُتَّقَى وَيَعْلَمُ سَهْمِي حِينَ أَنْزِعُ من أَرْمِي
وفي رواية: «وإني لآتي الأمر». وأنزع: أمد في وتر القوس.

[شعر أبي نواس]

ورَوَى أبو هفّان(١) قال: كان أبُو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي(٢) يطعن على أبي نواس، ويَعِيبُ شِعْرَه، ويضعّفه، ويستلينه؛ فجمعه مع بَعْضِ رُوَاةِ شعر أبي نواس مجلسٌ والشيخُ لا يَعْرِفه، فقال له صاحبُ أبي نواس: أتعرفُ ـ أعزَّكَ الله! ـ أحْسَنَ من هذا؟ وأنشده: «ضعيفة كرّ الطَّرْفِ. . .» الأبيات فقال: لا والله، فَلِمَنْ هو؟ قال: للذي يقول(٣):

رَسْمُ الكَرَى بين الجفونِ مُحيلُ ... عَفَّى عليه بُكَا عَلَيْكَ طَويلُ(٤)
يَا نَاظِراً ما أَقْلَعَتْ لَحَظَاتُهُ ... حَتّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلُ(٥)

فَطرِبَ الشيخُ، وقال: وَيْحَكَ! لِمَنْ هذا؟ فوالله ما سَمِعْتُ أَجْوَد منه لقديم ولا لِمُحْدَث! فقال: لا أُخْبرك أو تكتبه؛ فكتبه، وكتب الأول، فقال: للذي يقول(٦):

رَكْبٌ تَسَاقَوْا على الأكوارِ بَيْنَهُمُ ... كَأْسَ الْكَرَى فَانْتَشَى المَسْقِيُّ والساقي(٧)
كأَنَّ أَرْؤُسَهُمْ وَالنَّوْمُ وَاضِعُها ... على المناكبِ لم تُخْلَقْ بأَعناقِ(٨)

---

(١) هو أبو هفّان، عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي العبدي: شاعر، أديب، راوية. ولد بالبصرة، وسكن بغداد، وأخذ عن الأصمعي وحدّث عنه، وكانت له مكانة كبيرة في الأدب، وشعره على الألسنة. وكان من ندمان أبي نواس وَرُوَاتِه. توفي سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧١ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٤٠٨).

(٢) هو أبو عبد الله، محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي الكوفي، من موالي بني هاشم: لغوي، راوية، نسَّابة، لم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه، وهو ربيب المفضل بن محمد الضبي صاحب «المفضليات». توفي سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م.
من آثاره: كتاب «النوادر» و«كتاب «الأنواء»، وكتاب «صفة النخل»، وغيرها. (القفطي، إنباه الرواة: ٣/ ١٢٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٣٠٦.

(٣) أبو نواس، الديوان: ٢٥٥.

(٤) الرسم: ما بقي من آثار الدار بعد أن تركها أهلها. محيل: مجدب، من المحل، وهو الجدب وانقطاع المطر. عَفَّى عليه: محاه.

(٥) أقلعت لحظاته: كفَّت وانتهت عن النظر. تشحط: يقال: شحطه تشحيطاً: مزجه بالدم فتشحط: تضرَّج به واضطرب فيه.

(٦) أبو نواس، الديوان: ٢٨٥.

(٧) الأكوار: جمع كور، وهو الرحل.

(٨) المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع رأس الكتف والعضد. وفي الديوان: «لم تُوصل بأَعناقِ».

سَاروا فَلَمْ يَقْطَعُوا عَقْداً لِرَاحِلَةٍ حَتَّى أَنَاخُوا إليكم قَبْلَ إشراقِ[١]
مِنْ كُلِّ جائلةِ الطَّرْفينِ نَاجيةٍ مُشْتَاقةٍ حَمَلَتْ أوصالَ مُشْتَاقِ[٢]

فقال: لمن هذا؟ وكتبه. فقال: للذي تَذُمَّه، وتَعِيب شعره، أبي علي الحكمي! قال: اكْتُم عليّ، فوالله لا أعود لذلك أبداً.

* * *

لابن المعتز

أخذ قولَه: «كَأَنَّ أَرْؤُسهم والنوم واضعها» أبو العباس بن المعتز، فقال يصف شَرْباً:

كَأَنَّ أَبَارِيقَ اللُّجَيْنِ لَدَيْهِم ظِبَاءٌ بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ قِيَامُ
وَقَدْ شَرِبُوا حتى كَأَنَّ رُؤُوسَهُمْ مِنَ اللّينِ لم يُخْلَقْ لَهُنَّ عِظَامُ

البيت الأول من هذين من قول علقمة بن عبدة[٣]:

كَأَنَّ إبريقَهم ظَبْيٌ على شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الكَتَّانِ مَلْثُومُ[٤]

---

(١) رواية الديوان:
خَاضُوا إِلَيْكُمْ بِحارَ اللَّيْلِ آونةً حَتَّى أَنَاخوا إِلَيْكُمْ فَلَّ أَشواقِ
وقوم فلّ: منهزمون، والمراد أنهم وصلوا إليكم أنضاء قد أجهدهم الشوق.

(٢) رواية الديوان:
مِنْ كُلِّ جَائِلَةِ النِّسْعَيْنِ ضَامِرةٍ مُشْتَاقَةٍ حَمَلَتْ عِبْئاً لِمُشْتَاقِ
النِّسْعُ (بكسر النون): سير ينسج عريضاً على هيئة سيور النعال، تُشَدُّ به الرحال، وسمي نسعاً لطوله. والجولان: التحرك. وجائلة النسعين: كناية عن هزال المطايا وضمورها من السير وطول السفر، حتى أن سيور الرحال تتحرك حول بطون الدواب.
وقد نظر أحمد شوقي إلى الشطر الثاني من هذا البيت فقال:
رمضان وَلَّى هَاتِها يا سَاقي مُشْتَاقةً تَسْعَى إلى مُشْتَاقِ

(٣) هو علقمة بن عبدة بن النعمان، من بني تميم: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولقب بالفحل تمييزاً له عن علقمة بن سهل الذي كان يُطلق عليه «الخصي». صحب امرأ القيس، وله معه مساجلات، وكان بدوياً لا يألف الحضر، واشتهر بوصف النعام. توفي نحو ٢٠ ق.هـ/٦٠٣ م. (لويس شيخو، شعراء النصرانية: ٤٩٨/١؛ ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٢٩١).

(٤) مفدم: مسدود، والفدام: السدادة. والملثوم: الذي وُضِع عليه اللثام، وهو كالفدام.

أراد بسبائب[١]، فحذف.

لمسلم بن الوليد

وقد أحسن مُسْلِم بن الوليد في قوله:

إِبْـرِيقُنَـا سَلَـبَ الغـزالـةَ جِيـدَهـا وَحكـى المُـديـرُ بِمُقْلَتَيْـهِ غَـزَالا
يَسْقِيـكَ بِـالألحـاظِ كَـأْسَ صَبَـابـةٍ وَيُـديـرُهـا مِـنْ كَفِّـهِ جِـرْيَـالا[٢]

وأنشد الحارث بن خالد أبياته:

إنــي ومــا نَحَــرُوا غَــدَاةَ مِنًــى ....

لعبد الله بن عمر، فلما بلغ إلى قوله:

لَعَـرَفْـتُ مَعْنَـاهـا بِمَـا احْتَمَلَـتْ مِنّـي الضُّلُـوعُ لِأَهْلِهَـا قَبْـلُ

قال له ابن عمر: قل إنْ شاء الله، قال: إذاً يفسد الشعر يا أبا عبد الرحمن، فقال: لا خَيْرَ في شيء يُفْسده إن شاء الله.

[تشبيب الحارث بن خالد]

وكان الحارث بن خالد أحدَ المجيدين في التشبيب، ولم يكن يعتقد شيئاً من ذلك، وإنما يقولُه تظرّفاً وتخلّعاً؛ وكان أكثر شعره في عائشة بنت طَلْحَةَ، فلما قُتِلَ عنها مُصْعَبُ بن الزبير قيل له: لو خطبتَها! قال: إني لأكْرَه أَنْ يتوهَّم الناسُ عليَّ أني كنت معتقداً لِمَا أَقول فيها، وهو القائل:

يـا أُمَّ عِمـرانَ مـا زَالَـتْ وَمَـا بَـرِحَـتْ بِنَـا الصَّبَـابَـةُ حتـى مَسَّنَـا الشَّفَـقُ[٣]
الْقَلْـبُ تَـاقَ إليكـم كَـيْ يُـلاقِيَكُـمْ كَمَـا يَتُـوقُ إلـى مَنْجَـاتِـهِ الغَـرِقُ[٤]
تُـوفِيـكَ شَيْئـاً قَليـلاً وَهِـيَ خَـائفـةٌ كمـا يَمَـسُّ بِظَهْـرِ الحيَّـة الفَـرِقُ[٥]

---

(١) السبائب: جمع سبيبة، وهي الحبل.
(٢) الجريال: الخمر.
(٣) الشَّفَقُ: الخَوْفُ.
(٤) تاق: اشتاق.
(٥) الفَرِقُ: الخائف.

أخذ هذا الطائي فحسَّنه فقال:

تَأْبَى عَلَى التَّصْرِيدِ إلاّ نَائِلاً ... إلاَّ يكُنْ ماءً قَرَاحاً يُمْذَقِ[١]
نَزْراً كما اسْتَكْرَهْتَ عَابِرَ نَفْحةٍ ... مِنْ فَأْرَةِ المِسْكِ التي لم تُفْتَقِ

وحَجَّت عائشةُ بِنْتُ طلحة، فوجَّه إليها يستأذنها في الزيارة، فقالت: نحن حَرام، فأخِّر ذلك حتى نحلّ، فلما أحلّتْ أَدْلَجَتْ ولم يعلم، فكتب إليها:

مَا ضَرَّكُمْ لو قُلْتُمْ سَدَداً ... إنَّ المنيَّةَ عاجلٌ غَدُها[٢]
وَلها عَلَيْنَا نِعْمةٌ سلَفتْ ... لَسْنَا على الأَيامِ نَجْحَدُها
لو تَمَّمَتْ أَسبابَ نِعْمَتِها ... تَمَّتْ بذلك عِنْدَنا يَدُها
إنِّي وَإِيَّاها كَمُفْتَتِنٍ ... بالنَّارِ تَحْرِقُهُ ويَعْبُدُها

[من أخبار ابن أبي عتِيق وعائشة بنت طَلْحَة]

وابنُ أبي عتيق هذا هو عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه! وكان من أفاضل زَمانِهِ عِلْماً وَعَفافاً، وكان أحْلَى الناس فُكاهَةً، وأظرفهم مُزاحاً، وله أخبارٌ مستطرفة سيمرُّ منها ما يُسْتحسن إن شاء الله.

روى الزُّبير بن أبي بَكْر أنه دخل على عائشة ـ يعني بنت طَلْحَة، رضي الله عنهما! ـ وهي لمابها؛ فقال: كيف أنت جُعِلْتُ فداكِ؟ قالت: في الموت، قال: فلا إذاً، إنما ظننت في الأمر فُسْحَة، فضحكت، وقالت: ما تَدَعُ مَزْحَكَ بِحَالٍ.

وفيه يقول عُمر بن أبي رَبيعة القُرَشيّ[٣]:

لَيْتَ شِعْري هَلْ أَقُولَنْ لِرَكْبٍ ... بِفَلاةٍ هُمْ لَدَيْهَا خُشُوعُ
طَالَمَا عَرَّسْتُمُ فَاسْتَقِلُّوا ... حَانَ مِنْ نَجْمِ الثريَّا طُلُوعُ[٤]

---

(١) التصريد: التقليل، وإسقاء ما لا يروي. يُمْذَقُ: يُمْزَجُ.
(٢) سدداً: أي كلاماً مستقيماً لا تغيره.
(٣) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ٤٧.
(٤) عَرَّسَ المسافرون وأعرسوا: نزلوا آخر الليل للراحة. استقلوا: سيروا وارْتَحِلوا. وفي الديوان: «طالما عرستم فاركبوا بي».

إنَّ هَمِّي قَدْ نَفَى النومَ عَنّي وَحديثُ النفسِ مِنّي يَرُوعُ[١]
قَالَ لي فيها عَتيقٌ مَقالاً فَجَرَتْ مِمَّا يَقولُ الدموعُ[٢]
قال لي: وَدِّعْ سُلَيْمَى وَدَعْها فَأَجَابَ القَلْبُ: لا أَستطيعُ[٣]
لا تَلُمْنِي في اشتياقي إليها وَابْكِ لي مما تُجِنُّ الضُّلُوعُ[٤]

[مَثَل من التعريض]

قال أبو العبّاس محمد بن يَزِيد قوله: «حان من نجم الثريا طلوع» كناية، وإنما يريد الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أُميَّة الأصغر، وكانت موصوفةً بالجمال، وتزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، فنقلها إلى مصر، وفي ذلك يقول عمر، وضرب لهما المثل بالنجمين[٥]:

أيها المُنكِحُ الثريَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شاميَّةٌ إذا ما اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إذا استَقَلَّ يَمَانِي

بين الثريا بنت علي والوليد بن عبد الملك

فمات سُهيل عنها، أو طلَّقها، فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة دمشق تَطْلُبُ في دَيْنٍ عليها، فبينا هي عند أمِّ البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليدُ فقال: مَنْ هَذِه عندكِ؟ قالت: الثريا، جاءتك تَطْلُبُ في دَيْنٍ ارتكبها، فأقبل الوليد عليها، فقال: أتروين من شعرِ عُمَر بن أبي ربيعة شيئاً؟ قالت: نعم، أما إنه رحمه الله كان عفيفاً، عفيف الشعر، أروي له قوله:

ما عَلَى الرَّسْمِ بالبُلَيينِ لو بَيَّنَ رَجْعَ السلامِ أَوْلَوْ أَجَابَا
فَإلى قَصْرِ ذِي العُشَيْرةِ بالصا ئفِ أَمْسَى مِنَ الأَنِيسِ يَبَابَا[٦]

---

(١) في الديوان: «وَحَدِيثُ النَّفْسِ قِدْماً وَلُوعُ». ونفى النوم: منعه. وَقِدْماً: قديماً. والوَلُوعُ: المتشوق، التوّاقُ.

(٢) عتيق: هو ابن أبي عتيق، كان صديقاً لعمر، ومن الحريصين على ملازمة مجالسه.

(٣) في الديوان: «فأجاب القلب: أَن لا أُطيعُ».

(٤) تُجِنُّ: تَسْتُر، تُخَبِّىء.

(٥) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ٣٣٩.

(٦) اليَبَابُ: الخَرابُ، والخالي لا شيء فيه، يقال: أرض يباب، ودارهم خراب يباب، وحوض =

وَبِمـا قَـدْ أَرَى بِـه حَـيَّ صِـدْقٍ ظَـاهِـري العَيْـشِ نِعْمَـةً وشَبَـابـا
وَحِسَـانـاً جَـوَارِيـا خَفِـرَاتٍ حَـافِظَـاتٍ عِنْـدَ الهَـوى الأَحْسَـابَـا
لا يُكَثِّـرْنَ بـالحـديـثِ ولا يَتْـ ـبَعْـن يَنْعَقْـنَ بِـالبِهَـامِ الظِّـرَابَـا[(١)]

فلما خلا الوليد بأم البنين قال: لله دَرُّ الثريا؛ أتدرين ما أرادَتْ بإنشادها ما أنشدَتْ من شعر عمر؟ قالت: لا، قال: فإنّي لما عرَّضْت لها بعمر عرّضت بأنَّ أُمي أعرابية، وأم الوليد وَلَّادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير العبسي، وهي أمُّ سليمان، ولا تُعلم امرأة ولدت خليفتين في الإسلام غيرها، وغير الخيزُرَان، وهي سَبِيَّة من خَرْشَنة، ولدت موسى الهادي وهارون الرشيد ابني محمد المهدي، وشاهسفرم بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريان بن كِسْرى أبرويز؛ فإنها ولدت للوليد بن عبد اللملك يزيدَ بن الوليدِ الناقصَ وإبراهيمَ بن الوليد المخلوع؛ جلس في الخلافة بَعْد أخيه يزيد مدةً يسيرة، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان آخر ملوك بني أمية فخلعه وَوُلِي بعده.

بين عزة كثير وعبد الملك بن مروان

وشَبِيه بقول الثريا في باب التعريض أنه دخَلتْ عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان، فقال لها: أنْتِ عَزَّةُ كثير؟ قالت: أنا أم بكر الضَّمْرية، قال لها: يا عزَّة؟ هل تروين من شعر كثّر شيئاً؟ قالت: ما أعرفه، ولكن سمعت الرواة ينشدون له:

قَضَـى كُـلّ ذي دَيْـنٍ فَـوفَّـى غَـرِيمَـهُ وَعَـزَّةُ مَمْطُـولٌ مُعَنَّـى غَـرِيمُهـا[(٢)]

قال: فتروين قوله:

وَقَـدْ زَعَمَـتْ أَنـي تَغَيَّـرْتُ بَعْـدَهـا وَمَـنْ ذا الَّـذِي يـا عَـزُّ لا يَتَغَيَّـرُ
تَغَيَّـرَ حَـالـي وَالخَلِيقَـةُ كـالـذي عَهِـدْتِ وَلَـمْ يُخْبَـرْ بِسِـرِّكِ مُخْبَـرُ

قالت: ما سمعت هذا، ولكن سمعتُهم ينشدون:

كَـأَنِّـي أُنَـادِي صَخْـرةً حِيـن أَعْـرَضَـتْ مِن الصّمِّ لَوْ تَمْشِي بها العُصْمُ زَلَّتِ[(٣)]

= يبابٌ: لا ماء فيه.

(١) الظراب: جمع ظرب، وهو الجبل المنبسط، أو الرابية الصغيرة.

(٢) الغريم: الدائن. وممطول: اسم مفعول من: مطل فلاناً حَقَّهُ إذا أَجّل موعد الوفاء به مَرَّةً بعد أُخرى.

(٣) «كأني أُنادي صَخْرَةً»: أي لا تجيب النداء. والصُّمُّ: جمع أَصمّ أو صَمَّاء، وقد صَمَّ فلان: =

غَضُــوبــاً فمــا تَلْقَــاكَ إلا بَخِيلــةً فَمَنْ مَلَّ مِنها ذلكَ الوَصْلَ مَلَّتِ[1]

[بعض أخبار عمر بن أبي ربيعة وغزله]

قال: وكُلُّ ما ذَكَرَ ابنُ أبي ربيعة في شعره من عتيق، أو أبي عتيق، فإنما هو ابنُ أبي عتيق، وكان عمرُ بن عبد اللّه بن أبي ربيعة، واسمُ أبي ربيعة حذيفةُ بن المغيرة بن عبد اللّه [بن عمر] بن مخزوم، ويكنى أبا الخطاب، أمه أم ولد سبيّة من حضرموت، ويقال من حمير، ومن ثم أتاه الغَزَل؛ لأنه يقال: «عِشْقٌ يماني، وَدَلٌّ حجازي». قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

إنَّ قَلْبِـي بِـالتـلِّ تَـلِّ عَـزازِ مع ظَبْيٍ مِنَ الظّبـاءِ الجَـوازي[2]
شَـادِنٍ لـم يَـرَ العِـراقَ وفيـهِ مَـعَ ظَـرْفِ العـراقِ دَلُّ الحِجازِ[3]

وقال الطائي وذكر نفسه[4]:

قَـد ثَقَّفَـتْ مِنْـهُ الحِجـازُ، وَسَهَّلَـتْ مِنْـهُ العِـراقُ، ورَقَّقَتْـهُ المَشْـرِقُ

وهجرت الثريا عُمَرَ، فقال[5]:

قَـالَ لـي صَـاحِبـي لِيَعْلَـم مـا بـي: أتُحِـبُّ القَتُـولَ أُخْـتَ الـرَّبَـابِ؟
قُلْـتُ: وَجْـدِي بهـا كَـوَجْـدِك بِـالمـا ءِ إذا مـا فَقَـدْتَ بَـرْدَ الشَّـرابِ
أزهقَـتْ أُمُّ نَـوْفَـلٍ إذ دَعَتْهَـا مُهْجَتِـي، مـا لِقـاتلـي مِـنْ مَتَـابِ

= ذهب سَمْعُه. والعُصْمُ: جمع أعصم، وهو من الوعول والظباء ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود.

(١) في رواية: «صَفُوحاً فَما تَلْقَاكَ إلاَّ بَخيلةً».

(٢) الجوازي: الظباء التي تجتزىء بالعشب عن الماء.

(٣) الشادن: ولد الظبية الذي قوي وترعرع واستغنى عن أُمّه. والدَّلُّ: الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك، ويقال: امرأة ذات دَلٍّ: ذات شكل تُدِلُّ به. وقد دلَّت المرأة على زوجها: أظهرت الجرأة عليه في تكسُّرٍ وملاحةٍ، كأنها تخالفه وما بها من خلاف.

(٤) أبو تمام: الديوان: ٢/٢٤٨. والمشرق: مخلاف باليمن.

(٥) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ١/١٠٦.

أَبْـرَزُوهَـا مِثْـلَ المهـاةِ تَهَـادَى ... بَيْـنَ خَمْـسٍ كَـواعِـبٍ أَتْـرابِ[١]
وَهْـيَ مَكْنُـونَـةٌ تَحَـدَّرُ مِنْهَـا ... فـي أَديـمِ الخَـدَّيْـنِ مـاءُ الشَّبـابِ
ثُـمَّ قـالـوا: تُحِبُّهـا؟ قُلْـتُ: بَهْـراً ... عَـدَدَ الـرَّمْـلِ وَالحَصَـى والتُّـرابِ[٢]

ولما بلغ ابنَ أبي عتيق قولُه:

مَـنْ رَسُـولـي إلـى الثُّـريَّـا؟ فَـإنـي ... ضِقْـتُ ذَرْعـاً بِهَجْـرِهـا وَالكِتـابِ

قال: إياي أراد، وبي هَتَف ونَوَّه، لا جَرَمَ لا ذُقْتُ طعاماً أو أشخص إليها، وأصلح بينهما؛ قال مولى لبني تميم: فنهض ونهضتُ معه، ثم خرج إلى السوق إلى الضمرتين، فأتى قوماً من بني الديل بن بَكْرٍ يَكْرونَ النجائب، فقال: بكم تَكْرُونَني راحلتين إلى مكة؟ قالوا: بكذا وكذا درهما، فقلت لبعض التجار: اسْتَوْضِعُوا شيئاً، فقال ابن أبي عتيق: ويحك! إنَّ المِكَاسَ لَيس من أخلاق الناس[٣]. ثم ركب واحدةً وركبتُ أُخْرَى، وأجدّ السير، فقلت: ارفق بنفسك، فقال: ويحك! أُبادر حَبْلَ الوصل أن يتقَضّبا. وما أملح الدنيا إذا تمَّ الوصلُ بين عمر والثريا! فقدمنا مكة وأتى بابَ الثريا، فقالت: والله ما كنتَ لَنَا زَوّارا، فقال: أجل، ولكن جئتُ برسالة، يقول لك ابن عمك عمر: ضِقتُ ذَرْعاً بهجرها والكِتابِ. فَلامَهُ عمر، فقال ابن أبي عتيق: إنما رأيتك مبادراً تَلْتمِسُ رسولاً، فَخَفَفْتُ في حاجتك، فإنما كان ثوابي أن أُشْكَر.

ووصف ابن أبي عتيق لعمر امرأةً من قومه، وذكر جمالاً رائعاً، وعقلاً فائقاً، فرآها عمر، فشبّب بها؛ فغضِب ابنُ أبي عتيق وقال: تشبّبُ بامرأة من قومي؟ فقال عمر[٤]:

لا تَلُمْنـي عَتيـقُ حَسْبـي الَّـذِي بـي ... إنَّ بـي يـا عتيـقُ مـا قَـدْ كَفَـانـي
إن بـي مُضْمَـراً مِـنَ الحـبِّ قَـدْ أَبْـ ... ـلَـى عِظـامـي مَكْنُـونُـهُ وبَـرانـي[٥]
لا تَلُمْنـي فَـأَنْـتَ زَيَّنْتَهَـا لـي ... .

---

(١) المهاة: البقرة الوحشية. الكواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي شبّت ونهد ثديها. والأتراب: جمع تِرْب، وهو المثيل في السنّ.
(٢) بَهْراً: عجباً، ويقال: بهراً له: تَعْساً وهَلاكاً. وفي الديوان: «عدد النجم».
(٣) المكاس: الشدّة في الأخذ والعطاء.
(٤) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ٣٣٣.
(٥) في الديوان: «إن بي داخلاً من الحب». مكنونه: مستوره. براني: هدّني وأنحلني.

فقال ابن أبي عتيق:

.... أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلإِنسَانِ

فقال عمر: هكذا وربِّ الكعبة قلت.

فقال ابن أبي عتيق: إن شَيْطَانك وربِّ القَبْر ربما ألم بي!

وحَجّت رملة بنت عبد الله بن خلف أخت طلحة الطلحات، فقال عمر فيها(١):

أَصْبَحَ القلبُ في الحبالِ رَهِينَا ... مُقْصَداً يوم فارَق الظَّاعِنِينا

وَلَقَدْ قُلْتُ يومَ مكّةَ سِرًّا ... قَبْلَ وَشْكِ مِنْ بَيْنِكُمْ نَوِّلينا

أَنتِ أَهوى العبادِ قُرْباً وَبُعْداً ... لَوْ تُوَاتِينَ عَاشِقاً مَحْزُونا(٢)

قَادَهُ الحَيْنُ يَوْمَ سِرْنَا إلى الحَجّ جَهاراً وَلم يَخَفْ أَنْ يَحِينا(٣)

فَإذا نَعْجَةٌ تُراعي نِعَاجا ... وَمَهاً نُجَّلَ النواظرِ عِينَا(٤)

فَسَبَتْنِي بِمُقْلَةٍ وَبِجِيدٍ ... وَبِوَجْهٍ يُضيءُ للناظرينا

قُلْتُ مَنْ أَنتمُ فَصَدَّتْ وَقالتْ ... أَمُبِدٌّ سُؤالُكَ العالَمينا(٥)

قُلْتُ بالله ذِي الجلالةِ لَمَّا ... أَن تَبَلْتِ الفُؤادَ أَنْ تَصْدُقينا

أَيّ مَن تَجمعِ المواسِمُ أَنْتُمْ ... فَأَبِيني لَنَا وَلا تَكْذِبينا(٦)

فَرأَتْ حِرْصِيَ الفتاةُ، فَقالتْ ... أَخْبِريه بِعِلْمِ ما تَكْتُمينا

نَحْنُ مِنْ ساكني العراقِ، وَكُنّا ... قَبْلَها قاطِنِينَ مَكَّةَ حِينَا

---

(١) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ٢٩٦.

(٢) في الديوان «أنت أهوى البلاد قُرْباً وَدلاً». وأهوى البلاد: أَحَبُّها، أحب من نحبه في بلدك. قُرباً: دُنُواً في المكان. دلاً: دلالاً وتبختراً.

(٣) في الديوان:

قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرَّ إِلى الحَيْـ ... ـنِ جِهاراً وَلَمْ يَخَفْ أَنْ يَحِينَا

الطرف: النظر. الحَيْنُ: الهلاك.

(٤) نجلت المرأة: اتسعت عينها وحسنت، فهي نجلاء، ومنه: طعنة نجلاء: واسعة. وفي الديوان: «وَمَهاً بُهَّج المَناظِرِ عِينا».

(٥) أَمُبِدٌّ سؤالك العالمين: أي هل أنت مقسمه بدداً وتفاريق على الناس بحيث يَعُمُّهم جميعاً.

(٦) في الديوان: «ولا تكتمينا».

قَدْ صَدقْناكَ إذ سَألتَ فَمَنْ أَنْـ ـتَ عَسَى يَجرُّ شَأْنٌ شُؤُونا
وَنَرَى أَنَّنا عَرَفْناك بِالنْعْـ ـتِ ظُنوناً وَمَا قَتَلنَا يَقِينا
بِسَوادِ الثَّنِيَّتينِ وَنَعْتٍ قَدْ نَراهُ لِنَاظِرٍ مُسْتَبِينا

قولها: «وكنا قبلها قاطنين مكّة حينا» أرادت إذ كانت مكةُ لخزاعة.

صفقة أبي غبشان الذي باع مفتاح الكعبة

وكان آخرَ من نَبَذَ مفتاح الكعبة من خُزَاعة أبو غُبْشان، فباعه من قُصَيّ بزِقّ خمر؛ فقيل في المثل: «أخسر صفقةً من أبي غُبْشان». وكان أبو غُبشْان إذ باعَ المفتاحَ قُصَيًّا مريضاً قد يئس من نفسه، فلما أبلّ من مرضه لامَه قومه، وسألوه اسْتِرْجاعه، وذلك الذي هاج الحربَ بين خُزَاعة وقريش، فظفر قُصَيّ واستولى على مكة، وجمع قريشاً بها؛ ولذلك سمي مجمعاً، قال مطرف الخزاعي:

أبوكم قُصَيٌّ كان يُدْعَى مُجَمِّعاً بِهِ جَمَّعَ الله القبائلَ مِنْ فِهْرِ

وقال الطائي(1):

وَلَما نَضَا ثَوْبَ الحياةِ وَأَوْقَعَتْ بِهِ نَائِباتُ الدَّهْرِ ما يَتوقَّعُ(2)
غداً لَيْسَ يَدْرِي كيفَ يَصْنَعُ مُعْدِمٌ دَرَى دَمْعَهُ في خدِّه كيف يَصْنَعُ
وَلَم أَنْسَ سَعْيَ الجُودِ خَلْفَ سريرِهِ بِأَكْسَفِ بَالٍ يَستقِلُّ وَيَظْلَعُ(3)
وَتكْبِيرهُ خَمْساً عليه مَعاً لَنَا وَإن كانَ تَكْبِيرَ المُصَلِّينَ أَرْبعُ(4)
وَما كُنْتُ أَدري يَعْلَمُ اللّهُ قَبْلَها بِأَنَّ النَّدَى في أَهْلِهِ يَتَشَيَّعُ(5)
غَدَوْا في زَوايا نَعْشِهِ وَكَأَنَّما قُريشٌ قُريشٌ يَوْمَ مَاتَ مُجَمِّعُ

وقال الشاعر في أمر قصيّ وأبي غُبْشان:

---

(1) أبو تمام، الديوان: ٢/٣٠٩. والأبيات من قصيدة يرثي بها إدريس بن بدر الشامي.
(2) نضا الشيء عن الشيء: نزعه وألقاه، ونضا الثوب: أخلقه وأبلاه، ونزعه، وألقاه.
(3) يستقل ويظلع: ينهض ويسقط. وفي الديوان: «يَسْتَقِيمُ وَيَظْلَعُ».
(4) في الديوان: «وَتَكْبِيرُهُ خَمْساً عَلَيْهِ مُعالناً».
(5) يَتَشَيَّع: يتحزّب.

أَبُو غُبْشَانَ أَظْلَمُ من قُصَيٍّ وَأَظْلَمُ مِنْ بَنِي فِهْرٍ خُزاعَهْ
فَلاَ تَلْحَوْا قُصَيًّا في شِرَاهُ وَلُومُوا شَيْخَكُمْ إذْ كانَ باعَهْ

وكان عمر أسود الثنيتين.

قال مولى ابن أبي عتيق بلال: أتيتُ الثريّا مسلماً عليها، فقالت: أنشدني لعمر، فأنشدتها:

أَصْبَحَ القلبُ في الْحِبَال رَهِينا

فقالت الثريا: إي والله، لئن سلمت له لأردَّنَّ من شَأْوه، ولأَثنينَّ من عِنَانه، ولأعرفنَّه نفسه! فمررت فيها حتى انتهيت إلى قوله:

قُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ فَصَدَّتْ وَقالتْ أُمبِدٌّ سُؤَالك العالَمِينا

فقالت: أو قد أجابته بهذا؟ أي وقت؟ فلما انتهيت إلى قوله:

وَتَرى أَنَّنا عَرَفْناكَ بالنَّعتِ

قالت: جاءت النَّوْكاءُ بآخِر ما عندها في مَوْقِفٍ واحد(١).

وسأله أخوه الحارث ـ وهو المعروف بالقُبَاع، وكان من أفاضل أهْل دهره ـ أن يترك الشعر، ورغب إليه في ذلك، ووعظه، فقال: أما ما دمتُ بمكة فلا أقدرُ، ولكني أخرج إلى اليمن، فخرج؛ فلما سار إلى هناك لم تَدَعْهُ نَفْسُهُ وتَرْكَ الشعر، فقال(٢):

هَيْهَاتَ مِنْ أَمةِ الوَهَّابِ مَنزِلنا إذا نَزَلْنَا بِسِيفِ البَحْرِ من عَدَنِ(٣)
وَاحْتَلَّ أَهْلُكِ أَجياداً، وَلَيْسَ لَنا إلاَّ التَّذَكُّرُ أَو حَظٌّ من الحَزَنِ(٤)
بَلْ ما نَسيتُ غَداةَ الْخَيفِ مَوْقِفَهَا وَمَوْقِفي، وَكِلانا ثَمَّ ذُو شَجَنِ(٥)

---

(١) النَّوْكَاءُ: الحمقاء.
(٢) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/٣١٨.
(٣) سيف البحر: ساحله. أَمَةُ الوهاب: اسم امرأة.
(٤) أجياد: موضع بين الطائف ومكة. والحَظُّ: النصيب.
(٥) في الديوان: «بل ما نَسِيتُ بِبَطْنِ الخَيْفِ». الخيف: واد بمنى حيث مرمى الجمار. ذو شجن: ذو حزن.

وَقَــوْلهَــا لِلثــريَّــا وَهْــي مُطْــرِقــةٌ وَالدَّمْعُ مِنْها على الخدَّين ذُو سَنَنِ[١]
بِــالله قُــولِــي لــه فــي غَيْــرِ مَعْتَبَــةٍ ماذا أردتَ بِطُولِ المُكْثِ في اليَمَنِ[٢]
إن كُنْــتَ حَــاوَلْــتَ دُنْيــا أو ظَفِـرْتَ بهــا فَمــا أَخَــذْتَ بِتَــرْكِ الحــجِّ مِــنْ ثَمَــنِ[٣]

فلما بلغ الشعرُ الحارثَ قال: قد علمنا أنه لا يَفِي.

بين ابن جريج ومعن بن أوس

وروى سُفيانُ بن عُيَيْنَة عن ابن جُرَيْج[٤] قال: لَزِمَني دَيْنٌ مرَّةً فضَاقَتْ ساحتي وبلادي بي، فتوجَّهتُ إلى مَعْن بن زائدة باليمن، فقال: ما أَقْدَمك هذه البلدة؟ قلت: دَيْنٌ طردني عن وطني. قال: يُقْضَى دَيْنُكَ، وتُرد إلى وطنك محبوًّا مَحْبُوراً، قال: فأقمت عنده، ثم رأيتُ الناس يرحَلُون إلى الحج، فحننت إلى مكة، وذكرت قول ابن أبي ربيعة، وذكر الأبيات... فأتيتُ باب مَعْن، فقلت للحاجب: استأْذِنْ لي على الأمير، فلما دخلت عليه قال: إنَّ لك لحادثَ خَبر! قلت: أَسْتَوْدِعُ الله الأمير وأستحفظه عليه. قال: وما هاج هذا منْك؟ فقلت: رأيت خروجَ الناس إلى الحج، وذكرت قولَ عمر؛ فحننت إلى مكّة، فقال: أَنْتَ وحنينك، وإن كنتُ بفراقك ضَنينا، وَسَيَتْبَعُكَ ما تحتاجَ إليه؛ فَسِرْ مُصَاحَباً، قال: فَسِرْتُ إلى رَحْلِي، فأتبعني بمالٍ وثياب ومَطَايا ودوابّ، وسرت إلى مكَّةَ من فَوْري.

عفة عمر

وكان عمر ـ على غَزَله، وما يذكره في شعره ـ عفيفاً. حدّث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: دخلت مع أبي مكةَ، فجاءه عمر، فسلّم عليه، وأنا غلامٌ شابٌ وعليّ جبّة، فجعل يَأْخُذُ بخصلة من شَعْري فتمتدّ في يده، ثم يُرْسِلها فترجع، فيقول: واشباباه! فقال

(١) السَّنَنُ: الطرائق. وفي الديوان: «وَقَوْلُها لِلثُّريَّا يَوْمَ ذي خَشَبٍ».

(٢) عَتَبَ عليه عَتْباً وَعِتاباً وَتَعْتاباً وَمَعْتباً وَمَعْتَبَةً: لامه وخاطبه مخاطبة الإدلال طالباً حسن مراجعته ومذكراً إياه بما كرهه منه.

(٣) في الديوان: «أو نعمت بها».

(٤) هو أبو خالد، وأبو الوليد، عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج، القرشي بالولاء، المكي، مولى أمية بن خالد بن أُسَيد: عالم مشهور، ويقال: إنه أول من صنف الكتب في الإسلام. توفي سنة ١٤٩ هـ/ ٧٦٧ م. (البغدادي، تاريخ بغداد: ١٠/ ٤٠٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ١٦٣).

لي: يابن أخي، قد سمعتَ قولي: «قُلت لها وقالت لي»؛ وكلّ مملوك لي حرّ إن كنت قطُّ كشفت عن فرج حَرَام! قال: فقمت وفي نَفْسِي من يمينه شيء؛ فسألتُ عن رَقيقه، فقيل لي: أما في هذا الحول فسبعون.

ويستحسن قول عمر في المساعدة[١]:

وَخِلٍّ كُنْتُ عَيْنَ النُّصْحِ مِنْهُ ... إذا نَظَرَتْ وَمُسْتَمِعاً مُطِيعا
أطاف بِغَيَّةٍ فَنَهَيْتُ عَنْهَا ... وَقُلْتُ لَهُ: أَرَى أَمْراً شَنِيعا
أَرَدْتُ رَشَادَه جَهْدي، فَلَمَّا ... أَبَى وعَصَى أَتَيْنَاها جَمِيعا

وهذا مأخوذ من قول دريد بن الصِّمة الجُشَمي[٢]:

أَمَرْتُهُمُ أمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوى ... فَلَمْ يَسْتَبِينوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَا الغَدِ
فَقُلْتُ لهم: ظُنّوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ في الفارسيّ المُسَرَّدِ[٣]
فَلما عَصَوْني كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى ... غَوايَتَهُمْ وَأَنّي غَيْرُ مُهْتَدِي
وَمَا أَنَا إلاَّ مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ، وَإن تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

ومن جيد شعره[٤]:

يَقولون إني لَسْتُ أَصْدُق في الهَوَى ... وَإنِّيَ لا أَرعاكِ حِينَ أَغِيبُ[٥]
فما بالُ طَرْفِي عَفَّ عما تَساقطَتْ ... له أَنْفُسٌ مِنْ مَعْشَرٍ وَقُلُوبُ[٦]

---

(١) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ٣٤.

(٢) هو أبو قرة، معاوية بن بكر بن علقمة بن غزية، من قيس عيلان، ودريد لقبه، وأمه ريحانة بنت معدي كرب. كان سيد بني جشم وقائدهم. جعله ابن سلام في طليعة الشعراء الفرسان. غزا نحو مئة غزوة، ولم يهزم في واحدة منها. أدرك الإسلام ولم يسلم، وقتل على الكفر في وقعة حنين سنة ٨ هـ/ ٦٣٠ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٦٣٥؛ لويس شيخو، شعراء النصرانية: ١/ ٧٥٢).

(٣) ظنوا هنا بمعنى: تَيَقَّنُوا. والمدجّج: التام السلاح. والمسرد: المحكم النسج، وهو صفة للدروع.

(٤) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ١/ ٧٦.

(٥) في الديوان: «إني لست أصدقك الهوى».

(٦) تساقط الأعين والقلوب: كناية عن الافتتان.

عَشيـــةَ لا يَسْتَنكِــرُ القَــوْمُ أن يَــرَوْا سَفَــاهَ حِجًـى مِمَّــن يُقَــال لبيــبُ[١]
وَلاَ فِتْنَــةً مــن نَــاسـكٍ أَوْمَضـتْ لَــهُ بِعَيْــنِ الصبـا كَسْلَـى القيـام لَعُـوبُ[٢]
تَــروَّحَ يَــرْجُــو أَنْ تُحَــطّ ذُنُــوبـهُ فــآبَ وَقَــدْ زِيــدَت عليــه ذُنُــوبُ[٣]
وَمـا النُّسْـكُ أَسْلاَنـي، وَلَكِـنَّ لِلْهَـوى عَلَـى العَيْـنِ مِنّـي وَالفـؤادِ رَقِيـبُ[٤]

ونظر عمرُ بن أبي ربيعة إلى فَتًى من قريش يكلّم امرأة في الطواف، فعاب ذلك عليه، فذكر أنها ابنةُ عمه، فقال: ذلك أشْنَع لأمرك، قال: إني خطبتُها إلى عمي، وإنه زعم أنه لا يزوّجني حتى أصدقَها أربعمائة دينار، وأنا غيرُ قادر على ذلك، وذكر مِنْ حالهِ وحبّه لها؛ فأتى عُمَرُ عمّه، فكلّمه في أمرها، فقال: إنه مُمْلِقٌ، فزوَّجهُ، وساق عُمَرُ عنه المَهر.

وكان عمر حين أسنّ حَلَف ألاَّ يقول بيتاً إلا أعتق رقبة، فانصرف إلى منزله يحدّث نفسَه، فجعلت جاريته تُكلّمه ولا يُجيبُها؛ فقالت: إن لك لشأناً، وأراك تريدُ أن تقولَ شعراً، فقال[٥]:

تَقُــولُ وَليــدتــي لمــا رَأَتْنِــي طَـرِبْـتُ: وكُنْـتُ قَـدْ أَقْصَـرْتُ حِينـا
أَراكَ اليَــوْمَ قــد أَحْــدَثْــتَ أَمْـراً وَهَــاجَ لــكَ الهَــوى داءً دَفِينــا[٦]
وَكُنْــتَ زَعَمْــتَ أَنّــكَ ذُو عَــزَاءٍ إذا مــا شِئْــتَ فَــارَقْــتَ القَــرِينــا
لَعَمْــرُكَ هَــلْ رَأَيْــتَ لهــا سَمِيًّــا فَشــاقَــكَ أَمْ لَقِيــتَ لهــا خَــدِينـا[٧]
فَقُلْــتُ: شَكــا إِلــيَّ أَخٌ مُحِــبٌّ كَبَعْــضِ زَمَــانِنَــا إذْ تَعْلَمِينــا
فَقَــصَّ علــيَّ مــا يَلْقَــى بِهِنْــدٍ فَــذَكَّــر بَعْـضَ مــا كُنَّـا نَسِينــا[٨]

---

(١) في الديوان:
عَشِيَّـةَ لا يَسْتَنكِـفُ القَـوْمُ أَنْ يَـرَوْا سَفَـاهَ امْـرِىءٍ مِمَّـنْ يُقَـالُ لَبِيـبُ
(٢) أومضت له: سارقته النظر، أو غمزته بعينها غمزة غواية. كسلى القيام: مكتنزة سمينة، مترفة. لعوب: كثيرة الغنج والدلال.
(٣) تَروَّحَ: قصد، راح. تُحَطُّ ذنوبه: تُمْحَى عنه وَيُغْفَرُ له. آب: رجع.
(٤) أسلاني: أزهدني وأنساني الهوى.
(٥) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ٣٠٤.
(٦) في الديوان: «قد أحدثت شوقاً»، «وعاد لك الهوى».
(٧) الخدينُ: الصديق، والجمع: خدناء. وفي الديوان: «بربك هل أتاكَ لها رسولٌ».
(٨) في الديوان: «فوافَقَ بَعْض ما قَدْ تَعْرِفينا».

وَذُو الشـوقِ القـديـم وَإنْ تَعَـزَّى مَشُـوقٌ حِيـنَ يَلْقَـى العَـاشِقِينَـا[١]
فَكَـمْ مـن خُلَّـةٍ أَعْـرَضْـتُ عَنْهَـا لِغَيْـرِ قِلـىً، وَكُنْـتُ بِهـا ضَنِينَـا[٢]
أَردتُ بِعَـادَهَـا فَصَـدَدْتُ عَنْهَـا وَإنْ جُـنَّ الفـؤادُ بِهَـا جُنُـونَـا[٣]

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم.

قال عُثْمَان بن إبراهيم: حججت أنا وأصحابٌ لنا، فلما رجعنا من مكّة مررنا بالمدينة، فرأينا عمر بن أبي ربيعة، وقد نَسَكَ وترَك قول الشعر، فقال بعضنا لبعض: هل لكم فيه؟ فَمِلْنَا إليه، وسلّمنا عليه، وجلَسْنَا وهو ساكتٌ لا يكلمنا. فقال له بعضنا: أيعجبك قول الفرزدق[٤]:

سَـرَتْ لِعَيْنِـك سَلْمَـى بعـد مَغْفَـاهـا فَبِـتّ مُسْتَلهيـاً مِـنْ بَعْـدِ مَسْـرَاهَـا
فَقُلْـتُ: أَهْـلاً وَسَهْـلاً! مَنْ هَـدَاكِ لَنَـا؟ إنْ كُنْـتِ تِمْثَـالَهـا أو كُنْـتِ إيّـاهَـا
تَـأْتِـي الـريـاحُ التـي مـن نَحْـوِ بَلـدتِكُـمْ حَتَّـى تَقُـولَ: دَنَـتْ مِنَّـا بِـرَيَّـاهَـا
وَقَـدْ تَـرَاخَـتْ بهـم عَنّـا نَـوًى قُـذُفٌ هَيْهَـاتَ مُصْبَحُهـا مِنْ بَعْـدِ مُمْسَاهـا[٥]
مِـنْ أَجْلِهَـا أَتَمنَّـى أَنْ يُـلاَقِيَنِـي مِـنْ نَحْـوِ بَلْـدتِهـا نَـاعٍ فَيَنْعَـاهَـا
كَيْمَـا أَقُـول: افْتِـرَاقٌ لا اجتمـاعَ لَـهُ، وَتُضْمِـرُ النفـسُ يَـأْسـاً ثُـم تَسْـلاَهـا
وَلَـوْ تَمُـوتُ لَـرَاعَتْنِـي وَقُلْـتُ لَهَـا: يَـا بُـؤْسَ لِلـدَّهْـرِ لَيْـتَ الـدَّهـرَ أَبْقَـاهـا

فلم يهش لذلك! فقال الآخر: أيعجبك قول العُذْري[٦]:

لَـوْ حُـزَّ بِـالسيـفِ رَأْسِـي فـي مَـوَدَّتِهـا لَمَـرَّ يَهْـوِي سَـرِيعـاً نَحْـوَهَـا رَاسِـي
وَلَـو بَلِـي تَحْـتَ أَطْبَـاقِ الثـرَى جَسَـدِي لَكُنْـتُ أَبْلَـى وَمَـا قلبـي لَكُـمْ نَـاسِـي

(١) في الديوان: «وَذُو القلبِ المُصَاب ولو تَعزَّى».
(٢) الخلَّةُ: الصديقة. أعرضت عنها: هجرتها، صَدَدْتُ عنها. الضنين: البخيل. والقِلى: البغض. وفي الديوان: «من أجلكم وكنت بها ضنينا».
(٣) في الديوان:
أَرَدْتُ فِـراقَهَـا وَصَبَـرْتُ عَنْهَـا وَلَـوْ جُـنَّ الفُـؤَادُ بِهَـا جُنُـونَـا
(٤) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه.
(٥) نَـوًى قُذُفٌ: بعيدة، والنوى: الناحية يُذْهَبُ إليها، يقال: شطَّت بهم النوى: أمعنوا في البُعْدِ.
(٦) لعله أراد: جميل بن معمر العذري، ولم نجد هذه الأبيات في ديوانه (دار صادر).

أَوْ يَقْبِضِ اللهُ رُوحي صَارَ ذِكْركُمُ ... رُوحاً أَعيشُ به ما عِشْتُ في النّاسِ
لَوْلاَ نَسيمٌ لِذِكْراكُمْ يُرَوِّحني ... لَكُنْتُ مُحْتَرِقاً مِنْ حَرِّ أَنْفَاسي

فتحرك ثم قال: يا وَيحَه! أبعد ما يحز رأسه يَميل إليه؟

ثم أنشأ يحدثنا، فقال: أتاني خالد الدليل، فقال: إن هنداً وأَتْرابها بموضع كذا وكذا من الصحراء أيام الربيع، فقلت: كيف الحيلة؟ فقال: تَتَلثم وَتَكْتَفِل[1] كأنك طالبُ ضَالة، ففعلت، فَدُفعت إليهن، فقلن: يا أعرابي، ما تطلب؟ قلت: ضالة لي، فقلن: قد كَلِلْت يا أعرابي، فلو جلست فأصبت مِنْ حديثنا وأصبنا من حديثك، ولعلك تروح إلى وجود ضالتك، فنزلت؛ فلما امتد الحديثُ بنا حسرت هِنْدٌ لِثَامي، وقالت: أَتُرَاكَ خدعتنا؟ نحن والله خَدَعْنَاك، وبعثنا إليك خالداً، رأينا خلاءً ومنظراً فأَرَدْنَاك، ونظرت في دِرْعِي فأعجبني ما رَأَيت، فقلت: يا أبا الخطاب! قال عمر: فقلت: لبَّيْك، وفي ذلك أقول[2]:

أَلَمْ تَسْأَلِ الأَطْلالَ وَالمُتَرَبَّعَا ... بِبَطْنِ حُلَيَّاتٍ دَوَارِسَ بَلْقَعَا[3]
إلى السَّرْحِ من وادي المغمَّس بُدِّلَتْ ... مَعَالِمُهُ وَبْلاً وَنَكْبَاءَ زَعْزَعَا[4]
فَيَبْخَلْنَ أَوْ يُخْبِرْنَ بِالعِلْمِ بَعْدَما ... نَكَأْنَ فُؤاداً كان قِدْماً مُوَجَّعا[5]
لِهِنْدٍ وَأَتْرابٍ لِهِنْدٍ إِذِ الهوى ... جَميعٌ وَإِذْ لم نَخْشَ أَنْ يَتَصَدَّعا
وَإِذ لا نُطيعُ العاذلينَ ولا نَرَى ... لِواشٍ لدينا يَطْلُبُ الهَجْرَ مَطْمَعا
وَإِذْ نَحْنُ مِثْلُ الماءِ كان مِزَاجُهُ ... كما صَفَّق الساقي الرحيقَ المُشَعْشَعَا
تُنُوعِتْنَ حَتَّى عَاوِدَ القلبَ خَبْلُه ... وَحتى تَذكَّرتُ الحبيبَ المُوَدَّعا[6]
فَقُلْتُ لِمُطْرِيهِنَّ بالحُسْنِ: إِنَّما ... ضَرَرْتَ، فهل تَسْطِيعُ نَفْعاً فَتَنْفَعا؟

---

(١) اكتفل الرجل: ركب فوق الكِفْل، وهو شيء مستدير يتخذ من خرق أو غيرها، ويوضع على سنام البعير.
(٢) عمر بن أبي ربيعة، الديوان: ٢/ ٢٢.
(٣) حليات: اسم موضع. دوارس: جمع دارس، وقد درس الشيء دَرْساً ودُرُوساً: عفا وذهب أثره، وتقادم عهده. والبلقع: الخالي من كلّ شيء، يقال: مكان بلقع، وطريق بلقع، والجمع: بلاقع.
(٤) المُغَمَّس: موضع قرب مكة في طريق الطائف. النكباء: التي تتنكب عن مهاب الرياح. وريح زعزع: شديدة. وفي الديوان: «إلى الشَّرْي من...».
(٥) نكأ الجرح: أصابه من جديد. وفي الديوان: «كان قدْماً مُفَجَّعا».
(٦) الخَبْلُ: الجراح، ومنه: وقع فلان في خَبْلِهِ: نَدِم وتَحيَّر، والخُبْلُ (بضم الخاء): فساد العقل.

وَأَشْرَيْتَ فَاسْتَشْرى وقَد كان قَدْ صَحَا ... فُـؤادٌ بـأَمْثَـالِ المَهَـا كـانَ مُـولَعـا[1]
لئِـنْ كـانَ مـا حُـدِّثْـتُ حَقّاً فمـا أَرَى ... كَمِثْلِ الأُلى أَطْرَيتَ في الناس أَربعا[2]
فَقال: فَقُمْ فَانْظُرْ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ لي ... أَخَـافُ حَـديثـاً أَنْ يُشَـاعَ فَيَشْنُعَـا
فَقَـالَ: اكْتَفِـلْ ثـم التثِـمْ فَـأْتِ بـاغيـا ... فَسَلِّـمْ وَلا تُكْثِـرْ بـأَنْ تَتَـورَّعَـا
فَـأَقْبَلْـتُ أَهْـوِي مِثْـلَ مـا قـالَ صـاحبي ... لِمَـوْعِـدِهِ أَبْغـي قَلُـوصـاً مُـوقَعـا[3]
فَلَمَّـا تَـواقَفْنَـا وَسَلَّمْـتُ أَقْبَلَـتْ ... وُجُـوهٌ زَهَـاهَـا الحُسْـنُ أَنْ تَـتَقَنَّعَـا[4]
تَبَـالَهْـنَ بِـالعِـرْفَـانِ لَمَّـا رَأَيْنَنِـي ... وَقُلْـنَ: امـرُؤٌ بـاغٍ أَكَـلَّ وَأَوْضَعـا[5]
وَقَـرَّبْـنَ أَسْبَـابَ الهَـوى لِمُتَيَّـمٍ ... يَقِيـسُ ذِراعـاً كُلَّمَـا قِسْـنَ إِصْبَعـا[6]
فَلَمَّـا تَـنَازَعْـنَ الأَحَـادِيـثَ قُلْـنَ لِـي ... أَخِفْـتَ علينـا أَنْ نُغَـرَّ وَنُخْـدَعـا[7]
فَبِـالأَمْـسِ أَرْسَلْنَـا بِـذلـكَ خَـالِـداً ... إِلَيْـكَ، وَبَيَّنَّـا لَـهُ الأمْـرَ أَجْمَعَـا
فمـا جِئْتَنَـا إِلاَّ علـى وَفْـقِ مَـوْعِـدٍ ... علـى مَـلإٍ مِنَّـا خَـرَجْنَـا لَـهُ مَعَـا
رَأَينـا خَـلاءً مِـنْ عُيُـونٍ وَمَنْظَـراً ... دَمِيثَ الرُّبى سَهْلَ المَحلَّةِ مُمْرِعَا[8]
وَقُلْـنَ: كَـريـمٌ نَـالَ وَصْـلَ كَـرائـمٍ ... فَحَـقٌّ لَـهُ فـي اليَـوْمِ أَنْ يَتمتَّعَـا

وقوله: «وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا» يقول: هذه الوجوهُ مُدِلَّة بجمالها فلا تختمر، فتستر شيئاً عن الناظرين إليها. وقد أشار إلى هذا المعنى الشَّمَّاخُ بن ضِرَارٍ[9] يصف ناقته:

---

(١) أشريته فاستشرى: هجته فهاج، وشرى الشرّ: استطار، وشرى فلان: غضب ولجَّ، ومثله استشرى. وفي الديوان: «كان مُوزَعا».
(٢) الإطراء: المبالغة في الثناء.
(٣) المُوقَّعُ: البعير تكثر عليه آثار الدبر. وفي الديوان: «أُزْجي قَعُوداً مُوقَّعا».
(٤) في الديوان: «فلما تواقفنا وسلمت أشرقت». وتواقفنا: تقابلنا متواجهين. تتقنع: تضع القناع.
(٥) في الديوان: «لَمَّا عَرفْنَني». وأكلَّ وأوضع ناقته: أتعبها.
(٦) في الديوان: «أسباب الصِّبا».
(٧) تنازعنا الأحاديث: تداخلت أحاديثنا ووشجت العلاقة بيننا.
(٨) الدميث: السهل، وقد دَمِثَ المكان وغيره دَمَثاً: سهل ولان، فهو دَمِثٌ، وهي دَمِثة، والجمع: دِماثٌ، وقد دَمُثَ الرجل دَماثةً ودُمُوثَةً: سهل خُلُقُهُ، فهو دَميثٌ، ويقال: أرض دمِثة ودمثاء. والمُمْرِعُ: المخصب.
(٩) هو الشَّماخ، معقل بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، =

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعُ مُدِلَّةٍ ... بُعَيْدَ الشبابِ حَاوَلَتْ أَنْ تُعَذَّرَا
مِن البيضِ أَعطافَا إذا اتَّصَلت دَعَتْ ... فِراسَ بنِ غَنْمٍ أو لَقِيطَ بنِ يَعْمُرا
بِهَا شَرَقٌ مِنْ زَعْفَرانٍ وعَنْبَرٍ ... أَطَارَتْ مِنَ الحُسْنِ الرِّدَاءَ المُحبَّرا[1]

[مَنْ لا تَرى ستر الوجه من النساء، واحتجاجها لذلك]

قال: وكانت عائشة بنت طَلْحَة بن عُبَيْد الله لا تَسْتُرُ وجهها، فلما دخلت على مُصْعب بن الزبير قال لها في ذلك، فقالت: إن الله تعالى وسَمني بِميسَمِ جمال، فأحببتُ أن يراه الناس، والله ما بي وَصْمة أَسْتتر لها.

وقال علي بن العباس الرومي يصف قينةً[2]:

لَم يَعْتَصِمْ عُودُها بِزَامِرةٍ ... وَلا انْضَوَى وَجْهُهَا إلى السَّترِ

وقد ردد معنى قوله: «لم يعتصم عودها بزامرة» فقال: يصف بدعة الكبيرة[3]:

غَنَّتْ فَلَمْ تُحْوَجْ إلى زَامِرٍ ... هَلْ تُحْوَجُ الشَّمْسُ إلى شَمْعَهْ[4]
كَأَنَّما غَنَّتْ لِشَمْسِ الضُّحى ... فَأَلْبَسَتْهَا حُسْنَهَا خِلْعَهْ
كَأَنَّما رَنَّةُ مَسْمُوعِها ... رِقَّةُ شَكْوَى سَبَقَتْ دَمْعَهْ
تُهْدِي إلى قَلْبِكَ ما يَشْتَهِي ... كَأَنَّها قَدْ أَطْلَعَتْ طَلْعَهْ

= أدرك الجاهلية والإسلام. عدّه الحطيئة أشعر غطفان، وجعله ابن سلام في الطبقة الثالثة، ووصف شعره بالمتانة والجزالة، وهو أشهر الشعراء في وصف الحمر والقوس، وأرجز الناس على بديهة. توفي سنة ٢٢ هـ/٦٤٣ م. (ابن سلام، طبقات الشعراء: ١/ ١٣٢؛ الأصفهاني، الأغاني: ٩/ ١٥٤).

(١) المُحبَّرُ: المُزيَّنُ، المُنَمَّقُ.

(٢) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ٢٢. والبيت من قصيدة رثى بها «بستان» المغنية جارية أم علي بنت الرأس.

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٣٧ ـ ١٣٨. والأبيات من قصيدة قالها في بدعة الكبرى، وهي مولاة عريب المغنية، مولاة المأمون. ذكر ابن الأثير أنها ماتت سنة ٣٠٢ هـ/ ٩١٥ م، وكانت على صلة بإبراهيم بن المدبر (ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٨/ ٩٠).

(٤) في الديوان: «هل يحوج الصبح إلى شمعه».

يَجْتَمِــعُ الظَــرفُ لِجــلاَّسِهـــا وَالحُسْــنُ والإِحســانُ فــي بُقْعَــهْ
طَفِّــلْ علــى مَــنْ حَصَلْــتَ عِنْـدَهُ فَبعْــضُ تَطْفِيــلِ الفَتَــى رِفْعَــهْ[١]
رَبِيــعُ غَيْــثٍ فَــانْتَجِــعْ رَوْضَـــهُ فَلَــنْ يُعــابَ الحُــرُّ بِــالنَّجْعَــهْ[٢]

[سَتْر الرأس لإخفاء الصلع]

وكان ابن الرومي لا يزال مُعْتَمًّا، وكان يغضب إذا سُئل عن ذلك، وسأله بعضُ الرؤساء: لِمَ تَعْتَم؟ فقال بديها[٣]:

يَــا أَيُّهــا الســائلــي لأُخْبِــرَهُ عَنّــيَ لِــمْ لا أَرَاكَ مُعْتَجِــرا[٤]
أَسْتُــرُ شَيْئــاً لــو كــانَ يُمْكِنُنــي تَعــرِيفُــهُ الســائليــنَ مَــا سُتِــرَا

وقد بيَّنَ العلة التي أوجبت اهتمامه في قوله[٥]:

تَعمَّمْــتُ إِحْصَانــاً لِــرَأْسِــيَ بُــرْهــةً مِــنَ القَــرِّ يــومــاً والْحَــرُورِ إذَا سَفَــعْ[٦]
فلمــا دَهْــى طــولُ التَّعمــم لِمّتــي وَأَوْدَى بهــا بَعْــدَ الإطــالــةِ والفَــرَعْ[٧]
عَـزمــتُ علــى لُبْــسِ العِمَــامــةِ حِيلــةً لِتَسْتُــرَ مــا جَــرَّتْ علــيَّ مِــنَ الصَّلــعْ
فَيَــا لــكَ مِــنْ جَــانٍ عَلــيَّ جِنــايــةً جَعَلْــتُ إِليــه مِــنْ جِنَــايتــهِ الفَــزَعْ
وَأَعْجِــبْ لِشَــيءٍ كــانَ دائــي جَعَلْتُــهُ دَوَائِــي علــى عَمْــدٍ وأَعْجِــبْ بــأَنْ نَفَــعْ

وهذا كقوله، وإن لم يكن في معناه، وقد رأيت من ينسبه إلى كُشَاجم[٨]:

---

(١) التطفيل: غشيان الوليمة من غير دعوة.
(٢) النجعة: الارتحال في سبيل الكلأ.
(٣) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ٢٣٠.
(٤) اعتجر الرجل بالعمامة: لَفَّها على رأسه وردَّ طرفها على وجهه. وفي الديوان: «لم لا أزال معتجراً».
(٥) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ١٠٥.
(٦) سفع الحرور، وسفعت السَّمومُ والنارُ والشمس وجهه: لفحته لفحاً يسيراً فغيَّرت لون بشرته وسوَّدته. وفي الديوان «من القَرِّ طوراً».
(٧) في الديوان: «بعد الجثالة». وشعر جثل: أسود وافر.
(٨) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٤٠٨.

طَرِبْتُ إلى المِرَاةِ فَرَوَّعَتْنِي ... طَوَالِعُ شَيْبَتَيْنِ أَلَمَّتَا بِي
فَأَمَّا شَيْبَةٌ فَفَزِعتُ مِنْهَا ... إلى المِقْرَاضِ حُبًّا لِلتَّصَابِي
وَأَمَّا شَيْبَةٌ فَصَفَحْتُ عَنْهَا ... لِتَشْهَدَ بِالبَرَاءَةِ مِنْ خِضَابِي
فَأَعْجِبْ بِالدَّلِيلِ على مَشِيبِي ... أقمتُ بهِ الدَّليلَ على شَبَابِي

وهو القائل في صفة رجل أصلع:

يَجْذِبُ مِنْ نُقْرَتِهِ طُرَّةً ... إلى مَدًى يَقْصُرُ عَنْ مَيْلِهِ
فَوَجْهُهُ يَأْخُذُ مِنْ رَأْسِهِ ... أَخْذَ نَهارِ الصَّيْفِ مِنْ لَيْلِهِ

وقال أعرابي:

قَدْ تركَ الدَّهْرُ صَفَاتِي صَفْصَفَا ... فَصَارَ رَأْسِي جَبْهَةً إلى القَفَا[١]
كَأَنَّهُ قد كانَ رَبْعاً فَعَفَا

[من كلام الأعراب]

بين سليمان بن عبد الملك وأعرابي

قال أعرابيٌّ لسليمان بن عبد الملك: إني أكلمك يا أميرَ المؤمنين بكلام فاحتمله، فإنَّ وراءَه إن قَبِلْتَهُ ما تحبه، قال: هاتِه يا أعرابي؛ فنحن نَجُودُ بسعَةِ الاحتمال على مَنْ لا نأمن غَيْبَته، ولا نَرجُو نصيحته، وأنت المأمون غيباً، الناصح جَيْباً[٢]. قال: فإني سأُطْلِقُ لساني بما خَرِسَتْ عنه الألسنُ، تأديةً لحق الله تعالى؛ إنه قد اكتنفك رِجَالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم، وابتاعوا دُنْيَاك بدينهم، ورضاكَ بسَخَطِ ربهم، وخافوك في اللّهِ ولم يخافوا اللّهَ فيك، فهم حربٌ للآخرة، وَسَلْمٌ للدنيا، فلا تأْمَنْهم على ما ائتمنك اللّهُ عليه؛ فإنهم لم يأْلُوا الأمانةَ تَضْيِيعاً، والأمة كسفاً وخَسْفاً، وأنت مسؤول عما اجترموا، وليسوا مسؤولين عما اجْتَرَمْتَ؛ فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظمَ الناسِ عند الله غَبْناً مَنْ باع آخِرَته بدُنْيَا غيره.

---

(١) الصفاة: الصخرة، والمراد بها هنا: حال المرء. والصَّفْصَفُ: المستوي من الأرض لا نبات فيه، والفلاة، قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفًا﴾ (سورة طه، آية ١٠٦).

(٢) نصح الجيب: كناية عن سلامة الطوية.

فقال سليمان: أما أنت يا أعرابي فقد سللت لسانك وهو سَيْفُكَ، قال: أجل يا أمير المؤمنين، لكَ لا عليك.

وصف المطر لأعرابي

وروى العتبي عن أبيه عن مولى لعمرو بن حريث قال: شخصت إلى سليمان بن عبد الملك، فقيل لي: إنك تَرِدُ على أفصح العرب، وسيسألك عن المطر، فانْظُرْ ما تجيبه، فقلت: ما عندي من الجواب إلاّ ما عند العامّة، فقيل لي: ما ذلك بِمُقْنع عنده، فلقيني أعرابي فقلت: هل لكَ في دِرْهمين؟ فقال: إنّي والله محتاج إليهما، حريصٌ عليهما، فما شأْنُك؟ فقلت: لو سألك سائل عَنْ هذا المطر بِمَ كنت تُجيبه؟ قال: أو يَعْيَا بهذا أحد؟ قلت: نعم، سَائِلُكَ! قال: أَتَعْيَا أن تقول: أصابتنا سماء، عَمَدَ لها الثَّرى، واتَّصَل بها العُرَى، وقَامَتْ منها الغُدُر، وأتتك في مثل وِجَار الضَّبُع[1]، فكتبتُ الكلامَ، وأعطيتُه درهمين: فكان هِجِّيرَايَ على الرَّاحِلة[2]؛ فإذا نزلت أَقْبَلت عليه وأمثل نفسي كأني واقفٌ بين يديه، وقد سلَّمت عليه بالخلافة وهو يَسْأَلني عن المطر!

فلما انتهيتُ إليه سألني فاقتصصتُ الكلامَ، فَكَسَر إِحْدَى عينيه، وقال: إني لأَسْمَعُ كلاماً ما أنت بأبي عُذْرته[3]. قلت: صدقت! وحياتك يا أمير المؤمنين اشتريتُه بدرهمين! فاستغرب ضَحِكا، ثم أَحْسَنَ صِلَتي.

أعرابي يمدح رجلًا

وقال أعرابي يمدح رجلاً:

حَلِيمٌ مع التَّقْوَى، شُجَاعٌ مع الْجَدَا ... نَدٍ حِينَ لا يَنْدَى السَّحابُ سَكُوبُ
ويَجْلُو أُموراً لو تَصَيَّفْنَ غَيْرَهُ ... لماتَ خُفَاتاً أو لَكَادَ يَذُوبُ
شَدِيدُ مَنَاطِ الْقَلْبِ في الموقف الذي ... بِهِ لِقُلُوبِ العالَمِينَ وَجِيبُ[4]

---

(١) وجار الضبع: جحره.

(٢) كان هجيراه على الراحلة: أي لم يزل يكرره وهو سائر.

(٣) أبو عذرته: صاحبه، والعذرة: البكارة، وهو أبو عذرة هذا الكلام: أي هو أول من نطق به، أو هو من ابتدعه.

(٤) وجيب: خَفقانٌ، ورَجَفانٌ، واضطرابٌ.

فَتًى هو مِنْ غَيْرِ التَّخلُّقِ مَاجِدٌ ... وَمن غَيْرِ تَأديبِ الرِّجَالِ أَدِيبُ

وقال بعض المحدَثين يَمْدح:

فَتًى يَجْعَلُ المعروفَ قَبْلَ سُؤَالِهِ ... وَيَجْعَلُ دُونَ العُذْرِ فَضْلَ التَّكَرُّمِ

أَغَرُّ متى تَقْصِدْ به فَضْل حَظِّهِ ... تُصِبْ وَمَتى تَطْلُبْ بِهِ الغُنْمَ تَغْنَمِ

على رَأْيِهِ يَنْضَمُّ مُنْصَدِعُ الصَّفا ... وَيَنْحَلُّ من عَقْدِ العُرَى كُلُّ مُبْرَمِ

لَهُ عَزْمَةٌ أَغْنَى من الجيشِ في الوَغَى ... وَخَطْرَةُ رامٍ كالْحُسَامِ المُصَمِّمِ[١]

جملة من كلام أبي الفَضْل أحمد بن الحُسَيْن الهَمَذاني[٢] بديع الزَّمان

وهذا اسمٌ وافق مُسَمَّاه، ولفظٌ طابقَ مَعْنَاه، وكلام غَضُّ المكاسر، أَنِيق الجواهر، يكادُ الهواء يسرقه لُطْفاً، والهوى يَعْشَقه ظَرْفاً.

كيف استوحى صنع المقامات

ولما رأى أبا بكر محمد بن الحُسَيْنِ بن دُرَيْد الأَزْدي[٣] أَغْرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادِنِ فِكْرِه، وأبداها للأبصار والبَصَائر، وأهداها للأفكارِ والضمائر، في معارض أعجمية، وألفاظ حُوشِية، فجاء أكثرُ ما أظْهر تَنْبُو عن قبوله الطباع، ولا ترفعُ له حُجُبَهَا الأسماعُ، وتوسَّع فيها؛ إذ صرَّف ألفاظَها ومعانيها، في وجوه مختلفة، وضروب متصرّفة، عارضها بأربعمائة مقامة في الكُدْيَة، تذوب ظَرْفاً، وتقطر حُسْناً، لا مناسبةَ بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وعطف مُسَاجلتها، ووقَفَ مناقلتها،

(١) عَزَمَ فلان عَزْماً، وعَزِيماً، وعَزِيمةً، وَعَزْمَةً، وَمَعْزِماً: جَدَّ وصَبَر. وخطر في مشيه خَطْراً، وخَطَرَاناً: اهتزَّ وتبختر. والحسامُ المُصَمِّمُ: السيف القاطع يمرُّ في العظام، ويمضي في الضريبة.

(٢) هو أبو الفضل، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد المعروف ببديع الزمان الهمذاني: أديب شاعر، متعصب لأهل الحديث والسنة. انفرد بفن المقامات، فكان أولَ من ابتدعها. توفي مسموماً بـ «هراة» سنة ٣٩٨ هـ/ ٩٩٨ م.
(عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١/ ٢٠٩).

(٣) هو أبو بكر، محمد بن الحسن بن دُرَيْد بن عتاهية الأزدي، البصري: أديب، شاعر، لغوي، نحوي، نسَّابة. ولد بالبصرة، وقرأ على علمائها، وأقام ببغداد إلى أن توفي سنة ٣٢١ هـ/ ٩٣٣ م. من آثاره: «الجمهرة في اللغة»، و «اشتقاق أسماء القبائل»، و «أدب الكاتب»، وغيرها. (ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١٨/ ١٢٧).

بين رجلين سمَّى أحدهما عيسى بن هشام والآخَرَ أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدُّر، ويتنافثان السِّحر، في معانٍ تُضْحِكُ الحزين، وتحرِّك الرَّصِينَ، يتطلّع منها كلّ طريفة، ويُوقفُ منها على كلِّ لطيفة، وربما أفرد أَحَدهما بالحكاية، وخصَّ أحدهما بالرواية؛ وسأذكر منها ما لا يُخِلُّ طولُه بالشرط المعقود، ولا ينافي حصولُه الغرضَ المقصود.

كتاب من البديع لأبي نصر الميكالي

كتب إلى أبي نصر أحمد بن علي الميكالي:

كتابي ـ أعَزَ الله الأمير! ـ وبودّي أن أكُونَه، فأسعد به دُونَه، ولكنَّ الحريصَ محروم، لو بلغ الرزق فاه، لَوَلاَّهُ قَفَاه. فرَّق الله بين الأيام، تفريقَها بين الكرام، وألهمها أن تورد بعقل، وَتُصدر بتمييز، وما ذلك على الله بعزيز، وأنا في مفاتحة الأمير، بين ثقة تَعِدْ، ويَدٍ تَرْتَعِدْ، ولم لا يكونُ ذلك؟ والبحْرُ وإن لم أره، فقد سمعتُ خبرَه، ومن رأى مِنَ السيف أثره، فقد عاين أكثرَه، والليث وإن لم ألْقَه، فلم أجهل خلقه، وما وراء ذلك من تالِد أصْلٍ وحَسَب، وطارفِ فَضْلٍ وأدب، وبُعْد همة وصِيت، فمعلوم تَشْهَد به الدفاتر، والخبرُ المتواتر، وتنطق به الأشعارُ، كما تصدق به الآثارُ، والعين أقلُّ الحواس إدراكاً، والأذن أكثرها استمساكاً، وإن بعدت الدار فلا ضَير؛ إنَّ أَيْسَر البعدين بُعْدُ الدارين، وخيرَ القربين قُرْبُ القلبين.

ومن البديع إلى الميكالي أيضاً

وكتب إليه في سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة:

الأمير الفاضل، والشيخ الرئيس، رفيعُ مَنَاطِ الهمة، بعيد منال الحرمة، وفسيح مجال الفضل، رَحِيبُ مُنْخَرَقِ الجود، رطيب مَكْسِرِ العود.

فَلَوْ نَظَمْتُ الثُّريَّا ... وَالشِّعْرَيَيْن قَرِيضَا[1]

وَكَاهِلَ الأَرضِ ضَرْبا ... وَشِعْب رَضْوَى عَرُوضَا

وَصُغْتُ لِلدرِّ ضِدًّا ... وَلِلهواءِ نَقِيضَا

بَلْ لَوْ جَلَوْتُ عليهِ ... سُودَ النوائبِ بِيضَا

---

(١) الشِّعْرَيَان: هما: الشِّعْرَى العَبُورُ، والشِّعْرى الغُمَيْصَاءُ، وهما: كوكبان نَيِّران.

أَوِ ادَّعَيْـــتُ الثـــرِيَّـــا لأَخْمصيـــهِ حَضِيضَـــا
وَالبَحْـــرُ عِنْـــدَ لُهَـــاهُ يَـــوْمَ العَطـــاءِ مَغِيضَـــا[١]

لما كنت إلاَّ في ذمة القُصُور، وجانب التقصير، فكيف وأنا قاعدُ الحالة فيُّ المدح، قاصِرُ الآلة عن الشَّرْح؟ ولكني أقول: الثناء مُنْجحٌ أنَّى سلك، والسخيُّ جوده بما ملك، وإن لم تكن غُرَّةٌ لائحة فَلَمْحَةٌ دالة، وإن لم يكن صَدَّاء فماء[٢]، وإن لم يكن خمر فَخَلّ، وإن لم يُصِبْها وابل فَطَلّ، وَبَذْلُ الموجود غاية الجود، وبعض الجهد آخر المجهود، وماش خير من لاش[٣]، ووجود ما قلَّ خيرٌ من عدم ما جَلَّ. وقليل في الجيب خير من كثير في الغَيْبِ، وجهد المقل خيرٌ من عذر المخل، وحمار أَيْس خيرٌ من فَرَسٍ لَيْس[٤]، وكوخ في العِيان خيرٌ من قصر في الوهم. وزيت خير من ليت، وما كان أجود من لَوْ كان، وقد قيل: عصفور في الكف أجودُ من كركي في الجو، ولأن تقطف خَيْرٌ من أن تقف[٥]، ومن لم يجد الجميم رعى الهشيم[٦]، ومن لم يحسن صهيلا نَهق، ومن لم يجد ماء تيمَّمَ؛ والأمير الرئيس ـ أدام الله نعماه! ـ لا ينظر في قوافي صنيعته إلى رَكَاكة ألفاظها، وبُعْدِ أغراضها، ولكن إلى كثرة جذرها[٧]، وثقل مهرها، وقِلَّة كفئها، وإنني منذ فارقت قَصَبَةَ جرجان، ووطئت عَتَبَةَ خراسان، ما زففتها إلا إليه، ولا وَقَفْتُها إلا عليه، هذا على تمرغي في أعطاف المحن، وضرورتي إلى أبناء الزمن، وإن كان الأمير الرئيس يرفعُ لكل لفظٍ حجاب سَمعه، ويُفْسِحُ لكل شعر فِناء طبعه، فهاك من النثر ما ترى، ومن النظم ما يترى:

---

(١) المَغِيضُ: المكان الذي يغيض فيه الماء، وقد غاض الماء غيضاً، ومَغاضاً، ومغيضاً: نزل في الأرض وغاب فيها.

(٢) صَدَّاء: ماء يُضْرَبُ به المثل في الحلاوة، يقال: مَاءٌ ولا كَصَدَّاءَ (الميداني، مجمع الأمثال: ٢/ ٢٧٧). وقال المفضل: صَدَّاء: رَكِيَّة لم يكن عندهم ماءٌ أعذب من مائها، وفيها يقول ضِرار السَّعْدي:

وَإِنِّـي وَتَهْيَـامـي بِـزَيْنَـب كَـالـذي تَطَلَّـبَ مِـنْ أَحْـواضِ صَـدَّاءَ مَشْـرَبَـا

(٣) لاش: لا شيء، ويقابله ماش، وهي عبارة مولدة.

(٤) الأيس: القهر. يريد أن حمار الضرورة خير من الفرس المعدوم.

(٥) تقطف: تسير ببطء، ومن أمثالهم: «أَقْطَفُ من أَرْنَب»، و «أقطف من نَمْلَةٍ»، و «أقطف من فُرَيْخ الذَّرِّ». (الميداني، مجمع الأمثال: ٢/ ١٢٩).

(٦) الجميم: النبت الغزير، والهشيم: اليابس، قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوُه الرِّيَاحُ﴾ (سورة الكهف، آية ٤٥).

(٧) الجذر: ما تكافأ به المغنية.

أَدْهِقِ الكاس فَعَرْفُ الْـفَجْرِ قد كادَ يلوحُ[1]

فَهُو للناسِ صَباحٌ وَلِذي الرأي صَبُوحُ

وَالذي يَمْرَحُ بي في حَلْبةِ اللَّهو جَموحُ

فَاسقنيها وَالأماني لَها عَرْفٌ يَفوحُ[2]

إنَّ لِلأيَّامِ أسرا راً بها سوفَ تَبُوحُ

لا يَغُرَّنَّكَ جِسمٌ صادقُ الحِسّ وَرُوحُ

إنما نحنُ إلى الآ جالِ نَغْدُو وَنَرُوحُ

وَيْكَ هذا العمر تَبريحٌ وهذا الروحُ ريحُ

بَينما أَنْتَ صَحِيحُ الجسم إذ أَنْتَ طَريحُ

فَاسقِنيها مِثْلَ ما يَلْفظهُ الدّيك الذَّبيحُ

قَبل أَن يَضْربَ في الدَّهْرِ بِيَ القِدْحُ السَّنيحُ[3]

إنما الدَّهرُ غَرُورٌ وَلمنْ أَصْغَى نَصيحُ

وَلِسان الدَّهرِ بِالْوَعْظِ لِوَاعيه فَصِيحُ

نَستبيحُ الدَّهرَ والأَيَّامُ مِنَّا تَسْتبيحُ

نَحْنُ لاهون وَآجا لُ المنايا لا تُريحُ

يا غلامُ الكأْسَ فاليأ سُ مِنَ الناسِ مُريحُ

ضَاعَ ما نَحْميهِ مِنْ أَنْفُسِنا وَهْوَ مُبيحُ

وَقُنوعاً فَمقامُ الذّ لّ بِالمرءِ قَبيحُ

أنا يا دَهْرُ بِأَبنا ئِكَ شِقٌّ وسَطيحُ[4]

وَبِأَبكارِ القوافي لا على كُفْءٍ شَحيحُ

---

(١) دَهَقَ الكَأْسَ دَهْقاً وَدَهاقاً: ملأها.

(٢) العَرْفُ: الرائحة مطلقاً، وأكثر ما يُستعمل في الطيبة منها.

(٣) السنيح: وفي رواية: «السفيح»، وهو أحد ثلاثة أقداح من أقداح الميسر ليست تربح شيئاً، وثانيها يُسَمَّى الوغد، وثالثها يُسمَّى المنيح.

(٤) شِقٌّ وسطيح: كاهنان من كُهّان الجاهلية، كان يضرب بهما المثل في معرفة الغيب.

يا بَني مِيكَالَ والجو ... دُ لِعِلاَّتي مُزِيحُ
شَرَفَاً إنِ مَجَالَ الْـ ... ـفضلِ فِيكُمْ لَفَسِيحُ
وَعلى قَدْرِ سَنَا الْمَمْـ ... ـدوحِ يَأْتِيكَ المديحُ
فَهُنَاكَ الشَّرَفُ الأَرْ ... فَعُ والطَّرْفُ الطَّمُوحُ
وَالنَّدى وَالخُلُقُ الطا ... هِرُ والخَلْقُ الصَّبِيحُ
مُرْتَقَى مَجْدٍ يَحارُ الـ ... ـطَّرْفُ فيهِ وَيُطِيحُ
أَيُّهذا الكَرمُ المَا ... ثِلُ والخُلْقُ السَّجِيحُ[1]
كَانَ هذا الجُودُ مَيْتاً ... عَادَه مِنْكَ المَسِيحُ

هذه ـ أطال الله بقاءَ الأمير! ـ هدية الوقت، وَعَفْوُ الساعة، وفَيْضُ البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليَدِ للفم، وجمرات الحدّة، وثمرات المدّة، ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطَّبْع للسَّمْع، ومجاذبة الجنان للبيان، والشعر إذا لم تقدمه رويّة، ولم تنضجه نيّة، لم يفتح له السمع بابه، ولم يرفع له القلب حجابه، وإذا لبس الأمير هذه على علاتها رجوت أن يكون بعدها ما هو أفتن وأحسن وأرصن، فرأيه أيده الله في الوقوف عليها موفقاً إن شاء الله.

كتاب عتب من البديع إلى الميكالي

وله إليه معاتبة:

لَئِنْ سَاءَنَي أَنْ نِلْتني بِمَسَاءةٍ ... لَقدْ سَرَّني أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكْ

الأَمير الفاضلَ الشيخ الرئيس، أطال اللَّهُ بقاءهُ إلى آخر الدعاء، في حَال برّه وجفائه مُتَفضِّل، وفي يَوْمَيْ إبعاده وإدْنَائِهِ مُتَطَوِّل. وهنيئاً له من حِمَانا ما يُحِلُّه، ومن عُرَانا ما يَحلُه، ومن أَعْرَاضِنا ما يستحلُّه؛ بلغني أنه ـ أَدام اللَّهُ عِزّه! ـ استزاد صنيعته، وكنت أظنني مجنيًّا عليه، مُسَاءٌ إليه، فإذا أنا في قرارة الذَّنْب، وبمثابة العَتْبِ، وليت شعري أيّ محظور في العشرة حَضَرْته، أو مفروض من الخِدْمة رَفَضْتُه، أو واجب في الزيارة أَهْمَلْتُه؟ وهل كنتُ إلا ضيفاً أهداه بَلَدٌ شاسع، وأَدَّاه أملٌ واسع، وحَداه فَضْلٌ وإن قلّ، وهدَاهُ رَأْيٌ وإنْ ضَلَّ، ثم لم يُلْقِ إلاَّ في آلِ مِيكَالَ رَحْلَه، ولم يَصِلْ إلاَّ بهم حَبْلَه، ولم يَنْظِم إلا فيهم

(١) الخُلُقُ السجيح: السهل.

شِعْرَه، ولم يَقِفْ إلا عليهم شُكْرَه؛ ثم ما بَعُدَتْ صحبةٌ إلا دَنَتْ مَهَانة، ولا زادت حُرْمة إلا نقصت صيانة، ولا تضاعَفَتْ مِنة إلا تراجعت مَنْزِلة، ولم تزل الضَعَة بنا حتى صار وابلُ الإعظام قَطْرَة، وعاد قميصُ القيام صُدْرَة، وذلك التقربُ ازْوِرَارا، وطويل السلام اختصاراً، والاهتزازُ إيماء، والعبارة إشارة؛ وحين عاتبته آملُ إعتابه، وكاتبته أَنْتَظِرُ جوابه، وسألته أرجو إيجابه، أجاب بالسكوت، وأَعْتَب بالقُنُوت، فما ازددت إلَّا له ولاءً، وعليه ثناءً؛ لا جَرَم إني اليوم أبيضُ وَجْهِ العهد، واضح محجَّةِ الوُدّ، طويلُ عِنَان القول، رفيع حِكْمَةِ العُذْر؛ وقد حَمَّلت فلاناً من الرسالة ما تجافى عنه القلم؛ والأمير الرئيس أطال الله بقاءَه يُنْعِمُ بالإصغاء لما يورده موفقاً إنْ شاء الله.

كتاب عتاب من البديع إلى الميكالي أيضاً

ولهُ إليه في هذا الباب:

أنا في خدمة الأمير الرئيس ـ أطال الله بقاءه! ـ مترجِّحٌ بين أَنْ أَشْرَبها رنقة[١] ولا أُسيغُها، وألجلج[٢] منها مُضْغة ولا أُجيزها، وبين أَنْ أَطْوِيَهَا على عَرِّها[٣]، ولا أرتضع أَخلاف دَرِّها.

فَلاَ نَفْسِي تُطَاوِعُنِي لِرَفْضٍ وَلاَ هِمَمِي تُوَطِّنُنِي لِخَفْضِ

وَبقي أن أقْرُصَه بأَنامِلِ العَتْبِ، وأَحْشُمَهُ بأَلحاظ العَذْل، وأعرفه أني ما أطوي مسافةَ مزار إلاّ متجشّماً، ولا أطأُ عَتَبَةَ دار إلا متبرِّماً؛ ولستُ كمن يَبْسُط يدَهُ مُسْتَجْدِياً، أو يَنْقل قدمَه مُسْتَعْدِيا؛ فإن كان الأميرُ الرئيس ـ أيّده اللّهُ! ـ يسرحُ طَرْفه منّي في طامح أو طامع، فَلْيُعِد للفِراسةِ نَظراً.

فما الفَقْرُ مِنْ أَرْضِ العَشِيرةِ سَاقَنِي إِليكَ، وَلَكِنَّا بِقُرْبَاكَ نَبْجَحُ

وأجدُني كلما استفزني الشوقُ إلى تلك المحاسن، أطِير إليها بجناحين عَجِلا، وأرجع بعَرْجاوَيْن خَجِلاً، ولولا أنَّ الرضا بذلك ضربٌ من سقوط الهمّة، وأن العِتابَ نوعٌ من أنواع الخدمة، لَصُنْتُ مجلسه عن قَلمي، كما أَصُونه عن قَدَمِي، وَلَمِلْتُ إلى أَرْض الدعاء فهو أَنْجَعُ، وإلى جانبِ الثناءِ فهو أَوْسَع، وسأَفعل لتخفّ مؤنتي، ولا تثقل وَطْأَتِي:

---

(١) الرَّنْقَةُ: الماء القليل الكَدِر يبقى في الحوض، ويقال: صار الماء رَنْقَةً: غلب عليه الطين.

(٢) لَجْلَجَ الشيءَ في فيه: أداره للمضغ.

(٣) العَرُّ والعُرُّ والعُرَّةُ: الجَرَبُ.

إذا مـــا عَتَبْـــتُ فلـــم تُعْتِـــبِ ... وَهُنْـــتُ عَلَيْـــكَ فلـــم تُعْـــنَ بـــي[١]

سَلَـــوْتُ، ولـــو كـــانَ مـــاءَ الحيـــاةِ ... لَعِفْـــتُ الـــوُرُودَ ولـــم أَشْـــرَبِ

قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر في معان شتى تجري مجرى الأمثال

لأبي فراس

أبو فِرَاس الحَمْدَاني[٢]:

إذا كـــانَ غَيْـــرُ اللَّـــهِ لِلمَـــرْءِ عُـــدَّةً ... أَتَـتْـهُ الـرَّزَايا مـن وُجـوهِ المَكَـاسِـبِ[٣]

وله[٤]:

عَفَـافُـك عِـيٌّ، إنمـا عِفَّـةُ الفَتَـى ... إذا عَـفَّ عَـنْ لَـذَّاتِـهِ وَهْـوَ قـادِرُ

للمتنبي

وقال المتنبي[٥]:

كُـــلُّ حِلْـــم أَتَـــى بِغَيْـــرِ اقْتِـــدارِ ... حُجَّـــةٌ لاَجِـــىءٌ إليهـــا اللِّئـــامُ

وله[٦]:

وإذا كـــانـــتِ النُّفُـــوسُ كِبـــاراً ... تَعِبَـــتْ فـــي مُـــرادِهـــا الأجْســـامُ

---

(١) أَعتبه: أزال عَتْبَهُ.

(٢) هو أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني: أمير، شاعر، فارس. تقلد «منبج» و «حران» وأعمالهما. أسره الروم مدّة طويلة، وَعُرِف شعره في الأسر بـ «الروميات». كان الصاحب بن عباد يقول: «بُدِىء الشعر بملك، وَخُتِم بملك» يعني امرأ القيس وأبا فراس. توفي سنة ٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م. (الثعالبي، يتيمة الدهر: ١/ ٥٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٢٩٧).

(٣) الرزايا: جمع رزية، وهي المصيبة، ولم نجد هذا البيت في ديوانه.

(٤) أبو فراس، الديوان: ١٠٤. وفيه: «عَفَافُكَ غَيٌّ».

(٥) ديوانه: ١/ ٣٠٨، يقول: إن الحلم الذي لا يصدر عن مقدرة لا يُسمّى حلماً، وإنما هو حجة يحتج بها اللئام ستراً لعجزهم.

(٦) ديوانه: ٢/ ١٠. يقول: إذا كانت النفوس كبيرة تطلب عظائم الأمور، تعبت الأجسام في تحصيل مرادها، لما يقتضيه من المشقة وركوب الأهوال.

وله[١]:

وَإذا أَتَتْـكَ مَـذَمَّتِـي مِـنْ نَـاقِـصٍ فَهِـي الشَّهـادَةُ لـي بِـأَنِّـيَ كـامِـلُ

وله[٢]:

لا يُعْجِبَـنَّ مَضِيمـاً حُسْـنُ بِـزَّتِـهِ وَهَـلْ تَـرُوقُ دَفِينـاً جَـوْدَةُ الكَفَـنِ؟

وله[٣]:

مَـنْ أَطـاقَ الْتِمَـاسَ شَـيءٍ غِـلاباً وَاغْتِصـابـاً لَـمْ يَلْتَمِسْـهُ سُـؤَالا

وله[٤]:

وَالظُّلْـمُ مِـنْ شِيَـمِ النفـوسِ، فَإِنْ تَجِدْ ذا عِفَّـةٍ فَلِعِلّـةٍ لا يَظْلِـمُ

وله[٥]:

مـاذا لَقِيـتُ مِـنَ الـدنيـا وَأَعْجَبُـهُ أَنِّـي بمـا أَنـا بَـاكٍ مِنْـهُ مَحْسُـودُ

وله[٦]:

ذِكْـرُ الْفتـى عُمْـرُهُ الثَّـانـي، وَحَـاجَتُـهُ مـا قَـاتَـهُ، وفُضـولُ الْعَيْـشِ أَشْغَـالُ

والمتنبي أَكْثَرُ المحدَثِين افْتِناناً وإحساناً في الإغراب بهذا البابِ؛ والاستقصاءُ يخرج عن شرط الكتاب.

---

(١) المتنبي، الديوان: ١/ ٣٣٢.

(٢) نفسه: ١/ ٣١٧. والمضيم: المظلوم. والبزّة: اللباس. وراقه الشيء: أعجبه. يقول: لا ينبغي له أن يفرح بذلك على ما هو فيه من الذل، فإنه كالميت الذي عليه أكفان حسنة.

(٣) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٠٢. غلاباً: مغالبة. يقول: من استطاع أن ينال حاجته بالقهر والغلبة، لم يتكلف أن ينالها بلين السؤال وذلّ الامتنان.

(٤) المتنبي، الديوان: ١/ ٣٩. والشيم: الطباع. يقول: نفوس الناس مطبوعة على الظلم، فإن وجدت فيهم من يعفُّ عنه فلسبب كالعجز والخوف ونحوهما.

(٥) المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٢٦. وفيه: «بما أَنا شَاكٍ مِنْهُ». يقول: أعجب ما لقيت من الدنيا أنَّ الناس يحسدوني على علاقتي بكافور، وهو عِلَّةُ شكواي.

(٦) المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٠٧. يقول: إذا بقي ذكر الإنسان بعد موته، فذلك بمنزلة حياة ثانية له، وحاجة الإنسان في حياته قدر القوت، وما فضل عنه، فهو شغل له لا حاجة إليه ولا منفعة فيه.

للسري الرَّفاء

وقال السَّريّ الموصلي[١]:

خُـذُوا مِـن العَيْـشِ فَـالأعمـارُ فَـائتـةٌ وَالـدهـرُ مُنْصَـرِمٌ وَالعَيْـشُ مُنْقَـرِضُ

وله:

فَـإنَّـكَ كلَّمـا استُـودِعْـتَ سِـرًّا أَنَـمُّ مِـنَ النَّسِيـمِ علـى الـرِّيـاضِ[٢]

للصابي

وقال أبو إسحاق الصَّابي[٣]:

الضَّبُّ والنُّونُ قَـدْ يُـرْجَـى الْتِقَـاؤُهُمَـا وَلَيْـسَ يُـرْجَـى الْتِقَـاءُ اللُّبِّ والـذَّهـبِ[٤]

لابن نباتة

وقال ابن نُبَاتة[٥]:

مَثَـلٌ خَلَعْـتُ علـى الـزمـانِ رِداءَهُ عَـوَزُ الـدَّراهـمِ آفـةُ الأَجْـوَادِ

---

(١) هو أبو الحسن، السريّ بن أحمد بن السريّ الكندي الموصلي: شاعر، كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بالموصل، فعرف بالرفَّاء. أقام مدة عند سيف الدولة ومدحه، ومدح الوزير المهلبي ببغداد. توفي سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م. (البغدادي، تاريخ بغداد: ٩/ ١٩٤؛ الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ١٣٧).

(٢) أَنَمُّ: أكثر نمًّا، وقد نَمَّ الحديث: سعى به، ونمَّ بين القوم: حرَّش، ونمَّ الشيء: انتشرت رائحته.

(٣) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال بن هُرون الصابي الحرَّاني: كاتب، شاعر، بليغ. خدم الخلفاء والوزراء، وتقلّد جليل الأعمال. وكان متشدداً في دينه، ولم يهده الله تعالى إلى الإسلام. توفي ببغداد سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م. (الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٧؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٢/ ٢٠ ـ ٩٤).

(٤) الضبُّ: حيوان من الزواحف، غليظ الجسم خشنُه، وله ذَنَبٌ عريض حَرِش أعقد، يكثر في صحارى الأقطار العربية. والنون: الحوت. واللبُّ: العقل.

(٥) هو أبو نصر، عبد العزيز بن عمر بن نباتة التميمي السعدي: شاعر مجيد، جمع بين حسن السبك وجودة المعنى. طاف في البلاد ومدح الملوك والوزراء، وله في سيف الدولة الحمداني غرّ القصائد. توفي ببغداد سنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٥ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ١٩٠).

وله:

يَهْــوَى الثنــاءَ مُبــرِّزٌ وَمُقَصِّــرٌ ... حُــبُّ الثنــاءِ طَبيعــةُ الإنســانِ

للسلامي

وقال أبو الحسن السَّلامي[1]:

تَبسَّطنــا علــى اللَّــذَّات لَمَّــا ... رَأَيْنَــا العَفْــوَ مــن ثَمَــرِ الــذُّنــوبِ

لابن لنكك

وقال ابن لَنكَك البَصْري[2]:

وَمــاذا أُرجِّــي مــن حَيــاةٍ تكــدَّرَتْ ... وَلَـو قـد صَفَـتْ كـانَـتْ كَأَحـلامِ نـائـمِ

للمأموني

وقال أبو طالب المأموني:

لــي فــي ضَميــرِ الــدَّهْــرِ سِــرٌّ كــامِــنٌ ... لا بُــدَّ أَنْ تَـنْـتَـلَــهُ الأَقــدارُ

لابن العميد

وقال أبو الفَضْل بن العميد[3]:

---

(١) هو أبو الحسن، محمد بن عبد اللّه بن محمد، من بني الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم: شاعر مطبوع محسن، ولد بالكَرْخ، ونشأ في مدينة السلام فعرف بالسَّلامي وبالبغدادي. توفي سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٣ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٢/ ٣٣٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣/ ٣١٧).

(٢) هو أبو الحسن، محمد بن محمد بن جعفر المعروف بابن لَنْكَكَ البصري: شاعر واضح المعاني، متين التركيب. كان معاصراً للمتنبي، فخمل ذكره، وكسد شعره. وكانت وفاته بين ٣٦٠ ـ ٣٦٢ هـ/ ٩٧٠ ـ ٩٧٢ م. (الثعالبي، يتيمة الدهر: ٢/ ٣٢٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٨/ ٢٤٤).

(٣) هو أبو الفضل، محمد بن العميد: ناثر، شاعر، ولكنه شُهِر بالنثر، وفاق أقرانه حتى قيل: بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وَخُتِمَت بابن العميد. توفي سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م. (أبو حيان التوحيدي، أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد (دراسة كاملة)؛ الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ١٨٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٣/ ٣١).

الـرَّأي يَصْـدَأ كـالْحُسـامِ لِعَـارِضٍ يَطْـرَا عليـه وَصَقْلُـهُ التَّـذْكِيـرُ

لأبي الفتح بن العميد

وقال أبو الفَتْح[1]:

بَطِرْتُمْ فَطِرْتم والعَصَا زَجْرُ مَنْ عَصَى وَتَقْـوِيـمُ عَبْـدِ الهُـون بِـالْهُـونِ رادعُ

وله:

إذا بَلَـغَ المَـرْءُ آمَـالَـهُ فَلَيْـسَ لَـهُ بَعْـدَهـا مُقْتَـرَحْ

لابن عباد

وقال الصاحب إسماعيل بن عباد:

إن أُمَّ الصَّقْـرِ فـي الـوُدْ دِ لَمِقْـلاَتٌ نَـزُورُ[2]

وله:

مَـنْ لَـمْ يَعُـدْنَـا إذا مَـرِضْنَـا إنْ مـاتَ لـم نَشْهَـدِ الجنـازَهْ

وله:

حِفْـظُ اللسـانِ رَاحـةُ الإنسـانِ فَـاحْفَظْـهُ حِفْـظَ الشُّكْـرِ لِـلإِحْسَـانِ

للناشىء

وقال إسماعيل النَّاشىء:

وَكُنْـتُ أَرَى أَنَّ التجـاربَ عُـدَّةٌ فَخـانَـتْ ثِقَـاتُ النـاسِ حَتَّـى التَّجـارِبِ

---

(١) هو أبو الفتح، علي بن محمد بن العميد: ناثر، شاعر، جمع تدبير السيف والقلم لركن الدولة، فلقب بـ«ذي الكفايتين». وكان أبو بكر الخوارزمي يدعوه «القمغدي» لأنه كان قمي المولد، بغدادي المنشأ. سُجن في أواخر أيامه وعُذِّب حتى مات سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٧ م. (الثعالبي، يتيمة الدهر: ٣/ ٢١٥).

(٢) المقلات: التي لا يعيش لها ولد، أو التي تضع واحداً ثم لا تحمل، والنزور من الإناث: القليلة الولد أو اللبن.

لأبي الفتح البستي

وقال أبو الفتح البُسْتي:

لا تَـرْجُ شيئـاً خـالِصـاً نَفْعُـهُ فـالغَيْـثُ لا يَخْلُـو مِـنَ الْعَيْـثِ(١)

وله:

وَلـم أَر مِثْـلَ الشُّكْـرِ جَنَّة غَـارسٍ وَلا مِثْـلَ حُسْـنِ الصَّبْـرِ جُبَّـة لاَبِـسِ

وله:

وَطـولُ مُقـامِ المـاءِ فـي مُسْتَقَـرِّهِ يُغَيِّـرُهُ رِيحـاً وَلَـوْنـاً وَمَطْعَمـا

وله:

مـا اسْتَقـامَـتْ قَنَـاةُ رَأْيِـيَ إِلاَّ بَعْـدَ مـا عَـوَّجَ المَشِيـبُ قَنَـاتِـي

للميكالي

وقال أبو الفضل الميكالي:

هُـوَ الشـوكُ لا يُعْطِيـكَ وافـرَ مِنَّـةٍ يَـدَ الـدهـرِ إِلاَّ حيـنَ تَضْـرِبُـهُ جَلْـدَا

وله:

ذُو الفَضْـلِ لا يَسْلَـمُ مِـنْ قَـدْحٍ وَإِنْ غَـدَا أَقْـوَم مِـنْ قِـدْحِ

لشمس المعالي

وقال شَمْسُ المعالي:

وَفـي السَّمـاءِ نُجـومٌ مـا لَهـا عَـدَدٌ وَلَيْـسَ يُكْسَـفُ إلا الشَّمْـسُ والقمـرُ

هذا مأخوذ من قول الطائي:

إِنَّ الـريـاحَ إذا مـا اسْتَعْصَفَـتْ قَصَفَـتْ عِيـدانَ نَجْـدٍ فلـم يَعْبَـأْنَ بِـالـرَّتَـمِ(٢)

---

(١) العَيْثُ: الإفساد.

(٢) الرتم: نبت ضعيف.

بَنَاتُ نَعْشٍ وَنَعْشٌ لا كُسوفَ لها وَالشمسُ والبَدْرُ منها الدَّهْرُ في الرَّقمِ

للجرجاني

وقال أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي(١):

الهَجْرُ أَرْوَحُ من وَصْلٍ على حَذَرٍ وَالموتُ أَطْيَبُ مِنْ عَيْشٍ على غَرَرِ

للخوارزمي

وقال أبو بكر الخُوَارزمي(٢):

لا تَغُرَّنْكَ هذه الأَوْجُهُ الْغُرُّ فَيَا رُبَّ حَيَّةٍ في رِياضِ

[من تُبطره النعمة لم يؤسف على زوالها عنه]

بين أبي العيناء وابن فرخان شاه

قال أبو العَيْنَاء(٣): كان عيسى بن فَرْخان شاه يَتِيهُ عليَّ في ولايته الوِزَارَة، فلما صُرِف رَهِبَنِي، فَلَقِيني فَسلّم عليَّ فأَحْفَى. فقلت لغلامي: مَنْ هذا؟ قال: أبو موسى؛ فدنوتُ منه وقلت: أعزَّك الله، والله لقد كُنْتُ أَقْنَع بإيمائك دون بَيانِكَ، وَبِلَحْظِكَ دُونَ لَفْظِك، فالحمدُ لله على ما آلَتْ إليه حَالُك، فلئن كانت أَخْطَأَتْ فيك النّعمةُ، فلقد أصابت فيك النِّقْمَةُ، ولئن كانت الدنيا أَبْدَتْ مقابِحَهَا بالإقبال عليك، لقد أظهرَتْ محاسنها بالانصرافِ عنك، وَلِلَّهِ

(١) هو أبو الحسن، علي بن عبد العزيز الجرجاني: قاض، وإمام فاضل، وشاعر، وناثر، وفقيه، ومتكلم. ولد بجرجان، وتطوَّف في البلاد، وكان على صلة وثيقة بالصاحب بن عباد. توفي وهو قاضي القضاة في الريّ سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٣ م، ودفن بجرجان. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٥٨٥).

(٢) هو أبو بكر، محمد بن العباس الخوارزمي: أديب، شاعر، ناثر، لغوي، وعالم بأخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم. ولد في خوارزم، وتوفي في نيسابور سنة ٣٨٢ هـ/ ٩٩٣ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ٣/ ١٠٥).

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن القاسم بن خَلّاد بن ياسر بن سليمان اليمامي، مولى بني هاشم من بني العباس: أديب، فصيح، بليغ، إخباري، وآية في الظرف والذكاء وسرعة الجواب واللَّسَن. ولقب بأبي العيناء لأنه قال لأبي زيد الأنصاري: كيف تصغر عيناً؟ فقال: عييناً يا أبا العيناء، فبقي عليه. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٤/ ٣٤٣؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٣٣٨).

المِنّة إذ أَغْنانا عن الكَذِبِ عليك، ونزَّهَنَا عن قول الزُّورِ فيك، فقد والله أَسَأْتَ حَمْلَ النَعم، وما شَكَرْتَ حق المُنْعِم، فقيل له: يا أبا عبد اللّه؛ لقد بالغت في السبِّ، فما كان الذنب؟ قال: سألته حاجةً أقل من قِيمَتِهِ، فردَّ عنها بأَقْبَحَ من خِلْقَتِه.

بين ابن الرومي وأبي الصقر

وقال عليّ بنُ العباس الرومي لأبي الصقر إسماعيل بن بلبل لما نكبه الموفق بن أحمد وألَمَّ في بعض قوله بقول أبي العيناء(١):

لا زالَ يَومُكَ عِبْرةً لِغَدِكْ ... وَبَكَتْ بِشَجْوٍ عَيْنُ ذي حَسَدِكْ

فَلئِنْ نُكِبْتَ لطالما نُكِبَتْ ... بِك هِمةٌ لجأَتْ إلى سَنَدِكْ

لَو تَسْجُدُ الأَيامُ ما سَجَدَتْ ... إلاّ لِيَوْمٍ فَتَّ في عَضُدِكْ

يا نِعْمَةً وَلّتْ غَضَارَتُهَا ... ما كان أقْبَحَ حُسْنَهَا بيَدِكْ

فَلَقَدْ غَدَتْ بَرْداً على كَبِدي ... لَمَّا غَدَتْ حَرًّا على كَبِدِكْ

وَرَأَيْتُ نُعمَى اللَّهِ زائدةً ... لما اسْتَبَانَ النَّقْصُ في عَدَدِكْ

وَلَقَدْ تمنّتْ كُلُّ صَاعقةٍ ... لو أنَّها صَبَّتْ على كَتَدِكْ(٢)

لَمْ يَبْقَ لي مما بَرَى جَسَدي ... إلاّ بقاء الرُّوح في جَسَدِكْ

وله فيه أَهَاجٍ كثيرة لما نكب، منها قوله(٣):

خَفض أبا الصَّقر فَكَمْ طائرٍ ... خَرَّ صَرِيعاً بَعْدَ تَحليقِ

زُوِّجْتَ نُعْمَى لم تكن كُفْأَهَا ... فَصَانها الله بِتَطْلِيقِ

لا قُدِّسَتْ نُعمَى تَسَرْبَلْتَهَا ... كَمْ حُجّةٍ فيها لِزِنْدِيقِ(٤)

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٥/ ٧٦.

(٢) الكَتِدُ: مجمع الكتفين من الإنسان والفرس، أو الكاهل، والجمع: أكتاد وَكُتود. وفي الديوان: «على كبدك».

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٧٢. وفيه: «صبراً أبا الصقر فكم طائرٍ».

(٤) تَسَرْبَلْتَهَا: لبستها، وهو من تسربل السربال (القميص) إذا لبسه. والزنديق: من يؤمن بالزندقة، وهي القول بأزلية العالم، وَتُطْلَقُ على كلِّ شاكٍّ أو ضالٍّ أو مُلْحِد. يريد: أن النعم التي تسربلها هذا الرجل وليس لها بأهل، مما تقوى به حجة الزنادقة في جحود الله.

مدحه لابن الرومي في أبي الصقر

وكان أبو الصقر لمَّا ولي الوزارة مَدَحَه ابن الرومي بقصيدته النونية التي أولها[١]:

أَجْنَيْنَكَ الورد أغصانٌ وكُثْبانُ ... فِيهن نَوعانِ تُفَّاحٌ وَرُمَّانُ

وَفَوْقَ ذَيْنِكَ أَعْنَابٌ مُهَدَّلةٌ ... سُودٌ لَهُنَّ مِن الظَّلماء أَلوانُ[٢]

وَتحتَ هاتيك عُنَّابٌ تَلُوحُ بِهِ ... أطرافهن قُلوبُ القوم قِنْوَانُ[٣]

غُصونُ بَانٍ عليها الزهر فَاكِهةٌ ... وما الفواكِهُ مما يَحْمِلُ البانُ

وَنرجسٌ بات سَارِي الطَّل يَضْرِبُهُ ... وَأُقحوانٌ مُنِيرُ اللّونِ رَيَّانُ

أَلَّفنَ من كُلِّ شيءٍ طَيِّبٍ حَسَنٍ ... فَهُنَّ فاكِهةٌ شتَّى وَرَيْحَانُ

ثمار صِدْقٍ إذا عَايَنْتَ ظَاهِرَها ... لَكِنَّها حين تَبْلُو الطَّعْمَ خُطْبَانُ[٤]

وَلا يَدُمْنَ على عَهْدٍ لِمُعْتَقِدٍ ... وَالغانياتُ كما شُبِّهنَ بُستَانُ[٥]

يَميلُ طَوراً بِحِمْلٍ ثم يُعْدَمُهُ ... وَيَكْتَسِي ثم يُلْفَى وَهْوَ عُرْيانُ

وهي أكثر من مائتي بيتٍ، مرَّ له فيها إحسانٌ كثير، فأنشدها أبا الصَّقْر، فلما سمع قوله:

قالوا أبو الصَّقْرِ من شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ ... كَلاَّ لعمري وَلكِنْ مِنْهُ شَيْبَانُ

قال: هجاني، قيل له: إنّ هذا من أحسن المدح؛ ألاَ تسمع ما بعده:

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلاَ بِابْنٍ ذُرَى شَرَفٍ ... كما عَلَتْ بِرَسُولِ الله عَدْنَانُ

قال أنا بشيبان لا شيبان بي. فقيل له فقد قال:

وَلَم أُقَصِّر بِشَيْبَانَ التي بَلَغَتْ ... بها المبالغُ أَعراقٌ وَأَغْصانُ

لله شَيْبَانُ قَوْمٌ لا يَشُوبُهُم ... رَوْعٌ إذا الروع شَابَتْ منه وِلْدَانُ

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ١٧٣. وفيه: «أَجَنَّتْ لَكَ الوَجْدَ».

(٢) مُهَدَّلَةٌ: مُتَدلِّيَةٌ.

(٣) قنوان: جمع قِنْو: العِذْقُ بما فيه من الرُّطَب، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوانٌ دَانِيَةٌ﴾ (سورة الأنعام، آية ٩٩).

(٤) الخُطْبَانُ: نبتة في آخر الحشيش كأنها الهِلْيَوْن، أو أذناب الحيَّات، وأطرافها رقاق تشبه البنفسج، وهي شديدة المرارة، ويقال: أَخْطَبَ الحنظل: اصْفَرَّ وصارت فيه خطوط خُضْرٌ.

(٥) في الديوان: «أَنَّى وَهُنَّ كما شُبِّهْنَ بُسْتَانُ».

فقال: لا والله لا أُثِيبه على هذا الشعر، وقد هجاني.

قال أبو بكر محمد بن يَحْيَى الصُّولي[١]: كنتُ يوماً عند عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، وقد ذكروا قصيدةَ ابن الرومي هذه النونية، فقال: هذه دارُ البطيخ، فاقرءوا تشبيهاتها تعلَموا ذلك! فضحك جميع من حضر.

وفي هذه القصيدة يقول من المختار في النسيب:

يا رُبَّ حُسّانةٍ مِنْهُنَّ قَدْ فَعَلَتْ ... سُوءاً، وَقَدْ يَفْعَلِ الأَسْوَاءَ إِحْسانُ

تُشْكِي المُحبَّ وَتُلْفىٰ الدَّهْرَ شَاكِيَةً ... كالقَوْس تُصْمِي الرَّمايا وهي مِرْنانُ[٢]

وهذا كقوله في قصيدة يَصِفُ فيها قوس البُنْدُق[٣]:

لَهَا رَنَّة أَوْلَى بها مَنْ تُصِيبُهُ ... وأَجْدَرُ بالإعوالِ مَن كان مُوجَعا

يقول فيها:

لا تَلْحَياني وإيّاها على ضَرَعي ... وَزَهْوِها، لَجَّ مَفْتُون وَفَتّانُ

إني مُلِكْتُ فَبِي لِلرِّقِّ مَسْكَنَةٌ ... وَمُلِّكَتْ فَلَها بالمُلْكِ طُغْيانُ

لي مُذْ نَأَتْ وَجْنَةٌ رَيَّا بِمَشْرَبِها ... مِنْ عَبْرَتي وَفَمٌ ما عِشْتُ ظمآنُ

وفيها في مدح بني شَيْبان:

قَوْمٌ سَمَاحَتُهمْ غَيْثٌ، وَنَجْدَتُهُمْ ... غَوْثٌ، وآراؤُهم في الخَطْبِ شُهْبَانُ

تَلْقاهُمُ وَرِماحُ الخطِّ حَوْلَهُمُ ... كالأُسْدِ أَلبسها الآجامَ خَفّانُ[٤]

---

(١) هو أبو بكر، محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن العباس بن محمد بن صول تكين: راوية، أديب، لغوي، مُصنِّفٌ، وله معرفة بالغناء والشطرنج. اتخذه الخلفاء مؤدباً لأبنائهم، وكاتباً ونديماً لهم. توفي بالبصرة سنة ٣٣٥ هـ/٩٤٧ م. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣/٤٢٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ٢/٣٣٩).

(٢) تشكي المُحب: تحمله بظلمها على الشكاية. تُصْمِي: تقتل، تهلك، وقد أَصمى الرجل الرمية: أنفذ فيها السهم ونحوه، وقد صَمَى الصَّيْدُ ونحوه: أُصيب ومات بين يدي صائده. والرمايا: جمع الرمية بمعنى: المرمية. ومرنان: لَدْنَةٌ.

(٣) ابن الرومي، الديوان: ٤/١١٩. وفيه: «لها عَوْلَةٌ».

(٤) خَفَّان: أجمة في سواد الكوفة.

صَانوا النفوس عنِ الفَحْشاءِ وابتذلوا منْهُنَّ في سُبُلِ العلياءِ ما صَانوا
المُنعمونَ وما مَنُّوا على أَحَدٍ يَوْماً بنُعْمى، ولو مَنُّوا لما مَانوا(١)

يقول فيها في أبي الصقر:

يَفْدِيه مَنْ فيه عن مِقْدار فِدْيَتِهِ عنِ المُفاداةِ تَقْصِيرٌ ونُقْصَانُ
قَوْمٌ كأنَهُمُ مَوْتَى إذا مُدِحُوا وَما لهم من حَبِيرِ الشعر أكْفانُ(٢)
صَاحي الطباع إذا سَالتْ هَواجِسُهُ وإن سألت يَدَيْه فَهْوَ نَشْوانُ
يُصْحِيه ذِهْنٌ وَيَأْبَى صَحْوَهُ كرمٌ مُتَحَكِمٌ فَهْوَ صاحٍ وَهْوَ سَكْرانُ
فَردٌ جميعٌ يَرَاهُ كلُّ ذي بَصَرٍ كَأَنَّهُ الناسُ طُرًّا وَهْوَ إنسانُ

وهذا كقول أبي الطيّب(٣):

وَلَقِيتُ كلَّ الفاضِلِينَ كأنَّما رَدّ الإلَهُ نُفوسَهُمْ والأَعْصُرَا(٤)
نُسِقوا لنا نَسَقَ الحسابِ مُقدَّماً وأتى فَذَلِكَ إذْ أتيتَ مُؤخَّرَا(٥)

وقد تقدم.

وقال:

فَإِنْ يَكُ سَيَّارُ بْنُ مَكْرمٍ انْقَضَى فَإنَّكَ ماءُ الوَرْدِ إن ذَهَبَ الوَرْدُ
مَضَى وَبَنُوهُ وانْفَرَدْتَ بِفَضْلِهِمْ وَأَلْفٌ إذا ما جُمِّعَتْ واحِدٌ فَرْدُ

وقال البُحْتُري(٦):

---

(١) مان: كذب، فهو مائن وميّان، يقال: فلان متماين الوُدّ: غير صادقه.
(٢) حَبَّرَ الشعرَ والكلامَ والخطَّ: زَيَّنَهُ ونَمَّقَهُ، فهو حبير، ومنه ثوبٌ حبير: ناعم مُوشًى.
(٣) المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٥١.
(٤) يقول: لقيت بلقائه كل فاضل من الأولين، لأنه قد جمع فضلهم، فكأني مُعاصر لهم، وكأن الله قد أحياهم وَردَّ عصورهم.
(٥) نُسقوا: سردوا. يقول: إن هؤلاء الفاضلين قد تتابعوا واحداً بعد آخر متقدمين عليك في الزمان، فلما أتيت بعدهم جمعت ما كان فيهم من الفضائل، فكنت منهم بمنزلة إجمال الحساب الذي تذكر تفاصيله أولاً، ثم تُجمل تلك التفاصيل فيكتب في آخرها، فذلك كذا وكذا.
(٦) البحتري، الديوان: ١/ ٦٥. وفيه: «أمثال الرجال تفاوتت... إلى الفضل».

وَلـم أرَ أَمْثَالَ الرجَالِ تَفَاوُتاً ... لَدَى المَجْدِ، حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِواحدِ

ومدحه وعاتبه بقصائد كثيرة فما أنجحت، فمن ذلك قوله في قصيدة طويلة يمدحه[١]:

لابن الرومي في أبي الصقر أيضاً

فـي وَجْهِهِ رَوْضَةٌ للحسنِ مُونِقَةٌ ... ما رادَ في مِثْلِها طَرْفٌ وَلاَ سَرَحَا[٢]

طَلُّ الحياءِ عليها سَاقِطٌ أبداً ... كاللؤلؤ الرَّطْبِ لو رَقْرَقْتَهُ سَفَحا[٣]

أَنَا الزعيمُ لِمَكْحُولٍ بِغُرَّتِهِ ... أَلاَّ يَرَى بَعْدَها بُؤْساً ولا تَرَحا

مَهْمَا أَتَى الناس من طَوْلٍ ومن كَرَمٍ ... فإنما دخلوا البابَ الَّذِي فَتَحا

يُعْطِي المزاحَ وَيُعْطِي الجدَّ حَقَّهُما ... فَالموتُ إن جَدَّ، والمعروفُ إن مَزَحا

وَافى عُطَارِدَ وَالمرِّيخَ مَوْلِدُهُ ... فأَعْطَياهُ من الحَظَّيْنِ ما اقْتَرَحا

إن قال: لا، قالها لِلآمرِيهِ بها ... وَلم يَقُلْها لمن يَسْتَمْنِحُ المِنَحا

في كَفِّهِ قلمٌ ناهيكَ مِنْ قلمٍ ... نُبلاً، وناهيك من كَفٍّ بما اتَّشَحا[٤]

يَمْحُو وُيُثْبِتُ أَرْزَاقَ العبادِ بِهِ ... فما المقاديرُ إلا ما مَحَا وَوَحَى[٥]

كأنما القلمُ العُلْوِي في يَدِهِ ... يُجْرِيهِ في أيِّ أنحاءِ البلادِ نَحَا

لما تَبَسَّمَ عنكَ المَجْدُ قُلْتَ لهُ ... قَهْقِهْ فلا نَغَلاً تُبْدِي ولا قَلَحا[٦]

أُثْنِي عليكَ بِنُعْمَاكَ التي عَظُمَتْ ... وَقد وَجَدْتُ بها في القَوْلِ مُنْفَسَحَا

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٣٨.

(٢) راد الشيء وارتاده: طلبه، ورادت الإبل: جالت.

(٣) في الديوان: «عليها واقعٌ أبداً».

(٤) اتَّشَحَ بسيفه وتَوشَّح: تَقلَّد، ومنه: اتشحت المرأة: لبست الوشاح، واتَّشح فلاناً: عانقه.

(٥) وَحَى: كتب، والوحي: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، قال العجاج:

حَتَّى نَحَاهُمْ جَدُّنا وَالنَّاحي ... لِقَدَرٍ كانَ وَحَاهُ الوَاحِي

(ابن منظور، اللسان: وحى).

(٦) النَّغَلُ: فساد الجرح، والجلد، والأسنان، والنيَّة، ومنه: نغل قلبه على فلان ضَغِنَ. والقَلَحُ: فساد الأسنان، يقال: قلحت السِّنُّ قَلَحاً: تغيَّرت بصفرةٍ وخضرةٍ تعلوها.

أَمْطِـرْ بِــذَاكَ جَنَــانــي تَكْسُــهُ زَهَــراً ... أَنْــتَ المُحيّــا بِــريَّــاهُ إذا نَفَحَــا

أنشدتها على متوالي الاختيار، وكذلك أجري في كثير من الأشعار.

وله إليه أيضاً

وقال يعاتبه ويستبطئه:

عَقيـدَ النَّـدَى، أطلِـقْ مَـدائِـح جَمَّـةً ... حَبائـسَ حَسْـرَى قـد أَبَـتْ أَنْ تُسَـرَّحـا

وَكُنْـتَ مَتـى تُنْشَـدْ مَـديحـاً ظَلَمْتـهُ ... يُـرى لـكَ أَهْجـى مـا يُـرى لـكَ أَمْـدَحـا

عَـذَرْتُـك لـو كَـانَـتْ سَمـاءٌ تَقَشَّعَـتْ ... سَحـائبُهـا أو كـان رَوْضٌ تَصَـوَّحـا[1]

وَلكنهــا سُقْيَــا حُــرِمْــتَ رَوِيَّهَــا ... وَعَـارِضُهَـا مُلْـقٍ كَـلاكِـلَ جُنَّحـا[2]

وَأكْـلاَء مَعْـروفٍ حُـرِمْـت مَـرِيعَهَـا ... وَقد عَاد منها السَّهْلُ والحَزْنُ مَسْرَحَا[3]

عَـرَضْـتَ لأَورادي وَبَحْـرُكَ زاخِـرٌ ... فَلمَّـا أَرَدْنَ الـوِرْدَ أَلْفَيْـنَ ضَحْضَحَـا[4]

فَلَـوْ لَـمْ تُـرِدْ أَذْواد غَيْـرِي غِمَـارَهُ ... لَقُلْـتُ: سَـرَابٌ بِـالمِتَـانِ تَـوَضّحـا[5]

---

(١) صَوَّح النبت وتصوَّح: يَبس حتى تَشقَّق.

(٢) الكلاكل: الصدور، الواحد: كَلْكَلٌ، ويستعار الكلكل لما ليس بجسم كقول امرىء القيس في وصف الليل:

فَقُلْــتُ لَــهُ لَمَّــا تَمَطَّــى بِصُلْبِــهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَــازاً وَنَــاءَ بِكَلْكَــلِ

(ديوانه: ص ٤٨).

وجعل البحتري للدهر كَلْكَلاً بقوله:

فَهُــوَ يُبْــدِي تَجَلُّــداً وَعَلَيْــهِ ... كَلْكَـلٌ مِـنْ كَـلاكِـل الـدَّهْـرِ مُرْسِـي

(ديوانه: ١/ ١٩٣).

(٣) الأكلاء: جمع كَلأ: العشب رطبه ويابسه، ومنه: كلأ الله فلاناً كَلْئاً وَكِلاءً وَكِلاءَةً: حفظه. والسهل: ما سهل ولان من الأرض، والحزن: ما غلظ منها واشتد. والمَسْرَحُ: مرعى السَّرْح، وهو الماشية.

(٤) الضَّحْضَحُ والضَّحْضَاحُ: ماء قليل لا عمق فيه. والضحضح عند الجغرافيين: رمل أو صخر يجتمع قريباً من سطح الماء في بحر أو نهر، وَيُخْشى منه على الملاحة.

(٥) الأذواد: جمع ذود، وهو من الإبل من الثلاثة إلى العشرة. وفي المثل: «الذود إلى الذود إبل»، يضرب في اجتماع القليل إلى القليل حتى يؤدي إلى الكثير. (الميداني، معجم الأمثال: ١/ ٢٧٧).

فيا لَكَ بَحْراً لم أَجِدْ فيه مَشْرَباً ... وَإن كانَ غَيْري واجداً فيه مَسْبَحا
مَديحي عَصا مُوسى، وَذلكَ أَنني ... ضَرَبْتُ به بَحْرَ النَّدَى فَتَضَحْضَحا
سَأَمْدَحُ بعضَ الباخِلينَ لَعَلَّه ... إذا اطَّرَدَ المِقْياسُ أنْ يَتسمَّحا
فَيا لَيْتَ شِعْري إن ضَرَبْتُ به الصفَا ... أَيَبْعَثُ لي مِنْهُ جَداوِلَ سُيَّحَا[١]
كَتِلْكَ التي أبْدَتْ ثَرَى الأرض يابساً ... وَشَقَّتْ عيوناً في الحِجَارة سُفَّحَا[٢]
مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ يَا أَبَا الصَّقْرِ إنهُ ... إذا مَلَكَ الأحرارَ مِثْلُكَ أَسْجَحَا[٣]

وما ضرع إلى أحد هذه الضَّرَاعة، ولا في طَوْقه هذا الاحتمال؛ وهذه الأبيات الأخيرة إنما ولّد أكثرها من قول أبي تمام الطائي لمحمد بن عبد الملك الزيات[٤]:

فَلَوْ حَارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقَاحها ... وَلَكِنْ حُرِمْتُ الدرَّ والضّرْعُ حافلُ[٥]
أَكابِرَنا عَطْفاً عَلَيْنا؛ فإننا ... بِنا ظَمأ بَرْحٌ وَأَنْتُمْ مَنَاهِلُ

وفيه يقول[٦]:

هذا مُقَامي يا بَني وائلٍ ... مِنْ مُستجيرٍ بِكُمُ عائِذِ
أَنْشَبَ فيهِ الدَّهْرُ أظفارَهُ ... وَعَضّهُ بالنابِ وَالناجِذِ
فَأَنْصِفُوا مِنْهُ أَخَا حُرْمَةٍ ... لاَذَ بِكُمْ منه مع اللائذِ
فَما أرى الدَّهْرَ على جَوْرِهِ ... يَخْرُجُ مِنْ حُكْمِكُم النافذِ

وقال أيضاً[٧]:

يا أيها السيدُ الذي وَهَنَتْ ... أَنصارُ أَمْوالِه وَلَمْ يَهِن

---

(١) الصفا: جمع صَفَاة: الحجر العريض الأملس. وساح الماء ونحوه سَيْحاً، وسَيَحاناً: سال وجرى.
(٢) سفح الدم ونحوه سُفُوحاً، وَسَفَحاناً: انصبّ، وسفح الدمعَ والماءَ: صَبَّهُما.
(٣) «مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ»: أَحسن العفو وتكرَّم، ومنه: إذا سألت فأسجح: سَهِّل أَلفاظك وارْفُقْ.
(٤) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٦٠.
(٥) حاردت الإبل: انقطعت ألبانها أو قَلَّت، ويقال: حاردت السنة: قلَّ ماؤها ومطرها، وحارد الرجل: بخل بعد جود. والشَّوْلُ: البقية من اللبن في الضَّرْع. وحافل: اسم فاعل من حفل الماء واللبن حفولاً: اجتمع. وقد حفل فلان اللبن في الضرع، والماء في المكان: جمعه.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٣٠٧.
(٧) نفسه: ٦/ ١٩٨.

فَأَصْمَحَتْ في يَدِ الضَّعيفِ وذي الْـ ـقُـوَّة والْبَاقِلـيِّ واللّسِـنِ[١]
غيري ـ على أنني مُؤملك الأَقْـ ـدَمِ ـ سَائِلْ بذاك وامتحِنِ
مَادح عشرينَ حِجَّةٍ كَمَلاً مَحْرُومها عنكَ غَيْر مُضْطغِنِ
فَضْلُكَ أو عَدْلُكَ الذي ائْتمنَ الـ ـلَّه عليه أجَلُّ مُؤتَمَنِ
إن كُنتَ في الشعرِ ناقداً فَطِنا فَلْتُعْطِني حَقَّ حِصَّةِ الفَطِنِ
وَإن أَكُن فيهِ ساقطاً زَمِناً فَلْتُعْطِني حَقَّ حِصَّةِ الزَّمِنِ
سِمْ بِيَ دِيوَانَكَ الذي عَدلَتْ جَدْوَاهُ بين الصَّحيح وَالضَّمِنِ[٢]
كَثِّرْ بِشَخْصِي مَنِ اسْتَطَعْتَ من الـ ـنَاسِ فإِنْ لَمْ أَزِنْكَ لم أَشِنِ
ما حَقُّ مَنْ لانَ صَدْرُهُ لَكَ بِالْـ ـوُدِّ لِقاءٌ بجانبٍ خَشِنِ

لابن الرومي

وقال أبو العباس الرومي لرجل مدحه في كلمة[٣]:

أَبَعْدَ لِقايَ دُونَكَ كلَّ قَفرٍ يَدِقُّ الشخصُ فيه أَن يُلاقى
وَإعمالي إِليكَ به المطايا وَقد ضَرَبَ الظلامُ له رِواقا[٤]
وَرَفْضي النومَ إلا أَنْ تراني أُعَانِقُ وَاسِطَ الكُورِ اعتناقا
تَسوقُ بنا الحُداةُ فليسَ تَدْري أَسَوْقاً كان ذَلك أَمْ سِياقا
أُصادفُ دِرَّةَ المعروفِ شَكْرَى لَدَيكَ ولا أَذوقُ لها ذواقا[٥]

---

(١) صَمَحْتُ فلاناً، أَصْمَحُهُ صَمْحاً: إذا غَلَّظْتُ له في مَسْأَلةٍ وغير ذلك، وصمحه بالسوط صَمْحاً: ضربه. والباقلي: نسبة إلى باقل، وهو رجل من إياد، وقيل: من ربيعة، ضرب به المثل في العِيّ فقيل: «أعيا من باقل». وقد بلغ من عِيِّه أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فمَرَّ بقوم فقالوا له: بكم اشتريت الظبي؟ فمدَّ يديه وَدَلَعَ لسانه، يريد أحد عشر، فشرد الظبي وكان تحت إبطه. (الميداني، مجمع الأمثال: ٢/ ٤٣).
(٢) الضَّمِنُ: المريض.
(٣) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٧٥.
(٤) أَعملَ الناقة: ساقها وحثَّها على المسير، واليعملة من الإبل، والعاملة: النجيبة المُعْتَمَلَةُ المطبوعة على العمل، ولا يقال ذلك إلاَّ للأنثى. والرواق: طنب فسيح.
(٥) شَكْرَى: ملآنة. وفي الديوان: «ضَرَّة المعروف»، و «فُواقا».

يقول فيها:

غَـدا يَعْلُـو الجيـادَ وكـانَ يَعْلُـو ـ إذا مـا استفـرَه ـ السِّبْتَ الـرِّقـاقـا[١]
أَعِنَّتُهـا الشُّسُـوعُ فـإنْ عَـراهـا حَفـاءُ الكَـدِّ أَنْعَلهـا طِـرَاقـا[٢]
فَـزُوِّجَ بَعْـدَ فَقْـرٍ منـه نُعْمـى أرانـي اللَّـهُ صُبْحَتَهَـا الطَّـلاقَـا

[ترجمة أبي العيناء وَطُرَف من أخباره]

نسب أبي العيناء

قال أبو القاسم عليّ بن حَمْزَة بن شَمَرْدَل: حدثني أبي قال: سأَلتُ أبا العَيْنَاءِ عن نسبه، فقال: أَنَا محمدُ بنُ القاسم بن خلاَّد بن ياسر بن سليمان، وأَصْلُ قومي من بني حنيفة من أهْلِ اليمامة، ولَحِقَهم سِباءٌ في أيام المنصور؛ فلمّا صار ياسر في قَيْدِهِ أَعْتَقَه، فولاؤنا لبني هَاشم؛ وكان أبو العيناء ضَريرَ البَصَر؛ ويقال: إنّ جده الأكبر لقيَ علي بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه! ـ فأَسَاءَ مُخَاطَبَته؛ فدعا عليه وعلى ولده بالعَمَى، فكلُّ من عمي منهم صحيحُ النسب!

بين المتوكل وأبي العيناء

قال الصولي: حدثني أبو العيناء، قال: لما أُدْخِلْتُ على المتوكلِ فدعوتُ له وكلمتُه استحسنَ كلامي، وقال لي: بلغني أن فيكَ شرًّا! فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين؛ إن يكن الشرُّ ذِكْرَ المحسن بإحسانه والمسيءِ بإساءته فقد زكّى الله تعالى وذمّ، فقال في التزكية: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣]، وقال في الذم: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٤]. وقال الشاعر:

إذا أنـا لَـمْ أَمْـدَحْ علـى الخيـرِ أَهْلَـهُ وَلَـمْ أَذْمُـمِ الْجِبْسَ اللئيـمَ المُـذمّمـا[٥]

---

(١) استفره: طلب الفاره القوي من الخيل. والسِّبْتُ: جلود البقر. يريد أنه يركب الخيل من الدواب.

(٢) الطراق: يقال: طارق الرجل نعلين: خصف إحداهما فوق الأخرى، وجلد النعل: طِراقُها.

(٣) سورة ص، آية (٤٤).

(٤) سورة القلم، الآيتان (١١ و١٢).

(٥) الجِبْسُ: الدنيء، الجبان، اللئيم، قال البحتري:

صُنْـتُ نفسـي عَمَّـا يُـدَنِّـسُ نَفْسـي وَتَـرَفَّعْـتُ عَـنْ جَـدَا كُـلِّ جِبْـسِ

(ديوانه: ١/ ١٩٠)، وجمع الجبس: أَجْبَاسٌ وَجُبُوسٌ. والأَجْبَسُ: الضعيف الجبان كالجبس، =

فَفِيمَ عَرَفْتُ الخيرَ والشرَّ باسْمِهِ وَشقَّ لِيَ اللّهُ المَسامعَ والفَما؟

وإن كان الشر كفعل العَقْرَب التي تَلْسَعُ السَّنِيَّ والدنِيَّ بِطَبْعٍ لا بتمييز فقد صَانَ اللّهُ عبدَك عن ذلك!

فقال لي: بلغني أنك رَافِضيٌّ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، وكيف أكونُ رافضيًّا وبلدي البَصْرَة وَمَنْشَئي في مَسْجِد جامِعها، وأستاذِي الأَصْمَعي، وليس يَخْلو القومُ أن يكونوا أرادوا الدين أو الدُّنْيا؛ فإن كانوا أرادوا الدِّينَ فقد أجمع الناس على تقديم مَنْ أَخّرُوا، وتأخيرِ من قدموا، وإن كانوا أرادوا الدنيا فأنتَ وآباؤك أمراءُ المؤمنين، لا دِينَ إلاّ بك، ولا دنيًا إلاّ معك.

قال: كيف ترى دَارِي هذه؟ قال: قلت: رأيت الناس بَنَوْا دورهم في الدنيا، وأنت بنيتَ الدنيا في دارك.

فقال لي: ما تقول في عبيد اللّه بن يحيى؟ قلت: نِعْمَ العَبْد لله ولك؛ مُقَسَّمٌ بين طاعته وخدمتك، يؤثِر رِضَاك على كل فائدةٍ، وما عاد بصلاح ملكك على كل لذةٍ.

قال: فما تَقول في صاحب البريد ميمون بن إبراهيم؟ - وكان قد علم أنّي واجدٌ عليه بتقصير وقَعَ منه في أَمْرِي - فقلت: يا أميرَ المؤمنين، يدٌ تَسْرِق واستٌ تضرط! وهو مثل اليهوديّ سرق نصف جِزْيَته، فَلَه إقدامٌ بما أَدى، وإحجام بما أَبْقَى، إساءتُه طبيعة، وإحسانه تكلّف!

قال: قد أَرَدْتُكَ لمجالستي، قلت: لا أطيق ذاك، وما أقول ذلك جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشرَفِ، ولكني محجوب، والمحجوب تختلف عليه الإشارة، ويَخْفَى عليه الإيماء، ويجوز أن يتكلّم بكلام غَضْبَان وَوَجْهُك راضٍ أو بكلام راضٍ ووَجْهُك غضبان، ومتى لم أُميز بين هذين هلكت، قال: صدقت، ولكن تلزمنا، قلت: لزومَ الفَرْضِ الواجبِ اللازم، فَوَصَلني بعشرة آلاف درهم.

ولأبي العيناءِ مع المتوكّل مجالس أَدْخَلَ الرُوَاة بَعْضَها في بَعْضٍ، وسأُورد مستظرفها إن شاء الله:

= قال بشر بن أبي خازم:

عَلَى مِثْلِها آتي المَهَالِكَ وَاحِداً إِذا خَامَ عَنْ طُولِ الكَرَى كُلُّ أَجْبَسِ

(ديوانه: ١٣٩).

قال له المتوكل يوماً: يا أبا العَيناءِ؛ لا تُكْثِر الوقيعةَ في الناس، قال: إن لي في بَصَرِي لَشُغْلاً عن الوقيعة فيهم، قال: ذلك أشَد لحيفك في أهلِ العافية!

وقال له يوماً: هل رأيتَ طالبياً حسنَ الوَجْهِ قطّ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت أحداً قطّ سأَل ضريراً عن هذا؟ قال: لم تكن ضريراً فيما تقدم، وإنما سألتُك عما سلف، قال: نعم، رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتًى ما رأيت أجمل منه، قال المتوكِّل: تَجِدُه كان مؤاجراً، وتَجِدُك كنت قوَّاداً عليه! فقال أبو العيناء: وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين، أتُراني أدَعُ مَوَالِيَّ على كَثْرَتِهم، وأقُودُ على الغُرَباء؟ قال: اسكت يا مَأْبون[1]؟ قال: مَوْلَى القوم منهم! قال المتوكل: أردتُ أن أشتفي به منهم فاشْتَفَى لهم منِّي.

وكان أبو العيناء أحدّ الناسِ خاطراً، وأحْضَرَهم نادرة، وأسْرَعهم جواباً، وأبلغهم خطاباً.

المتوكل أول من أظهر الانهماك على شهوته

والمتوكلُ أوّلُ من أظهرَ من خلفاء بني العباس الانهماكَ على شَهْوَته، وكان أصحابه يتَخفّون ويستخفون بِحَضْرَته، وكان يُهَاتِرُ الجلساء، ويفاخِر الرؤساء، وهو مع ذلك من قلوب الناس مُحَبَّب، وإليهم مُقَرَّب؛ إذْ أماتَ ما أحياهُ الواثق من إظهار الاعتزالِ، وإقامة سوق الجِدَالِ.

منزلة أبي العيناء في الكتابة

قال محمد بن مكرم الكاتب: مَنْ زعم أن عبدَ الحميد أكْتَبُ من أبي العيناء إذا أحسّ بكرم، أو شرع في طمع، فَقَدْ ظلم.

كتب إلى أبي عبيد اللّه بن سليمان وقد نكبه وأباهُ المعتمدُ، وهما يُطَالَبان بمال يبيعان له ما يَمْلِكَانِه من عَقَار وأثَاثٍ وَعَبْدٍ وأمَةٍ، وقد أعطى بخادم أَسْوَد لعبيد اللّه خمسون ديناراً:

قد علمت ـ أَصْلَحك اللّهُ! ـ أن الكريمَ المنكوب أجْرَأ على الأحرار من اللئيم الموفور؛ لأنّ اللئيمَ يزيدُ مع النّعْمةِ لُؤْماً، والكريم لا يزيدُ مع المِحْنَةِ إلاّ كرماً، هذا مُتّكلٌ على رازقه، وهذا يُسيء الظنّ بخالقه، وعبدك إلى ملك «كافور» فقيرٌ، وثمنه على ما اتّصلَ

(١) المَأْبُونُ: المُتَّهَمُ، تقول: أَبَنتُ الرجل آبَنُهُ إذا رميتهُ بقبيحٍ، وقذفته بسوءٍ.

بي يَسير؛ لأنه بخدمته السلطان يعرّفني الرؤساء والإخوان؛ ولست بواجدٍ ذلك في غيره من الغلمان؛ فإنْ سمحت به فتلك عَادَتُك، وإن أمرت بأَخْذِ ثمنه فَمالُكَ مادَّتي، أدام الله دَوْلَتَك، واستقبل بالنعمة نَكْبَتَك. فأَمَرَ لَهُ به.

وسمع ابن مكرم رجلاً يقول: من ذهب بَصَرُه قَلَّتْ حيلته، قال: ما أَغْفَلك عن أبي العَيْناء!

من أبي العيناء لعبيد الله بن سليمان

وكتب أبو العيناء إلى عبيد الله بن سليمان: أنا ـ أعزَّك الله تعالى! ـ وَوَلَدِي وعيالي زَرْعٌ من زَرعِك، إن سقيتَه راعَ وزكا، وإن جفَوْتَه ذَبُل وذَوَى؛ وقد مسّني مِنْكَ جفَاءٌ بعد برّ، وإغفالٌ بعد تعاهُد، حتى تكلَّمَ عدوّ، وشَمِتَ حَاسِدٌ، ولعبت بي ظنونُ رجالٍ كُنْتُ بهم لاعباً، ولهم مُجرِّساً[(١)]، ولِلَّهِ در أبي الأسود[(٢)] في قوله:

لا تُهِنِّي بَعْدَ إذ أَكْرَمْتَنِي ... وَشَدِيدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

فَوَقَّعَ في رقعته: أَنَا ـ أَسعدك الله! ـ على الحال التي عَهِدْتَ، ومَيْلي إليك كما علمت، وليس من أَنْسَأْنَاه أَهْمَلْنَاه، ولا من أَخَّرْنَاه تَرَكْنَاه، مع اقتطاع الشُّغْل لنا، واقتسام زماننا، وكان من حقِّكَ علينا أن تُذكِّرَنا بنفسك، وتعلمنا أَمْرَكَ؛ وقد وقّعت لك بِرزْقِ شَهْرين؛ لتريح غلّتك، وتعرفني مَبْلَغَ استحقاقك، لأُطْلِقَ لك باقيَ أرزاقك، إنْ شاء الله، والسلام.

وكان إذا خرج من داره يقول: اللهم إنّي أَعوذُ بك من الرَّكْبِ والرُّكُب، والآجرّ والْخَشب، والزَّوَايا والقِرَب.

قطعة من خطابه وجوابه

من أجوبة أبي العيناء

دخل على أبي الصقر بعدما تأخَّرَ عنه، فقال: ما أَخَّرَكَ عنا؟ قال: سُرِق حماري،

---

(١) كنت لهم مجرساً: كنت أكثر التسميع بهم.

(٢) هو أبو الأسود، ظالم بن عمر بن سفيان بن جندل الدؤلي، من كنانة: نحوي، فقيه، شاعر، فارس، من سادات التابعين وأعيانهم. سكن البصرة في خلافة عمر بن الخطاب، وشهد مع علي وقعة صفين، وهو أول من وضع علم النحو. عاش فقيراً متهماً بالبخل، وتوفي بالبصرة بطاعون الجارف سنة ٦٩ هـ/ ٦٨٨ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٢/ ٣٠١؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٢٤).

قال: وكيف سُرِق؟ قال: لم أكُنْ مع اللص فأخبرك! قال: فلِمَ لم تأتِنا على غَيْرِه؟ قال: قَعَدَ بي عن الشراء قِلّةُ يساري، وكرهتُ ذِلَّة المُكارِي، ومِنّة العَوَارِي[١].

وزحمه رجل بالجسر على حِمَاره، فضرب بيديه على أُذُنَي الحمار، وقال: يا فَتى، قُلْ للحمارِ الذي فَوْقَك يقول: الطَّريق!

ودخل على إبراهيم بن المدبر، وعنده الفَضْل بن اليزيدي، وهو يُلقي على ابنه مسائل من النحو، فقال: في أي باب هذا؟ قال: في باب الفاعل والمفعول به، قال: هذا بابي وباب الوالدة حفظها الله! فغضب الفَضْل وانصرف؛ وكان البحتري حاضراً فكتب بعد ذلك بقصيدته إلى إبراهيم بن المُدبّر التي أولها[٢]:

ذَكَّرَتْنِيكَ رَوْحَةٌ لِلشَّمُولِ ... أَوْقَدَتْ لَوْعَتي وهَاجَتْ غَلِيلي
أَي شيءٍ أَلْهَاكَ عَنْ سُرَّ مَنْ را ... ءَ وَظِلٌّ للعيشِ فيها ظَلِيلِ[٣]

وفيها يقول:

أَقْتِصاراً على أَحاديثِ فَضْلٍ ... وَهُوَ مُنْتكَرَةٌ كَثِيرُ الفُضُولِ
فَعَلامَ اصْطَفَيْتَ مُنْكَسِفَ البا ... لِ مُعَادَ المِخْراقِ نَزْرَ القَبُولِ[٤]
إنْ تَزُرْهُ تَجِدْه أَخْلَقَ مِن شَيْـ ... ـبِ الغَوَاني وَمِنْ تَعَفّي الطُّلُولِ
مُسْرِجاً مُلْجِماً وما مَتَعَ الصُّبْـ ... ـح ادّلاجاً لِلشَّحْذِ والتَّطْفِيلِ[٥]
غَيْرَ أنَّ المعلمين على حَا ... لٍ قليلُو التَّمييزِ ضَعْفَى العُقُولِ
فَإذا ما تَذاكَرَ النَّاسُ مَعْنًى ... مِنْ مَتِينِ الأشعار وَالمجهولِ
قَالَ: هذا لَنَا وَنَحْنُ كَشَفْنَا ... غَيْبَهُ لِلسُّؤالِ وَالمَسْؤُولِ

(١) العواري: جمع عارية: ما يتداوله الناس فيما بينهم من الأشياء، يقال: أعاره الشيء، وأعاره منه، وعاوره إياه. والعاريّة: منسوبة إلى العارة، وهو اسم من الإعارة، وقال الجوهري: العاريّة (بالتشديد): كأنها منسوبة إلى العار، لأن طلبها عار وعيب.

(٢) البحتري، الديوان: ٢/ ٢٢٤.

(٣) سُر من راء: هي مدينة «سُرّ من رأى».

(٤) المخراق: المتصرف في الأمور. النزر: اليسير، القليل. وفي الديوان: «مُنْكَشِفَ الزِّيفِ». والزيف: الغش.

(٥) متع الصبح: ظهر. والشحذ والتطفيل: التسوّل والسؤال.

ضَـربَ الأَصمعـيُّ فيهـم أَمِ الأَحْمَـرُ أَم أُلقحـوا بـأَيـرِ الخَليـلِ[١]
جُـلَّ مـا عِنْـدَهُ التـردّد فـي الفـا عـلِ مِـنْ وَالِـدَيْـهِ وَالْمَفْعُـولِ

تعزية أبي العيناء لبعض الأمراء

وعَزَّى بَعْضَ الأمراءِ، فقال: أيُّها الأمير؛ كان العزاءُ لك لا بِك، والفناءُ لنا لا لك، وإذا كنتَ البقيّةَ فالرزيّةُ عطية، والتعزيةُ تَهْنية.

سؤاله عن مالك بن طَوْق

وسئل أبو العيناء عن مالك بن طَوْق، فقال: لو كان في زَمَنِ بني إسرائيل ونَزَل ذَبْحُ البقرة ما ذُبحَ غيره! قيل: فأخوه عَمْرو؟ قال: كسَرَابٍ بِقيَعةٍ يَحْسَبُه الظَّمْآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يَجدْهُ شيئاً[٢].

سؤاله عن موسى بن عبد الملك

وكان موسى بن عبد الملك قد اغتال[٣] نجاح بن سلمة في شرابٍ شَرِبه عنده، فقال المتوكّلُ بعد ذلك لأبي العيناء: ما تقول في نجاح بن سلمة؟ قال: ما قال الله تعالى: فوكَزَه موسَى فَقَضى عليه! فاتَّصل ذلك بموسى، فلقي الوزير عُبيد اللّه بن يحيى بن خاقان، فقال: أيّها الوزير، أرَدْتَ قَتْلِي فلم تَجِدْ إلى ذلك سبيلاً إلاّ بإدخال أبي العيناء إلى أمير المؤمنين مع عَدَاوتِه لي؛ فعاتب عبيدُ اللّه أبَا العيناء في ذلك، فقال: والله ما استَعْذَبْتُ الوقيعةَ فيه حتى ذَمَمْتُ سريرته لك؛ فأَمْسَك عنه.

ثم دخل بَعْدَ ذلك أبو العَيْنَاء على المتوكل فقال: كيف كُنْتَ بعدُ؟ قال: في أَحوالٍ

---

(١) الأحمر: هو أبو مُحْرِز، خَلَفُ بنُ حيّان الأحمرُ البصريّ، مولى أبي بردة بن بلال بن أبي موسى الأشعري: راوية، ونسّابة، ونحوي، وناقد، وشاعر. أصله من فرغانة، ومسكنه البصرة. توفي سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٢٢).

(٢) هو من قوله سبحانه وتعالى: ﴿والذين كفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرابٍ بِقيعةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ مَاءً حَتَّى إِذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَد الله عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ (سورة النور، آية ٣٩).

(٣) هو أبو عمران، موسى بن عبد الملك الأصبهاني، صاحب ديوان الخراج: كان من جلة الرؤساء، وفضلاء الكتاب وأعيانهم، وكان له ديوان السواد وغيره في أيام المتوكل. وله أخبار كثيرة. توفي سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م.
(ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ٣٣٧).

مختلفة، خَيْرُها رُؤيتك وشرُّها غَيْبَتُك، فقال: قد واللَّهِ اشتَقْتُكَ! قال: إنما يَشْتَاقُ العَبْدُ؛ لأنه يتعذَّرُ عليه لقاءُ مولاه، وأما السيِّدُ فمتى أَراد عَبْدَه دعاه.

وقال له المتوكل: مَنْ أَسْخَى مَنْ رأيت؟ قال: ابنُ أَبي دُوَاد، قال المتوكّل: تأتي إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء؟ قال: إنَّ الصدقَ يا أميرَ المؤمنين ليس في موضع من المواضع أَنْفَق منه في مجلسك؛ وإنَّ الناس يغلطون فيمن يَنْسبونَه إلى الجود؛ لأنَّ سخاء البرامكة منسوبٌ إلى الرشيد، وسخاءَ الفضل والحسن ابني سَهْل منسوبٌ إلى المأمون، وجودُ ابن أبي دُواد منسوبٌ إلى المعتصم؛ فإذا نَسَب الناسُ الفَتْحَ وعبيد اللّه ابني يحيى إلى السخاء فذلك سَخَاؤُك يا أَميرَ المؤمنين، قال: صدقت؛ فمن أَبخلُ من رأيت؟ قال: موسى بن عبد الملك، قال: وما رأيتَ من بُخْله؟ قال: رأيته يخدم القريب كما يخدم البعيد، ويَعْتَذِر من الإحسان كما يعتذِرُ من الإساءة، فقال له: قد وَقَعْتَ فيه عندي مرتين، وما أحبّ لك ذلك؛ فَالْقَهُ واعتذر إليه، ولا يعلم أَني وجهت بك، قال: يا أمير المؤمنين، من يستكتمني بحضرة ألف؟ قال: لن تخاف، قال: علي الاحتراس من الخوف.

فصار إلى موسى فاعتذَر كلٌّ واحد منهما إلى صاحبه، وافترقا عن صلح؛ فلقيه بعد ذلك بالجعفري، فقال: يا أبا عبد اللّه، قد اصطلحنا، فما لك لا تَأْتينا؟ قال: أتريد أن تَقْتُلَني كما قتلت نَفْساً بالأمس؟ فقال: موسى: ما أرانا إلا كما كُنَّا.

وقال له المتوكل: إبراهيم بن نوح النصراني وَاجِدٌ عليك، قال: ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم! قال: إن جماعة من الكتاب يلومونك! فقال:

إذا رَضِيَتْ عَنّي كِرَامُ عَشيرتي ... فَلاَ زَالَ غَضْبَاناً عَلَيَّ لِئَامُها

قال المتوكل له: أكان أبوك في البلاغة مِثْلَكَ؟ قال: لو رأى أمير المؤمنين أبي لرأى عَبْداً له لا يَرْضَاني عبداً له.

وقيل لأبي العيناء: إن المتوكل قال: لولا أنَّه ضرير البصر لنَادَمْتُه، فقال: إن أعفاني من رُؤْية الأهلّة، وقراءة نَقْشِ الفصوص، فأنا أَصْلُح للمنادمة.

ولقيه رجلٌ من إخوانه في السَّحَر، فجعل يُعْجَبُ من بُكُوره، فقال: أراك تشاركني في الفعل وتُفْرِدُني بالتعجّب!

ووقف به رجلٌ من العامَّة فأحَسّ به، فقال: مَنْ هذا؟ قال: رجل من بني آدم! قال:

مرحباً بك، أطال الله بقاك! وبقيت في الدنيا، ما ظننتُ هذا النَّسْل إلا قد انقطع!

ودخل على عبيد اللّه بن سليمان فقال: أَقْرُبْ منّي يا أبا عبد اللّه؛ فقال: أعزَّ الله الوزير، تقريبُ الأولياء، وحِرْمانُ الأعداء، قال: تَقْرِيبُك غُنْم، وحِرْمانك ظُلْم؛ وأنا ناظرٌ في أمرك نظراً يُصْلِحُ مِنْ حالك إن شاء الله.

وقال له يوماً: اعذرني فإنّي مشغول، فقال له: إذا فرغت من شغلك لم نَحْتَجْ إليك، وأنشده:

فلا تَعْتَذِرْ بالشُّغْلِ عنّا؛ فإنَّما تُناطُ بِكَ الأمالُ ما اتَّصل الشُّغْلُ

ثم قال: يا سيِّدي قد عذرتك، فإنه لا يَصْلُحُ لِشُكْرِك مَنْ لا يَصْلُح لِعُذْرِك.

وأقبل إليه يوماً فقال: مِنْ أين يا أبا عبدِ اللّه؟ قال: من مَطَارِحِ الجَفَاء!

وقال له مرة: نحن في العطلة مَرْحُومُون، وفي الوزارة محرومون، وفي القيامةِ كلُّ نَفْسٍ بما كسبَتْ رَهِينة.

وسار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد، فقيل: هو مشغولٌ يُصَلِّي، قال: لكلّ جديدٍ لذَّةٌ! وكان صاعدٌ نصرانياً قَبْلَ الوزارة.

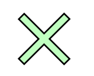
ودخل إلى عبيد اللّه بن سليمان، فشكا إليه حَالَهُ، فقال: أَلَيْسَ قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر؟ فقال: كتبتَ إلى رجلٍ قد قصَّرَ من همَّتِه طولُ الفَقْر، وذُلّ الأسْر، ومعاناةُ مِحَنِ الدَّهْرِ، فأخفقته في طَلِبَتي! قال: أنْتَ اخْتَرْتَه؟ قال: وما عليّ ـ أعزَّ الله الوزير! ـ في ذلك؟ قد اختار موسى قومه سَبْعِينَ رجلاً، فما كان منهم رَشيد، واختار النبيّ ﷺ ابنَ أبي سَرحٍ كاتباً، فرجع إلى المشركين مرتدًّا، واختار عليّ بن أبي طالب أبا موسى حاكماً له فحكَمَ عليه!

[إبراهيم بن المُدبّر]

وكان إبراهيم بن المدبر أَسَرَهُ صاحبُ الزّنج بالبَصْرَة وَحبَسَهُ؛ فاحتال حتى نقب السِّجْن وهرَب، فلذلك ذكر أبو العيناء ذُلَّ الأسْر، وكان قد ضُرِب في وجهه ضَرْبَةً بَقِي أثرها إلى أنْ مات؛ ولذلك قال البحتري[١]:

---

(١) البحتري، الديوان: ١/ ٢٥١.





وقال لابن مكرم، وقد قدم من سفر: ما لك لم تُهْدِ إلينا هديةً؟ قال: لم آتِ بشيء، وإنما قدمت في خف. قال: لو قدمت في خف لَخلَّفتَ رُوحَكَ!

وأتى إلى باب إبراهيم بن رِيَاح، فَحُجِبَ، فقال: إذا شغل بكأس يمناه وبحر يُسْراه، وانتسب إلى أبٍ لا يعرف أباه، لا يَحْفِلْ بِحِجَابِ مَنْ أتاه.

وقدّم إليه أبو عيسى بن المتوكل سِكْباجة، فجعل لا تقعُ يدهُ إلا على عظم؛ فقال: جعلت فِدَاكَ! هذه قِدْرٌ أو قَبْرٌ؟.

ودعا ضريراً ليعشيه، فلم يَدَعْ شيئاً إلاَّ أكله، فقال: يا هذا، دعوتك رحمةً فتَرَكتَنِي رحمةً[1].

* * *

قد تم ـ بحول الله وقوته، وحسن معونته ـ الجزء الأول من كتاب «زهر الآداب، وثمر الألباب» لأَبي إسحاق الحُصْرِي، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثاني، مفتتحاً بقول المصنف «ألفاظ لأهل العصر في صفات الطعام ومقدماته، ومَوَائده وآلاته» نسأل الله ـ جلت قدرته! ـ أن يعين على إكماله، إنه ولي ذلك.

---

(١) انظر كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان: ٣٤٣/٤، ففيه بعض ما أورده الحصري من ملح أبي العيناء، وغيرها.

فهرس المحتويات

المقدمة ٥
ترجمة المؤلف ١٢
مقدمة المؤلف ٢١
منهج المؤلف في الكتاب ٢٢
الداعي لتأليف الكتاب ٢٣
إن من البيان لسحراً ٢٧
الزِّبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم بين يدي رسول الله ﷺ ٢٧
ترجمة عمرو بن الأهتم ٢٨
ترجمة الزِّبرقان بن بدر ٢٩
عمر بن عبد العزيز وغلام يتقدم وفد قومه ٢٩
من ابن العميد لبعض إخوانه ٣٠
من وصف الكلام بالسحر ٣١
وصف رجل محبوب ٣٢
عود إلى وصف الكلام بالسحر ٣٢
علية بنت المهدي أخت الرشيد ٣٣
أشباه لشعر علية بنت المهدي ٣٤
ما قيل في معنى «قيد الأوابد» ٣٧
ما يستملح مما قيل في حسن الحديث ٣٨
تفسير حديث وضبط لفظه ٤٤
الحطيئة وبنو أنْفِ الناقة ٤٥
بنو العجلان والنجاشي الحارثي ٤٥
الفرزدق يهجو ابن هبيرة ٤٨
نميري يجيب جريراً ٤٩
فضل الشعر ٤٩
شذور من كلام الرسول ٥١
ترجمة أبي سفيان بن الحارث ٥٥

النضر بن الحارث ٥٦
من كلام أبي بكر رضي الله تعالى عنه ٥٧
رثاؤه لرسول الله ﷺ ٥٧
حال الصحابة عندما بلغهم موت الرسول ٥٨
خطبة أبي بكر يوم موت الرسول ٥٩
رثاء فاطمة الزهراء لأبيها رسول الله ﷺ ٦٠
عود إلى المختار من كلام أبي بكر ٦٠
رثاء عائشة أم المؤمنين لأبيها الصديق ٦٢
من كلام عمر ٦٣
من عمر إلى ابنه عبد الله ٦٣
بين عمر وعدي بن حاتم الطائي ٦٣
عمر يصف السيد ٦٣
فصول قصار من كلامه رضي الله عنه ٦٣
وصف صعصعة بن صوحان لعمر بن الخطاب ٦٤
عمر يذكر ماضيه وحاضره ٦٤
من شعر عمر يوم فتح مكة ٦٤
زوج عمر ترثيه ٦٥
ترجمة عاتكة بنت زيد بن عمرو زوج عمر ٦٦
ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه ٦٦
ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٦٨
وصف ضرار الصدائي لمعاوية عليًا ٦٩
علي يرثي خباب بن الأرت ٧٠
علي أمام القبور ٧٠
علي يصف الدنيا ٧٠
من قصار كلام علي ٧١
تعقيب للجاحظ على فقرة من كلام علي ٧٢
دعاء لعلي في الحروب ٧٢
من شعر علي رضي الله عنه ٧٣
عمرو بن ودّ ٧٤
عاملة قوم عدي بن الرقاع ٧٦
عزم المؤلف على ضروب من الاختيار ٧٦
من كلام الصحابة والتابعين ٧٧

من كلام معاوية ٧٧
بين معاوية ومصقلة بن هبيرة ٧٧
بين معاوية والأحنف بن قيس ٧٨
محاورة بين معاوية وأهل العراق ٧٩
منزلة شعر زهير بن أبي سلمى ٨٠
معاوية يبين النبل والمروءة ٨١
عبد اللّه بن همام السلولي عند يزيد بن معاوية يهنئه ويعزيه ٨٢
الجمع بين التهنئة والتعزية ٨٢
فقر لجماعة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ٨٣
وصف أهل البيت ٨٦
فصل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في ذكر قريش وبني هاشم ٨٧
بين الحسين بن علي السبط وحبيب بن مسلمة الفهري ٨٩
صفة الحسن بن علي السبط ٩٠
محمد بن الحنفيَّة يرثي أخاه الحسن بن علي ٩٠
رجل من ولد أبي سفيان بن الحارث يرثي الحسن بن علي ٩٠
ألفاظ لأهل العصر في ذكر المصيبة بأبناء النبوة ٩١
رجع إلى كلام أهل البيت ٩١
بين الحسن بن علي وأخيه محمد بن الحنفية ٩١
خطبة للحسين بن علي ٩٢
بين معاوية والحسين بن علي ٩٢
من شعر الحسين بن علي ٩٣
لابن أبي ربيعة في سكينة بنت الحسين ٩٣
سكينة ترثي مصعب بن الزبير ٩٤
لعلي بن الحسين ٩٤
الفرزدق يمدح عليًّا زين العابدين بن الحسين ٩٥
للأخطل في قثم بن العباس ٩٨
لذي الرمّة يمدح بلال بن أبي بردة ٩٩
للبحتري يمدح الفتح بن خاقان ١٠٠
للبحتري أيضاً ١٠٥
لأبي تمام ١٠٦
لابن الخياط يمدح الإمام مالك بن أنس ١٠٩
لأشجع السلمي ١٠٩

لأبي تمام ١١٠
بين أبي تمام وابن الزيات ١١٠
لأبي تمام في أبي دلف ١١١
رجع ما انقطع ١١٢
لمحمد بن علي بن الحسين (أبي جعفر الباقر) ١١٢
محمد بن علي يصف أخاه زيد بن علي ١١٤
بلاغة جعفر بن الحسن بن الحسين وزيد بن علي بن الحسين ١١٤
من كلام عبد الله بن الحسن بن الحسين ١١٥
للعديل بن الفرخ ١١٧
بين عبد الله بن الحسن ورجل تعرض له بما يكره ١١٧
بين السفاح وعبد الله بن الحسن ١١٧
المنصور وعبد الله بن الحسن ١١٨
بين المنصور وامرأة محمد بن عبد الله بن الحسن ١١٩
بين المنصور وجعفر الصادق ١١٩
تعزية لجعفر الصادق ١١٩
من كلام جعفر الصادق ١٢٠
من عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه ١٢٠
لعامر بن الطفيل ١٢١
عبد الله بن معاوية يهنىء بإملاك ١٢٢
بين أبي عاصم الأسلمي الشاعر والحسن بن زيد ١٢٣
بين الحسن بن زيد وداود بن سلم التيمي ١٢٣
بين الحسن بن زيد وابن هرمة ١٢٤
بين أبي جعفر المنصور وابن هرمة ١٢٥
من شعر موسى بن عبد الله الطالبي ١٢٥
بعض أخبار موسى ١٢٦
بين علي بن محمد العلوي والحسين بن إسماعيل ١٢٦
العباس بن الحسين الهاشمي ١٢٧
بين موسى بن جعفر والفضل بن الربيع ١٢٨
علي بن موسى الرضا ١٢٩
رثاء دعبل لآل البيت ١٣٠
بين دعبل والمأمون ١٣٠
لسليمان بن قتيبة يرثي آل البيت ١٣١

ألفاظ لأهل العصر في أوصاف الأشراف ١٣٢
لها في هذا الموضع مؤقع ١٣٢
بدء الكتاب ١٣٤
الكلام في حمد الله ١٣٤
من شعر محمود الوراق ١٣٥
البيان والبلاغة ١٣٦
لابن المعتز في فضل البيان ١٣٦
فضل القرآن على سائر الكلام ١٣٦
تفسير الرماني للبلاغة ١٣٧
ألفاظ لأهل العصر في ذكر القرآن ١٣٧
أقوال في البلاغة ١٣٨
رأي عمرو بن عبيد في البلاغة ١٣٨
من أخبار عمرو بن عبيد ١٣٩
البلاغة عند أهل الهند ١٤٠
البلاغة عند ابن المقفع ١٤١
الإطالة والإيجاز ١٤٢
العتابي يصف الرجل البليغ ١٤٣
عدة الخطابة عند أبي داود ١٤٣
منزلة اللفظ من المعنى عند الجاحظ ١٤٣
البيان عند الجاحظ ١٤٤
الدلالات على المعاني ١٤٤
فضل اللسان ١٤٥
صلة اللفظ بالمعنى عند ابن المعتز ١٤٥
البيان عند جعفر بن يحيى البرمكي ١٤٦
سهل بن هارون يصف بلاغة جعفر بن يحيى البرمكي ١٤٦
بشار بن برد يذكر أسباب تفوقه على أهل عصره ١٤٦
وصية أبي تمام للبحتري ١٤٧
وصف البليغ ١٤٨
بعض مزايا الليل للحاتمي ١٤٨
فضل الروية والأناة ١٤٨
تخير ابن المقفع ما يرد عليه من الكلام ١٤٩
يغتفر في المخاطبة ما لا يغتفر في المكاتبة ١٤٩

ما يجب في النسخ ١٤٩
أوصاف بليغة في البلاغات على ألسنة من أهل الصناعات ١٥٠
فقر في وصف البلاغة لغير واحد ١٥٣
ومن كلام أهل العصر في صفة البلاغة والبلغاء ١٥٥
ومن ألفاظهم في وصف النظم والنثر والشعر والشعراء ١٥٨
جملة من فصول أهل العصر تليق بهذا الموضع ١٦٠
من ابن العميد إلى خلاد الرامهرمزي ١٦٠
من الصاحب بن عباد إلى الشيبي ١٦١
من أبي الفضل الميكالي إلى أبي القاسم الداوودي ١٦٢
ومنه إلى الثعالبي ١٦٣
أبو منصور الثعالبي ١٦٣
من كتب لأبي الفضل الميكالي ١٦٥
أبو منصور الثعالبي يصف أبا الفضل الميكالي ١٦٧
عود إلى ذكر فصول من كلام الميكالي ١٦٨
المطوعي يذكر أنواع الشعراء ثم يذكر الميكالي ١٦٩
مقطعات لأهل العصر في وصف البلاغة ١٧٠
لأبي الفتح البستي ١٧٠
للمطوعي يمدح الميكالي ١٧١
للثعالبي يمدح الميكالي ١٧٢
للثعالبي في وصف فرس ١٧٣
للثعالبي جواباً على الميكالي ١٧٣
جواب الميكالي على أبيات الثعالبي ١٧٤
للصابي يمدح الوزير المهلبي ١٧٤
ترجمة الوزير المهلبي ١٧٥
منزلة العقل وطريق رياضته ١٧٦
الحكمة وواجب العاقل إزاءها ١٧٧
وصف الكتب ١٧٧
وصف الكتاب للجاحظ ١٧٧
المأمون يصف الكتاب لأبيه الرشيد ١٧٨
بعض العلماء يصف سروره بالكتب ١٧٨
لأبي الطيب المتنبي ١٧٨
فِقر في الكتب ١٧٩

جملة من ألفاظ أهل العصر ١٨٠
في صفة الكتب وتهاديها، وما يتعلق بأسمائها ومعانيها ١٨٠
لابن طباطِبا ١٨٠
لأحمد بن يوسف ١٨١
لأبي الفتح البستي ١٨١
لأبي إسحاق الصّابي ١٨١
من أبي الطيب المتنبي إلى ابن العميد ١٨٢
فقر في وصف الكتب ١٨٥
المحادثة والمجالسة ١٨٧
بين المأمون وسعيد بن مسلم ١٨٨
المتوكل وأبو العيناء ١٨٨
بين حكيم وتلميذه ١٨٩
أبو تمام يصف جارية تغني بالفارسية ١٨٩
أبو تمام يذكر أنه أخذ المعنى من بشار ١٨٩
أشباه لمعنى بشار ١٩٠
كيسان مستملي أبي عبيدة ١٩١
ما يجب للمحدث على جليسه ١٩١
تكرار الحديث ١٩٢
الآداب ١٩٣
السمر ونتف الأحاديث ١٩٣
نظام كسرى في حياته ١٩٤
رسول الله ﷺ يجزىء نهاره على المصالح ١٩٤
عود إلى الإطالة والإيجاز ١٩٥
إياس بن معاوية يحتج للإطناب ١٩٥
الجاحظ يرد عليه ١٩٥
ابن هبيرة يريد إياساً على القضاء ١٩٦
أبو العيناء وبعض القيان ١٩٦
فطنة إياس ١٩٦
قوة لسن إياس ١٩٦
الحديث المملوك ١٩٧
المُلح ١٩٨
منزلة الملح ١٩٨

بعض ملح الغاضري ١٩٨
أشعب المشهور بالطمع ١٩٩
ظرف أبي نواس وسرعة بديهته ٢٠٠
صفة أبي نواس ٢٠١
ترجمة الجماز ٢٠١
لأبي تمام يمدح عمرو بن طوق ٢٠٢
وله يمدح الحسن بن وهب ٢٠٢
لأبي الفتح البستي ٢٠٤
المزاح ٢٠٤
الكلام في المزاح ٢٠٤
إنشاد الشعر ٢٠٤
النسيب ٢٠٥
لعروة بن أُذينة ٢٠٥
ترجمة أبي السائب المخزومي ٢٠٦
للأحوص في الغزل ٢٠٧
ظرف أهل الحجاز ورقتهم ٢٠٨
بعض أخبار أبي حازم ٢٠٨
لأبي العتاهية ٢٠٩
لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ٢٠٩
فقهاء المدينة السبعة ٢٠٩
لعبيد الله المسعودي أيضاً ٢١٠
أشباه لقول المسعودي ٢١٠
لأبي محمد بن أبي أمية ٢١١
لأبي نواس ٢١١
شيم أهل المدينة ٢١٣
طرب أبي ريحانة ٢١٣
بين الأوقص المخزومي وسكران ٢١٤
ابن المسيب يستمع إلى منشد شعر ٢١٤
بين الحجاج والنميري ٢١٥
لمحمد بن عبد الله بن نمير الثقفي ٢١٥
من أدب ابن المعتز ٢١٦
بين ابن المعتز وأستاذه ثعلب ٢١٦

بعض أخبار ابن المعتز والمختار من قوله ٢١٨
للسري الرفاء ٢٢٠
لأبي الفرج الببغاء ٢٢١
لأبي الفضل الميكالي ٢٢١
لابن المعتز ٢٢١
لابن الرومي ٢٢٥
من نثر ابن المعتز ٢٢٥
وصف الماء وما يتصل به ٢٢٧
لابن المعتز يصف ماء ٢٢٧
وله أيضاً يحن للدويرة ويصف ماء ٢٢٧
لعاتكة المرية في وصف ماء ٢٢٨
لجابر بن الأرق يصف الماء ٢٢٨
لزهير ٢٢٩
لابن الرومي ٢٢٩
وصف الدور والقصور ٢٣٠
للبحتري يصف بركة الجعفري ٢٣٠
لعلي بن الجَهم يصف قصور المتوكل ٢٣١
للبحتري ٢٣١
للصنوبري يصف موضعاً في حلب ٢٣٣
للميكالي يصف بركة ٢٣٤
لعلي بن محمد الإيادي يصف داراً بالمنصورية ٢٣٤
لعبد الكريم بن إبراهيم يصف موضعاً ٢٣٥
ألفاظ لأهل العصر في وصف الماء وما يتصل به ٢٣٦
ولهم في مقدمات المطر ٢٣٧
وفي الرعد والبرق ٢٣٨
ويتصل بهذه الأنحاء ٢٣٨
لأبي الفتح البستي ٢٤٠
لأبي العباس الناشىء ٢٤٠
لابن المعتز ٢٤١
لحسان بن ثابت ٢٤١
لابن المعتز أيضاً ٢٤١
لابن المعتز يمدح الشراب في الصحو ٢٤٢

وصف شدة الشوق ٢٤٣
لأبي حية في هذا المعنى ٢٤٣
وصف رجل حازم لابن المقفع ٢٤٤
لابن كناسة يصف ابن أدهم ٢٤٤
ألفاظ لأهل العصر في ذكر التقى والزهد ٢٤٥
من أخبار ابن المقفع ٢٤٥
ترجمة للأحوص ٢٤٦
ألطف تعريض، وأدق فهم ٢٤٦
الحسد والحساد ٢٤٧
لابن المقفع في صفة الحاسد ٢٤٧
لأبي تمام في فضل الحاسد على المحسود ٢٤٨
للبحتري في هذا المعنى ٢٤٨
لابن الرومي ٢٤٨
لمعن بن زائدة ٢٤٩
ألفاظ لأهل العصر في ذكر الحسد ٢٤٩
التلطف في الطلب ٢٤٩
بين الواثق ومحمد بن حماد ٢٤٩
بين الحسن بن سهل وعلي بن عبيدة ٢٥٠
بعض كلام علي بن عبيدة الريحاني ٢٥٠
لبعض المحدثين من الشعراء في الشوق ٢٥١
الأدب في مجلس الحكم ٢٥١
بين إبراهيم بن المهدي والطبيب ابن بختشيوع عند ابن أبي دواد ٢٥١
حكمة أردشير وحضه على العلم ٢٥٢
أخلاق الملوك ٢٥٣
وصف ملك الروم ٢٥٣
وصف ملك الحبشة ٢٥٤
فضل أخت ملك الخزر ٢٥٤
قطعة صادرة من أقوال الملوك دالة على فضل كرمهم وبعد هممهم ٢٥٥
من كلام أهل العصر ٢٥٧
من كلام الملوك الجاري مجرى الأمثال ٢٥٨
لسعد بن ناشب ٢٦٠
مقتل المتوكل العباسي ٢٦١

لإبراهيم بن أحمد الأسدي يرثي المتوكل ٢٦١
لعبد الكريم التيمي يرثي صاحب خراج المغرب ٢٦٢
للبحتري في رثاء المتوكل ٢٦٢
من شعر البحتري ٢٦٣
ليزيد بن محمد المهلبي يرثي المتوكل ٢٦٤
لأبي حية النميري ٢٦٥
لأبي حية النميري يرثي سلمة بن عياش ٢٦٦
مجنون بني عامر ٢٦٧
لهارون بن علي بن يحيى المنجم في الشباب ٢٦٨
لأشجع السلمي في الشباب ٢٦٨
فقر تتصل بهذه الأبيات، في وصف الشباب ٢٦٩
ويتعلق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم في نجابة الشباب وترشحهم للمعالي ٢٧٠
للبحتري ٢٧٠
للفضل بن جعفر الكاتب ٢٧٠
مما قيل في أثر الأيام والليالي ٢٧١
بين أبي حية وابن مناذر ٢٧١
لعمرو بن قميئة ٢٧١
للنمر بن تولب ٢٧٢
لحميد بن ثور ٢٧٢
لمحمود الوراق ٢٧٣
للمتنبي ٢٧٤
للبحتري ٢٧٤
لابن هانىء ٢٧٤
لابن الرومي ٢٧٥
لأبي تمام ٢٧٦
وصف الثغور ٢٧٦
لأبي حية النميري ٢٧٦
لذي الرمة ٢٧٧
للنابغة الذبياني ٢٧٧
للمتوكل الليثي ٢٧٨
لبشار بن برد ٢٧٨
تفضيل السواد ٢٧٩

لابن الرومي في وصف جارية ٢٧٩
لأبي حفص الشطرنجي ٢٨٠
لابن الرومي ٢٨٠
لأبي نواس ٢٨١
لابن الرومي أيضاً ٢٨٢
للفرزدق ٢٨٣
لابن الرومي ٢٨٣
وعلى ذكر التوأمين ألفاظ لأهل العصر في التهنئة بتوأمين ٢٨٤
شيء من الهجاء يشتمل على تضمين ٢٨٤
عود إلى وصف الثغور ونقائها ٢٨٥
لجميل بن معمر العذري ٢٨٥
لعمر بن أبي ربيعة ٢٨٦
للهذلي ٢٨٧
لابن المعتز ٢٨٨
لابن الرومي ٢٨٨
لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ٢٨٨
لامرىء القيس ٢٨٩
للجعفري ٢٨٩
للحاتمي ٢٨٩
لأبي الفتح كشاجم ٢٨٩
شعر عمر بن أبي ربيعة، وشعر الحارث بن خالد ٢٩٠
لطريح الثقفي ٢٩٢
للحسن بن وهب ٢٩٢
ليحيى بن منصور الذهلي ٢٩٢
لأبي نواس ٢٩٣
شعر أبي نواس ٢٩٤
لابن المعتز ٢٩٥
لمسلم بن الوليد ٢٩٦
تشبيب الحارث بن خالد ٢٩٦
من أخبار ابن أبي عتيق وعائشة بنت طلحة ٢٩٧
مثل من التعريض ٢٩٨
بين الثريا بنت علي والوليد بن عبد الملك ٢٩٨

بين عزة كثير وعبد الملك بن مروان ٢٩٩
بعض أخبار عمر بن أبي ربيعة وغزله ٣٠٠
صفقة أبي غبشان الذي باع مفتاح الكعبة ٣٠٣
بين ابن جريج ومعن بن أوس ٣٠٥
عفة عمر ٣٠٥
من لا ترى ستر الوجه من النساء، واحتجاجها لذلك ٣١١
ستر الرأس لإخفاء الصلع ٣١٢
من كلام الأعراب ٣١٣
بين سليمان بن عبد الملك وأعرابي ٣١٣
وصف المطر لأعرابي ٣١٤
أعرابي يمدح رجلاً ٣١٤
جملة من كلام أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني بديع الزمان ٣١٥
كيف استوحى صنع المقامات ٣١٥
كتاب من البديع لأبي نصر الميكالي ٣١٦
ومن البديع إلى الميكالي أيضاً ٣١٦
كتاب عتب من البديع إلى الميكالي ٣١٩
كتاب عتاب من البديع إلى الميكالي أيضاً ٣٢٠
قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر في معان شتى تجري مجرى الأمثال ٣٢١
لأبي فراس ٣٢١
للمتنبي ٣٢١
للسري الرفاء ٣٢٣
للصابي ٣٢٣
لابن نباتة ٣٢٣
للسلامي ٣٢٤
لابن لنكك ٣٢٤
للمأموني ٣٢٤
لابن العميد ٣٢٤
لأبي الفتح بن العميد ٣٢٥
لابن عباد ٣٢٥
للناشىء ٣٢٥
لأبي الفتح البستي ٣٢٦
للميكالي ٣٢٦

لشمس المعالي ٣٢٦
للجرجاني ٣٢٧
للخوارزمي ٣٢٧
من تبطره النعمة لم يؤسف على زوالها عنه ٣٢٧
بين أبي العيناء وابن فرخان شاه ٣٢٧
بين ابن الرومي وأبي الصقر ٣٢٨
مدحة لابن الرومي في أبي الصقر ٣٢٩
لابن الرومي ٣٣٥
ترجمة أبي العيناء وطُرف من أخباره ٣٣٦
نسب أبي العيناء ٣٣٦
بين المتوكل وأبي العيناء ٣٣٦
المتوكل أول من أظهر الانهماك على شهوته ٣٣٨
منزلة أبي العيناء في الكتابة ٣٣٨
من أبي العيناء لعبيد اللّه بن سليمان ٣٣٩
قطعة من خطابه وجوابه ٣٣٩
من أجوبة أبي العيناء ٣٣٩
تعزية أبي العيناء لبعض الأمراء ٣٤١
سؤاله عن مالك بن طوق ٣٤١
سؤاله عن موسى بن عبد الملك ٣٤١
إبراهيم بن المدبّر ٣٤٣
للبحتري في ابن المدبر ٣٤٤
حديث صاحب الزنج ودعواه وبطلانها ٣٤٤
عود إلى مُلح أبي العيناء ٣٤٥